المسيحيون الأوائل
و
الإمبراطورية الرومانية

خفايا القرون

إ. س. سفينسيسكايا

المسيحيون الأوائل و الإمبراطورية الرومانية

خفايا القرون

ترجمة

د. حسان مخائيل اسحق



منشورات دار علاء الدين

- المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية

خفايا القرون

- تأليف: إ. س. سفينسيسكايا.
- ترجمة: د. حسان مخائيل اسحق.
- الطبعة الثانية ٢٠٠٧.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- هيئة التحرير في دار علاء الدين:

- الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيليلينكو.
- التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير.
- المتابعة الفنية والإخراج: أسامة راشد رحمة.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

مقدمة

لقد كتب عن المسيحية الأولى كثير من الدراسات العلمية والمبسطة. ومع ذلك فإن هذا الموضوع لم يستنفد بعد. ولذلك عقدنا العزم على أن نضع بين يدي القارئ كتاباً آخر الهدف منه إلقاء الضوء على ظهور المسيحية، ومقدمات ظهورها، وعلى حياة طوائف المسيحيين الأوائل وتنظيمهم وبنائه في فلسطين وعلى أراضي الإمبراطورية الرومانية كلها. كما يتطرّق الكتاب إضافة إلى ذلك، إلى العلاقة بين المسيحيين والوثنيين، وبين المسيحيين والدولة، بدءاً من زمن ظهور أولى مجموعات اتباع المسيح في فلسطين، حتى لحظة الاعتراف بالديانة الجديدة ديانة رسمية عند أواسط القرن ٤م. ولم تسع المؤلفة إلى معالجة مسائل التعاليم المسيحية، فهي لم تقترب على وجه الخصوص من مسائل اللاهوت المسيحي، وتعاليم آباء الكنيسة، لأن مثل هذه المسائل تحتاج أبحاثاً مستقلة قائمة بذاتها. فالكتاب مكرس أساساً للمعتقدات والتصورات الشعبية التي غالباً ما انعكست في الكتب المنحولة، أي الكتب التي لا تعترف الكنيسة بها كتباً مقدسة. ولكن غني عن البيان أن المؤلفة لامست عدداً من مسائل صيرورة العقيدة المسيحية والنظام الأخلاقي المسيحي، اللذين اعتمدهما المسيحيون العاديون الذين ينتمون إلى فئات المجتمع الدنيا، وأحياناً ما أدخلوا عليهما التبدلات التي تتوافق ونمط حياتهم. ولكي ندخل حياتهم هذه في السياق التاريخي، عمدنا في كتابنا هذا إلى وصف الحياة الاجتماعية - السياسية، والمناخ الروحي في الإمبراطورية الرومانية إبان القرون ١-٣م، وعرضنا على وجه الخصوص الأوضاع في فلسطين زمن دعوة يسوع المسيح لتعاليمه. وساقت المؤلفة في الملحق ترجمتها الخاصة لعدد من الأسفار المنحولة التي ورد ذكرها في نص الكتاب.

الفصل الأول

الإمبراطورية الرومانية
وسكانها عند بداية التاريخ الميلادي

لكي نتمكن من رسم صورة في ذهننا عن الوضع الذي ولدت فيه المسيحية وترعرعت وانتشرت، ينبغي علينا أن نتعرف أولاً إلى زمن الحدث التاريخي ومكانه، وإلى المناخ الروحي والوسط الاجتماعي الذي عاش المسيحيون الأوائل فيهما، كما إلى سيكولوجيا أولئك الناس الذين بشروا بالتعاليم الجديدة، وأولئك الذين اعتنقوها أو رفضوها وناهضوها.

ففي الزمن الذي نتحدث عنه، أي منذ ألفي عام، كانت الدولة الرومانية تضم تحت سلطانها إقليم البحر المتوسط كله؛ ففي أوروبا الغربية امتدت حدودها على طول نهري الراين والدانوب، كما كانت الأفواج العسكرية الرومانية تعسكر في بريطانيا. وقد أطلق الرومان على أملاكهم الواقعة خارج إيطاليا اسم: مقاطعات، وكانت هذه تدار من قبل ولاة رومان، وفيها كانت تتوضع حاميات رومانية، وكان سكان الولايات يؤدون الضرائب لخزينة الدولة الرومانية. لقد كان المواطنون الرومان يشترون الأراضي الزراعية في الولايات، ويسكنون مدنها، وكان لهم تأثير كبير على مجمل نواحي حياتها الداخلية. أما الولاة وجباة الضرائب فقد كانوا ينهبون السكان ويعتصرون أرزاقهم حتى آخر قطرة (لقد أعلن الرومان أن «المقاطعة هي ملك للشعب الروماني).

لقد كانت المقاطعات تعيش مستوى اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً متبايناً، وكان سكانها يعبدون آلهة شتى، ويتحدثون لغات مختلفة. فأكثر سكان المقاطعات الشرقية كان يتحدث اللغة الإغريقية، وكان سكان مصر الأصليون قد حافظوا أيضاً على لغتهم المصرية القديمة (التي تطورت شيئاً فشيئاً وتحولت إلى اللغة القبطية)، أما في سوريا فكانت الآرامية هي اللغة السائدة.

ومن الواضح أن إدارة هذه الدولة المترامية الأطراف، كانت مسألة صعبة: حتى النصف الثاني من القرن ١ق.م. كانت السلطة الفعلية في الجمهورية الرومانية تتركز في أيدي مجموعة صغيرة من الأرستقراطيا الرومانية، التي كانت تنتخب من بين صفوفها شخصيات إدارية (غالباً عن طريق الرشوة)، كانوا يعودون بعد انتهاء فترة خدمتهم أعضاء في السينات، وهو أهم جهاز إداري في الدولة الرومانية لقد كان السينات هو الذي يعين الولاة على الولايات، وهو نفسه الذي كان يبت في شكاوى المقاطعات ضد تعسف الولاة وسوء استغلالهم للسلطات المعطاة لهم. وكان الولاة يمثلون مصالح فئة قليلة جداً من سكان الدولة الرومانية المترامية الأطراف. ومن حيث الجوهر كانت هذه الفئة عبارة عن طغمة يجري الصراع على السلطة والنفوذ في داخلها. ولكن الشعوب المقهورة كانت تسعى للتخلص من سلطة الرومان. فعندما عزم ميتريدات السادس ملك مملكة البونتس الصغيرة التابعة لروما، على بدء الحرب ضد السيطرة الرومانية في العام ٨٨ق.م، سانده أكثر سكان المستعمرات الرومانية في آسيا الصغرى، وفي يوم واحد أباد هؤلاء ٨٠ ألف روماني كانوا يقيمون في آسيا الصغرى. وسرعان ما انضم إلى ميتريدات كثير من مدن اليونان أيضاً. وفي سبعينيات القرن الأول قبل الميلاد، اشتعلت في شبه جزيرة إيبيريا انتفاضة عارمة ضد الاستعمار الروماني للبلاد. وكان إخماد تلك الانتفاضات يكلف الرومان ثمناً باهظاً جداً، ضف إلى هذا أن صراعاً ضارياً كان يجري داخل فئة المواطنين الرومان نفسها فقد أفضت حركة الاستعمار الرومانية الكبرى ونهب الولايات إلى إثراء الطغمة السياسية والعسكرية الرومانية، وتدفق أعداد كبيرة جداً من العبيد، وترافق هذا كله بإفلاس طبقة الفلاحين لأن شبابها كانوا يتغيبون طويلاً عن أراضيهم الزراعية بسبب مشاركتهم في الحملات العسكرية المتواصلة التي كانت تقودها روما، وأن عمل العبيد استخدم استخداماً واسعاً في ميدان العمل الزراعي. وكتب المؤرخ أبيان يقول: كان مالكو الأرض الأغنياء يشترون قطع الأرض الصغيرة التي تجاور أملاكهم الزراعية الواسعة، من مالكيها الفقراء، لكنهم كانوا في أحيان كثيرة ينتزعون مثل هذه الأراضي من أصحابها الفقراء عنوة.. وفي غضون ذلك كانوا يستخدمون اليد العاملة العبودية في عملية الإنتاج (أبيان. الحروب الأهلية). أما الفلاحون الذين خسروا أراضيهم، فقد وجدوا أنفسهم مرغمين على النزوح إلى روما والعيش فيها على حساب مردود مختلف الأعمال الطارئة، مؤلفين هناك كتلة اللومبين بروليتاريا (= الحثالة البروليتارية - م)، التي كان أفرادها على استعداد لخدمة أي كان. ومن جهة أخرى أفضى تراكم أعداد مهولة من العبيد، واستغلالهم بأبشع الطرق الممكنة، إلى اشتعال انتفاضات عبودية كبرى كان

أعظمها انتفاضة سبارتاكوس في الأعوام ٧٤-٧١ق.م، وعملياً منذ ثلاثينيات القرن ٢ق.م حتى ثلاثينات القرن ١م لم تتوقف حركة الصراع في الجمهورية الرومانية: انتفاضات، قلاقل، عراك في ساحة روما، وشراء الأصوات الانتخابية علانية. فحسب شهادات المؤرخين القدماء أن المرشحين لعضوية السينات كانوا يضعون مناصديهم في الساحات مباشرة ويوزعون الأموال على كل من يوافق على انتخابهم. وفي أثناء العملية الانتخابية كان يصل الأمر حتى العراك المباشر والصدامات الدموية بين أنصار مختلف المرشحين، وهو ما كان يؤدي في بعض الأحيان إلى توقف العملية الانتخابية. وفي تلك الفوضى السياسية الشاملة التي عرفها القرن ١ق.م، اشتعلت معارك حربية حقيقية بين القادة العسكريين الساعين إلى اغتصاب السلطة في روما وفرض سلطتهم الشخصية على المجتمع. وقد عرفت هذه الحقبة في الدراسات التاريخية بحقبة الحروب الأهلية.

في النصف الثاني من القرن ١م، تضعضعت سلطة طغمة السينات، وسقط معها في الوقت نفسه نظام الحكم الجمهوري. ففي العام ٤٨ق.م وقعت قرب مدينة فارسال في شبه جزيرة البلقان المعركة الحاسمة بين قوات قيصر وقوات بومبيوس. وكان هذان حليفين سياسيين في زمن ما، ثم تحولا كما يحصل غالباً في التاريخ إلى خصمين لدودين. وفي الموقعة المذكورة كان النصر حليف قيصر الذي غدا بعدئذٍ الحاكم الأوحد لروما لعدة سنوات. ومع أنه أبقى على أجهزة الحكم الجمهوري كلها، إلا أنه كان يتحكم عملياً بعملها كلها، إذ منح لقب الدكتاتور. لكن حكم قيصر لم يستمر طويلاً: في العام ٤٤ق.م نظمت مجموعة من أعضاء السينات مؤامرة ضده، وكان هؤلاء يسعون إلى إعادة إحياء النظام الجمهوري. لقد حمل هؤلاء سيوفهم وخناجرهم تحت أرديتهم وجاؤوا إلى اجتماع السينات الذي كان يجب أن يحضره قيصر، وقد جاء هذا إلى الاجتماع من غير حراسة ومن غير سلاح (كان قيصر يردد دوماً أنه من الأفضل أن يموت المرء مرة واحدة، من أن يقضي عمره خائفاً من الموت). لقد قتل قيصر.

وكان المتآمرون يأملون في أن يساندهم المواطنون الرومان، لكن الشعب الذي اجتمع إثر إعلان خبر مقتل قيصر، قابل الخطبة التي ألقاها بروتوس أحد قادة المتآمرين، بصمت كصمت المقابر.. فلم تكن الارستقراطيا الرومانية الساعية إلى استعادة سيطرتها على نظام الحكم تتوفر على قاعدة شعبية تدعمها. فعلى الرغم من أن التقاليد الجمهورية كانت راسخة في المجتمع الروماني، إلا أن طغمة السينات كانت قد فقدت مكانتها لدى المواطن الروماني بصفتها تجسيداً «للعمل الاجتماعي» res publica.

وفي أثناء مراسم دفن قيصر انقض الجمهور الغاضب يدمر منازل المتآمرين، فأسرع هؤلاء إلى مغادرة روما على أمل تجنيد قوات من بين صفوف الحاميات العسكرية في الولايات. وهكذا بدأ من جديد الصراع على السلطة ومعه الصراع على النفوذ في الجيش. ففي روما كان رفيقا قيصر مارك أنطونيو وغايوس يوليوس قيصر أوكتافيان الطامحين الرئيسين إلى السلطة. وكان أوكتافيان هذا ابن أخت قيصر، وابنه بالتبني. لقد كان أنصار الجمهورية يمثلون خطراً فعلياً، إذ كانوا يعملون معاً غير عابئين بالمعايير القانونية أو بأجهزة الإدارة التقليدية. فأعدوا لوائح بأسماء من عدوهم خارج القانون، أي أنهم حكموا على هؤلاء بالموت من غير أن يقدموا للقضاء، وأعملوا السيف بقسوة مفرطة في رقاب خصومهم، وأعدائهم الشخصيين أولئك الذين ظنوا مجرد ظن بأنهم أناس يثير سلوكهم الريبة، واستولوا على أملاك من أعدم منهم أو نفي. وكان الكاتب والمؤرخ الإغريقي بلوتارخ الذي ترك لنا وصفاً لسير حياة الشخصيات الشهيرة في اليونان وروما، قد كتب بفزع عن الأهوال التي ارتكبها حكام روما الحقيقيون هؤلاء: «لقد استولى عليهم الحقد، وأخذ الشر منهم كل مأخذ، فنسوا كل ما هو إنساني، أو بمعنى أصح أظهروا أن الإنسان أكثر ضراوة من أي وحش كان إذا ما اجتمع فيه الهوس والسلطة» (بلوتارخ، سيسيرون، (XLVI). فقد طالب مارك أنطونيو الذي كان وقتئذٍ متحالفاً مع عدوه المقبل أوكتافيان بأن يسلم إليه الخطيب المجيد شيشرون لكي ينتقم منه، وكان هذا قد وقف في حينه ضد أنطونيو. وقد حاول شيشرون أن يهرب. وأعطى بلوتارخ وصفاً دراميا لمحاولة الهرب تلك: في حالة من التشتت والضياع حاول شيشرون أن يختبئ في مزرعته. ولكن العبيد الذين كانوا هناك أرغموه على أن يستلقي في النقالة وحملوه إلى البحر. ولما اقتحم الفصيل المسلح المنزل بحثاً عن الخطيب، لم يفه أي من الذين كانوا هناك بأي كلمة. بيد أن أحدهم انبرى وأرشد الجنود إلى طريق فرار شيشرون: لقد كان هذا معتوق أخيه، وكان شيشرون قد أخذه فيما مضى تحت حمايته، وأعطاه حسب بلوتارخ «تربية نبيلة» وثقافة عالية (كان هذا المعتوق يلقب بالفقيه). وهكذا غدا العبد المعتوق وليس العبد المضطهد، سبباً لهلاك من أحسن إليه، وهو لم يفعل ذلك طلباً لأي منفعة شخصية. فخدم شيشرون الذين رووا هذه القصة لم يتحدثوا عن أي رشوة يمكن أن يكون المعتوق قد تلقاها.

ولم تكن قصة هلاك شيشرون المأساوية، سوى حدث من أحداث تلك الهستيريا من القتل والوشايات، التي طبعت الصراع السياسي في تلك الحقبة بطابعها. ولم يكن سلوك قتلة قيصر بأفضل من سلوك أنصاره. فلكي يتمكن هؤلاء من الإنفاق على الجيش الذي

جنده في المقاطعات الشرقية، جمعوا من السكان ضرائب عشر سنوات آتية. وعوقبت المدن التي امتنعت عن تأدية ما فرض عليها، أو التي لم تكن قادرة على تنفيذ ما طلب منها، عقاباً صارماً وصل إلى درجة تدميرها تدميراً تاماً. وفي واحدة من تلك المدن نهب الجمهوريون المعابد، وقتلوا الوجهاء المحليين؛ وفي واحدة أخرى لقي فيها هؤلاء مقاومة شعبية، انهالت الملاحقات والتنكيل على الفئات السكانية الدنيا. لقد كانت أعمال الجمهوريين الوحشية هذه سلوكاً نمطياً اتسمت به سيكولوجيا القادة العسكريين الرومان الذين لم يروا في المقاطعات سوى موضوع للنهب، وهذا ما أجج عداء السكان المحليين لهم، الأمر الذي ترتبت عنه نتائج وخيمة. فقد لحقت بالجمهوريين هزيمة تاريخية مدمرة أمام قوات أوكتافيان وأنطونيو، في معركة مدينة فيليبا البلقانية التي وقعت في العام ٤٢ق.م، فانتحر قائدهم بروتوس.

لقد هزم الجمهوريون، وبدأ عهد الصراع على السلطة بين حلفاء الأمس. وبات الوضع أشد تعقيداً لا سيما بعد أن تزوج أنطونيو كليوباترا ملكة مصر، التي كانت وقتئذٍ تابعة من الوجهة العملية لروما، فقد عمد أنطونيو إلى مساندة ملوك الشرق، وكان قد أقام في الإسكندرية عاصمة مصر، وعاش حياة بذخ وترف، حتى وصل الأمر به إلى حد إعلان نفسه: «إلهاً متجلياً» - ديونيسيوس الجديد. ووزع أنطونيو الأراضي في المقاطعات الرومانية الشرقية على أصدقائه، وعلى كليوباترا وأولادها، كما لو كانت تلك العقارات من أملاكه الشخصية. فاستغل أوكتافيان سلوك أنطونيو هذا، وأرغم السينات على أن يعلن الحرب على كليوباترا التي زعم أنها المسؤولة عن تصرفات أنطونيو الحمقاء كلها. وفي العام ٣١ق.م لحقت الهزيمة بأسطول أنطونيو في المعركة البحرية التي دارت عند سواحل شبه جزيرة البلقان (في حمى المعركة سحبت كليوباترا السفن المصرية وأبحرت عائدة إلى مصر). فانتحر أنطونيو وكذا فعلت كليوباترا. فباتت مصر جزءاً لا يتجزأ من الدولة الرومانية، وغدا أوكتافيان الحاكم الأوحد للدولة. ومنحه السينات لقب أغسطس (= المقدس، السامي، وهي صفة الآلهة عند الرومان). ومنح بعد ذلك اسم: أب الوطن، ولقب «إمبراطور» الذي كان يمنح في العصر الجمهوري للقادة العسكريين الذين يحققون انتصارات باهرة. وحصل أوكتافيان إضافة إلى ذلك على حق التحدث في السينات أولاً (أي أنه بات برينسيبس السينات). ومن تلك الحقبة بالذات يبدأ العصر الإمبراطوري في روما.



تمثال أغسطس في صورة قائد عسكري.

فيلاً ليفيسوس عند بريما بورتا (روما)

لقد نجح أغسطس في أن يفرض سلطته الشخصية على الإمبراطورية كلها بفضل اعتماده على الجيش بالدرجة الأولى: أعطي صلاحيات القائد الأعلى مدى الحياة، وخضعت لسلطته الحاميات التي كانت تعسكر في المقاطعات، ووضعت تحت إدارته المباشرة أهم الولايات الحدودية. وتوضعت في روما وإيطاليا الأفواج العسكرية التي كانت تتمتع بأهم الامتيازات: الحرس البريتورياني الذي كان يؤدي دور الحرس الشخصي للإمبراطور. كما كان أغسطس يرسل إلى المقاطعات موظفين ذوي كفاءات خاصة: بروكوراتورات، مهمتهم تنفيذ تعليماته بدقة وصرامة. وكان هؤلاء ينتمون إلى الفئات غير العليا من المجتمع، ولذلك كانوا تابعين له شخصياً تبعية كاملة، فرخاؤهم وامتيازاتهم كلها كانت مرتبطة برضاه عن عملهم وسلوكهم.

ولكن أغسطس الذي كان يملك سلطات لا حدود لها، حافظ، ولو شكلياً، على التقاليد الجمهورية: لقد أخذ لنفسه عدداً من الصلاحيات الجمهورية، فانتخب قنصلاً وأعيد انتخابه مرات عدة، كما كانت له صلاحيات المنبر الشعبي. وكان لهذا المنصب الأخير أهمية خاصة، فقد كان للمنبر الشعبي دور كبير في الحياة السياسية للجمهورية الرومانية؛ وإذ شغل أغسطس هذا المنصب بات كأنه حامي مصالح الفئات الشعبية الرومانية وممثلها، والخليفة الذي يواصل التقاليد الشعبية القديمة. وفي الوقت نفسه منحت سلطة المنبر الشعبي أغسطس حق «الفيتو» على قرارات أي شخصية من شخصيات الدولة الرومانية. ومن حيث الشكل لم تكن هذه الصلاحيات تتعارض مع التقاليد الجمهورية، إلا أنها منحت أغسطس سمعة ونفوذاً عريضين. وكان هو نفسه لايفتأ يؤكد على انتمائه لهذه التقاليد. ففي عداد أعماله التي سجلها في النقش الذي نقش باسمه (عثر عليه تحت أنقاض مدينة أنقيرا القديمة - أنقرا المعاصرة)، يزعم أغسطس أنه تفوق على جميعهم بسمعته ونفوذه، أما سلطته فلم تكن حسب زعمه أكبر من سلطة زملائه الآخرين، وغني عن البيان أن زعمه الأخير هذا لا يتوافق وواقع الأشياء، بيد أن أغسطس لم يكن قادراً، كما لم يكن راغباً في إلغاء المؤسسات الجمهورية. ففي وعي الرومان، وكذلك الشعوب الخاضعة لهم، كان تخيل روما مستحيلاً من غير سينات، وقناصل، وأناس يفخرون بانتمائهم إلى المواطنية الرومانية؛ هكذا كانت روما التي فرضت شروطها على المهزومين أمامها، وتلك كانت روما التي خافوها واحترموها. ولذلك كان من شأن إلغاء المؤسسات الجمهورية شكلياً، أن يساوي بين الرومان واتباعهم من سوريين، ومصريين، و.. (وعلى وجه

العموم هذا ما حصل في نهاية الأمر، ولكن الإمبراطورية احتاجت إلى أكثر من مائتي عام حتى بلغت ذلك).

لقد أفضى قيام حكم الفرد الأوحد إلى نهاية الحروب الدموية. وأظهر أغسطس اهتماماً وعناية مميزين بالمقاطعات: زار آسيا الصغرى إثر الهزيمة التي ألحقها بأسطول أنطونيو مباشرة، ومر بأفَسُس؛ ووجه رسالة إلى مدينة ميلاس، التي لحق بها أذى كبير نتيجة للحرب الفاشلة التي خاضها أنطونيو ضد البارثيين، ومدح إخلاصها للشعب الروماني، ولم يعاقب مدن آسيا الصغرى التي كانت مرغمة على تقديم العون لأنطونيو، واكتفى بعزل بعض الشخصيات الحاكمة. وأعاد أغسطس إلى دول المدن الإغريقية قسماً من التماثيل التي كان أنطونيو قد نقلها منها إلى روما. وبموجب أمر خاص صادر باسم أغسطس وقائد قواته أغريبا، عثر عليه في مدينة كوما، أعيدت للمدينة أو المعابد كل ملكية عامة أو معبدية كانت قد صارت في وقت ما إلى أشخاص. لقد خلقت سياسة أغسطس آمالاً بعيش سلمي طويل الأمد، وارتبطت تلك الآمال بشخصية الحاكم نفسه. ففي حقبة الحروب الأهلية التي انهارت فيها الثوابت المعتادة كلها، تميزت السيكولوجيا الاجتماعية للجماهير الشعبية بتقديس القادة الأفذاذ الذين ظنوا أن بمقدورهم إنقاذ سكان الإمبراطورية من الضياع. فلم يروا في انتصار قيصر مجرد نتيجة لاحتضان الآلهة له ووقوفهم إلى جانبه، إنما أيضاً نتيجة للسمات الخارقة التي يملكها البطل نفسه. وهكذا بدأ تأليه أغسطس في أوساط سكان المقاطعات الشرقية حيث كانت تقاليد تأليه الملوك تضرب جذورها في عمق التاريخ.

وكانت أولى نقوش الابتهاج قد ضربت على شرف أغسطس في مدن آسيا الصغرى التي عانت معاناة رهيبة أثناء الحروب الأهلية. ولذلك كانت إقامة السلام بالنسبة إليها تمثل الخير الأعظم الذي ظن سكانها وأملوا في أنه لن ينهار في المستقبل. وعليه ليس مستغرباً أن رأوا في أغسطس، وهو نفسه أراد أن يرى هكذا في أعين سكان المقاطعات الشرقية، ليس مجرد محسن لهذه المدينة أو تلك أو لهذا الشعب أو ذاك، وليس مجرد حاكم من الحكام وحسب، إنما إلهاً وهب كاريزما شخصية مميزة تمكنه من التأثير على كل ما يجري على وجه الأرض. ففي عدد من النصوص التي وصلت إلينا من الزمن الذي تلا انتصاره على أنطونيو، يظهر أغسطس آمر الأرض والبحار، ومنقذ الكون (نقش مدينة ميرا)، ومخلص

الجنس البشري (نقش مدينة غاليكا رناس)، أما مولده فقد أعلن مبدأ البشارات الطيبة (في النص الإغريقي للأناجيل: في مدينتي أفاميا، وبريينا؛ وفي نقش هذه الأخيرة يدعى أغسطس إلهاً بالمعنى المباشر للكلمة). وفي نقوش أخرى تجري مشابهة أعمال أغسطس بأعمال الآلهة (نقش من جزيرة كوسوس)، بل تفوق عليهم؛ أما آيات التبجيل التي قدمت له فإنها لا تقارن بأعماله الجليلة (ميتيلينا). والحقيقة أن أغسطس يدغم في غضون ذلك، أحياناً بزيوس باتريوس، وزيوس الأبوي، أو يدعى: أب الوطن، كما في غاليكارناس. فقد ورد في النقش الذي وصل إلينا من هذه المدينة، أن الطبيعة الأزلية الحية دوماً، وهبت الناس الخير الأعظم: قيصر أغسطس، «أبا وطنه الإلهة روما»، زيوس باتريوس، وفي الوقت عينه «مخلص الجنس البشري كله». ويبدو هنا كأن الألقاب الرومانية الرسمية لأبي الوطن، الذي أُدغم بالإله الهلليني زيوس الأب، قد اجتمعت مع مصطلحات التصور الكوني، «البشري العام» عن الإله - المخلص. وتلقانا على مسكوكات أغسطس التي سكّت في الشرق عبارات مثل: «الإله المتجلي»، و «مؤسس الكون»[1]. ومن المشكوك فيها كثيراً أن يكون الاعتقاد بأغسطس إلهاً كونياً قد فرض على الناس من فوق، بل كان تعبيراً عن الإيمان بالقائد الكارزمي الذي أنقذ الإمبراطورية فعلاً من كوابيس الحروب الأهلية وويلاتها، ونتيجة لإدراك الهللينيين أنفسهم جزءاً من المعشر البشري كله. ولا يظهر مثل هذا الفهم فقط في التركيبية الدينية والإيمان بإله واحد يظهر بأسماء شتى، وهو ما كان شائعاً في العصر الهلنستي، بل ظهر أيضاً في كوسموبوليتية (= عالمية، خارج أطر البلد الواحد. - م) الفلاسفة، وإبداعات الشعراء. فميليغاروس الذي عاش في القرن ١ق.م، وكان من أبناء مدينة هدارة الفلسطينية، يقول في النص المدون على قبريته: إن للناس جميعهم وطناً واحداً، هو الكون (= الكوسموس)، وكلهم مولود من الكاوس[2] (= الخراب الكوني - م). لقد جسدت عبادة أغسطس وحدة الكون والمعمورة. ففي برغاموس ونيقوميديا شيدت أولى معابد عبادة الإمبراطور، وهو على قيد الحياة بعد (بموافقته دون ريب). وعليه يمكننا أن نؤكد أنه مع عبادة أغسطس أخذت تتشكل عبادة الأباطرة في المدن الإغريقية التي في آسيا الصغرى، ثم انتقلت منها إلى المقاطعات الشرقية الأخرى. وفيما بعد كف أباطرة القرن ١م عن زيارة آسيا الصغرى، الأمر الذي ساهم في إنشاء صورة متخيلة لهذا الإله الجبار.

١- ابرامزون م غ النقود كوسيلة دعاية للسياسة الرسمية في الإمبراطورية الرومانية. موسكو، ١٩٩٥، ص ٤٧٩.

٢- المرثاة الإغريقية القديمة. الحوليات الفلسطينية، ١٩٩٦. ص ٢٩٩.

وبالتزامن مع هذه المبادرات «من تحت»، سارت عملية تأليه فريدة للإمبراطور «من فوق»، ولم يكن قبول هذه الأخيرة مفروضاً على سكان المقاطعات وحدهم، أنما على الرومان كذلك: لقد اقترح أوكتافيان أن يعلن الراحل يوليوس قيصر إلهاً، وحدد السينات آيات التبجيل التي كان ينبغي تقديمها «اليوليوس الإلهي». فأقيم عمود على شرفه كان يجب أن تقدم عند قدميه الذبائح، وتنذر النذور، وتقسم الأيمان باسم قيصر. وبما أن أغسطس ألّه قيصر يوماً، فقد غدا هو نفسه ابناً للإله. فالنصوص الرسمية اللاتينية دعت أغسطس في حياته «ابن يوليوس الإلهي». ولكن بما أن الرومان لم يعتادوا على تأليه البشر الأحياء، فقد قدمت الدعاية الإمبراطورية عبادة أغسطس لهم في صيغة تبجيل جينيوس قيصر (=الروح الصنو)، مستفيدة في ذلك من التصورات الرومانية القديمة عن وجود جينيوس حارس[1] شخصي لدى كل إنسان. ولكن كان ينبغي أن يكون جينيوس أغسطس متميزاً عن الحراس العاديين: لقد كان هذا إلهاً متفرداً، قوة عليا تلهم تصرفاته وقراراته كلها. فأقاموا له المعابد، وظهرت فئة خاصة من الكهنة الذين يقومون على خدمة طقوس هذه العبادة. بيد أن عبادة الجينيوس غلب عليها الطابع المصطنع. فأخذت تنتشر في الأوساط الشعبية خرافات عن تحدّر أغسطس نفسه من إله مباشرة. فرووا على سبيل المثال أن والدته أتّيا قد جاءت قبل مولده لتأدية الخدمة الإلهية في معبد أبوللون وباتت ليلتها هناك. وعلى حين غرة زحف إليها ليلاً ثعبان، كان أبوللون قد اتخذ هيأته. وبعد انقضاء تسعة أشهر وضعت أتّيا الإمبراطور المقبل، وهكذا يمكن أن يدعى هذا ابن أبوللون. ويكمن التصنع في هذه الخرافة في كونها أنشئت وفق نمط الخرافة التي أنشئت عن الإسكندر المقدوني الذي كان قد أعلن نفسه إلهاً وابناً للإله زيوس: حسب هذه الخرافة أن إلهاً (زيوس) قد جاء والدته في هيئة ثعبان مهول أيضاً. لقد شرعوا يقيمون تماثيل لأغسطس في شتى أرجاء الإمبراطورية. ومع الإبقاء على قسمات وجهه عينها تقريباً، إلا أنهم جعلوا من الصورة العامة له صورة مثالية: في واقع الأمر كان شكله مرضياً سقيماً نحيلاً، لكنهم صوروه قوياً، بديعاً، فارعاً. وثمة في أرميتاج بطرسبورغ تمثال يمثل أغسطس في صورة إله الرومان الأكبر جوبتر. وبعد وفاة أغسطس أعلنه خلفاؤه إلهاً، فقد دعته مسكوكات خليفته المباشر طيباريوس، إلهاً.

١ـ دعيت مثل هذه الأرواح الحارسة للنساء: جونوات



تمثال أغسطس في صورة الإله جوبتر
من مدينة كوفا (سانت بطرسبورغ)

وبعد وفاة أغسطس تجلى واضحاً تناقض النظام الذي أنشأه. فلم تكن لخلفائه (أباطرة سلالة يوليوس - كلاوديوس) الشهرة التي كانت له، بصفته مؤسس الإمبراطورية الذي وضع حداً للحروب الأهلية. ولكن العمل بمبدأ السلطة الملكية لم يكن ممكناً بعد، وبقيت الدولة تعد دولة جمهورية كما كانت عليه الحال سابقاً، بيد أن هذه التسمية كانت قد أخذت تتحول شيئاً فشيئاً إلى وهم. لقد كان الأباطرة يعتلون العرش نتيجة للدسائس، والاغتيالات السياسية، وأحياناً بسبب تقاطع جملة من الظروف الطارئة. ولكي يتخذ أغسطس لنفسه خليفة، تبنى ابنه بالتبني طيباريوس (لم يخل الأمر من دسائس والدة هذا الأخير ليبيا، زوجة أغسطس)، ومنحه صلاحيات المنبر الشعبي وحق قيادة القوات المسلحة. وبعد وفاة أغسطس أقر السينات هذه الصلاحيات. ولكن طيباريوس أحس بضعف شرعية سلطته، لا سيما أن شهرته لم تكن بالقدر الكافي. فقد خشي الرجل من إمكانية ظهور شخصية لها نفوذها في الجيش، فتستولي على السلطة وترغم السينات عنه على منحها الصلاحيات نفسها. لقد بدأ في زمن طيباريوس والأباطرة الثلاثة الذين خلفوه (كاليغولا، وكلاوديوس، ونيرون)، ملاحقات من وصفوا بالخصوم، سواء كان هؤلاء خصوماً حقيقيين أو مزعومين. وقد اتخذت تلك الحملة طابعاً جماعياً، ودعي العصر الذي حكم فيه هؤلاء بعصر الإرهاب، كما دعي نظامهم بالنظام الإرهابي. فأعيد إحياء القانون الروماني القديم، قانون معاقبة «من يهين عظمة الشعب الروماني»، الذي كانت أحكامه لا تطال في زمن ما، إلا أولئك المجرمين العتاة الذين يحرضون على العصيان الاجتماعي، أو القادة العسكريين الذين يشنون

الإمبراطور طيباريوس



الإمبراطور نيرون

حروباً خاصة بهم، ولكن القانون لم يكن يعمل به عملياً أثناء صراع القادة العسكريين بعضهم ضد بعض. أما الآن فقد امتد مفهوم «إهانة العظمة» ليشمل شخص الإمبراطور، ويقول المؤرخ تاسيت، إنهم لم يطبقوه على الأقوال فقط، بل على الأفعال كذلك[1]. لقد قضى طيباريوس على عائلة ابن أخته (أو أخيه؟ - م). ولم يبق منها على قيد الحياة سوى الطفل الصغير كاليغولا. كما أعدم طيباريوس شاعراً قال قصيدة هجا فيها الإمبراطور. ونفى والي مقاطعة آسيا إلى جزيرة صحراوية متهماً إياه بالسخرية من عبادة أغسطس والهزء بطيباريوس نفسه. وانتحر في عهد طيباريوس أيضاً، المؤرخ كريموسيوس كورد قبل أن يتسنى للإمبراطور تنفيذ حكم الإعدام به. وكانت تهمة كورد أنه أثنى على السمات الشخصية لكل من بروتوس وكاسيوس، اللذين نظما مؤامرة مقتل قيصر ونفذاها. فأمر السينات بحرق مؤلفات كورد، بيد أنها أخفيت عن أعين السلطة ثم أعيد نشرها فيما بعد، كما يقول تاسيت ساخراً من الذين بين أيديهم السلطة الآن، ويظنون أنهم يستطيعون سلب الأجيال الذاكرة.

لقد سعى طيباريوس بكل الوسائل المتاحة إلى ترسيخ أركان سلطته، لكنه راح في آخر المطاف ضحية مؤامرة حاكها ضده أولئك الذين خافوا على حياتهم من بطشه. ولم يكن مصير خلفائه الثلاثة بأفضل من مصيره، إذ لم يمت أي منهم حتف أنفه. لقد ترافقت عهودهم بالوشايات، والإعدامات، والمؤامرات، والدسائس، واستهتار الحرس الإمبراطوري وفساده. ولكن الشخصية الأكثر شذوذاً وسفاهة بين أباطرة سلالة يوليوس - كلاوديوس، هو نيرون، آخر أباطرة السلالة. فقد أمر بقتل أمه التي حاولت أن توجه سلوكه وتسيطر على تصرفاته. وتنفيذاً لأمره انتحر الفيلسوف سينيكا، الذي كان معلم نيرون ومربيه. وها كم وصف تاسيت للمزاج العام في روما بعد موجة الإعدامات الدورية: «.. من أُعدم له ابن أو أخ، ومن أُعدم له قريب أو صديق، رفع الشكر للآلهة، وزين منزله بأغصان الغار، وسجد عند قدمي نيرون نفسه وأمطر يديه بالقبلات» (الحوليات). لقد عد نيرون نفسه ممثلاً عظيماً، فأدى أدواراً مسرحية وغنائية. وكان ينبغي على كل المقربين، وعلى الناس العاديين أن يشاهدوا عروضه العامة. وعين أناساً مهمتهم متابعة ردود أفعال هؤلاء ورصدها بدقة لتسجيل أي تعبير عن عدم الرضى أو التأفف. وحسب وشايات هؤلاء كانت تنفذ أحكام الإعدام فوراً «بصغار الناس» كما يعبر تاسيت، أما النبلاء فقد كان ينتظرهم انتقام نيرون الرهيب (الحوليات). وارتبطت باسم هذا الإمبراطور، الملاحقات الأولى ضد المسيحيين، وهو ما سوف نتحدث عنه لاحقاً.

١- كورنيلوس تاسيت: من أعظم المؤرخين الرومان، عاش في النصف الثاني من القرن الميلادي الأول وأوائل القرن الميلادي الثاني ويعد مؤلفه «الحوليات» المصدر الرئيس لتاريخ حكم سلالة يوليوس كلاوديوس. انظر كتابه غ. س. كورنيلوس تاسيت، زمنه، حياته، كتبه. موسكو، ١٩٨١.

في زمن أباطرة سلالة يوليوس - كلاوديوس نشأ رويداً رويداً الجهاز الإداري البيروقراطي، فأنشئت إدارات خاصة تابعة مباشرة للإمبراطور: إدارة صياغة الإمبراطور. وكان البروكوراتور يحقق السلطة القضائية في المقاطعة. وكان يعمل في هذه الإدارات، وفي أجهزة الإدارات في المقاطعات، معتوقو الإمبراطور الذين غالباً ما كانوا يديرون هذه الإدارات دون رقيب، ولكنهم لم يعملوا على تحقيق مصلحة الدولة، ولم يهتموا إلا لتحقيق مصالحهم الشخصية. وحصل كثير من رجال ارستقراطيا المقاطعات، لا سيما المقاطعات الغربية، على المواطنية الرومانية هبة من الإمبراطور، وصاروا أعضاء في السينات (كان الأباطرة يرون في سكان المقاطعات الشرقية الأكثر ثقافة وتمسكاً بالتقاليد الثقافية القديمة، أناساً أقل خضوعاً). والحقيقة أن رجال القبائل الغالية، والإيبيرية وسواها من قبائل أوروبا الغربية، الذين تواصلوا مع نمط عيش الأرستقراطيا الرومانية الباذخ الذي كان غريباً عنهم، قد خدموا الإمبراطور بإخلاص. ولكن الجيش بقي خلال القرن الميلادي الأول كله، يمثل العامل الحاسم في تقرير المسائل الرئيسة المتعلقة بالسلطة. فبعد هلاك نيرون اشتعل من جديد الصراع على السلطة بين قادة الجيش. وكان النصر في ذلك الصراع حليف فلافيوس فسباسيان قائد جيش الشرق: لقد بات من الممكن الآن أن يغدو المرء إمبراطوراً وهو خارج روما.

ولم يكن القرن الميلادي الأول لحظة انعطاف بالنسبة للمؤسسات السياسية الرومانية فقط، بل حدثت تبدلات أيضاً في الحياة اليومية للفئات الاجتماعية الدنيا في إيطاليا والمقاطعات، وفي سيكولوجيتها الاجتماعية المرتبطة بالتحول التدرّجي لسكان الإمبراطورية كلهم إلى رعايا للإمبراطور، وبالتناقضات بين الأشكال الخارجية للنظام الاجتماعي وبين محتواه الحقيقي، كما ارتبطت كذلك بالبحث عن آلهة شفيعة جديدة.

وعرفت القرون الميلادية الأولى تغيرات جوهرية في الوضع الاقتصادي لإيطاليا على وجه العموم. فقد بات استخدام عمل العبيد في القطاع الزراعي عديم الجدوى، بخاصة في الملكيات الكبيرة: لم يكن للعبيد أي مصلحة في ثمار عملهم، لذلك كان ينبغي تحقيق مراقبة دائمة عليهم، الأمر الذي قضى بوجوب إعالة جهاز كبير من المراقبين. وفضلاً عن هذا تقلص تدفق سيل العبيد من بلدان الشرق، لأن التوسعات الاستعمارية الرومانية الرئيسة كانت قد انتهت. ولم يكن عبيد البلدان البربرية الشمالية مؤهلين للتعامل مع كروم العنب والزيتون. فقد روى لنا الكاتب الزراعي كولوميلا (القرن ١م)، أن الملكيات التي يغيب أصحابها عنها لوقت طويل، يرعى العبيد القطعان فيها رعياً سيئاً، ويحرثون الأرض بطريقة

رعناء، ويهدرون كميات كبيرة من البذار عبثاً، وليس المراقب والعبيد هنا سوى نصابين غشاشين. ولذلك بات أكثر مالكي الأرض يقسمون ملكياتهم إلى قطع صغيرة يؤجرونها استثماراً للفلاحين الفقراء (وقد دعي هؤلاء: كولونات)، ثم صاروا يخصصون قطعاً منها للعبيد أيضاً. وقد أدت هذه العملية من حيث جوهر الأمر إلى تقارب عملي في الحالة الاجتماعية بين الكولونات والعبيد الذين «زرعوا» في الأرض.

أما حياة حرفيي المدن، فقد كانت سمتها الرئيسة هي اتحاداتهم وفق المهنة: مختلف ضروب الجمعيات والأخويات. وقلما كانت أخوياتهم تهتم بالمسائل المهنية؛ لقد كان أعضاء الأخويات يقدمون مساهمات لتلبية الاحتياجات المشتركة: إقامة الاحتفالات والولائم، وإقامة طقوس دفن رفاقهم على نفقة الجماعة. ومن الواضح أن الأخويات وفرت «لصغار الناس» إمكانية للاجتماع معاً في عالم الإمبراطورية الشاسع المبعثر، والإحساس بالصلة الحية بعضهم مع بعض أكثر من إحساسهم بالانتماء إلى المواطنية الرومانية التي أخذت أهميتها بالنسبة إليهم تتراجع أكثر فأكثر. إذن ما كان يحدث وقتئذٍ، هو عملية انفصال عن الأيديولوجيا الرسمية للإمبراطورية. وكان الشاعر الروماني الشهير فرجيليوس قد أنشأ ملحمته المعروف: «الإينيادا»، التي تغنى فيها بشجاعة روما (وأغسطس نفسه). وتبدأ الملحمة بالكلمات: «أُغنّي الرجل والمعركة». وكتب أحد حرفيي مدينة بومبيوس على سور منزله محاكياً كلمات فرجيليوس: «أغني اللبادين والبومة» (والبومة، هي طير الإلهة مينيرفا شفيعة العمل الحرفي).

ولكن مهما بلغت أهمية الأخويات الحرفية في عالم الناس العاديين، فإنها كانت عاجزة عن حماية الحرفيين، خاصة حرفيي إيطاليا من الإفلاس. فقد كانت تتدفق على إيطاليا كميات مهولة من المصنوعات الحرفية الشرقية التي كان الحرفيون الإيطاليون عاجزين عن منافستها. وتقاطر الفلاحون والحرفيون الإيطاليون المفلسون إلى روما للإقامة فيها وانتظار الهبات المالية، والعروض الحافلة، لا سيما عروض المصارعة، ومطاردة الكواسر. وكان أغسطس قد حاول تقليص توزيع القمح على فقراء مواطني روما، لكن خوفه من انفجار سخط هؤلاء أرغمه على إعادة العمل بالنظام الذي كان معمولاً به من قبل. لقد كان المفلسون يمارسون أي عمل كان، بما في ذلك المصارعة. ولدى احترافهم المصارعة كان الأحرار يقسمون اليمين بألاّ يقاوموا «تقييدهم، وضربهم بالسياط، أو قتلهم». وهذا يعني عملياً أنه لم يعد ثمة فرق بينهم وبين العبيد. وبهدف جذب مزيد من حشود المتفرجين، عمد الرومان إلى إخراج المصارعات إلى الحلبة[1].

١- لقد كتب المؤرخ سفيتونيوس عن المصارعات، في سيرة الإمبراطور دوميسيان (٤٠٢).

وعند الفقراء كان وعي وحدة المواطنة يتراجع أمام كرههم للأغنياء، لا سيما أولئك الذين كانوا يعرضون ثرواتهم مباهاة. وفي العصر الجمهوري كان من المعيب للمرء أن يفاخر بثرائه، ويرتدي ثياباً فاخرة، وهذا ما خلق إحساسا، ولو وهمياً، بالمساواة بين المواطنين. أما الآن فقد بات الأثرياء الجدد، بخاصة المعتوقين، الذين لا تربطهم بالتقاليد الرومانية رابطة، يفاخرون بالنجاحات التي حققوها، فأقاموا الولائم، وارتدوا الثياب الفاخرة، وتزينوا بالمجوهرات.

وكانت الكراهية تجاه الأغنياء، ومحو الحدود العملية التي تفصل بين الأحرار والعبيد، يمكن أن يثيرا في حالات معينة تعاطف فقراء المدينة الأحرار مع العبيد. وتحظى بدلالة خاصة في هذا السياق، الأحداث التي ارتبطت بمقتل حاكم مدينة روما بيدانيوس سيكوندر، الذي قتله أحد عبيده، فحسب القانون الروماني كان يجب أن يقتل كل العبيد الذين يعيشون في منزل الحاكم (وكان عددهم كبيراً). ولكن عندما ساقوا هؤلاء، شباباً، ورجالاً، وشيوخاً، وأطفالاً إلى ساحة الإعدام، اندلعت القلاقل وأعمال الشغب في الشوارع، وطالبت الحشود بإطلاق الذين لا ذنب لهم في عملية القتل المذكورة وحمل الشعب الحجارة والمشاعل. فانزل نيرون عندئذٍ الوحدات العسكرية إلى الشارع، ونجحت هذه في تفريق الحشود الغاضبة، وأقامت حاجزاً من المسلحين على امتداد الطريق المؤدية إلى مكان الإعدام (تاسيت، الحوليات). لكن محاولة إنقاذ العبيد الذين لا ذنب لهم، لم تكن سوى مظهر سخط عفوي تجاه حالة ظلم واضحة، ولم تكن تمثل بأي حال من الأحوال تغييراً جذرياً في موقف الرومان الأحرار تجاه العبودية، إلا أنها أظهرت في الآن عينه أن التعاطف مع العبيد لم يكن شعوراً غريباً عن بليبس (= الفئات الشعبية الفقيرة - م) روما.

ولم تكن الحياة في المقاطعات أقل تعقيداً وتناقضاً مما كانت عليه الحال في إيطاليا. ونحن تهمنا المقاطعات الشرقية أولاً، فهنا انتشرت المسيحية أولاً. ففي القرن ١م. بدأت رويداً رويداً عملية إعادة بناء المدن المنهوبة شبه المهدمة، وتنظيم جباية الضرائب، وشرعت تنتظم العلاقات الاقتصادية داخل الإمبراطورية. ولكن الاستقرار المؤقت الذي عرفته الحالة السياسية، وتعزيز السلطة المركزية كانا يعيشان ضياع الآمال باستعادة الاستقلال، وإلغاء الإدارة الذاتية المحلية. ومع أن المدن الإغريقية واصلت إصدار مختلف ضروب التعليمات، إلا أنها كقاعدة كانت تعليمات شبه فارغة من أي مضمون، على الرغم من كثرة كلماتها (لا سيما إذا كان الأمر يتعلق بمديح الإمبراطور أو حاشيته). أما عندما كان الأمر يتعلق بشأن ما من شؤون السكان المحليين، فقد ينبغي التفاهم عليه أولاً مع الإدارة الرومانية، وأحياناً مع الإمبراطور نفسه، إذا ما رأى ممثله ألا يحسم الأمر بنفسه (وانسحب هذا حتى على بناء حمامات عامة جديدة، أو نقل معبد من مكان لآخر).

وابتداءً من القرن ١م. غدا كبار موظفي المدن ينتخبون من ممثلي دائرة صغيرة من العائلات التي كانت تتفق فيما بينها على ترشيح شخص واحد لهذا المنصب أو ذاك. وأدى المواطنون الرومان دوراً مهماً في المدن التي كانوا يعيشون فيها، وكذلك الأرستقراطيا المحلية التي كان الإمبراطور يمنحها المواطنة الرومانية. فخمد النشاط السياسي الذي كان يوماً ما من سمات المواطن الإغريقي. لقد كانت الفئات المثقفة من سكان المقاطعات الشرقية، لا سيما تلك التي تتحدث الإغريقية (في اليونان، وآسيا الصغرى، وسورية، وإلى حد ما مصر)، تحلم بالحفاظ على الثقافة الهلنستية، وإحياء بعض العادات والاحتفالات القديمة. فأقيمت في المقاطعات مباريات في الموسيقا والشعر، وألقى الخطباء خطباً كرسوها للتاريخ المحلي، والأدب، والفلسفة وسوى ذلك من العلوم الإغريقية. ولكن ممثلي الارستقراطيا المحلية سعوا في غضون ذلك ارتقاء سلم الخدمة في الإدارة الإمبراطورية. فكتب بلوتارخ في: «إرشادات في شؤون الدولة» يقول: «إن الحالة الراهنة لمدننا.. لا تسمح بالتميز في العمليات العسكرية، والإطاحة بالأنظمة التيرانية، أو في محادثات عن اتحاد... فلم يبق سوى القضاء الشعبي، والسفارات إلى الإمبراطور، وهذه يلزمها أشخاص يجمعون بين الحمية، والعزم، والعقل»[1].

ولكن الثقافة الإغريقية لم تكن بالنسبة لواقع المقاطعات الشرقية سوى واجهة، بالمعنى المباشر وغير المباشر فالمباني التي تثير أشكالها المعمارية القديمة الدهشة والإعجاب شيدت باستخدام التقنيات الرومانية، ومواد البناء الرومانية. وتواصل عمل المسارح، بل بناؤها أيضاً في المدن، إلا أن مؤلفات الكلاسيكيين الإغريق الشهيرة نادراً ما كانت تعرض هناك. فقد كان المشاهدون يفضلون مشاهدة بعض مشاهد التراجيديات فقط، تلك التي تترافق بالإيمائيات، والموسيقى، والرقص. فالإيمائيات كانت منتشرة انتشاراً عريضاً جداً في المقاطعات الشرقية كما في روما نفسها. وكان يؤدي أدوارها الرجال والنساء. كما كان الخطباء يتحدثون في المسارح كذلك.

ولكن الجمهرة الأساسية من سكان المقاطعات الشرقية، كانت تشدّها عروض أخرى، عروض تخلق انفعالات حادة وتمنح إمكانية تفريغ شحنة عاطفية، وتجلي القوة وحسن الحيلة، أي عروض تقدم إمكانية للتواصل مع ما كان هؤلاء الناس محرومين منه في حياتهم اليومية الرتيبة. وباتت عروض المصارعة ومطاردة الكواسر، هي العروض المطلوبة لا في إيطاليا وحدها أنما في شتى أرجاء الإمبراطورية. وقد شاركت النساء في مثل هذه العروض أيضاً[2].

١- بلوتارخ. المؤلفات. موسكو، ١٩٨٣، ص ٥٩٤.

٢- وصلت إلينا من آسيا الصغرى صفيحة حجرية تحمل رسمين لامرأتين ترتدي كل منهما درع المصارعة وثمة نقش يقول: «أمادزون وأخيليا طليقتان»: من الواضح أنهما كانتا أمتين استحقتا حريتهما مكافأة على بسالتهما على الحلبة.

ولكن لم تكن العروض وحدها هي التي تشد الناس. فثمة كثرة كثيرة منهم كانت تنتقل للعيش في المدينة بحثاً عن مستقبل أفضل. وكان يمكن أن تشاهد على طرقات الإمبراطورية أسراب من مختلف ضروب الرّاجلة أو ركاب المركبات وهي تسير باتجاهات مختلفة: حرفيون، وتجار، وممثلون جوالون، ومتنبئون، وفلاسفة فقراء متشردون، عداك عن مراسلي الإمبراطور والقوات العسكرية المتنقلة. وتقدم لنا نقوش شواهد القبور والنقوش المكرسة، كثرة من الأمثلة عن الانتقال إلى أماكن أخرى بهدف العيش الدائم للإقامة المؤقتة، إذ كان المهاجرون من هؤلاء عائلات كاملة. وقد أفضت تلك الهجرات إلى تقارب بين الجماعات المهاجرة التي تنتمي إلى مختلف القوميات والطبقات الاجتماعية. ومما مهد سبيل محو الفوارق الفئوية أيضاً، أنه كان بمقدور العبيد أن يتلقوا قطعة أرض ويؤسسوا عائلات لا في إيطاليا وحدها فقط، أنما في المقاطعات أيضاً. لقد تشكلت في المدن اتحادات خاصة، ورابطات دينية لم يقتصر الانتماء إليها على الأحرار، بل ضمت بين صفوفها عبيداً أيضاً. وحظي العبيد الميزون ومثلهم العبيد المعتوقون الذين استخدموا في جهاز إدارة الأملاك، والشركات التجارية، بمكانة مميزة في المجتمع الروماني. أما معتوقو الإمبراطور الذين كانوا يعيشون في المقاطعات، فقد كانوا بمثابة «عيون السلطة المركزية وآذانها». لقد كان هؤلاء يثيرون الرعب في قلوب الفقراء، وحتى الأغنياء من سكان المقاطعات، ولذلك استحقوا الكراهية والمقت هناك. وفي القرن ١م، عندما ساد الإرهاب الإمبراطوري، نجح كثير من هؤلاء في جمع ثروات كبيرة من وراء الوشايات فقط. وكان تاسيت قد وصف في بداية «تاريخه» الحالة التي سادت روما إبان موجة الإرهاب التي أطلقها أباطرة سلالة يوليوس - كلاوديوس، ثم في عهد الإمبراطور دومسيان، وأبرز على وجه الخصوص الدور الذي أداه الوشاة فيها: «بعضهم يحصل على مناصب كهنوتية وقنصلية مكافأة له على مآثره، وبعضهم الآخر يدير مقاطعات الإمبراطور، وشؤون القصر. وإذ يبث هؤلاء الرعب والكراهية، فإنهم يحكمون وفق أهوائهم. فيحرضون العبيد بالرشاوى على العصيان ضد سادتهم، والمعتوقين ضد مواليهم». لقد كانت الوشاية منتشرة إلى درجة دفعت بوالي مصر إلى أن يصدر في القرن ١م مرسوماً مسهباً نظم بموجبه جباية الضرائب، وتأدية الأتاوات، وحدد أهلية مختلف الموظفين المحليين. وقد أشار المرسوم ببند خاص من بنوده إلى الوشاة. فعلى حد قول الوالي، إنه «بما أن المدينة (أي الإسكندرية) خلت من السكان تقريباً، بسبب كثرة الوشاة، وكل بيت فيها يعيش حالة رعب، فإنني آمر أمراً صارماً بأنه يجب على المدعي من جهاز موظفي الخزنة الملكية إذا ما قدم شكوى استناداً إلى بلاغ جاءه من شخص ثالث، أن يقدم من بلّغه لكي يتحمل هذا الأخير نصيبه من المخاطرة (أي مسؤوليته عن البلاغ الكاذب - إ. س.)»[1]. وكان

١ـ عن هذا المرسوم انظر: كوفلمان أ. ب بلاغة البيان في ظل الأهرامات موسكو ١٩٨٨، ص ١٧-١٨.

ثمة بين الوشاة عدد غير قليل من المعتوقين، وكنا قد تعرفنا إلى أحدهم في قصة مقتل شيشرون: لقد كان يحرك هؤلاء الحسد تجاه الشخصيات المتفوقة، وإحساسهم بعجزهم الذاتي عن الانضمام إلى العلية المثقفة (إذا كانوا يطمحون إلى الانتماء إليها)، وافتقارهم إلى التقاليد الأخلاقية، وأحياناً المنفعة الصرف وتحمل دلالة خاصة في هذا السياق قصة المعتوق الإمبراطوري فلافيوس أرخيبوس الذي كان يعمل في القرن ١م في مدينة بروسا في آسيا الصغرى، والذي كان يحظى برضى الإمبراطور دوميسيان[1] فسكان بروسا الذين أثارت الذعر في أوساطهم أفعال هذا الواشي، أقاموا على شرفه نصب التكريم بصفته محسناً للمدينة. ولكن هذا بدا غير كاف بالنسبة لارخيبوس. فدفعه طمعه إلى الثروة لتزوير وصية، فاتهم بالغش والتزييف وحكم عليه والي المقاطعة بالأشغال الشاقة في المناجم. ولكنه قدم استرحاماً للإمبراطور ونجا به من العقاب الذي لم يلغ مع ذلك، ثم أعلن نفسه فيلسوفاً وواصل عمله كواش.

وأفضى انحلال علاقات المواطنة، والهجرة، وتداعي الأخلاق إلى تأثيرات واضحة على العلاقات العائلية. فشاهدات القبور في آسيا الصغرى كان يقيمها أصحابها إبان القرون الميلادية الأولى[2]، لأنفسهم وهم على قيد الحياة بعد، وكانت هذه تحمل نقشاً يقول: إن فلاناً «أقامه على حياته له ولزوجته (أو لزوجها)». وكانت شاهدات القبور التي أقامها أصحابها لأنفسهم كثيرة لا سيما في المدن، ويبدو أن هؤلاء فعلوا ذلك لأنه لم يكن لهم أبناء أو أقارب ليؤدوا طقوس دفنهم. وقد جاء في كثير من النقوش التي أقيمت بعد الحصول على أرض القبر وبنائه، أنه سيدفن فيه علاوة على صاحبه، «أولئك الذين يرغب هو» في أن يدفنوا في مدفنه: من الواضح أنه نوى أن يذكر أسماء هؤلاء في وصيته، ولكنه وقت بناء المدفن لم يكن يتوفر على أي من هؤلاء بعد، أو أن صلاته بهم قد فقدت؛ وكان ثمة من يوصي بألا يدفن أحد في المدفن سواه هو صاحب المدفن. ويقول نقش شاهدة قبر جاء من مدينة أفروديسي، إنه يجب ألا يدفن في المدفن أحد سوى مالك المدفن: لا الورثة، ولا الأحفاد. ربما يكون الرجل قد قطع صلاته بأفراد عائلته. ويشير مالك مدفن آخر في المدينة عينها، إلى أفراد العائلة الذين يسمح بدفنهم في مدفنه. ومنهم زوجته، لكنه يشترط عليها مقابل ذلك أن تبقى زوجته وتنجب له ابناً. ويجعلنا مثل هذا الشرط أن نعتقد بأن فسخ عقد الزواج كان أمراً يسيراً، وأنه كان ثمة عائلات كثيرة محرومة من الذرية، الأمر الذي دعا الزوج إلى أن يشترط على زوجته وجوب إنجاب ولد.

١- لقد وردت قصة فلافيوس ارخيبوس في مراسلات بليني الأصغر مع الإمبراطور ترايان، عندما كان بليني ممثله في أوائل القرن ٢ م في إحدى مقاطعات آسيا الصغرى (رسائل بليني الأصغر). موسكو ١٩٨٣ (١٠، ٥٨).

٢- لقد جرت دراسة هذه النصوص في كتاب: سفينتسيكايا إ. س شاهدات القبو الفريجية، معالجة كمبيوترية (علم العاديات) على تخوم القرون: ابحاث مختلفة ومنهجية جديدة. موسكو، ٢٠٠٠، ص ٨١.



المرافقة إلى العالم الآخر. بيلينا مع صورة رجل متوفى. الإله أوزيريس (من اليسار). والإله أنوبيس (من اليمين).
(هولست. قماش ملون. أواسط القرن ٢م. متحف الدولة. رقم ٥٧٤٩)

كما جاءتنا من مصر رسائل تتحدث عن وهن العلاقات والوشائج العائلية: في إحدى تلك الرسائل يتهم المدعو ميلاس أشقاء صديقه المتوفى بتركهم «جثمان أخيهم مهملاً» (أي لم يقيموا له مراسم الدفن اللائقة. بردية لندن (pap. Lond 1, 77).

ولكن هذه التطورات الاجتماعية والسيكولوجية، وعلى الرغم من كونها تجلت في أفعال أفراد ومجموعات معينة، إلا أنها لم تكن قد تحولت بعد إلى عنصر مدرك من عناصر الوعي الاجتماعي. فأولئك الذين كانوا يحطمون منازل الأغنياء أثناء أعمال الشغب الناجمة عن المجاعات، أي عندما كان الوضع يتبدل، هم أنفسهم الذين كانوا يترددون إلى مشاهدة العروض التي كان يقيمها هؤلاء الأثرياء على نفقتهم الخاصة؛ وأولئك الذين كانوا يتعاطفون مع عبيد بعينهم، هم أنفسهم الذين كانوا يحتشدون على مداخل المدرجات ليشاهدوا كيف يقتل العبيد بعضهم بعضاً على الحلبات لكي يرفهوا عنهم. أما محو الفوارق القبلية فإنه لم يمنح التجليات المفاجئة لحالات العداء للغريب في المدن، إذ كان يتهم الغرباء بأنهم سبب الرزايا كلها (الصدامات التي وقعت في عهد الإمبراطور كلاوديوس في المدينة، وسوف يعاني المسيحيون الأوائل من كره مماثل إبان انتشار تعاليمهم الدينية الجديدة في الإمبراطورية).

لقد أفضى التناقض بين الحياة الخاصة والحياة الاجتماعية، وفقدان الثقة بالمستقبل، وأزمة المثل الأخلاقية، والإحساس باستحالة حدوث أي تغيرات جذرية في الدولة التي أعلنت الدعاية ظهور كثيرة من مختلف الاتحادات التي ارتبط عدد كبير منها ببحث الجماهير الشعبية في المقاطعات الشرقية وروما عن ديانات جديدة. لقد بحث الناس عن التعويض الروحي في ذلك العالم الناقص، ولم ينتظروا مساعدة السلطات، بل عون القوى الإلهية الجبارة. وهو ما سوف نتحدث عنه في الفصل التالي.

الفصل الثاني

المعتقدات الدينية
لدى سكّان المقاطعات الشرقية

في المجتمعات الشرقية القديمة التي كانت حركة التغيير تسير فيها ببطء، والمكانة الاجتماعية للفرد تتحدد فيها منذ اليوم الذي يولد فيه، وتتحكم بأفعاله علاوة على إرادته الشخصية، منظومة من العلاقات الراسخة مع الآخرين: الأقارب، وأفراد المشاعة، وموظفو الدولة، في تلك المجتمعات كان الفرد يعوّل إلى درجة كبيرة على قناعته بأن النظام الكوني معطى هكذا، على ما هو عليه، كما كان يتكل على التقاليد، وعبادة الآلهة الذين ورثهم عن الأسلاف، ونادراً جداً ما كان ينتهك حرمة أي من تلك الموروثات. ففي نص سومري يوصي الأب ابنه قائلاً: «يا بنيّ! عد إلى الأجيال السابقة، واطلب النصيحة»؛ وتقول الحكاية السحرية المصرية: «الشقيقان»، كما لو أنها تتحدث عن شيء ما مسلم به. إن الأخ الأصغر كان يتصرف كل يوم «وفق النظام المعمول به»[1]. وينسحب هذا بدرجة أقل على دول المدن الإغريقية، ولكن حتى القرن ٤ق.م، كان دور التقاليد هنا، بخاصة ما يتعلق منها بالشعائر قوياً جداً. ولكن بعد فتوحات الإسكندر المقدوني، ثم خضوع إقليم شرقي المتوسط كله لروما وتحوله إلى جزء من دولتها، انتهكت العلاقات التقليدية، وبات مصير الناس يرتبط بمدى تعسف القادة العسكريين والحكام، وعندئذٍ لم تعد الصلوات تجدي نفعاً، ولا تقديم القرابين للآلهة القديمة يضمن العون، فبات الفرد يحس أنه معزول، حائر ضائع في ذلك العالم المعادي له. وغدا التساؤل عن مغزى الحياة، ووسائل الخلاص من الآلام وتفاديها، هو المسألة الأساس بالنسبة إليه.

١- لقد وصف فينبرغ أ. ب في كتابه: «الإنسان في ثقافة الشرق الدنى القديم، موسكو، ١٩٨٦، وصف سمات رؤى سكان الإقليم المعني قديماً.

وقد حاول كثير من المدارس الفلسفية لذلك الزمن، العثور على إجابات عن هذه الأسئلة. فزعم بعض الفلاسفة أن الإنسان حرّ في اختيار طريق حياته، وأن مثل هذا الاختيار يجب أن يكون في العزوف عن أي نشاط فعال (مدرسة ابيقور)، بينما أعلن آخرون (ومنهم الرواقيون) أن كل ما هو في حياة الإنسان، مقرر له مسبقاً، ولذلك فإن السعي للحصول على الخيرات المادية، هو سعي عبثي، وأنه ينبغي على الإنسان أن يلتزم بنزاهة بما يتوافق وإرادة العقل، وما يراه عادلاً وأخلاقياً (ومن هؤلاء، الفيلسوف الروماني الشهير سينيكا). كما كان ثمة فلاسفة متشردون: الفلاسفة الكينيكيون الذين دعوا إلى نمط عيش يحاكي نمط العيش الطبيعي، وقالوا بالامتناع عن امتلاك أي ملكية كانت، ودعوا إلى الوقوف ضد الدولة. بيد أن الفلسفة كانت ميدان العلية المثقفة من المجتمع، وكانت عاجزة عن رسم طريق للخلاص تفهمه الجماهير ويمنحها الأمل.

والسمة المميزة التي طبعت المعتقدات الدينية في مدن اليونان. وآسيا الصغرى، وإيطاليا إبان القرون الميلادية الأولى، هي تداعي هيبة الآلهة الإغريقية والرومانية. ومع أن القرابين كانت لا تزال تقدّم على شرف زيوس، وأثينا، وابوللون الإغريقيين، وجوبتر، وجونو وسواهما من آلهة الرومان، كما تواصلت إقامة الاحتفالات الشعبية المكرسة لهم، إلا أن سكان الإمبراطورية العاديين نظروا إلى هذه الشكليات نظرتهم إلى التقليد وحسب. فوفق الأساطير الإغريقية القديمة التي اقتبسها الرومان أيضاً، أن هؤلاء الآلهة كانوا آلهة منتقمين، قساة، يغارون من كل نجاح يحققه البشر؛ فأثينا مسخت النساجة الماهرة أراخني عنكبوتاً، لأنها تجرأت على أن تباريها في فن النسيج، وقتل أبوللون وارطميس أبناء نيوبي، الأبرياء، لأن والدتهم فاخرت بكثرة عدد أفراد ذريتها. ولكن هذه الأساطير البدائية التي كانت تكرس الخوف من الآلهة في زمن ما، لم تعد تتوافق مع الشعور الديني لسكان الإمبراطورية؛ إذ بعد فتوحات الإسكندر المقدوني، وبخاصة إبان القرون الميلادية الأولى انتشرت الثقافة الإغريقية فازدانت المباني في آسيا الصغرى، وسوريا، وفينيقيا، ومصر بلوحات من الموزاييك، والمشاهد المنقوشة على الجدران والواجهات، تمثل آلهة الإغريق ومشاهد من أساطيرهم، إلا أن سكان هذه البلدان كانوا يرفعون صلواتهم وتوسلاتهم إلى آلهة آخرين، كما تبين نصوص شاهدات المقابر هنا. فلم يكن للميثولوجيا الإغريقية أي مغزى ديني بالنسبة لسكان البلدان المذكورة. وقد قال المؤرخ الإنكليزي ف. تارن في هذا الصدد: «هناك أسباب كثيرة عملت على تقرير مصير آلهة الأوليمب. لقد كان هؤلاء آلهة نظام دولة المدينة، فسقطوا بسقوطه: قتلهم الفلاسفة في أعين المثقفين، وقتلتهم الفردية في أعين الناس العاديين»[1]. وعليه سعى الناس إلى

١- تارن. ف. الحضارة الهلنستية. موسكو، ١٩٤٩. ص ٣٠٦.

العثور على شفعاء - حماة إلهيين آخرين. ولكن بات يجب ألا يكون هؤلاء آلهة حماة للقبيلة، أو البلاد، إنما آلهة لعالم البشر كله، ولكل إنسان بمفرده في الآن عينه. وكان هذا المطلب قد تجلى بوضوح وجلاء في النصوص الأولى التي نقشت لتمجيد أغسطس: أعلن مولد الإمبراطور إيذاناً ببداية البشارة؛ وجسدت عبادة قيصر لدى أتباعه الأوائل وحدة الكون والمعمورة.

وبعد وفاة قيصر حاول خلفاؤه إدخال عبادة السينات إلى جانب عبادة الإمبراطور: لقد نوه تاسيت (الحوليات)، إلى خطاب طيباريوس الذي أجاز لمدن مقاطعة آسيا تأسيس عبادته مع عبادة السينات، مع أن هذه المدن لم تطلب إذناً إلا لتأسيس عبادته وعبادة والدته ليبيا التي ألهت أيضاً. بيد أن تلك المحاولات لم تحقق أي نجاح ملحوظ، لأن سكان المقاطعات كانوا لا يريدون أن يسجدوا لأجهزة روما الإدارية بأي حال من الأحوال[1].

وعلى امتداد القرن الميلادي الأول كله، كان بعض أصداء العالمية لا يزال يتردد في عبادة الإمبراطور. فقد وصل إلينا مرسوم أصدرته مدينة صغيرة من مدن آسيا الصغرى، هي مدينة إيديما، وكرسته للإمبراطور فلافيوس فسباسيان: «إلى الحاكم المطلق الصلاحيات قيصر فسباسيان أغسطس المحسن، ومنقذ البشر كلهم، تعبيراً عن الشكر والعرفان. اتحاد الإيديميين، عنه إلى الآلهة». ويمكن أن يمثل هذا النقش أهمية من جوانب كثيرة. فإيديما عبارة عن بلدة ليست كبيرة، ولا يميزها شيء عن باقي مثيلاتها من البلدات، بل حتى أنها لا تحظى بأهلية دولة - المدينة، إنها مجرد «اتحاد الإيديميين». وليست صيغة التشريف هذه صيغة أصلاً لا سابقة لها: علاوة على صفته محسناً، يدعى فسباسيان فيها منقذ البشر كلهم من غير أي إشارة إلى ما أحسن به إلى إيديما نفسها. وما يثير الاهتمام في النص، هو عدم توافق حالة هذه البلدة النائية المعزولة، مع نظرتها إلى الحاكم بصفته شخصية عالمية، وأقرب الصيغ المشابهة لهذه الصيغة زمنياً (بعد النقوش التي كرست لأغسطس)، جاءت في مرسوم والي مصر طيباريوس يوليوس الكسندر، الذي أصدره على شرف الإمبراطور غالبا، الذي لم يحكم إلا فترة قصيرة. فقد وصف الإمبراطور في المرسوم المعني بأنه «الساطع لنا (أي للمصريين) من أجل خلاص الجنس البشري كله». وأنا لن أبحث في الدوافع التي حدت بالوالي إلى أن يستخدم مثل هذا الوصف الذي وصف به غالبا، فهو أحد أنصاره، وأنني أزعم أن استخدام الصفة المعنية كان مرتبطاً إلى حد ما بالحياة الروحية التي كانت تعيشها مصر وقتئذ. أما أن يكون

١- لقد أكد لـ لاتي أن عبادة سينات روما كانت طارئة ومؤقتة.

الإيديميون على اطلاع على هذا المرسوم، فإنه أمر ضعيف الاحتمال جداً، وربما كان هؤلاء على اطلاع على النقوش التي نقشت على شرف أغسطس، لأنها بقيت تزيّن ساحات المدن. فما الذي دفع إيديما إذن لكي تصدر مثل هذا المرسوم المختصر والجليل في الآن عينه، ولماذا استخدمت فيه تعابير «كونية، عالمية» لتكريم أول أباطرة سلالة فلافيوس؟ وربما لم يكن فسباسيان قد سمع «باتحاد الإيديميين» هذا أصلاً، كما يشير إيجاز المرسوم إلى أن هذا الإمبراطور لم يقدم أي ميزات تذكر لسكان إيديما (حتى في المرسوم الاحتفالي المصري، فإن غالبا قد سطع للمصريين تحديداً). وعليه قد يكون الدافع الكامن من وراء إصدار هذا المرسوم التشريفي متمثلاً في انتهاء الصراع على السلطة، الذي اشتعل بين القادة العسكريين إثر مصرع نيرون؛ فقد كلفت المعارك الحربية سكان المقاطعات الشرقية جبايات مالية مرهقة. وكان تاسيت قد قال في مؤلفه: «التاريخ»، إن أسوأ ما وقع للمقاطعات كان بسبب هذه الجبايات تحديداً: لدى جبايته للأموال لم يأخذ موسيان، القائد العسكري لدى فسباسيان، لم يأخذ بالحسبان الإمكانات الواقعية للولايات، كما لم يقم وزناً لأي قانون كان، لقد نهبت الملكيات الغنية كلها. وليس مستبعداً أن يكون سكان إيديما بين من تأذوا. بيد أن الوضع لم يتغير كما يقول تاسيت، حتى بعد أن أقيم السلام، إذ استمرت تلك «الإجراءات التعسفية» عينها قائمة على قدم وساق. ولذلك فإن وصف فسباسيان بأنه (خلافاً لأغسطس)، «منقذ البشر كلهم»، لا يمكن أن يكون وصفاً أميناً وصادقاً، وكان يمكن انتقاء تعابير أخرى لترجمة الشعور بالولاء للإمبراطور، لا سيما أن فسباسيان لم يعد نفسه إلهاً. ولكن من غير المحتمل أن يكون الإيديميون قد توفروا على تصور محدد عن شخصية الإمبراطور. ويبدو على أغلب الظن أن التعابير المستخدمة في النقش ترتبط بكون إيديما الصغيرة قد بدأت تشعر بانتمائها إلى الإمبراطورية الكبرى، وتسعى لأن تدرك ذاتها كجزء من البشرية ككل، وهو ما عبرت عنه في النقش المذكور. ونحن يمكننا أن نفترض أن البلدات غير الكبيرة بالذات، وهي البلدات التي لم تكن تملك تقاليد نظام دولة المدينة العريق، كانت معنية إلى حد كبير بالعلاقة مع العالم «الأكبر»، فمثل هذه العلاقة كانت تعوضها عن ضعف أهميتها فيه. وفي الحالة التي نحن بصددها، غدا فسباسيان رمزاً لعملية الانخراط هذه، أما تكريمه فقد بدا كأنه يمنح الإيديميين فرصة لكي يتحدثوا باسم الجنس البشري كله ويحسوا بأنفسهم جزءاً مستقلاً من الإمبراطورية الكبيرة، وله مكانته على قدم المساواة مع أجزائها الأخرى.

وتمثل أهمية خاصة في النقش، كلمة إفخارستيا (الشكر والعرفان). فهذا المصطلح نادراً ما يستخدم في النقوش، وإذا ما استخدم فإنه يستخدم عادة في وصف الآلهة. ولم تستخدمه المراسيم الأخرى التي أصدرتها إيديما على شرف أباطرة سلالة فلافيوس. وتدل كلمة إفخارستيا على الرغبة في إضفاء احتفالية خاصة على المرسوم، وقد تكون انطوت على إشارة خفية إلى ألوهية فسباسيان الذي لم يدع إلهاً صراحة، ولكن استخدامها مثله مثل استخدام صفة «العالمية»، يشهد على أن النقش لم تفرضه جهات عليا، إنما جاء بمبادرة حرة من الإيديميين الذين ربما أملوا باستراحة من عبء الجبايات من جهة، وطمحوا إلى لفت انتباه السلطات والجيران باستخدامهم تعابير غير مألوفة بالنسبة للمراسيم الرسمية في ذلك الزمن من جهة أخرى. ولكن الذي لا شك فيه، هو أن الكلمة كانت مألوفة السماع لدى سكان آسيا الصغرى الذين كانوا يرون في تلك الحقبة مختلف ضروب الدعاة الدينيين. فلم تكن «العالمية» بمتناول المسيحية وحدها، بل كان مثل هذه الأفكار يحلّق في الهواء. لقد بدا كأن إيديما أدركت صلتها مع الناس كلهم عبر الإمبراطور مخلص البشرية، مع أن ذلك كان يعني عملياً صلتها مع رعاياه وحسب.

ويمكننا أن نلفت الانتباه كذلك إلى جانب آخر يرتبط بهذا النقش: لقد غدا مصطلح إفخارستيا وكذلك مصطلح البشارة في نقوش تكريم أغسطس، من أهم المفاهيم التي تعامل بها المسيحيون الأوائل. ويفصح استخدام سكان إيديما لهذه الكلمة عن كونها قد دخلت التصورات الدينية لدى سكان آسيا الصغرى. ولكن المسيحيين استخدموها بمعنى مغاير تماماً، إذ جعلوا من إفخارستيتهم نقيضاً لإفخارستيا الوثنيين، وهذا ما فعلوه أيضاً بكلمة البشارة (= الإنجيل عند المسيحيين. - م).

وهكذا يتبين أن نقشاً صغيراً صادراً عن بلدة صغيرة، مهما كانت أهميتها متواضعة بالنسبة لتاريخ الإمبراطورية ككل، إلا أنه يمكن أن يكشف عن السيكولوجيا الاجتماعية لقسم من سكان الإمبراطورية العظمى، الذين كانوا يجاهدون لإدراك مكانتهم وتحديد المكان الذي يشغلونه في العالم الرحب.

إبان القرن الميلادي الأول استبدل بالحماس الصادق الذي كان يكنه سكان الإمبراطورية للإمبراطور، إدخال عبادته رسمياً في الحياة اليومية لمدن المقاطعات. فصيغت للأباطرة ألقاب فخمة لا سابق بها، وباتت تتردد علانية تسميتهم آلهة (فعلى سبيل المثال لا الحصر، دعت مدينة كيزيك طيباريوس «بالأعظم بين الآلهة»، والحقيقة أن طيباريوس كان قد انزل بها قبل ذلك عقاباً صارماً لتقصيرها في إقامة طقوس عبادة أغسطس). لقد

أخذت عبادة الإمبراطور تتحول شيئاً فشيئاً إلى عبادة شكلية، مع أنها كانت إلزامية لسكان الإمبراطورية كلهم: ألزمت السلطات السكان بالسجود لتماثيل الأباطرة، وعدت أيام موالدهم أعياداً رسمية يُحتفل بها على مستوى الدولة. وحتى أثناء إقامة الاحتفالات المكرسة للآلهة المحليين كان ينبغي على المشاركين فيها أن يرفعوا رسم الإمبراطور الحاكم. ولكن السجود للإمبراطور إبان القرن الميلادي الأول اكتسب من حيث الجوهر، طابع التحقق السياسي من إخلاص الرعايا له، ولم يعكس بأي حال من الأحوال، الشعور الحقيقي لسكان الإمبراطورية. فقد وصل إلينا عدد كبير من النقوش الحجرية المكرسة لمختلف الآلهة، ولكن تقدمات الأفراد للآلهة - الأباطرة نادرة جداً. ولم يكن مثل هذه التقدمات يأتي إلا من كبار الموظفين، وكهنة عبادة الإمبراطور، والجنود القدامى، أو عندما كان الخوف يدفع الناس إلى ذكر اسم الإله الإمبراطور إلى جانب اسم الإله الذي يتوجه إليه الشخص المعني. بيد أن أكثر تقدمات الأفراد للآلهة لا يشير إلى الأباطرة حتى مجرد إشارة، وحتى الآن لم يعثر على أي نداء مكرس للإله الإمبراطور فيه توسل بتلبية هذه الرغبة أو تلك (لم يكن أي نداء محدد يوجه للإمبراطور إلا عبر الإدارات الرسمية المعروفة). وعليه يبدو واضحاً أن عبادة الإمبراطور باتت عاجزة عن تلبية الشعور الديني لدى جماهير الشعب، بخاصة أنه بعد مقتل كل إمبراطور من أباطرة القرن ١م، كانت تماثيله ترمى ولم يعد يكرم كإله. فأي انفعال ديني يمكن أن يثيره تمثال الإمبراطور دومسيان لدى سكان أفسس مثلاً، بعد أن حطم ورمي به ركاماً في مكانه الذي بقي فيه إلى أن اكتشفه آثاريو العصر الحديث؟

وفي كثير من أقاليم شرقي المتوسط أسس السكان اتحادات على شرف الآلهة الذين ظنوا بأنهم أقرب إليهم، وأنهم أكثر جبروتا، أو كانوا يتعبدونهم في المعابد المنزلية، وغالباً ما كان مثل هؤلاء الآلهة آلهة غرباء. وإذ كان واحدهم ينخرط في الجمعية الدينية، كان يظهر في الآن عينه فرديته، لأنه اختار بنفسه الإله وأقام صلته به عبر شعائر جمعيته وطقوسها، ولم يعد في الوقت نفسه يشعر بالوحدة، فهو الآن مرتبط مع الآخرين الذين يتعبدون الإله عينه. وكان كثير من تلك الاتحادات قد انتظم حول عبادة آلهة الشرق الذين يموتون ثم يبعثون: الإله المصري أوزيريس، أو الإله أتيس الذي شاعت عبادته في آسيا الصغرى. ففي زمن ما عرف كثير من الشعوب عبادة مثل هؤلاء الآلهة الذين كانوا يمثلون عندهم تعاقب فصول السنة أو موت الطبيعة ثم عودتها إلى الحياة. ولكن هؤلاء الآلهة اكتسبوا مع الزمن صورة الآلهة - المخلصين أولاً، وكان يمكن أن تحقق الإقامة على خدمتهم الاتحاد مع الإله، وخلود الروح.

فحسب الأساطير المصرية أن أوزيريس كان إله الخصب، وأول ملوك مصر الذي علم المصريين فنون العمل الزراعي. ولكن شقيقه ست، إله الريح الصحراوية المهلكة، عزم على قتله. فأهداه ناووساً كان قد صنعه له، وما أن استلقى أوزيريس فيه لكي يتحقق مما إذا كان على مقاسه، حتى أغلق أوزيريس الناووس ورماه في مياه النيل. ولكن النهر المقدس رفض أن يستقبل الناووس، الذي كانت تبحث عنه الإلهة إيزيس زوجة أوزيريس وعندما عثرت عليه نجحت في أن توقظ القوة الحية في زوجها الميت وتحمل منه بابنهما حورس. ودخل حورس في صراع ضد ست، فهزمه وأقام أوزيريس من الموت. وحسب رواية أخرى لهذه الأسطورة عينها، أن ست قطع جسد أوزيريس إلى أجزاء نثرها في مختلف أرجاء وادي النيل، لكن إيزيس عثرت عليها كلها وأعادت جمع جسد أوزيريس من جديد. بيد أن الإله الذي بعث إلى الحياة من جديد، لم يشأ أن يبقى على سطح الأرض، وصار إلى رب لمملكة الأموات التي كانت تمثل في تصورهم بلاد الوفرة الكاملة حيث سنبلة القمح أطول من قامة الإنسان. ولم يكن أوزيريس في مملكة العالم السفلي ملكاً وحسب إنما كان قاضي الأموات فيها أيضاً، ولم يكن يدخل مملكته سوى الناس الصالحين الذين لم يقترفوا في حياتهم آثاماً.

وبعد أن استولى الإسكندر المقدوني على مصر، وصار عرشها إلى سلالة البطالمة الإغريقية، هاجرت من بلاد الإغريق إلى مصر أعداد كبيرة من المهاجرين الإغريق، فاتحدت شخصية أوزيريس بشخصيات الآلهة الآخرين، مصريين وإغريق: الثور المقدس إبيس، والإغريقيين زيوس وهاديس؛ وهكذا ظهر سيرابيس. لقد كان سيرابيس رب السماء ومملكة الأموات وكان بطليموس الأول هو الذي أقام عبادة هذا الإله ليخلق تقارباً بين سكان مصر المصريين وسكانها من الإغريق. وقد شاعت عبادة سيرابيس شيوعاً كبيراً في إقليم شرقي المتوسط كله. كما شاعت في الإمبراطورية عبادة إيزيس أيضاً. فأقيمت معابدها في روما نفسها. وعمل الأباطرة على محاربة العقائد الدينية الغريبة. فقد أخبرنا تاسيت أن الإمبراطور طيباريوس (١٤-٣٧م)، نفى خارج روما اتباع «الطقوس المصرية واليهودية»، وأرسل أربعة آلاف منهم إلى جزيرة سردينيا. ومن الواضح أن مثل هؤلاء الأتباع كانوا كثيرين. بيد أن الإجراءات التي اتخذتها السلطات لم تحقق نجاحاً. فقد ظهر عابدو إيزيس في روما من جديد ونظموا مواكب جماهيرية على شرفها. كما كتب ممثلو الفئة المثقفة بدورهم عن إيزيس: لقد أكد بلوتارخ في بحثه الذي تناول فيه أوزيريس وإيزيس، أن أسطورتهما تكشف عن أعماق القوى المحركة للبناء الكوني.



عيد في معبد إيزيس. زخرفة من بومبيوس

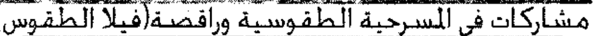
وكان ثمة معبود شرقيّ آخر، هو الإله الفريجي أتيس (فريجيا هي إقليم من أقاليم آسيا الصغرى)، الذي كانت عبادته مرتبطة بعبادة أم الآلهة: أغيديتيس أو كيبيلا. وحسب إحدى روايات الأسطورة أن خنزيراً برياً مزق أتيس، ووفق أخرى أنه في إحدى نوبات جنونه خصى نفسه فمات. ولكن الإلهة جعلت جسده فتياً أزلياً لا يفنى؛ فنبتت من دمائه الزهور. ولكن تنويعة هذه الأسطورة الأكثر شيوعاً، هي التنويعة التي تقول: إن أتيس كان خادم إلهة الخصب كيبيلا. فانتهك حياة العفة المفروضة على كهنتها وأغرم بإحدى الحوريات. فقتلت الإلهة الحورية، وفي أول نوبة وجد خصى أتيس نفسه. لقد شاعت عبادة أتيس وكيبيلا في المقاطعات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية، وقد توسل الناس منهما هنا الخلاص من الآلام الدنيوية. ففي أثناء

الاحتفالات التي كانت تقام على شرف أتيس، كان الكاهن يردد: «اطمئنوا أيها الأطهار، فكما نجا الإله، كذلك أنتم، سوف يتحقق لكم الخلاص»..

وكان الإله أدونيس الذي يموت ثم يبعث حياً، هو الإله الذي عشقته الإلهة أفروديت، ومزقه خنزير بري ضار. وكان الكاتب لوقيانوس (القرن ٢م) قد ترك لنا وصفاً للاحتفالات التي كانت تقام على شرفه في سوريا. ووفق لوقيانوس، أن السكان المحليين كانوا يجلدون أنفسهم كل عام إحياء لذكراه، ثم يعلنون بعد ذلك أن أدونيس بعث من الموت وصعد إلى السماء.

وعلى امتداد الإمبراطورية كلها شرقاً وغرباً، عبدوا إله الشمس الإيراني ميترا. ولم يكن لهذا الإله دور مميز في مجمع الآلهة الفارسي، بيد أنه بات في مقاطعات الإمبراطورية واحداً من أعظم الآلهة - المخلّصين، حامي الجنس البشري، والعدو





مشاركات في المسرحية الطقوسية وراقصة(فيلا الطقوس)



راقصة (فيلا الطقوس). زخرفة من بومبيوس

اللدود للشر في العالم. وتروي الأسطورة عن صراع ميترا ضد الثور وانتصاره عليه وقتله له. وتجسد دماء الثور الشر، لكنها هي التي أصلحت شأن العالم. فأنصار هذه الديانة يؤمنون بأن ميترا سوف يهزم الشر في نهاية المطاف، ويدمر هذا العالم، ثم يقيم مملكة العدل، ويبعث الأموات من القبور أحياء. لقد اكتشفت معابد ميترا في شتى أرجاء الإمبراطورية الرومانية وصولاً حتى لندن (التي كانت في القرن ١م معسكراً للقوات الرومانية)؛ ووصل إلينا كثير من تصاوير ميترا قاتل الثور. ويرى كثير من العلماء أن الميترية كانت المنافس الرئيس للمسيحية الوليدة. ولكن الطوائف الميترية كانت طوائف مغلقة لا يدخلها سوى الرجال الذين ينجحون في اجتياز شتى الاختبارات الفيزيائية. وقد لاقت عبادة هذا الإله شيوعاً خاصاً في أوساط المقاتلين، الذين رأوا في الإله المقاتل ميترا حاميهم، ومثلهم الأخلاقي. وكانت الرجولة، والإخلاص، وتبادل المساعدة، هي القيم المثالية التي تمسك عابدو ميترا، فقد كان كل منهم يدعو الآخر أخاً. واحتفلوا بيوم مولد ميترا - الشمس سنوياً في ٢٥ كانون الأول، وهو يوم الانقلاب الشمسي الشتوي.



ميترا يقتل الثور. مجسم من معبد ميترا في هيدرنهيم (ألمانيا)

ومن بين آلهة الإغريق كلهم حظي الإله ديونسيوس بأعرض شهرة، وديونيسيوس هذا، هو إله الكرمة. لكن عبادته اكتسبت عشية بداية التأريخ الميلادي، محتوى جديداً. فقد أخذوا يدغمونه أكثر فأكثر بالإله زاغريوس ابن زيوس الذي كان الطيطانيس قد مزقوه، لكن زيوس أعاد إحياءه تحت اسم ديونيسيوس. كما رأوا فيه أيضاً إلهاً يموت ثم يبعث حياً. وارتبطت بعبادة ديونيسيوس أخويات الأورفيوسيين الدينية، وكانت هذه قد حملت اسمها هذا تيمّناً باسم المغني الأسطوري أورفيوس، الذي نزل إلى مملكة الأموات السفلية لكي ينتشل من هناك زوجته إيفريديكي. وقد عاد أورفيوس نفسه إلى الأرض ثانية، لكنه فشل في انتشال زوجته. لقد كانت أخويات الأورفيوسيين موجودة قبل ذلك بزمن طويل، لكنها مثلها مثل عبادة زاغريوس - ديونيسيوس، لم تلق انتشاراً ملحوظاً إلا في القرون الأخيرة التي سبقت التأريخ الميلادي، بعد أن جمت في ذاتها جملة من طقوس السحر الشرقية. وكانوا على يقين وقتذاك، بأن الإنسان إذا ما أدى طقوس هذه العبادة وامتثل لمتطلباتها الأخلاقية (التنسك، واحتقار الجسد)، فإنه قادر على أن يتطهر من أي إثم كان، ويتفادى العقاب الذي ينتظره في العالم السفلي، ويضمن الخلود لروحه. لقد آمن الأورفيوسيون، عبدة زاغريوس - ديونيسيوس بنزوح الروح، وتوسلوا من هذا النزوح تحقيق الانعتاق عبر الاتحاد مع الروح الكوني، مع ذلك الجزء من الماهية الإلهية، الذي اعتقدوا بأنه متضمن في الغلاف المادي للإنسان، وأنه يجب أن ينعتق من هذا الغلاف مرة وإلى الأبد.

وفي بحثه الذي يحمل العنوان: «كلمة لطمأنينة زوجتي»، يتفكر بلوتارخ في مسألة خلود الروح وفق تعاليم مسرحيات الأورفيوسيين الدينية السرية التي كان مكرساً هو وزوجته فيها. ولم يكن هؤلاء الصوفيون يقرون بالاعتقاد التقليدي الذي مؤدّاه أن الأموات عاجزون عن أي شيء غير لائق ومسيء: تعاني الروح الخالدة ما يعانيه الطير الحبيس، إذا ما طال زمن بقائها في الجسد، ولذلك فإنها عندما تنعتق من الغلاف المادي تتجسد من جديد في جملة من الولادات ولا تكف عن أن تخضع للمعاناة الدنيوية. وعليه فإنه من الأفضل للروح ألا تبقى في الجسد طويلاً، لأنها عندئذٍ تحافظ على ما يدعوه بلوتارخ: «الحالة الأفضل»، أي الانعتاق من سلسلة الولادات. ومن الواضح، كما يفهم من الملاحظات المتفرقة التي تحملها المصادر، أن التخلص من تتالي الولادات، والاتحاد مع إله خارج الوجود، كانا الغاية من التكريس في مسرحيات الأورفيوسيين الدينية السرية. وكانت هذه المعتقدات كلها قائمة على الصوفية، أي على إدراك العالم إدراكاً انفعالياً لا إدراكاً عقلانياً، وعلى رفض الحياة الدنيا، والسعي إلى العثور على وسائل للتواصل مع الإله واللا وجود، وتحقيق الخلود. وتمثلت الوسيلة الأساس

لبلوغ هذه الغايات كلها، بالانخراط في طوائف خاصة تضم في صفوفها المختارين، والاشتراك في تأدية المسرحيات الدينية السرية التي كانت تؤدّى فيها مشاهد مكرسة لهذا الإله أو ذاك. وبما أن تلك المشاهد كانت تؤدّى سراً، فإننا لا نعرف عنها إلا القليل. لقد كان أتباع عبادات الطقوس السرية يؤلفون طوائف صغيرة كان ينبغي على من يود الانتماء إليها أن يجتاز طقوس التطهر والآلام. وعلى شاكلة هذه الطوائف المغلقة كانت أخويات الديونيسيوسيين، فقد كان ينبغي على من يود الانتماء إليها أن يصوم عشرة أيام أولاً، ثم يتلقى بعد ذلك شعيرة الاغتسال الدينية. ويبدأ من ثمّ طور الاختبار الذي كان عليه أن يظهر خلاله أنه قادر على الصمت وعدم البوح بأي من أسرار الطقوس. وبعد ذلك فقط يسمح له بالمشاركة في المسرحيات الدينية السرية. لقد كان أعضاء الطوائف الديونيسيوسية يقيمون مرة كل عام احتفالات علنية مفتوحة، مواكب: كانوا يحملون أثناءها قضباناً مغطاة بعناقيد العنب، ويسيرون وهم يعزفون على الناي. وفي حالة من الوجد كان هؤلاء يستغرقون في الرقص إلى أن يشعروا بأن الإله قد امتلكهم. وعندئذٍ كانوا يعثرون على معزاة برية، فيمزقونها ويشربون دماءها الساخنة، ويأكلون لحمها نيئاً عادين ذلك مشروباً وطعاماً إلهيين. لقد كان هؤلاء الصوفيون يؤمنون بأن هذا الذي يفعلونه يحقق لهم الاتحاد مع الإله ويمنحهم الخلود. وفي العصر الروماني كان يمكن أن ينتمي إلى الأخويات الديونيسيوسية النساء، والرجال، والعبيد، والأحرار.

وعرفت المسرحيات الدينية السرية التي كانت مكرسة لكيبيلا وأتيس، طقس قتل ثور: طقس التاوروبوليا، الذي يعد بدوره قرباناً دموياً، وحسب معطيات علم الآثار، وبعض نتف المعطيات المكتوبة، أنه كان ثمة تجويف في معبد الإلهة ينزل الصوفي فيه، وفوقه كانوا ينحرون الثور لكي تسيل دماؤه على المكرس: هكذا كانوا يقيمون طقس التطهير بالدم. وفي أثناء تأدية الحركات التهتكية كان أتيس يخصي نفسه، وكان هذا بدوره ضرباً من ضروب القربان الدموي والتطهر بالدم، والانتقال إلى حياة جديدة. وكانت التاوروبوليا حاضرة كذلك في المسرحيات الدينية السرية المكرسة للإله ميترا: لدى قبول عضو جديد أو أعضاء جدد في الطائفة، على سبيل المثال. لقد كانت العبادة الميترية تتضمن أيضاً طقس الاغتسال التطهري، والوليمة المشتركة اللذين كانا يرمزان عند صوفيي هذه الديانة إلى الوعد بالحياة السماوية. ولكن ما يجب قوله، هو أن كثيراً من طقوس المسرحيات الدينية السرية غير معروف لنا معرفة جيدة، لأن تلك الطقوس كانت على وجه العموم طقوساً سرية. ومن المعروف أن بطل أبوليوس في مؤلفه «الحمار الذهبي» (القرن ٢م)، قد كرس بعد كل الرزايا التي حلت به، في مسرحيات

إيزيس السرية، وقد قال إنه لا يجرؤ على أن يروي أي شيء عن الاختبارات التي مر بها: «لقد بلغت حدود الموت.. وعدت ثانية عبر كل البيئات». كما كانت محاكاة الموت موجودة في مسرحيات ميترا السرية كذلك: عندما كان المرء يعبر الموت الرمزي، كان يكتسب بذلك حياة جديدة. ولكن هذه العبادات الصوفية كانت عاجزة عن إنتاج دين جديد، أولاً وقبل كل شيء بسبب انغلاقها على ذاتها، ولجوئها إلى التطهر الطقوسي لا الروحي، وصلتها بتأدية المشاهد الوثنية القديمة. ضف إلى هذا أن طقوس المسرحيات الدينية السرية كانت تكرر الحدث عينه دائماً: في كل مرة كان الإله يموت ثم يحيا من جديد، وفي كل مرة كانت تقدم ذبيحة التطهير. ولم تكن هذه الدورة تؤدي إلا إلى خلاص فرد واحد، هو المكرس في المسرحية الدينية السرية، أما البشرية ككل فقد كانت تبقى خارج دائرة الخلاص.

والسمة الجوهرية الأخرى التي تميزت بها العقائد الدينية في الإمبراطورية الرومانية، هي الإيمان بأن الآلهة المخلصين هم آلهة ذوو قدرة كلية، وأن الإله المبجل هو إله يخضع له الكون كله. وعشية بدء التأريخ الميلادي سارت عملية تعميم الإله المعبود، أي صيرورة ما اتفق على تسميته بالتوحيد الوثني. لقد أخذت شخصيات مختلف الآلهة يندغم واحدها بالآخر كما حصل بالنسبة للإله سيرابيس، ولكن إذا كانت عبادة هذا الأخير قد أنشئت بصورة مصطنعة إلى حد كبير، فإن توحيد الآلهة الآخرين غدا نتيجة الإبداع الميثولوجي لجماهير عريضة من السكان. فالأم العظمى بصفتها بداية الوجود كله، أدغمت بالفينيقية استرتا، والمصرية إيزيس، وكيبيلا آسيا الصغرى، والإغريقيين أفروديت وأرطميس، وإلهة العالم السفلي هيكاتي. وعدت هؤلاء كلهن أقانيم لها. وتجلى الإيمان بالإله الكلي القدرة عبر الاهتمام باليهودية أيضاً، لا سيما أن عدداً كبيراً من اليهود كانوا يعيشون في مدن المقاطعات الشرقية وحملت النصوص التي كتبت باللغة الإغريقية تقدمات للإله الأعلى، من غير أن يذكر اسمه. ويمكننا أن نفترض أن السجود لهذا الإله قد جاء نتيجة لتأثير اليهودية. ووصل إلينا نقش من إحدى مناطق آسيا الصغرى كان قد نقش على شرف رئيس الكنيس اليهودي المحلي تقدمة من أخويه عبدة الإله - الشاباتيست، أي إله السبت. كما انعكس الاهتمام بديانة اليهود القدماء في الآثار الأدبية أيضاً: لقد كتب الجغرافي سترابون بإعجاب واضح عن موسى[1] وتعاليمه عن الإله الواحد الذي يدير شؤون الكون والطبيعة. وأبرز

١- لقد رأى سترابون في موسى، كاهناً مصرياً لم يكن راضياً عن الأسس التي كانت سائدة هناك، فأخرج من هناك إلى اليهودية الناس الذين كانوا يؤمنون بالإله (أي الإله الواحد). ورأى سترابون أن خلفاء موسى أفسدوا تعاليمه.

سترابون المتطلبات الأخلاقية التي تفرضها هذه التعاليم على المؤمنين: لا يحصل على بركة الإله إلا أولئك الذين يعيشون عيشة رشيدة تتوافق ومبادئ العدالة (الجغرافيا). لقد كان لليهودية تأثيرها في روما حتى في أوساط دوائر المجتمع العليا: يقال أن زوجة نيرون كانت تؤمن بالإله اليهودي.

وحسب معتقدات المؤمنين أن إلهاً واحداً يدير شؤون الكون. فقد جاء في صلاة لوسيوس، بطل رواية «الحمار الذهبي»، التي رفعها إلى إيزيس: «أنت تدّورين العالم، وتوقدين الشمس، وتديرين شؤون الكون.. بإيماءة منك تتقد النار، وتتلبد السماء بالغيوم الداكنة، وتزرع الحقول، وينبت الزرع». وتدعى إيزيس بشفيعة الجنس البشري، وحارسة الأموات. وجاء في نقش من جزيرة إيوس، أن إيزيس هي التي وضعت القوانين للناس، وفصلت بين السماء والأرض، وأرشدت النجوم إلى دروبها. بيد أن إيمان الناس بجبروت إيزيس لم يكن ينفي وجود آلهة آخرين: لقد جاء في ذلك النقش عينه أن إيزيس زوجة الملك أوزيريس وأخته، قد أنارت قطاعات الآلهة وعلمت الناس تبجيل تصاويرهم؛ لقد كان العزوف عن تعدد الآلهة أمراً بالغ الصعوبة.

ومع اعترافهم بجبروت أرباب الكون، اتكل الناس في الوقت نفسه على عونهم، وأملوا بعدالتهم، وطيبتهم التي لم يكن آلهة العصر الإغريقي الروماني يتمتعون بها، فغالباً ما كان هؤلاء منتقمين قساة يغارون من كل نجاح يحققه البشر. ففي نقش إيوس هذا عينه تقول إيزيس عن نفسها: «جعلت العدل أقوى من الذهب والفضة.. وقد فعلت هذا كله لكي يتمايز البديع عن المخزي كل حسب طبيعته».. وفي سوريا تقدمات إلى إله مجهول الاسم يدعى: «الإله الطيب».

وقد اتكل الناس على أن الآلهة الذين رفعوا إليهم توسلاتهم وصلواتهم سوف يلبونهم. وعثر الآثاريون في الشطر الشرقي من الإمبراطورية على عدد كبير من التقدمات المكرسة «للآلهة المصغين» أو لإله «صاغ» واحد (من غير اسم)، ورأوا في مثل هؤلاء الآلهة آلهة «أنقياء (أي لا عيب فيهم -المؤلفة) وعادلين»: ونقف على هذه النعوت حاضرة في كثير من النقوش الأخرى. إذن لم يعد الإيمان بإله واحد جبار أو بآلهة جبابرة مرتبطاً بمكان ما بعينه أو بقوم بعينهم، لقد شاع الآن الاعتقاد بوحدة الجنس البشري: في الأول بين الفلاسفة، ثم في الأوساط الشعبية الواسعة. ففي واحد من النقوش التي تنتمي إلى القرن ام، والتي عثر عليها في مدينة صغيرة من مدن آسيا الصغرى، هي مدينة بانامار، يقول كاتب النص، إنه يمكن أن يشارك في الاحتفالات المقامة على شرف إله المدينة الرئيس

زيوس، المواطنون، والوافدون و «سكان المعمورة كلهم»، وغني عن البيان القول، إن واضعي النقش المذكور لم ينتظروا طبعاً أن يتقاطر إليهم الناس من مختلف أرجاء المعمورة، بيد أنهم وجهوا الدعوة إليهم، معلنين بذلك وحدة البشر كلهم أمام الإله، و «كونيته».

لقد خلق الإيمان بالآلهة المحسنين لدى عابديهم أسئلة كثيرة حول سلوك هؤلاء أنفسهم، هذا السلوك الذي كان يجب أن يجعلهم مؤهلين لنيل عطف الآلهة. فظهرت في مواثيق الأخويات الدينية الخاصة تعاليم وإرشادات أخلاقية. إذ طلبت أخويات مبجلي الإلهة الفينيقية استرتا من أعضائها الالتزام بالطهارة الفيزيائية والأخلاقية معاً. كما يثير الاهتمام في هذا السياق الاتحاد الديني الذي تألف في مدينة فيلاديلفيا في آسيا الصغرى، من عابدي الإله زيوس والإلهة الأم. وكان هذا الاتحاد قد تأسس منذ القرن ١ق.م على يدي فيلسوف محلي، ونقش ميثاقه على صفيحة حجرية. لقد كان الاتحاد يقبل في صفوفه الرجال والنساء من الأحرار والعبيد على قدم المساواة. والتزم أعضاؤه بألا يضمروا الغدر للآخرين، وألا يمارسوا السحر، وألا يصنعوا أي عقار سحري، وألا يلجؤوا إلى أي وسيلة من وسائل منع الحمل (في أواخر العصر القديم شاع اللجوء إلى الإجهاض في الدولة الرومانية). لقد كان على الزوجات أن يحافظن على إخلاصهن لأزواجهن، ويصن عفتهن. كما حرم على الرجال إقامة أي علاقات جنسية مع النسوة المتزوجات، بمن في ذلك الإماء المتزوجات. وكان انتهاك هذه المحرمات يستدعي إنزال العقاب بمن ينتهك: التوبة علانية، ثم الحرمان من المعبد. أما المحسنون من أعضاء الاتحاد، فإن الآلهة يهبونهم كما يقول النقش، ما يهبونه لأحبائهم وللجملة الأخيرة في نص النقش دلالة مميزة: من حيث جوهر الأمر لم يكن بمقدور أعضاء الاتحاد أن يتخلصوا من المعتقد الوثني التقليدي بالآلهة الوثنيين الذين حسب الأساطير، يهبون الخيرات المادية الزمنية لأحبائهم. وربما كان عابدو زيوس والأم العظمى قد أدركوا قصور هذا التصور، فعمدوا إلى الابتعاد عن أي إشارة إلى ثواب محدد في الميثاق؛ ومن الجلي أن فكرة الخلاص الذي يناله المؤمن في المملكة الإلهية لم تكن قد صيغت بعد ويبدو أنه ليس من قبيل المصادفة أن تكون فيلاديلفيا هذه حاضنة منذ وقت مبكر جداً حسب رؤيا يوحنا، لواحدة من أولى الطوائف المسيحية التي يزعم أنها ظهرت هناك في القرن ١م.

ولم يكن من قبيل المصادفة أيضاً أن يتخذ الاتحاد الفيلاديلفي موقفاً مناهضاً للسحر: إلى جانب عبادتهم للآلهة المخلصين، كان كثير من الناس الذين ينتمون إلى

مختلف فئات المجتمع، يلجؤون إبان القرون الميلادية الأولى، إلى الشعوذة ومختلف ضروب التنبؤات، لأنهم كانوا لا يثقون بقدراتهم الذاتية على تفادي الرزايا. وكانت رواية أبوليوس «الحمار الذهبي»، قد عكست بوضوح شديد تصورات ذلك الزمن عن العالم المحيط بصفته عالماً يعج بالشرور، والسحر، والشعوذة. فقد استخدم أبوليوس في روايته هذه شتى موضوعات المعتقدات الشعبية. كما انعكس الشعور بالخوف من القوى الغاشمة، وغدرها وعبثها وغبائها (من وجهة نظر ابوليوس، كان ينبغي أن يخفف ذلك الغباء من شدة كابوس السحر)، بجلاء ملفت في حكايات الساحرات التساليات. فقد كان راوي هذه الحكايات مؤجراً حارساً لجثمان ميت من عبث الساحرات به، لكن هؤلاء أخطأن الميت وسحرن الحارس وقطعن له أنفه وروحه: لقد زادت التفاصيل التراجيدية - الكوميدية من سخف الموقف برمته وجعلته هذراً بهذر. وفي آخر الحكاية يخبر الراوي المشاهدين أنه غدا شاهداً على الحدث الآتي: في أثناء إقامة طقوس دفن أحد الشبان، طلب والد الشاب من متنبئ مصري (دفع له مبلغاً كبيراً من المال) أن يعيد ابنه إلى الحياة لبعض الوقت، ولما عادت الحياة إلى الشاب أفاد بأن زوجته هي التي قتلته. ولكن عملية الإحياء كانت ممضة: كان الفتى يتوسل الساحر أن يتركه وشأنه. ومهما كانت الحال فإن هذا المشهد يدل على أن الناس في ذلك الزمن كانوا يؤمنون بإمكانية إحياء الأموات، بيد أنهم رأوا فيه فعلاً سحرياً تقوم به قوى شريرة.

ولذلك ليس غريباً أن يبحث الناس الذين أرهقهم الخوف، عن وسطاء بينهم وبين الآلهة. ومع أن المثقفين كانوا يهزؤون بمثل تلك المساعي والاهتمامات، ولكن دون جدوى. ولمؤلف الناقد الاجتماعي لوقيانوس: «الإسكندر، أو النبي الدجّال» دلالة خاصة في هذا السياق. فقد روى لوقيانوس هذا (القرن ٢م) قصة المدعو الإسكندر الذي يبدو أنه كان شخصية حقيقية، إذ كان ينطق بنبوءات ينسبها إلى الإله المداوي والمتنبئ اسكليبيوس (وكان هذا الإله يعبد في أماكن كثيرة بصفته اسكليبيوس المخلص). وكان الإسكندر هذا قد أعلن في غضون ذلك أن «اسكليبوس جديداً» قد ولد من أرنب في هيئة أفعى، وأنه يحيي الأموات ويتكهن بما سوف يأتي. لقد عثر الإسكندر على أفعى في مكان ما، وأخذ يعرضها على الحشود، ثم شرع يظهر للناس من تحت ردائه رأس حية صنعه لهذا الغرض، وكانت الرأس تفتح فمها وتطبقه بينما الإسكندر يعلن «نبوءاتها» بصوته. وأخذت الحشود تتقاطر إليه حاملة مختلف ضروب التقدمات، لقد كان النبي الجديد يستقبل فيمن يستقبل أعضاء من السينات. وعلى هذه الخلفية كتب لوقيانوس بمرارة: إن الحياة الإنسانية بين

أيدي ربين عظيمين: الأمل والخوف، وإن من ينجح في استخدامهما عند الضرورة سرعان ما يغدو ثرياً (الإسكندر، أو النبي الدجّال). لقد قدم لوقيانوس هذا الإسكندر لنا دجالاً مشعوذاً مكشوفاً، لا يتورع عن اللجوء إلى أي وسيلة مهما كانت شريرة (لقد حاول أن يقتل لوقيانوس نفسه).. ولكن تبجيل الإسكندر لم يكن مجرد نتيجة لإتقانه فن الشعوذة وحسب، كما لم يكن ناتجاً فقط عن جهل أتباعه ومعتقداتهم الخرافية. فلا ريب في أن الرجل كان يمتلك القدرة على الإيحاء، إذ مهما كانت نبوءاته ساذجة وخرقاء بالنسبة للوقيانوس، إلا أنها كانت تنال رضى الذين كانوا يطلبونها منه: لقد كانت تلك التنبؤات تلبي الضرورات الذاتية لأتباع الإسكندر.

وعلاوة إلى هذا كله، فإن نشاط الإسكندر يمثل بالنسبة للمؤرخين أهمية أخرى، تتمثل في أن الإسكندر عندما أعلن عن مولد «اسكليبيوس جديد»، عرض أمام الحشود «إلهاً حياً» ظهر «هنا الآن»، أي بكلمات أخرى، كأنه أعطى للناس فرصة للتواصل مع الإله مباشرة. ومن البدهي أن الإسكندر ومبجليه لم يخرجوا في هذا السياق خارج أسس الرؤى الوثنية الراسخة في العمق. فالإله الذي ظهر لهم لم يكن إلهاً مختلفاً من حيث المبدأ، بل مجرد تجسد جديد للإله القديم اسكليبيوس (لقد أعلن الإسكندر ابنته «سيلينا الجديدة» - أي إلهة القمر). وفي بعض الأحيان كان الإيمان بإمكانية الاتحاد مع الإله الذي ظهر لتوه، يتجلى في شتى الأشكال «المادية»: لقد كانت النساء، بمن فيهن المتزوجات، على استعداد أكيد لمساكنة النبي، وذكر لوقيانوس بالاسم زوجة أحد قضاة الإمبراطور التي شاركت في تأدية المشاهد الدينية التي نظمها الإسكندر: أدت فيها دور إلهة القمر العاشقة للنبي. وثمة كثرة من النسوة اللواتي تفاخرن بأنهن أنجبن من الإسكندر. وقد يكون لوقيانوس بالغ بعض الشيء، بيد أن شغف النسوة بالمعتقدات «غير التقليدية» كان سمة من سمات ذلك الزمن. ففي مؤلّفه «إرشادات للزوجات» يحض بلوتارخ الزوجات على «إبقاء الأبواب مقفلة» في وجه المعتقدات العبثية والطقوس الغريبة. والحقيقة أن الرجال أظهروا بدورهم سعياً للتقرب من الإله، لا سيما الإله «اسكليبوس الجديد»، فقد زوج الإسكندر ابنته إلى سيناتور روماني.

لقد كانت تلك هي سمات المعتقدات الدينية في القرون الميلادية الأولى: العمل على العثور على إله جبار ورحيم، منقذ الجنس البشري كله، ويكون في الوقت نفسه بمتناول يد كل شخص بمفرده؛ يستجيب للتوسلات، ويبعث الأمل بإمكانية التواصل معه: ثم البحث عن وسيط في هذا التواصل مع الآلهة (حسب المعتقدات الخرافية التي كان يؤمن بها

ناس ذلك الزمن، وأن التواصل مع الإله كان يمكن أن يتحقق عبر شخص: نبي، متنبئ يتوفر على قوة خاصة). وفي الوقت عينه بقي السحر يشغل مكانة مهمة في نظام معتقدات الشريحة الأعرض من سكان الإمبراطورية، الذين سعوا حتى عن طريق القرابين الدموية، وتأدية الطقوس الخاصة، والاستعانة بالتعاويذ السحرية إلى التخلص من الخوف أمام القوى الظلامية العامة وإلحاق الهزيمة بها. كما بقي التواصل المادّي لا الروحي متعايشاً بين المؤمنين مع البحث عن الأخلاقي. وفي مثل تلك البيئة الدينية - السيكولوجية بالذات بدأ المسيحيون الأوائل نشاطهم بالإجابة عن الأسئلة عينها التي كانت تقلق الناس، ولكن محتوى إجاباتهم كانت مختلفة اختلافاً مبدئياً عما كان يطرحه أتباع العبادات الدينية الأخرى.

الفصل الثالث

فلسطين عشية ميلاد المسيح
طــائفـــة قمـــــران

لقد كانت فلسطين تشغل مكانة خاصة بين ممتلكات روما في الشرق، وفي فلسطين هذه بزغت تعاليم يسوع المسيح. وكانت فلسطين قد وقعت تحت سلطة روما منذ القرن ١ق.م. ففي العام ٦٣ق.م كان القائد الروماني بومبييوس قد أنهى لتوه احتلال المملكة السورية[1]، فاستغل الصراع الذي كان دائراً على السلطة في فلسطين وقاد جيوشه إلى أورشليم. فتحصن قسم من سكان المدينة في المعبد، وصمد للحصار طوال ثلاثة أشهر. لكن القوات الرومانية نجحت في نهاية الأمر في أن تستولي على المعبد وتبيد المقاومين. وهكذا وقعت فلسطين تحت سلطة روما. ولكن حكام روما (وكان الزمن زمن الحروب الأهلية) آثروا عدم الانغماس في الصراعات الفلسطينية المعقدة، فتركوا لهؤلاء بعضاً من الاستقلالية. وجعل بومبييوس من فلسطين جزءاً من مقاطعة سوريا الرومانية، لكنه منحها حق الإدارة الذاتية بعد أن قلص من مساحة الأراضي التابعة لها. وعين الرومان واحداً من آخر ممثلي سلالة الحشمونيين، هركان الثاني، كبيراً للكهنة و «حاكماً على الشعب». بيد أنه لم تكن لهركان سلطة فعلية، وكانت هذه الأخيرة بين يدي الآدومي أنتيباتر وأبنائه. وكان الأكثر مكراً وغدراً من هؤلاء، ابنه هيرودوس الذي استولى بعد وفاة والده على السلطة (بدعم من الرومان) وأباد كل من كانت له صلة بالسلالة السابقة، واتخذ لنفسه لقب ملك اليهود، إلا أنه كان يحكم

١- لقد ظهرت هذه المملكة إلى الوجود بعد انهيار إمبراطورية الإسكندر المقدوني، ودعيت في الدراسات التاريخية بالملكة السلوقية نسبة إلى السلالة السلوقية الحاكمة وابتداء من القرن ٢ق.م أخذت ممتلكات السلوقيين تتقلص وفي زمن ما خضعت لها فلسطين، لكن انتفاضة المكابيين ضد السلطة السلوقية أدت إلى استقلال فلسطين.

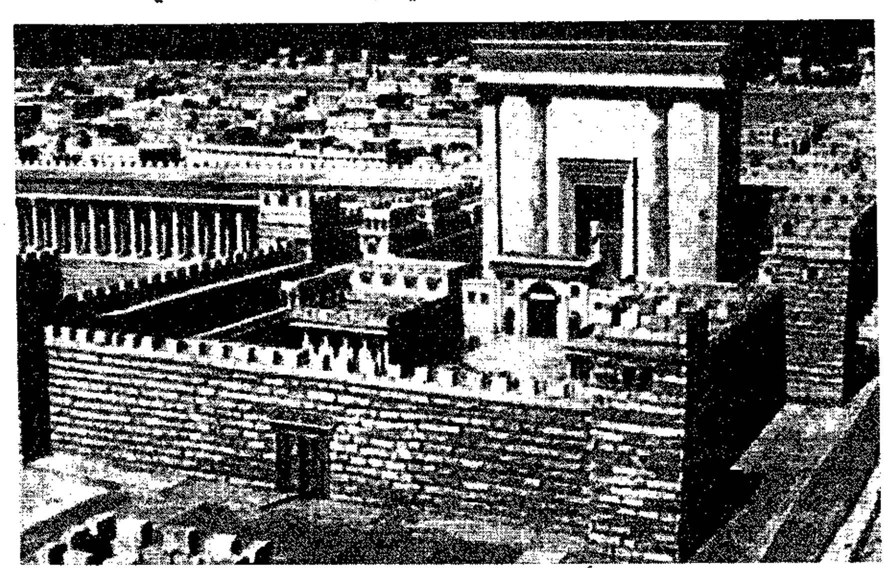
بصفته «حليف الشعب الرماني وصديقه» (٣٧-٤ق.م). لقد كان هيرودوس تابعاً لروما تبعية تامة في كل ما له علاقة بالسياسة الخارجية؛ ونجح نجاحاً باهراً في اللعب على الصراعات بين القادة العسكريين الرومان الطامحين إلى الاستيلاء على السلطة: تعاون مع أنطونيو، ثم ما لبث أن انتقل في الوقت المناسب إلى جانب أغسطس. لقد عد رعايا هيرودوس كلهم أتباعاً لأغسطس: أرغمهم هيرودوس على أن يقسموا يمين الولاء له وللإمبراطور الروماني أيضاً. أما في ميدان السياسة الداخلية فقد سلك هيرودوس سلوك أي طاغية شرقي آخر، فقمع بقسوة فائقة كل بادرة من بوادر السخط وقتل كل خصم محتمل له. وحسب المعتقدات المسيحية أن هيرودوس آمر بقتل كل أطفال بيت لحم الذكور، بعد أن علم أنه، ولد هناك الطفل الذي كان مقدراً له أن يغدو المسيا (أي، وفق المعتقد اليهودي، ملك المملكة الإسرائيلية المنبعثة). بيد أنه ليس لهذا المشهد ما يؤكده في المصادر التاريخية المحايدة، ولكن الحقيقة هي أن هيرودوس قد قتل كثيراً من الناس، بمن فيهم زوجته وثلاثة من أبنائه. ولما وصلت أخبار مجازر هيرودوس إلى أغسطس قال: خير للمرء أن يكون خنزير هيرودوس من أن يكون ابنه. ومع ذلك حظي هيرودوس بدعم أغسطس: ربما لأنه كان جلاداً استطاع أن يرغم الشعب على الإذعان.

لقد فرض هيرودوس على السكان ضرائب ثقيلة، وصادر أراضي خصومه، فجعلها بين يديه ووزع بعضاً منها على المخلصين المقربين والأقارب. وعلى الرغم من أن هيرودوس كان يعتنق اليهودية (على الراجح أن اعتناقه لها كان شكلياً)، إلا أنه سعى إلى إعطاء بلاده الوجه نفسه الذي كانت تتميز به أقاليم البحر المتوسط الأخرى. فارتبطت باسمه حركة بناء المدن التي جاءت بنيتها الداخلية وفق النموذج الإغريقي. وحملت تلك المدن أسماء مثل: قيصرية (على شرف قيصر)، وسيباستيا (على شرف سيباستوي، وهي الكلمة التي ترجم الإغريق بها اسم أغسطس). وكان سكان تلك المدن خليطاً من اليهود، والإغريق، والسوريين. ووفق النموذج الإغريقي بنى هيرودوس في مدنه المسارح، والحمامات العامة (وكانت هذه شائعة في روما شيوعاً كبيراً)، والقصور الملكية. كما بدأ بترميم معبد أورشليم وتزيينه. وقد أمر هيرودوس أن تستخدم في زخرفة المعبد، وبناء المباني والمنشآت العامة في المدن، الأعمدة الكونثية المزدانة بالأشكال النمطية الورقية الفخمة المظهر، والتيجان السفلية الملتفة. لقد كانت هذه الأعمدة تبنى في المباني التي كانت تشاد في مدن حوض البحر المتوسط الشرقي والغربي، وشكلت مظهراً متميزاً للوحدة الثقافية في «العالم الروماني». وقد بينت أعمال السبر الآثاري في فلسطين أن عمارة المنازل السكنية هنا تحمل آثار فن العمارة الإغريقي - الروماني: لقد

بنى الأغنياء منازلهم وفق النمط الروماني، وغلبت على كتلة البناء السكني في المدن، المنازل المتعددة الطوابق والشقق (الإينسول). وحتى في الملابس أخذت تظهر العناصر الإغريقية - الرومانية (لدى الرجال بصورة أساسية). وإلى جانب الأسماء المحلية نقف (كما هي الحال في المقاطعات الشرقية الأخرى)، على أسماء إغريقية أو رومانية، ولم يكن من النادر أن يحمل الشخص عينه الاسمين معاً، ويستخدمهما في مختلف الحالات.

لقد كانت البنية الإثنية لسكان فلسطين متنوعة تنوعاً كبيراً، وكانوا يتحدثون هنا بلغات مختلفة: كان أكثر السكان يتحدث اللغة الآرامية التي كانت قد غدت في ذلك الوقت لغة التخاطب في كثير من أقاليم غربي آسيا. كما شاعت الإغريقية أيضاً، وكان يتحدث بها قسم مهم من سكان المدن، لا سيما في إقليم المدن العشر الواقع وراء نهر الأردن (اتحاد المدن التي كانت لها إدارتها الذاتية وفق النموذج الهلنستي).

وفي الشطر الأوسط من فلسطين، كانت السامرة تمثل منطقة متميزة. وبعد أن دمر الآشوريون المملكة الإسرائيلية في أواخر القرن ٨ق.م، غدت السامرة عاصمة لها. وقد أقيمت هنا مستعمرة آشورية تخالط سكانها مع السكان المحليين. ولم يعترف السامريون إلا بأسفار النص التوراتي الخمسة الأولى كتاباً مقدساً، كما لم يسجدوا للإله في معبد أورشليم، بل فوق جبل غاريزيم. ولذلك لم ير اليهود في السامريين يهوداً وتجنبوهم. لقد أعاد هيرودوس بناء السامرة وبنى فيها معبد أغسطس، وهو الأمر الذي لم يجرؤ على فعله في أي مدينة يهودية.



معبد أورشليم زمن هيرودوس. تصميم.

في القرن ١م لم يكن لفلسطين الحق في سك عملتها الخاصة، فقد كانت تستخدم هناك النقود المسكوكة في بعض المدن الفينيقية، إضافة إلى الدينار الفضي الروماني الذي كان يستخدم لتسديد الضرائب والرسوم و...

ولكن الإغريق والرومان أظهروا اهتماماً واضحاً بالعادات والمعتقدات المحلية. فحسب الرواية أن أحد القادة العسكريين الرومان الصغار (قائد مئة)، بنى معبداً يهودياً (كنيساً) في مدينة كفرناحوم.

ونحن نستطيع أن نفترض بدرجة كبيرة من الصحة، إنه كانت تجري في فلسطين العمليات عينها التي كانت تحدث في باقي أرجاء الإمبراطورية. وقد فاقمت تلك العمليات من حدة التفاوت في امتلاك الثروات، والانقسام الاجتماعي. فالحياة في المدن التي كانت مراكز متطورة للعمل الحرفي والتجارة، كانت تختلف اختلافاً حاداً عن الحياة في المدن الصغيرة والمناطق الريفية. وتستحق الاهتمام في هذا السياق المادة الآثارية التي اكتشفت في الجليل. ففي أوائل تسعينيات القرن العشرين أعيدت أعمال السبر الآثاري من جديد في مدن كفرناحوم، وسيفوريس، وسكيثوبوليس مع الأخذ بالحسبان أحدث الأساليب؛ وكانت قرى الجليل الهلنستية والرومانية أولى المواقع التي جرى التنقيب فيها[1]. فتبين أن الجليل الأدنى، وهو قطاع أعمال السبر الآثاري الرئيس، كان مسكوناً بخليط من سكان المدن والأرياف. وفي غضون ذلك كانت تنتشر المناطق الريفية في الجليل، ومثلها في هذا مثل باقي مناطق فلسطين، الملكيات الزراعية الكبيرة التي كانت على أرجح تقدير بين أيدي كبار الأثرياء، وإلى جانبها كما يرى الباحثون، كان يحرث أكثر الفلاحين قطعاً صغيرة من الأرض بالكاد كانت تكفيهم قوتهم، ويبدو أن هؤلاء الفلاحين كانوا مرغمين على أن يمارسوا أيضاً العمل الحرفي القروي، والعمل التجاري الصغير، والعمل الزراعي المأجور. أما ظهور المدن الجليلية الكبيرة مثل سيفوريس وطيبريس التي أعاد هيرودوس انتيبا حاكم الجليل بناءها من جديد وأعطاها اسم الإمبراطور الروماني طيباريوس، فلم يكن له إلا أن يدمر نمط العيش التقليدي لسكان الأرياف، الذين باتوا يعملون الآن لدى سكان المدن الغرباء عنهم من الناحية الثقافية. لقد كانت المدن بحاجة ماسة إلى الأراضي التي تحيط بها (اقتطعت من أراضي محيط مدينة طيبريس أراضٍ جديدة)[2]، وهذا يعني أن استخدام العنف كان أمراً ممكناً،

1- Reed JL. Pleces in Early Christianity; Galilee, Archeology, Urbanization and Q. Ann Arbor. 1944.

٢- لقد كانت المدن الإغريقية، ومثلها مدن المقاطعات الشرقية التي كانت لها حقوق المدن الإغريقية، كانت تتوفر بالضرورة على محيط زراعي، حيث كان المواطنون يمنحون أيضاً الأراضي التي تؤجرها المدينة.

فما بالك برهن الأراضي، والمديونية وما إلى ذلك. ولم يكن لهذا كله إلا أن يثير معارضة صريحة وخفية: في أثناء القلاقل هاجم الفلاحون الفقراء المدن التي ظنوا أنها مراكز للوثنية. وفي زمن هيرودوس كان السخط لا يزال شديداً وبخاصة ضد تبعيته لروما، وضد المستجدات الثقافية التي أدخلها إلى فلسطين (لقد رأى سكان فلسطين في الجليليين أناساً ميالين إلى العصيان، أخلاقياتهم ضعيفة، «قطاع طرق»، وذوي مستوى ثقافي متدن).. فقد حدث أن رفض الناس علانية تنفيذ أوامر هيرودوس: امتنع ستة آلاف من أتباع التيار الفريسي عن تأدية يمين الولاء لهيرودوس وأغسطس. فأعدم عدد كبير منهم.

في العام ٤ق.م مات هيرودوس، وكان موته إيذاناً باشتعال انتفاضة مسلحة في الجليل أولاً، ثم في جنوبي فلسطين. وحسب يوسف فلافيوس[1]، أن المدعو يهوذا جمع حشوداً كبيرة من المشردين اليائسين حول مدينة سيفوريس الجليلية. وقد دمرت تلك الحشود المدينة (أعاد هيرودوس أنتيبا ابن هيرودوس بناءها بعد ذلك) واستولت على السلاح والمال. ويزعم يوسف فلافيوس الذي يبدو أنه لم يكن يبارك انتفاضة يهوذا الجليلي، أن هذا الأخير كان ينهب كل ما تقع عليه يداه ويأسر كل من يقع في طريقه. ووفق بعض تلميحات المؤرخ يمكننا أن نرى في تلك الانتفاضة عناصر الحركة المسيانية، أي الحركة التي كانت تعول على مجيء المسيا المرسل من قبل الإله لكي يستعيد استقلال اليهودية ويجلس على عرشها ملكاً. أما القائد الآخر للانتفاضة، الراعي البسيط أفروغ، الذي قام ضد من كانوا جنداً لدى هيرودوس، وضد الرومان أيضاً، فقد طالب بدوره بالسلطة الملكية، بل وضع على رأسه الإكليل الملكي (العاديات اليهودية). لكن والي مقاطعة سوريا كوينتيلون فار، نجح بمساعدة حليفه ملك شبه الجزيرة العربية، في تدمير الانتفاضة. وقد أظهر فار قسوة بالغة وكذلك فعل حلفاؤه. فأمر فار بإحراق مدينة إماوس وأعدم صلباً ألفين من الأسرى والمشتبه بمشاركتهم في العصيان المسلح.

في العام ٦م. ألحقت اليهودية والسامرة بمقاطعة سوريا مع حق إدارة خاصة: لقد أرسلوا إلى هناك قضاة إمبراطوريين كان لهم حق القيادة العسكرية. وأبقى الرومان على بعض حقوق كهنة معبد أورشليم والسيندريون، الذي كان قوامه يضم كهنة وممثلين عن الارستقراطيا المحلية: زعماء الاتحادات العشيرية. وكان رئيس الكهنة هو الذي يرئس السينديون. لقد كانت صلاحيات السينديون تنسحب على إدارة الشؤون الداخلية، وبعض الشؤون القضائية (كانت

١- شارك يوس فلافيوس في انتفاضة اليهود ضد الرومان إبان الأعوام ٦٦-٧٠م، ووقع أسيراً لدى القوات الرومانية، ثم عاش بعد ذلك في قصر الإمبراطور وكتب جملة من المؤلفات في التاريخ اليهودي، بما فيها «العاديات اليهودية» و«الحرب اليهودية».

أحكام الإعدام التي لا ترتبط بالمسائل الدينية من صلاحيات الرومان فقط)، والمسائل الدينية. وأعطى الرومان حكم الأقاليم الفلسطينية الطرفية لأبناء هيرودوس، لكن من غير أي ألقاب ملكية. وبمعنى آخر، لقد بات هؤلاء تابعين لروما تبعية مباشرة. فانتقل الجليل وبيريا إلى تحت سلطة هيرودوس أنتيبا الذي منح لقب صاحب السلطات الأربع (- تيترارخ)[1]. ولكن الأوضاع في فلسطين بقيت متوترة طوال القرن الميلادي الأول كله، وما زاد الأمر سوءاً، هو أن السلطات الرومانية كانت تحتقر دوماً المعتقدات المحلية. فبيلاطس البنطي، قاضي اليهودية وحاكمها في عهد طيباريوس[2] خليفة أغسطس، أمر القوات التي كانت ترافقه لدى تسلمه مهمات سلطته، أن تدخل أورشليم حاملة صور الإمبراطور على راياتها، وقد دخلت هذه المدينة ليلاً. لقد كان ذلك إهانة مريرة لأحاسيس المؤمنين من اليهود، لأنه كان محرماً رفع صورة أي إنسان في أورشليم، وقد عد ذلك التصرف مساوياً للكفر والتجديف. وحسب شهادة يوسف فلافيوس (العاديات اليهودية)، أن حشوداً من اليهود زحفت إلى بيلاطس وتوسلت إليه أن يزيح تلك الصور. ولم يجد بيلاطس حتى التهديد باستخدام السلاح لتفريق تلك الجموع. وأخيراً اضطر بيلاطس إلى أن يأمر بإزاحة صور الإمبراطور من أورشليم ونقلها إلى المقر الرسمي لحكام اليهودية: مدينة القيصرية. وانفق بيلاطس من خزنة المعبد على بناء أنابيب استجرار المياه إلى المدينة.، وغني عن البيان أن هذا كله لم يرفع من رصيد محبة الرومان لدى السكان المحليين.

في القرن الميلادي الأول كانت تجوب دروب فلسطين وطرقاتها أعداد من الدعاة والواعظين المبشرين بقرب مجيء المسيا - المخلص: مسيح الرب، كما كان بعض هؤلاء يعلن أنه هو المسيح المنتظر. فمرة يعلن أحدهم أن مياه نهر الأردن تنشق أمامه، وأن من يتبعه ينال الخلاص، وتارة أخرى يعلن آت من مصر (حسب كتاب العهد الجديد أنهم رأوا فيه بعد ذلك الرسول بولس)، أنه يريد أن يستولي على أورشليم. وكان الرومان يستخدمون القوة المسلحة لتفريق مثل تلك الجموع. وتجدد الإشارة في هذا السياق إلى أنه لم يكن في ذلك ثمة تصورات واحدة عن شخصية مسيح الرب ودوره. فقد تخيلوه إما قائداً عسكرياً ظافراً يحقق البعث الوطني، ملكاً من سلالة داود، وإما «ابن الإنسان» مرسلاً من فوق، كما جاء في سفر النبي دانيال، وهو الذي يعني مجيئه نهاية هذا الجيل، ووقوع الكارثة، وقيام يوم الحساب الإلهي

١- بعد وفاة هيرودوس قسمت فلسطين إلى أربعة أجزاء، ومن هنا جاءت تسمية التيترارخ. وقد حكم هيرودوس انتيبا حتى العام ٤٠م، عندما سلبه الإمبراطور كاليغولا سلطته.

٢- لقد وصل الينا نقش بيلاطس البنطي من مدينة القيصرية، وفيه يجري الحديث عن بناء طيباريوم (معبد مكرس لطيباريوس؟)

الذي يتلوه ظهور «سماء جديدة وأرض جديدة». إن مثل هذا التصور عن المسيا، هو الذي كان الأكثر شيوعاً في القرن الميلادي الأول في الأوساط الشعبية الفلسطينية[1].

ولكن المسيانية ومناهضة الرومان لم تصنعا وحدة في المجتمع اليهودي، فقد كان هذا الأخير ينقسم إلى مجموعات مختلفة فيما بينها في مسائل السياسة والعقيدة الدينية. فكان الصدوقيون ينتمون إلى علية المجتمع. وقد طالب هؤلاء بالتقيد الحرفي بالشريعة، كما وردت في الكتب اليهودية المقدسة، ولم يقروا بأي إضافات أو تأويلات شفهية، ورفض الصدوقيون رفضاً قاطعاً الاعتراف بالقدرية، وأقروا بحرية الإرادة لدى كل فرد. ولكنهم رأوا في قوانين الطهارة قوانين تخص المعبد والذين يخدمون فيه فقط، وتقبلوا الثقافة الإغريقية - الرومانية، أما أغنياؤهم والمتنفذون بينهم، فقد عملوا جهدهم للابتعاد عن أي صدام مع الرومان. كما حظي الفريسيون[2] بدورهم بنفوذ شعبي واسع جداً، وكان هؤلاء قد ناهضوا هيرودوس في حينه: لقد اشتغل هؤلاء في تأويل النص التوراتي، واستخلصوا منه المعايير والقواعد التي تتوافق وحياة المجتمع المعاصر. فأضافوا إلى نص العهد القديم نصاً حول الإعفاء من الديون في العام السابع: مع ارتفاع المديونية وزيادة الطلب على القروض التجارية، كانت هذه القاعدة تجعل الأغنياء والمرابين يمتنعون مع اقتراب العام السابع، عن إقراض أي قروض نقدية. أما الآن، وبعد فتوى الفريسيين، فقد بات بإمكان القاضي أن يصدر وثيقة تعطي الدائن حق المطالبة بالمال الذي أعطاه قرضاً، كما استبدل بالمبدأ التوراتي: «العين بالعين والسن بالسن» مبدأ قائماً على التشريعات القديمة (الرومانية)، هو مبدأ دفع الغرامة. ودعا الفريسيون في غضون ذلك إلى نقاء اليهودية، ووقفوا ضد إقامة أي علاقات مع الغرباء. وخلافاً للصدوقيين اعترف الفريسيون بقيامة الأموات، والثواب في الآخرة، وخلود الروح. لكن الفريسيين أنفسهم توزعوا على عدد من التيارات: بعضهم دعا إلى ضرورة الالتزام الصارم بالشعائر المفروضة كلها، والتقيد بشكليات السلوك الظاهرية، فاستحقوا جراء ذلك اتهامهم بالمراءاة والنفاق (لا في الأدبيات المسيحية وحدها، بل في الأدبيات التلمودية كذلك). ولم تكن البنية الاجتماعية للفريسيين بنية متماثلة، فقد كان هؤلاء ينتمون من حيث الكفاية والمهنة، إلى الفئات الوسطى (تجار، وحرفيون، ومعلمون في المعابد، وفقهاء في الشريعة).

١- لمزيد من الاطلاع على الأماني المسيانية انظر مقالة تس. فربلونسكي: «المسيانية في التاريخ اليهودي» الحياة الاجتماعية والقيم الاجتماعية لدى الشعب اليهودي (بالروسية). أورشليم ١٩٧٧.

٢- يبدو أن هذه الكلمة تعني: «الذين انفصلوا»؛ ودعا الفريسيون أنفسهم «رفاقاً».

وفي أواخر القرن ١ق.م نشأت كذلك حركة راديكالية أخرى، هي حركة الزيلوتيين التي كان السيكاريون (الخنجريون) «جناحها المقاتل». وقد أعلنت هذه المجموعة حرباً لا هوادة فيها ضد روما والارستقراطيا المحلية المتعاونة معها. فلجأ الخنجريون إلى أسلوب الاغتيالات الفردية، وقتلوا من بين من قتلوا أحد رؤساء الكهنة. وكان الزيلوتيون ينتمون على وجه العموم إلى الفئات الاجتماعية الدنيا، إلى الشريحة المهمشة. وشاركوا مشاركة نشطة في الانتفاضة التي اجتاحت الجليل في أوائل القرن الميلادي الأول، ثم عدوا القوة الضاربة الرئيسة في الحرب اليهودية الأولى: انتفاضة الأعوام ٦٦-٧٠م ضد روما، والتي انتهت بهزيمتها وتدمير معبد أورشليم.

ومن بين الجماعات، والتيارات، والطوائف الدينية الفلسطينية برزت على وجه الخصوص طائفة اليسيين[1] التي أثارت في النصف الثاني من القرن ٢٠م، اهتماماً خاصاً لدى العلماء، واللاهوتيين، ودائرة عريضة من القراء في شتى بلدان العالم. وكان المؤلفون القدماء قد نقلوا لنا أخبار هذه الطائفة: فيلون الإسكندري، ويوسف فلافي، وبليني الأكبر. فحسب فلافي أن اليسيين احتقروا الثراء، وكان على من ينتمي إلى طائفتهم أن يتنازل عن كل ما يملك لصالح ملكية الطائفة. لقد كان أعضاء هذه الطائفة يعيشون في مختلف مدن فلسطين، وقبل أن يقبل أحدهم عضواً في الطائفة، كان يخضع لفترة اختبار. وبعد مضي عام على قبوله يسمح له بتلقي طقوس التطهر بالماء، لكنه يبقى مستبعداً عن المشاركة في الولائم المشتركة. وبصفته عضواً جديداً، كان على الشخص المعني أن يجتاز اختبار الصلابة والقدرة على تحمل الصعاب، فيبقى طوال عامين آخرين تحت الاختبار، ولا يقبل عضواً كامل الحقوق في الطائفة إلا إذا أكد أنه أهل لذلك (الحرب اليهودية). ووفق شهادة بليني الأكبر أن اليسيين عاشوا في منطقة تقع إلى الغرب من البحر الميت، وكان لهم نمط عيش مدهش، ومع ذلك كانت أعدادهم تتزايد يوماً بعد يوم «بفضل حشود الوافدين الذين أضنتهم الحياة».. (التاريخ الطبيعي).

وقد زاد الاهتمام بهذا الطائفة لا سيما بعد اللقى المثيرة التي عثر عليها في العام ١٩٤٧م في أحد كهوف الصحراء الفلسطينية عند الساحل الشمالي - الغربي للبحر الميت في منطقة وادي قمران. وكانت هذه عبارة عن قطع من مخطوطات قديمة. وكان عثر على المخطوطات المذكورة مصادفة، رعاة عرب حاولوا بيعها فيما بعد. ولوحقت المخطوطات ملاحقة طريدة

١- ربما تكون هذه التسمية هي الصيغة الإغريقية للكلمة الآرامية «حسيد» (= النقي)، وهو ما دعي به هؤلاء من قبل المحيطين بهم (فينبرغ ي. الدخول إلى التانات موسكو، ٢٠٠٢).

ثمينة فاشتراها هواة جمع العاديات، ووصل عدد منها إلى جامعة أورشليم حيث قدر العلماء أهميتها التاريخية. وقد اشترى قسماً منها المتروبوليت أثاسيوس راعي دير القديس مرقس السوري في الولايات المتحدة، ونقله إلى هناك. ومنذ العام ١٩٤٨م بدأ العلماء ينشرون اللفائف، كما نظمت بعثات آثارية إلى الكهوف المعنية، والمنطقة المحيطة بخربة قمران، فاكتشفت هناك بقايا منشآت (بما في ذلك حجر لكتابة المخطوطات)، وأنابيب استجرار المياه، ومخازن، ومطبخ، وفرن لصناعة الخبز. وتجيز لنا المعطيات الآثارية، والمسكوكات النقدية التي عثر عليها في المكان، أن نعيد تاريخ القرية اليسية إلى الفترة بين القرن ٢ق.م والعام ٦٨م، عندما استولى الرومان على القرية (عثر هناك على رؤوس سهام رومانية) إبان إخماد انتفاضة الأعوام ٦٦-٧٠م.

أعمال السبر الآثاري في خربة قمران

وقد تم حتى الآن تحري أحد عشر كهفاً عثر فيها على عشرات آلاف القطع التي كانت تؤلف مئات المخطوطات التي دونت في حقب زمنية مختلفة (منذ حوالي ٢٥٠ق.م حتى ٦٨م) باللغات الآرامية، واليهودية القديمة، والإغريقية، واستخدم البرغاموس مادة دونت النصوص عليها، كما استخدموا أيضاً البردى التي يرجع تاريخ تصنيفها إلى حقبة سابقة على نشوء طائفة قمران (إلى القرن ٤ق.م). وفي تشرين الثاني من العام ٢٠٠١ أعلن في مؤتمر في نيويورك عن نهاية حوالي خمسين عاماً من العمل في تشفير وثائق قمران وترجمتها، وتقديم المجلد السابع والثلاثين والأخير لتلك الترجمة.

وكان بين المخطوطات مقاطع من النص التوراتي (ما عدا سفري استير ونحميا)، ومن



إناء خزن القمرانيون فيه مخطوطاتهم

أسفار أخرى ليست أسفاراً قانونية من وجهة نظر اليهودية، لكنها مدرجة في الترجمة السبعونية للنص التوراتي (الترجمة الإغريقية له في القرون ٣-١ق.م)، إضافة إلى ترجمة آرامية لسفر أيوب. وعليه يمكننا أن نقول، إن سكان قمران استخدموا نصوصاً مقدسة من وجهة نظرهم، ولم تدرج فيما بعد في النص التوراتي القانوني. وعلاوة على هذه وصلت إلينا أيضاً كاملة أو في مقاطع، مخطوطات وضعها سكان قمران، عكست تعاليم الطائفة التي كانت تسكن هناك وبنية تنظيمها.

وحسب بعض العلماء أن المخطوطات التي عثر عليها لا تنتمي كلها إلى من كانوا يقطنون عند كهوف قمران (لقد جيء بها إلى الكهوف من مكتبة معبد أورشليم والمدن الأخرى أثناء انتفاضة الأعوام ٦٦-٧٠م)، بيد أن كثيراً من النصوص يعكس نمط عيش وتعاليم طائفة مغلقة تشبه تلك التي كتب المؤلفون القدماء[1] عنها. ومن بين الوثائق التي أنشأها القمرانيون: ميثاق الطائفة، و «حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام»، وتعليقات على الأنبياء التوراتيين، وأناشيد الشكر، و «كلمات موسى» وسوى ذلك من الكتب المقدسة.

ويبدو أن ثمة ما يكفي من الأسس التي تؤيد الفرضية التي تزعم أن اليسيين رفضوا في بادئ الأمر سياسة سلالة الحشمونيين بعد أن نالت فلسطين استقلالها. فقد تركوا فلسطين في القرن ٢ق.م وجاؤوا إلى مدينة دمشق (مقطع من وثيقة اكتشفت في دمشق يشبه محتواها رؤى اليسيين التي عكستها وثائق قمران): كان قائد هذه المجموعة شخص دعته المخطوطات بالمعلم الصالح (أو كما في ترجمة أخرى: المرشد الصالح)، وقد كان هذا ملاحقاً من قبل «الكاهن الفاسد». وحسب عدد من الباحثين أن المعلم ينتمي في الأصل إلى الوسط الكهنوتي لكنه انفصل عنه وقطع صلته به[2]. ثم عاد أفراد الطائفة من دمشق إلى فلسطين واعتزلوا في

١- عن طائفة قمران انظر: أموسين إ. د طائفة قمران موسكو، ١٩٨٣، تانكليفسكي إ. ر تاريخ الطائفة القمرانية وإيديولوجيتها. وثائق فلسطين ١٩٩٤؛ فينبيرغ ي الدخول إلى التانات، نصوص قمران وثائق فلسطين، ١٩٩٦.

٢- انظر: نصوص قمران، ١٩٩٦، المقدمة. ص ١١١-١١٣.

الصحراء. لقد كان هؤلاء يعتنقون اليهودية، لكنهم قطعوا صلاتهم بالمعبد لأن رؤساء الكهنة (دنّسوه. ودعوا أنفسهم: الاتحاد الجديد (أو العهد الجديد)، لأن العهد القديم (النص التوراتي) مع الإله قد انتهك. وثمة تسميات أخرى وردت في مخطوطاتهم: «الفقراء» - إيفيونيم، «أبناء النور» - خلافاً «لأبناء الظلام» الذين نسبوا إليهم كل من لم ينضم إليهم من الناس. كما نقف على تعاريف أخرى مثل: «البسطاء»، و «غير الضليعين»، خلافاً للمشرعين المحترفين (من الكتبيين الذين هاجمهم يسوع المسيح في إنجيله بضرواة). وما تجدر الإشارة إليه أن هؤلاء لم يدعوا أنفسهم يسيين، إنما شكلوا على الأغلب مجموعة متميزة كانت تشبه اليسيين روحياً.

وحسب الميثاق إنه كان من الصعب جداً الحصول على عضوية طائفة «أبناء النور». فقد سعى أبناء هذه الطائفة إلى الابتعاد عن العالم الخارجي، لكي «ينفصلوا عن عالم الباطل». وكان على من يود الانتماء إلى الطائفة أن يجتاز تحت إشراف كبارها، فترة اختبار مدتها عامان، ثم يقبل بعد ذلك عضواً بقرار من الاجتماع العام لأفراد الطائفة. وقد جاء في ميثاق الطائفة أن ما يملكه العضو الجديد يضم إلى أملاك الطائفة ومن حق كل فرد من أفرادها استخدامه. لقد كان ينبغي على كل فرد من أفراد الطائفة أن يعمل، ويشارك في الولائم المشتركة (بيد أنه من غير الواضح ما إذا كانت تلك الولائم منتظمة أم لا)، ويدرس النصوص المقدسة مكرساً لذلك «ثلث الليل». ولم تتضمن تلك النصوص الكتب التوراتية فقط، والتي عثر على مقتطفات كثيرة منها أثناء عمليات السبر الآثاري، بل ضمّت كذلك نصوصاً دينية كتبها القمرانيون أنفسهم. لقد تفادى أعضاء الطائفة إقامة أي شكل من أشكال التواصل مع العالم الخارجي: كان ينبغي عليهم «الابتعاد عن ناس الباطل». وقد رأوا أن معبد يهوه دنسه الكهنة، ورفضوا مبدأ تقديم الذبائح برمته، وهو ما كان معمولاً به في المعبد المذكور. فبالنسبة لهم كان روح القداسة هو الأهم، وليس «حرق اللحوم». وكانت «طريق الكمال»، أي نمط عيشهم، هي بالنسبة لهم «نعمة مباركة» أنعم الإله بها عليهم. ويتضح من ميثاقهم (٣، ١٥ وما بعدها) أن القمرانيين أقروا بما قدره الإله، لكنهم في الوقت نفسه عدوا أنه لا يمكن للإنسان أن يختار الطريق القويم بالانضمام إلى «أبناء النور» وحسب.

لقد كان طقس الاغتسال اليومي من أهم طقوس الطائفة، فقبيل تأديته مباشرة كان ينبغي على كل فرد من أفراد الطائفة أن يمارس فعل الندامة بينه وبين نفسه، ويطرد كل الأفكار والرغبات السيئة من نفسه. وكان قادة القمرانيين اثني عشر شيخاً. أما معايير الحياة اليومية المعمول بها، فقد كانت صارمة على نحو خاص: الالتزام الصارم الدقيق

بالتعليمات التنظيمية والدينية، وأي إخلال بها كان يقابله عقاب مناسب: تقليص كمية الوجبة اليومية، الحرمان المؤقت، ثم الطرد من صفوف الطائفة. وحرموا تحريماً صارماً كل شكل من أشكال التواصل مع العضو المطرود. وإذا ما «ارتعشت روح، الشخص ندماً، فإن عليه في أي حال أن ينال العقاب: الحرمان المؤقت لعام واحد، وعليه في العام التالي أن يجلس أثناء الوليمة المشتركة في آخر الصفوف. إن هذه المعايير الصارمة تبين أن تحقيق ما دعوه بالمساواة في ظل اعتزال العالم الخارجي، هو أمر غير ممكن إلا بالضغط الشديد على الشخصية الإنسانية.

أما وجود النساء في الطائفة فلا يزال مسألة غامضة. ولكن بما أن أفراد الطائفة دعوا إلى الطهارة الفيزيائية، وبما أن المؤلفين القدماء لم يتحدثوا إلا عن عضوية الرجال فيها، فإننا نستطيع أن نفترض أنه لم يكن ثمة نساء عضوات في طائفة قمران. بيد أنه تم العثور إضافة إلى مقبرة الرجال، على مقبرة أخرى منفصلة وأقل مساحة، هي مقبرة النساء: ربما كانت قد انضمت إلى الطائفة عائلات، وأدت النساء دوراً مساعداً في حياة الجماعة دون أن يكنّ على قدم المساواة مع الرجال. كما لم يعترف القمرانيون بالأقزام: لقد رأوا في التشوه الفيزيائي عقاباً إلهياً. واعتمد القمرانيون تقويماً شمسياً خاصاً بهم، مختلفاً عن التقويم اليهودي المعقد بعامه الشمسي وأشهره القمرية.

ومن حيث جوهر الأمر، كان القمرانيون على معتقدات ثنوية لأنهم رأوا أن العالم الزمني يتحكم به الشر: الباطل، المنبثق من ينبوع الظلام، على الرغم من أنهم زعموا أن الباطل بدوره من صنع الإله. فقد جاء في ميثاقهم: «لأمير النور السلطة على أبناء الحق كلهم، وسوف يجوب هؤلاء دروب النور. أما ملاك الظلام فبين يديه السلطة على أبناء الباطل، وسوف يجوب هؤلاء دروب الظلام». يجب أن يهزم الشر. لقد كان غرض الناس الذين أنشؤوا تلك الطائفة، هو الاستعداد للمعركة الفاصلة بين أبناء النور وأبناء الظلام، وهي المعركة التي سوف ينتصر فيها أبناء ويهزم أبناء الظلام، فتحل نهاية هذا العالم، وتقوم مملكة العدل. وجاء وصف تلك الحرب في مؤلف خاص جرى فيه تحديد العمليات القتالية المنتظرة التي سوف تستمر أربعين عاماً، واصطفاف جيش أبناء النور، والتكتيك القتالي الذي سوف يستخدمونه. وعد الكيتّي، أي الرومان، هم الأعداء الرئيسون، وكذلك أبناء القبائل الأخرى، أي حلفاءهم. وورد في لفيفة «حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام» وصف تفصيلي لكيفية تسليح أبناء النور، وهو ما كان يجب أن يدون على رايات أفواجهم: لقد كان القمرانيون يعدون لخوض حرب حقيقية، لكن بعون من القوى العلوية. وكان يجب أن يؤدي النصر على قوى الظلام إلى حلول يوم الحساب، إذ

يقوم الأموات من القبور، و «يستأصل الإله خدم الأوثان والدنسين كلهم من على وجه الأرض»، وينال الخلاص «أبناء الحقيقة» الذين يلتزمون بالشريعة، وينهض عالم جديد صالح. لقد اتسم الأدب الذي صنعه القمرانيون بالمجازية والتورية، وشغلت مكانة خاصة فيه الشروحات والتعليقات على النبوءات التوراتية: وضعت هذه على التصورات التوراتية الآخروية ودور القمرانيين في الحرب ضد الشر. ففي التعليقات التي وضعت على سفر حبقوق، أوّل كل ما ورد في هذا السفر التوراتي عن الإمبراطورية البابلية الحديثة في القرن ٦ق.م، على أنه نبوءة باطنية بالأحداث المعاصرة للقمرانيين، في غضون ذلك شفّر هؤلاء تعليقاتهم أيضاً.

وشغل مؤسس الطائفة، معلم الحق، مكانة متميزة في تعاليم القمرانيين. ونحن لا نعرف اسمه الحقيقي حتى الآن. وحسب أكثر المتخصصين أن هذا الرجل كان شخصية حقيقية، وتقول المؤلفات القمرانية إن «الكاهن الدنس» كان يلاحقه: ربما كان المقصود أحد رؤساء كهنة اليهود. ولم ينجح العلماء حتى الآن في تحديد أي من الشخصيتين. ووفق أكثر الرؤى شيوعاً الآن، أن معلم الحق عاش في القرن ٢ق.م، أما تاريخ وفاته فغير معروف: مع بدء دراسة المخطوطات طرح بعض الباحثين فرضية إعدامه مصلوباً، أما الآن وبعد دراسة المخطوطات دراسة متمعنة، باتت هذه الفرضية مرفوضة. كما أخذ بالتراجع أكثر فأكثر عدد المتخصصين الذين وجدوا شبهاً بين معلم الحق من جهة وموسى ويسوع المسيح من جهة أخرى، مع أن بعض سمات رؤية أعضاء طائفة قمران لشخصية معلم الحق، كان يمكن أن يكون لها تأثير على تصورات أتباع يسوع بعد نهاية حياته الدنيوية[1]. لقد كان القمرانيون على يقين راسخ بأن معلمهم كان يحظى بقرب خاص إلى الإله، وأنه تلقى الحقيقة من فم الإله مباشرة. واعتقدوا بأن الإله سوف يخلص أعضاء الطائفة «ثواباً على آلامهم وإخلاصهم لمعلم الحق». ولا يمكن حسب زعمهم، تحقيق النصر على قوى الظلام، والكفر، والطغيان، إلا إذا قام المعلم في «نهاية الأيام». وبكلمات أخرى، إنهم آمنوا بأن قيامة المعلم، واحد من أهم مقومات انتصارهم.

وربما كان هؤلاء قد تخيلوا معلم الحق هذا كموسى. فالمخطوطات تتحدث عن انتظار مسيح الرب الذي «يعرف أسرار الإنسان، والذي تحلّ حكمته على كل الشعوب.. ويتسلط على المخلوقات كلها». وقد دعي هذا المسيا مختار الإله، وامتداداً له وروح تنفسه. بيد أنه من غير الواضح إلى أي حد يمكن أن تنسب هذه الأحكام إلى معلم الحق، إذ ربما كان

١ـ من الضروري أن ننوه إلى أن كتاب العهد الجديد والأناجيل الأخرى المشابهة له من حيث الموضوع، تختلف اختلافاً مبدئياً من حيث موضوعها وأهدافها عن المعلومات المشفرة عن معلم الحقيقة.

ثمة إيمان بمجيء مسيا خاص (أو اثنين: لا هوتي وزمني)[1]، لبناء العالم الجديد، غير أن قيامة معلم الحق كانت مع ذلك الشرط الذي لا بد منه لكي ينتصر أبناء النور على أبناء الظلام. وكان تصورهم عن قرب حلول نهاية العالم يشكل جانباً مهماً في معتقداتهم تلك. لكن الإيمان بعون المسيا لم يكن مرتبطاً بالعقيدة الدينية للقمرانيين وحدهم، بل أيضاً بقناعة أكثر ناس ذلك الزمن باستحالة هزيمة الشر اعتماداً على القوى الذاتية وحدها.

لقد عثر في مكتبة قمران على وثيقة دعيت بوثيقة دمشق. ووفق هذه الوثيقة أنه كانت تعيش في المدن فرق شبيهة بطائفة يسيي قمران، وقد كانت لها ملكيتها الخاصة بها، وكانت هذه تخصص جزءاً محدداً من مدخول أفرادها لصالح الصندوق المشترك. وأطلق هؤلاء على أنفسهم تسمية «العهد الجديد» أيضاً، وكانوا ينتظرون نهاية العالم الوشيكة ومجيء معلم الحق، ومثلها مثل طائفة قمران، فقد كان على من يود الانضمام إلى أي فرقة منها، أن يجتاز فترة اختبار.

ومع أن اليسيين كانوا ضد اليهودية الأصولية، إلا أنهم شاركوا مشاركة فعالة في الانتفاضة ضد الرومان. ونحن لا نعرف على وجه اليقين ما الذي حصل لسكان قمران. ولكن على أغلب الظن أن كثيراً ممن حمل منهم السلاح ضد الرومان قد أبيد، ومن نجا منهم اختبأ مؤقتاً في آخر حصون الثائرين: قلعة مسعدة، حيث عثر الآثاريون على مخطوطات ذات منشأ قمراني، وبعد حصار مديد أضرم المدافعون عن القلعة النار فيها، ثم أنهوا حياتهم بأيديهم. وثمة فريق من اليسيين وقع في الأسر، وأبدى شجاعة ملفتة في وجه آلة التعذيب الرومانية،. وحسب يوسف فلافيوس أن اليسيين مروا على أدوات التعذيب كلها لكي يكفروا بالمشرع (معلم الحق أو موسى)، أو يأكلوا من المأكولات المحرمة. بيد أنهم رفضوا الخيارين معاً، ولم يتوجعوا لحظة أو يذرفوا دمعة أمام من كانوا يعذبونهم (الحرب اليهودية). ومن البين أن قسوة الرومان إنما تعكس المشاركة الفعالة لهذه المجموعة في العصيان. أما من بقي منهم على قيد الحياة، فعلى أغلب الظن أنهم ساروا أسرى في مهرجان النصر الذي أقيم للظافر تيطوس ابن الإمبراطور فسباسيان في شوارع روما، ثم بيعوا بعد ذلك عبيداً. وقد يكون الحظ قد حالف بعضهم فنجا من ذلك كله.

ويفترض كثير من الباحثين المعاصرين، أن تعاليم قمران كان لها تأثير كبير على المسيحيين الأوائل. فالتصورات عن نهاية العالم، ومناهضة الشر، والعقيدة المسيانية، والموقف الحاد ضد الثراء، والتداخل الخاص بين القدرية الإلهية وقدرة كل فرد على اختيار الطريق

١- فينبرغ ي الدخول إلى التاناك

الصح لخلاصه، وهذا كله من سمات الحركتين، اليسية والمسيحية. كما يتميز أيضاً موقفهم من البساطة، والسذاجة، و «فقر الروح» (لاحظ التعبير الإنجيلي: «الفقراء بالروح»)[1].

ونحن نستطيع إلى حد معلوم أن نتحدث عن تطابق بعض شخصيات الأدب المسيحي المبكر مع كتابات القمرانيين، ففي هذه وذاك (رسالة بولس إلى اليهود) نقف مثلاً، على شخصية ملكي صادق، الملك الكاهن الذي حكم حسب الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين التوراتي، قبل داود بزمن طويل. لقد كان على ملكي صادق أن ينتقم لقوانين الرب (ممن انتهكوها؟) ففي رسالته إلى اليهود (أي إلى اليهود المسيحيين)، يقارن بولس ملكي صادق لاهوتياً، بيسوع المسيح، لكي يربط بين تعاليمه ومعتقدات الجماعة التي وجه رسالته إليهم. كما تتفق المسيحية مع إيديولوجيا القمرانيين بإدانتها الحاسمة لمبدأ تقديم القرابين.

ويعتقد الباحثون أن يوحنا المعمدان كان من الذين ارتبطوا بطائفة قمران، فهو الذي جاء من الصحراء (= البرية في الإنجيل. - م). ودعا إلى الطهارة والمعمودية بماء نهر الأردن المقدس. ويجوز لنا القول، إن يوحنا الداعية هذا، مثله مثل يسوع المسيح، لم يوافق على انغلاق «أبناء النور» على أنفسهم: لقد فضح يوحنا سلطة الأثرياء ودعا الشعب كله إلى ضرورة التطهر استعداداً لمجيء المسيا. وهناك وجهة نظر تزعم أن المسيح بدوره قد اتصل بالقمرانيين أثناء إقامته في البرية. وفي الوقت نفسه يبرز عدد من المعلقين على المخطوطات القمرانية، التباين بين اليسية والمسيحية؛ فقد كتب مؤلفو «مقدمة الطبعة الثانية لنصوص قمران» يقولون: «.. بصرف النظر عن التشابه الظاهري بين تفاصيل تنظيم الطائفتين، وبغض النظر عن تطابق المصطلحات أحياناً، وبعض الأشكال الطقوسية المتشابهة التي ترجع أصولها إلى الممارسة الدينية اليهودية، إلا أن الطائفة المسيحية والمنظمة القمرانية متناقضتان تماماً من حيث الروح والأهداف. فالقمرانيون لم يعرفوا مفهوم مغفرة الخطايا بالمغزى المسيحي». ونحن إذ لا نشارك الرأي أولئك الذين يقطعون بنفي وجود أي صلة بين القمرانيين والمسيحيين الأوائل، إلا أننا مع ذلك نرى أنه يمكن القول، إن التباين الأساس بينهما يتمحور حول الإيمان بكون مجيء المخلص قد تم، وإنه جاء ليقدم نفسه ذبيحة لخلاص العالم. لقد كان يسوع وتلاميذه على معرفة جيدة بتعاليم القمرانيين، بل وحسبوا لها الحساب أيضاً، وهو ما يشهد به الحوار الخفي مع الطائفة القمرانية المغلقة، الذي جرى على لسان المسيح في موعظته على

١ـ من الواضح أن هذا التعبير الذي لا نجده في النص الإغريقي للإنجيل الا في إنجيل متى، ما هو إلا ترجمة حرفية للتعبير الآرامي عينه (نجده في مخطوطات قمران). فاللغة الإغريقية لا تعرف مثل هذه الصيغ قواعدياً.

الجبل: «أنتم نور العالم. إن المدينة التي تقوم في أعلى الجبل لا يمكن ألا ترى ومن يشعل شمعة لا يضعها تحت القدر، بل على الشمعدان لتضيء لكل من في البيت» (متى). وترد الفكرة هذه عينها في إنجيل توما الذي اكتشف بعد نهاية الحرب العالمية الثانية: «ما تسمعه بأذنك خبر به الأذن الأخرى من أعلى سقفك. لأن أحداً لا يشعل القنديل ويضعه تحت القدر، ولا أحد يضعه في مكان خفي»[1]. ومن الواضح أن النصين يشبه أحدهما الآخر لا من حيث المغزى فقط، إنما بالتعابير المستخدمة أيضاً، ويبدو كذلك أنهما ينتميان إلى أقدم التقاليد المسيحية. وربما لم تكن تعاليم القمرانيين قد أثرت في يسوع عينه بقدر ما أثرت في حوارييه، لا سيما بعد أن أخذوا يضعون مؤلفاتهم المكتوبة الأولى التي استخدموا فيها الصيغ والصور الأدبية اليهودية، بما فيها تلك التي استخدمتها الطوائف. فثمة تشابه واضح بين الكتاب اليهودي المنحول: وصية الاثني عشر حبراً، الذي عثر عليه في قمران، وبين أناجيل العهد الجديد. فقد جاء في وصية يوسف: «... كنت جائعاً والرب أطعمني؛ ... كنت مريضاً والرب عادني، وكنت سجيناً فمنحني إلهي عطفه، وكنت مغلولاً فحررني الرب من قيودي»؛ وجاء في إنجيل متى: «لأني كنت جائعاً فأطعمتني، عطشاناً فسقيتني.. ومريضاً فعدتني وسجيناً فزرتني». كما كان يمكن أن يكون لمخطوطات قمران نفسها تأثير مباشر، فأكثرها وضع قبل أناجيل العهد الجديد. وفيما بعد، مع صيرورة المسيحية إلى دين عالمي وانفصالها عن اليهودية، باتت التباينات أكثر قوة ووضوحاً، ولكننا نستطيع أن نوافق إ. د. اموسين مؤلف بحث «طائفة قمران» رأيه بأن تعاليم القمرانيين أدت ما يشبه دور «الوسيط» بين اليهودية الأصولية والمسيحية. فقد عكست تعاليم القمرانيين سعي المجتمع اليهودي عشيه حلول العصر الجديد، بحثاً عن بنى فكرية ودينية جديدة، ففي تلك اللحظة التاريخية (عشية بدء التأريخ الميلادي)، اصطدم سكان فلسطين بالتأثير العميق للثقافة الهلنستية، والصدامات السياسية مع العالم الخارجي، والصراع الإيديولوجي داخل المجتمع الفلسطيني نفسه، والشكليات التي حاول بعض فرق الفريسيين فرضها على المجتمع، والمساومات التي جرى عقدها مع سلطات خدم المعبد. ولم يكن انعزال الفرق في الصحراء سوى واحد من الردود على التبدلات التي حصلت في العالم المحيط، لكن سبيل الانعزال هذا لم يكن له من حيث الجوهر أي أفق مفتوح. فأفكار اليسيين - القمرانيين باتت مؤثرة فقط بعد أن اعتنقها الناس مباشرة أو عبر دعاة وسطاء جعلوا فكرة نهاية العالم وقيام مملكة الإله في متناول الناس.

١- لقد نشر انجيل توما بترجمة م. ك تروفيموفا مع شروحات مسهبة، في كتاب: منحولات المسيحيين الأوائل. موسكو، ١٩٨٩.

الفصل الرابع

ظهور المسيحية:
يسوع وتلاميذه

تتيح لنا دراسة مخطوطات قمران، وكذلك شهادات المؤرخين بصدد الجماعات الدينية - الاجتماعية في فلسطين، وآمالها المسيانية والآخروية، تتيح لنا أن نشكل تصوراً عن الوضع الاجتماعي - السياسي والروحي في تلك البلاد التي كانت أخذت تبزغ فيها تعاليم جديدة، حتى الآن داخل إطار اليهودية، بيد أنه كان مقدراً لها أن تصير إلى ديانة عالمية جبارة. ولكن من الصعب أن نقدم وصفاً دقيقاً لعمل مؤسس تلك التعاليم وأتباعه الأوائل، أولاً وقبل كل شيء بسبب طابع المصادر وأغراضها وتسلسلها التاريخي. فثمة معلومات عن الخطوات الأولى للمسيحية يتضمنها مختلف المؤلفات: الأناجيل (ومنها أناجيل لا تنتمي إلى مجموعة إنجيل العهد الجديد)، والرسائل التي كتبها الحواريون أو كتبت بأسمائهم، وأعمال الرسل (تلك التي تندرج في الإنجيل الرسمي، وتلك التي لم تعترف بها الكنيسة)، والرؤيا. وفي القرن ٢م جمعت مجموعات من المؤمنين جزءاً من تلك الكتابات في إنجيل العهد الجديد الذي أقر فيما بعد بصفته كتاباً مقدساً لدى الكنيسة المسيحية التي رفضت الاعتراف بالكتب الأخرى كتباً مقدسة. ولكن هذه المؤلفات كلها كانت قد أنشأتها شتى الطوائف المسيحية بعد عقود من صلب المسيح: على امتداد ما يقارب الخمسين عاماً كانت المسيحية تنتشر بفضل المواعظ والروايات الشفهية عن يسوع. أما يسوع نفسه فلم يكتب أي شيء، بل لم يوص بضرورة تدوين مواعظه أو سيرة حياته. فبالنسبة له ولأتباعه الأوائل، كان النص التوراتي: الشريعة والأنبياء، هو الكتاب المقدس الوحيد. ضف إلى هذا أن الجيل الأول من المسيحيين كان يؤمن بأن نهاية العالم وشيكة، ولذلك لا جدوى من التدوين، وفي

بادئ الأمر لم يكن لكلمة «إنجيل»: البشارة المباركة، مغزى العمل المكتوب (انظر على سبيل المثال رسالة بولس إلى أهل غلاطيا: «الإنجيل الذي بُشر به»).. وعلاوة إلى هذا ينبغي أن نأخذ بالحسبان أن المدونات المسيحية لم تكن تسعى إلى استعادة سيرة حياة يسوع، بل إلى تحقيق غايات تعليمية ودينية. وتكمن صعوبة تحليل مثل هذا النوع من المصادر في أن التباين فيما بينها أو صمتها عن هذه الحقائق أو تلك، لا يعني أن كاتبها لم يكن على علم بالواقعات المعنية، بل يعني أنه انتقى منها ما رأى أنه ذو أهمية، وأن هذا هو ما يريد القارئ معرفته أو المتلقي سماعه (ربما كانوا يقرؤون الأناجيل في اجتماعاتهم العامة). وفي غضون ذلك لم يكن المؤلف يفصح دوماً عن مقاصده بطريقة واحدة. فقد كان مثل هذا الأمر يرتبط بقدراته الأدبية، ومعرفته بالوضع الذي كان يصفه، وبخصائص العرض الذي جاء في بعض الحالات حاملاً تناقضات لم تكن ناتجة عن قلة اطلاع المؤلف بل عن ضعف قدرته على التعبير بدقة. وعدا عن الانتقائية المقصودة وتأويل كل مؤلف لهذه الأحداث أو تلك، فإن هناك أيضاً السمات السيكولوجية لكل ذاكرة وتحول التقليد الشفهي إلى تقليد مدون. فذاكرة الإنسان لا تكتفي بمجرد استعادة الحدث، بل تعيد صنعه بصورة خلاقة. ولذلك قد يؤدي التناقل المديد للواقعة إلى فقدانها واقعيتها، أما الوهم فإنه على الضد، قد يتحول إلى حقيقة. ولا يتغير التقليد الشفهي، ولكن تحويله إلى تقليد مدون قد يحدث خللاً في تتابع العرض، ومع ذلك فإن هذا لا يحدث عندما يجري الحديث عن مؤلفات تاريخية بل عن مؤلفات دينية. ومن البين أن التقليد الديني (وهو التقليد الأكثر محافظة)، هو الذي حمل إلينا أهم أحداث حياة مؤسس المسيحية وتعاليمه، ولكن زمناً لا بأس به مر قبل أن يتحول هذا التقليد إلى تقليد مبجل بالمعنى الدقيق للكلمة. وقد دارت إبان ذلك الزمن نقاشات ونزاعات بين مختلف فرق المسيحية، كما بين بعض دعاتها.

ومع ذلك فإننا إذ نجمع بين تحليل نص أناجيل العهد الجديد ونص الأناجيل التي لا تقر بها الكنيسة، نحاول أن نستخلص معطيات عن بدء صيرورة المسيحية، وعن أولئك الذين رافقوا بزوغ نبتها الأول. ونستطيع على وجه الخصوص أن نقر دون تردد بصحة الأخبار التي ترقى إلى التقليد المسيحي الأقدم، وهي الأخبار التي تواتر ورودها في المصادر كلها (مثلاً: صلة يسوع المسيح بالجليل والناصرة)، وتتوافق مع الموقف التاريخي العام ولا تحمل مغزى لاهوتياً أو وعظياً خاصاً.

أما فيما يخص المصادر غير المسيحية، فإن المسألة التي تحظى بالاهتمام الأكبر، هي تلك المتعلقة بشهادة يوسف فلافيوس عن المسيح. ففلافيوس هذا كان الأقرب إلى زمن ظهور يسوع. وكرس في بحثه: «العاديات اليهودية» (النص الإغريقي)، فقرة من الكتاب الثامن عشر للحديث عن يسوع. ولكن أكثر العلماء رأى في كلمات فلافيوس تلك تزويراً أدخله ناسخ مسيحي متأخر على النص الأصلي، لأن المؤرخ سمى يسوع بالمسيح، وتحدث عن قيامته من الأموات كأنها واقعة حقيقية حدثت فعلاً، وهو أمر لا يعقل، لأن فلافيوس كان يهودياً مؤمناً وقريباً من فرقة الفريسيين، عداك عن أن هذا اليهودي الأسير المقيم في قصر الإمبراطور الروماني الذي دمر انتفاضة اليهود، لم يكن قادراً على أن يعترف صراحة بأي مسيا: مسيح الرب. وفي مكان آخر يشير فلافيوس إشارة عابرة إلى إعدام يعقوب أخ يسوع المدعو مسيحاً حرفياً: «الذي يقولون إنه المسيح».

وربما يكون هذا النص المزور قد أدخل على النص الأصلي في أواخر القرن ٣ وأوائل القرن ٤م. فالكاتب المسيحي أوريجينوس (ولد في العام ١٨٥م)، لام يوسف فلافيوس لأنه لم يعترف بيسوع مسيحاً[1]، ثم اقتبس المؤرخ الكنسي يوسفوس الذي كتب أعماله في القرن ٤م، هذا النص المزور عن فلافيوس. ولذلك ظهرت في الميدان العلمي منذ أوائل القرن ٢٠م. نظرية أكدت أن المزور لم يبن تزويره هذا على فراغ، إنما فقط صحح النص الأصلي الذي كتبه فلافيوس وأضاف إليه بعض تعابير المديح الدينية. ومع ذلك مر زمن طويل دون أن ينجح أحد في استعادة النص الأصلي.

وفي العام ١٩٧١ نشر أحدهم مخطوطاً قرسطوياً كتبه باللغة العربية الأسقف أغابيوس. وقد تضمن هذا البحث (دعي باسم «الحوليات الكونية»، لكنه تطرق أساساً إلى التاريخي المسيحي فقط)، كثرة من النصوص المقتبسة عن مختلف المؤلفين الذين كتبوا عن يسوع، بما في ذلك النص المنسوب إلى يوسف فلافيوس، وقد أشار الأسقف صراحة إلى فلافيوس هذا بصفته مؤلف النص المذكور. لكن مقارنة النص الإغريقي بالنص العربي تفيد بأن أغابيوس قد استخدم مخطوطاً ما غير المخطوط الذي وصل إلينا، وربما كان المخطوط الغائب هو الذي نقل المغزى الأصل لكلمات يوسف فلافيوس. وهاكم مقارنة النصين:

١- «ضد سيلس» و«تعليقات على إنجيل متى».

الترجمة الإغريقية	ترجمة نص أغابيوس
في ذلك الزمان عاش يسوع، إنسان حكيم، إذا كان يمكن في الأصل أن ندعوه إنساناً، فقد أتى أموراً غير عادية، وكان معلماً للناس الذين تقبلوا الحقيقة بفرح. لقد جذب إليه كثيراً من اليهود والهللينيين (بمعنى الوثنيين). لقد كان هو المسيح. وحينما حكم عليه بيلاطس بالصلب بناء على اتهام شيوخنا، بقي الذين أحبوه منذ البداية، مخلصين له. وفي اليوم الثالث ظهر لهم حياً، لأن أنبياء الرب تنبؤوا بهذا وبكثير من المعجزات الأخرى عنه.	في هذا الزمان عاش إنسان حكيم دعوه يسوع، وكان عيشه مستقيماً واشتهر بالعفة. وصار كثير من اليهود إلى تلاميذ له. وحكم عليه بيلاطس بالصلب والموت. لكن أولئك الذين صاروا تلاميذه، لم يتخلوا عنه. وقد أعلن هؤلاء أنه ظهر لهم حياً في اليوم الثالث بعد صلبه. ويفترضون أنه كان هو عينه المسيح الذي تنبأ الأنبياء بمعجزاته.

من الواضح أن يد الناسخ لم تمس نص أغابيوس، وتظهر مقارنة النصين أن المسيحي الغيور لم يفعل شيئاً في النص الإغريقي سوى أنه «دققه، قوّمه»، ولم يختلق كلمات على لسان المؤرخ الذي سعى إلى أن يكون موضوعياً. فبالنسبة إليه أن يسوع هو شخص عفيف تقي آمن أتباعه به مسيحاً مخلصاً، ولا شك في أن يسوع بشر بالحقيقة. أما بالنسبة لمسيحيي بداية القرن ٤م، فقد كان يسوع ابن الإله، تجسيداً لكلمة الإله (وربما كان هذا الناسخ لا يعترف بالطبيعة البشرية ليسوع أصلاً). ومن الواضح كذلك أن ما ورد بالنسبة لشيوخ اليهود مزور بدوره. وقد يكون أغابيوس قد ترجم المقطع من «العاديات اليهودية» إلى اللغة العربية ملتزماً دقة النص الذي ترجمه دون أن يضيف أي كلمة أخرى إليه.

وثمة في حوليات تاسيت ذكر للمسيحيين الذين كانوا في روما زمن نيرون. وقد اتخذ المؤلف منهم موقفاً سلبياً جداً: «... أولئك الذين أكسبتهم خستهم ودناءاتهم كرهاً عاماً، إنهم أولئك الذين يدعوهم الحشد مسيحيين. وكان القاضي بيلاطس قد أعدم في عهد الإمبراطور طيباريوس المسيح الذي تتمي تسميتهم إليه». وكتب المؤرخ الروماني سفيتونيوس في سيرة حياة الإمبراطور كلاوديوس، أن هذا الأخير طرد اليهود المولعين بالمسيح من روما. ولا شك في أن هذه المعلومات مثلما معلومات مؤرخي القرن ٢م الرومان الآخرين، لها أهميتها بالنسبة لدراسة عصر انتشار المسيحية في أمداء الإمبراطورية الرومانية، إلا أنها لا تعطي سوى القلة القليلة عن عصر بداية التعاليم الجديدة، ولذلك سوف نتوقف عندها أثناء روايتنا لقصة حياة المسيحيين بعد صلب يسوع.

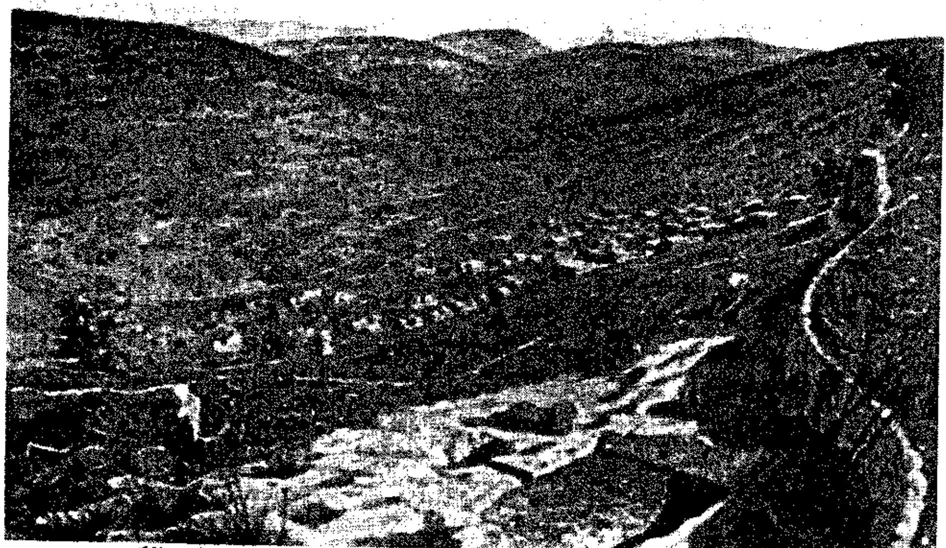
وهناك أيضاً الرواية اليهودية لقصة ظهور المسيحية، وكان قد عرضها كاتب القرن ٢م. سيلس، الخصم اللدود للمسيحية، في مؤلفه: «الكلمة الصادقة». لكن هذا المؤلف لم يصل إلينا كاملاً، إلا أن أوريجينوس ساق منه نصوصاً مسهبة في مؤلفه: «ضد سيلس»[1].

وحسب رواية سيلس التي استندت إلى معطيات اليهود، أن يسوع كان ابناً للغزالة الفقيرة ماريا، التي كان زوجها نجاراً، ولكنها لم تنجب ابنها يسوع منه، بل من جندي روماني فار من الخدمة يدعى بانتر. وكان يسوع يعمل عاملاً مياوماً في مصر، فتعلم فيها فنون الشعوذة، ولما عاد إلى فلسطين أعلن نفسه إلهاً. وبعد أن انتقى لنفسه أكثر الناس «بؤساً وإحباطاً»، شرع يجوب في شتى أرجاء فلسطين. ولما كشف اليهود حقيقة أمره، حكموا عليه بالموت فتشرد متخفياً إلى أن ألقي القبض عليه بخيانة من تلاميذه وبعد أن نفذ به حكم الإعدام سرق تلاميذه جثمانه. وثمة في التلمود أيضاً معطيات عن يسوع تتوافق من حيث الأساس مع ما ورد عند سيلس: يسوع بن باندير كان ابن الندافة ماريا وباندير، عشيقها، وقد تعلم هذا اليسوع (يزعمون أنه يدعى هناك أيضاً باسم بن ستاد، لكن ربما كان الحديث يجري عن شخصين مختلفين)، السحر في مصر فرجموه بالحجارة وعلقوه عشية الفصح.

إن تعاملنا مع هذا النوع من المعلومات ينبغي أن يتميز بالحذر الشديد، لأنها تمثل إلى حد كبير تقليداً مسيحياً مشوهاً مقلوباً رأساً على عقب أضيف إليه كم من التفاصيل المتحيزة (كما على سبيل المثال، الإدعاء بأن يسوع رجم بالحجارة بناء على قرار اليهود). ومن الواضح أن الرواية التي ساقها سيلس تهدف في هذا السياق إلى إثبات مناهضة اليهود المؤمنين لتعاليم يسوع (فالرجم بالحجارة يتطلب مشاركة كثرة من الناس)، وأن إعدامه كان إعداماً يهودياً خالصاً، وأنه لم يصلب حياً وفق التقليد الروماني، بل علق على الخشبة بعد موته كما كان معمولاً به لدى اليهود. وبذا لم يكن لبيلاطس البنطي أي دور في موت يسوع. واستبدلت في نص سيلس أيضاً بخيانة تلميذ واحد هو يهوذا الإسخريوطي، خيانة التلاميذ كلهم لمعلمهم يسوع. وبكلمات أخرى، لقد عمل سيلس واليهود الذين كانوا مصدر معلوماته، على تقديم الحركة التي ارتبطت باسم يسوع، على أنها فعلاً أتته جماعة صغيرة من الناس الذين لم يكن عدد أنصارهم كبيراً، ضف إلى هذا أنهم كانوا أفراداً فارين من وجه العدالة. والغرض عينه كان يكمن خلف ذلك التفصيل المعيشي الصغير: مهنة والدة يسوع. فالمرأة التي كانت تعمل لتحصيل لقمة العيش، لم تكن تحظى بكبير احترام في العالم القديم، أما الغزالة والندّافة فلم يكن يحظين بأيّ احترام قط. ومع هذا فإننا لا نستطيع أن ننكر أن

١- انظر: أ. ب. رابينوفيتش. المصادر الأولى في تاريخ المسيحية المبكرة. موسكو، ١٩٩٠.

التنويه إلى مهنتي ماريا هاتين، أمر يعكس واقع الأشياء: لقد كان ينبغي أن يكون الإنتاج الحرفي الصغير موجوداً في بلدة صغيرة كالناصرة، حسب رأي كثير من الباحثين في الوضع الاقتصادي الفلسطيني، وبالكاد كان بمقدور امرأة أن تحصل على لقمة عيشها من عمل أكثر كفاءة. ويتضح من إنجيل مرقس أن ماريا كانت امرأة وحيدة عندما كان نشاط يسوع في أوجه، إذ جاء هناك أنه لما جاء يسوع إلى الناصرة مع تلاميذه، قال سكان البلدة: «أليس هذا هو النجار ابن مريم أخو يعقوب، ويوشع، ويهوذا، وسمعان؟». ونحن يجب ألا نغفل الإشارة إلى أن سيلس على الرغم من عدائه الشديد للمسيحية، إلا أنه لم ينكر حقيقة نشاط يسوع، وصدامه مع قيادة كهنة معبد أورشليم.



في القرن الاول الميلادي كانت الناصرة قرية يعيش سكانها المائتا نسمة على زراعة الكرمة. تصميم

ونحن استناداً إلى كل المعطيات الممكنة المستقاة من شتى المصادر المسيحية منها وغير المسيحية، يمكننا أن نحاول رسم صورة محتملة لبروز يسوع وسمات تعاليمه. فالوضع الاجتماعي والديني في فلسطين على وجه العموم، كان قد مهد سبيل ظهور جماعة دينية أخرى داخل إطار الدين اليهودي. وقد كان يوحنا الذي أخبرنا يوسف فلافيوس عنه، والذي دعاه الإنجيل باسم يوحنا المعمدان، واحداً من الدعاة الذين أدوا دوراً في صيرورة هذه المجموعة. فقد بدأ المعمدان دعوته في برية اليهودية؛ وحسب إنجيل لوقا، أن يوحنا المعمدان أقام في البرية «حتى يوم ظهوره لإسرائيل». ويرى أكثر الباحثين أن يوحنا هذا كان مرتبطاً بطائفة قمران. ولكن خلافاً للقمرانيين تحولت بشارته إلى بشارة علنية، وقد يكون قاسم القمرانيين كثيراً

من أفكارهم، إلا أنه تبنى موقفاً رافضاً لانغلاق الطائفة، فتركها (أو ربما طرد منها). وحسب أناجيل العهد الجديد أن يوحنا المعمدان بشر بقرب مجيء المسيا الذي سيطرد الشر من الأرض: «فأسه عند أصل الشجرة، وكل شجرة لا تعطي ثمراً تقطع وتلقى في النار.. مذراته بيده وهو ينظف بيدره ويجمع قمحه إلى مخزنه، أما التبن فيحرق بنار لا تنطفئ» (متى). ووصف الفريسيين «بأبناء الضّغينة». وما يثير الاهتمام أن النص عينه من سفر أشعياء يرد في ميثاق طائفة قمران («اعدوا طريق يهوه في البرية، مهدوا درب الرب إلهنا في السهوب»)، وفي إنجيل متى حيث ينطق به يوحنا: «... صوت صارخ في البرية: أعدوا طريق الرب، مهدوا سبيله» (متى).

لقد عاش يوحنا حياة زهد وتقشف. وتقول أناجيل العهد الجديد، إنه كان يرتدي رداء من وبر الجمال وحزاماً جلدياً، وكان يقتات الجراد والعسل البري (متى؛ مرقس). والحقيقة أن الإنجيل الذي يدعى إنجيل البيونيتيين (= الفقراء»)، وهو الإنجيل الذي وضعه اليهود المسيحيون في زمن مبكر جداً، يقول: إن يوحنا كان يقتات بالعسل البري الذي يشبه طعمه طعم المن، وأرغفة بالسمن[1]. وليست مقارنة ما كان يقتات به يوحنا بالمن، وهو القوت الذي تقول الخرافة التوراتية إن الإله أرسله إلى «بني إسرائيل» من السماء عندما كانوا يجوبون الصحراء (خروج)، ليست سوى مقارنة خفية بالإنعام الإلهي، وكأني بهم يؤكدون بذلك على اصطفاء يوحنا.

لقد دعا يوحنا الشعب إلى أن يتوب ويتطهر من آثامه قبيل مجيء المسيا. وكان يجب أن ينعكس مثل ذلك التطهر في الاغتسال الطقوسي (= المعمودية)، في نهر الأردن. وكتب يوسف فلافيوس يقول، إن يوحنا كان يعظ الناس بأن يعيشوا حياة البر والعفة، ودعاهم إلى المعمودية. فهذه الأخيرة تكرّس الجسد في الطهارة بعد تنقية الروح بفضل فعل الندامة. وأخذ الناس يتوافدون على يوحنا جماعات، لأن «تعاليمه سمت بأرواحهم». فخلافاً للقمرانيين الذين كانوا يؤدون طقس الاغتسال بانتظام، دعا يوحنا الذي كان متقيناً من أن مجيء المسيا بات وشيكاً، إلى التطهر مرة واحدة قبيل ظهوره وحلول نهاية العالم.

لقد كان مصير المعمدان مأساوياً. فوفق رواية يوسف فلافيوس أن هيرودوس أنتيبا حاكم الجليل باسم والده هيرودوس الكبير، بات قلقاً من أن يفضي تأثير يوحنا الكبير على

1- من الواضح أن العسل البري الذي له طعم المن لم يكن عسل نحل، إنما عصير شجري ما. ولكلمتي جراد ورغيف لفظ متشابه في اللغة الإغريقية. وعلى أي حال يصعب علينا أن نعرف على وجه اليقين ما الذي كان يأكله المعمدان في البرية.

الحشود، إلى ما لا تحمد عقباه. ولذلك أمر بالقبض عليه وإيداعه السجن ثم إعدامه. ووفق روايات العهد الجديد، أن يوحنا ناهض هيرودوس انتيبا هذا نفسه وزوجته هيروديا، إذ اتهمهما بسفاح القربى: لقد سلب هيرودوس أخاه زوجته هيروديا وتزوجها. وثمة خرافة تزعم أن هيرودوس أقام زمناً لا يحسم أمره على إعدام النبي السجين. ولكن في أثناء إحدى ولائمه رقصت سالومي ابنة هيروديا أمام زوج أمها رقصة أعجب هيرودوس بها إعجاباً شديداً، فوعد الفتاة بأن يلبي لها أي طلب تطلبه. عندئذٍ طلبت سالومي بتحريض من أمها هيروديا، رأس يوحنا المعمدان، فوجد هيرودوس نفسه مرغماً على قتله. وقد كتب متى في إنجيله يقول: «وجاؤوا بالرأس على صينية وقدموها للفتاة، فحملتها إلى أمها». ولم يكن يوحنا وحيداً، فقد كان حوله مجموعة من التلاميذ (أشار إليهم متى في إنجيله)، الذين واصلوا تعاليمه ودعوا إلى التقشف. وكان هؤلاء هم من دفن جثمان يوحنا القتيل.

وحسب الأناجيل كلها، القانونية منها وغير القانونية، أن يسوع الجليليّ كان واحداً ممن تقبلوا طقس المعمودية في نهر الأردن. ونحن لا نعرف إلا قليلاً عن حياة يسوع (= يشوع) قبل معموديته، فالروايات التي نقلتها الأناجيل التي تدعى «أناجيل الطفولة»، لا يمكن الركون إليها (لم توضع قبل النصف الثاني من القرن ٢م)، وينسحب هذا حتى على إشارتها إلى مكان ولادة يسوع وتاريخها. فلم يخبرنا عن مولده سوى إنجيلي متى ولوقا، أما إنجيل مرقس فإنه مثله مثل الأناجيل اليهودية - المسيحية المبكرة، يبدأ روايته من لحظة ظهور يوحنا ومعمودية يسوع على يديه. ومن حق المؤرخين أن يرتابوا في صحة رواية مولد يسوع في بيت لحم زمن الإحصاء الذي أجراه الرومان لسكان فلسطين. فالسلطات كانت تجري الإحصاء من وقت لآخر بهدف ضبط جباية الضرائب. ولذلك كان ينبغي أن يكون تسجيل الشخص في مكان إقامته. ولا ريب في أن المؤرخ المعاصر ج. كروسان محق في قوله، إن الذهاب إلى المكان الذي كان يعيش فيه الأسلاف، ثم العودة إلى مكان الإقامة، كان يمكن أن يثير أثناء تحرك السكان، لا سيما في القرن ١م، «كابوساً بيروقراطياً» رهيباً[1]. لقد كانت مدينة بيت لحم مرتبطة بذكرى الملك داود الذي كان ينبغي حسب النبوءة، أن يخرج المسيا من سلالته، ويولد في بيت لحم (لقد ساق متى نبوءة النبي ميخا بهذا الصدد: «وأنت يا بيت لحم التي في أرض يهوذا، لست أقل شأناً من أرض يهوذا الأخرى؛ فمنك يخرج الراعي الذي يرعى شعبي: إسرائيل - متى). ولذلك ليس غريباً أن دعا الإنجيليون المكان الذي ولد فيه يسوع، بيت لحم لا سيما أن معلوماتهم عن حياته قبل معموديته، كانت قليلة. ولكن الرواية المتداولة

1- Crossan J.D Jesus Rovolutoronary Biography San Francicko, 1995, p. 20.

عن الناصرة حيث كانت تعيش عائلة يسوع (وحيث ربما يكون هو نفسه قد ولد)، هي رواية لا تثير لدينا شكوكاً: لقد كانت تلك بلدة صغيرة لا أهمية لها، منسية إلى درجة أن النص التوراتي لم يأت على ذكرها البتة. ويرى بعض المؤرخين أن الناصرة لم يكن لها وجود أصلاً في القرن الميلادي الأول. ولكن أعمال التنقيب الآثاري كشفت عن آثار مستوطنة في المكان الذي قامت عليه الناصرة، يرجع تاريخها إلى القرون الأخيرة السابقة على التأريخ الميلادي. كما عثر أيضاً على نقش أحصيت فيه الأماكن التي توزع عليها الكهنة بعد دمار أورشليم على يد الرومان في العام ٧٠م. وقد ورد اسم الناصرة بين تلك الأماكن. ولم تكن للناصرة أهمية تذكر في ميدان التعاليم الدينية، ولذلك فإن الرواية التي رويت عن يسوع الناصري، هي رواية صحيحة. فوفق التقليد الراسخ الذي كرسته الأناجيل ومؤلفات المناصرين (بخاصة كاتب القرن ٢م يوستين) أن يسوع كان ينتمي إلى عائلة نجار، وربما عمل في هذه المهنة في سني فتوته (لقد جاء في إنجيل مرقس: «أليس هذا هو النجار»). وحسب «دفاع» يوستين أن يسوع كان يصنع أدوات زراعية، أي أنه كان من فئة صغار الحرفيين (أو ابن واحد منهم)، المرتبطين بالإنتاج القروي. وكقاعدة كان مثل هؤلاء الحرفيين في الأصل فلاحين أفلسوا، وفي الجليل على وجه الخصوص، كانت أعدادهم كثيرة بسبب نهوض حركة بناء المدن التي بلغت ذروتها في عهد هيرودوس أنتيبا. ومن المعروف أن صغار الحرفيين كانوا يشكلون في أكثر مقاطعات الإمبراطورية الرومانية شريحة دنيا متوسطة بين الفلاحين والحثالة البروليتارية. وكانت عائلة يسوع كبيرة بما يكفي، فقد ذكرت الأناجيل بالأسماء، أربعة من أخوته، علاوة إلى أخواته اللواتي لم تذكر أسماؤهن. ومن المعروف أن أخاه يعقوب أدى فيما بعد دوراً قيادياً في طائفة أورشليم؛ كما روى يوسفوس القيصري عن ملاحقة السلطات الرومانية أحفاد أخ يسوع، يهوذا، بسبب انتمائهم إلى المسيحيين. ولكن درجة القرابة بين يسوع وأخوته وأخواته أثارت لدى الكتاب المسيحيين في القرون ٢-٤م،


القارب الجليلي في القرن الأول الميلادي

خلافات ونقاشات أسفرت عن طرح فرضيات مختلفة ارتبطت بنشوء تبجيل ماريا، التي يفترض أن تكون قد حافظت على عذريتها بعد أن ولدت يسوع. ولم تطرح هذه المسألة على بساط البحث قط لدى الإنجيليين الأوائل، كما لم يكن ثمة وجود وقتذاك لعبادة والدته. وفي إنجيل متى يدعى يسوع بكر ماريا. وابتداءً من القرن ٢م يظهر يعقوب وباقي أخوته في أناجيل طفولة يسوع وقصة ولادة ماريا، أولاداً ليوسف من زواجه الأول؛ كما اتخذ اوريجينوس الموقف عينه. أما الأب الآخر للكنيسة هيرونيموس، فقد رأى أن الحديث في الأناجيل يجري عن أبناء أعمام يسوع وبناتهم. وتعد هذه الرؤية هي الرؤية السائدة الآن في الكنائس المسيحية الأرثوذكسية. وعلى أي حال فقد نشأ يسوع في عائلة كبيرة، مع أنه حسب الأناجيل لم يعترف بهم، أنكرهم عندما بدأ يعظ بتعاليمه. فقد جاء في إنجيلي مرقس ومتى أنه بينما كان يسوع يلقي موعظة دعته «والدته وأخوته»[1] الواقفون في الخارج، فأجاب: «... من أمي، ومن أخوتي؟ ونظر إلى الجالسين حوله وقال: هؤلاء هم أمي وأخوتي» (مرقس؛ متى). وفي إنجيل الإبيونيتيين يدعو يسوع والدته وأخوته وأخواته تلاميذه. ونحن لا نعرف ما إذا كان يسوع قد تعلم في المدرسة أم لا، لكن الأمر الأكيد، هو أنه كان يستمع إلى تلاوات النصوص التوراتية ويعرفها. ومع أن بعض الباحثين يرى أن يسوع كان شخصاً أمياً، إلا أنه كان يمتلك موهبة فذة في الإلقاء الشفهي وإلهام الآخرين (هذا ما يراه ج. كروسان مثلاً)، وربما كان في الناصرة ثمة من يعرف قواعد القراءة والكتابة في اللغتين، اليهودية القديمة والآرامية.

ولا تزال مسألة تاريخ مولد يسوع تنتظر حلاً دقيقاً حاسماً. فالتقليد الذي كرسه إنجيل متى يربط لحظة ميلاده بعهد الملك هيرودوس. ولكن من الثابت أن هيرودوس توفي في العام ٤ق.م. وإذا ما أخذنا بما يقوله التقليد، فإن يسوع كما يرى كثير من العلماء واللاهوتيين الآن، ولد في العام ٤ق.م. ولم يستخرج عام ميلاده (وهو العام ٢٧ لحكم الإمبراطور أغسطس)، إلا في القرن ٦م. على يد الكاهن ديونيسيوس الصغير، ويبدو أن هذا أخطأ في حساباته. أما فيما يتعلق بيوم ميلاده - ٢٥ كانون الأول، فإنه اليوم الذي كانت تحتفل فيه الإمبراطورية الرومانية بيوم الانقلاب الشمسي الشتوي، الذي كان مكرساً ليوم ميلاد إله «الشمس الذي لا يقهر» (ظهرت عبادة هذا الإله تحت تأثير عبادة ميترا). وابتداءً من القرن ٤م، بعد أن أقر الإمبراطوري قسطنطين بالمسيحية ديانة معترفاً بها، أخذ المسيحيون كلهم تقريباً يحتفلون بهذا اليوم بصفته يوم ميلاد المسيح.

١- تجدر الإشارة إلى أنه من غير المحتمل أن تكون والدة يسوع قد جاءت ومعها أبناء أعمامه وبناتهم، وعلى أرجح تقدير ان الانجيليين قصدا إلى أخوة يسوع الأشقاء أو غير الأشقاء.

ويرى الباحثون المعاصرون أن عمادة يسوع في مياه نهر الأردن على يدي يوحنا المعمدان، حقيقة لا ريب فيها، ولكن إذا ما أخذنا بالحسبان التصوّر القائم عن سحر الكلمة الإلهية (إنجيل يوحنا)، وابن الإله الذي ولد من حبل بلا دنس (إنجيلا متّى ولوقا)، فإن المغزى الطقوسي لفعل المعمودية يبدو مبهماً، وما يجدر التنويه به، هو أن يسوع لم يبدأ بشارته وصنع معجزات الشفاء من الأمراض المستعصية إلا بعد لحظة تلقيه المعمودية، وكأنني به أدرك أهمية النعمة الإلهية التي حلت عليه. وقد أعطى أنصاره الأوائل من اليهود، مغزى خاصاً لفعل المعمودية الذي يبرز أن يسوع أعظم من يوحنا، وكما أسسوا رواية (لم يشر يسوع إلى ذلك في أي من الأناجيل المبكرة) تقول، إنه في أثناء معموديته تلقى الإقرار الإلهي الذي جعله أعظم من موسى: لقد حل عليه الروح القدس[1]. وسُمع صوت من السماء يقول: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (مرقس). وقد يكون اعتكاف يسوع في البرية بعد المعمودية، رواية أخرى قامت على حدث واقعي: يزعم بعض الباحثين أن يسوع، كما يوحنا من قبل، اطلع هناك على تعاليم القمرانيين، وقد يكون خضع لاختباراتهم (للإغواء، كما ورد في الأناجيل). وحسب الروايات الإنجيلية أن يسوع بدأ دعوته في الجليل بعد أن اعتقل هيرودوس أنتيبا يوحنا المعمدان، ولكن الناصرة رفضته، فاستقبلته كفرناحوم الواقعة على ساحل بحيرة جينيسارت، وكذلك فعلت ضواحيها. فقد جمع حوله هناك مجموعة من الأنصار الذين ينتمون أساساً إلى الفئات السكانية الفقيرة. ولكن رواية العهد الجديد تسوق أسماء أقرب أنصاره الاثني عشر بشيء من التباين. وهؤلاء هم: سمعان الصخرة (بطرس)، وأخوه اندراوس، ثم الأخوان يوحنا ويعقوب اللذان لقبا بابني الرعد، يليهما متّى، وبرثولماوس، وتوما الذي حمل وفق رواية إنجيل يوحنا، لقب ديدمون (= التوأم، باللغة الإغريقية)، وفيليبوس، ويعقوب بن حلفا، وسمعان الزيلوتي (أو القانوي)، وأخيراً يهوذا الإسخريوطي. وما يثير الاهتمام، هو أن الحواريين حملوا ألقاباً إلى جانب أسمائهم (ربما كان يكمن هنا سبب التباين الذي ظهر في أسمائهم فيما بعد، وينسحب هذا خاصة على الذين لم يعرف عنهم في التاريخ التالي شيء تقريباً). أما فيما يتعلق باسم العلم الإغريقي الشائع، فيليب، فقد حمله واحد من أبناء الملك هيرودوس (قد يكون فيليبوس الرسول حمل اسمه هذا تيمناً باسم ابن الملك ولم يحمل في الأصل أي اسم يهودي. أما اسم توما فهو حسب ي. ميشيرسكايا التي درست أعمال توما، اسم من أصل جزيري مشتق من الفعل «ينقسم»[2]، ومن حيث جوهر الأمر، كان لقب

١- «وللوقت إذ صعد من الماء رأى السماوات قد انفتحت والروح مثل حمامة قد نزل واستقر عليه» (مرقس ١ - ١٠).

٢- ميشير سكايا، ي. الأعمال المنحولة للحواريين - موسكو، ١٩٩٦، ص ٦٩.

ديدمون: التوأم الذي حمله توما تفسيراً إغريقياً لمعنى اسمه). وتشهد حقيقة الخلط بين الاسم واللقب على أن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً باليهودية الأصولية؛ ونحن لا نعرف مستوى معرفة كل منهم باللغة الإغريقية (حسب الرواية الكنسية أن بطرس كان دائم الحاجة لمترجم)، ولكن الإحساس بالتخالط الاثني الثقافي بين السكان، لا سيما في المدن، وغياب التقاليد العائلية العشيرية الصارمة، بخاصة في ميدان أسماء العلم لدى الذين وضعوا أنفسهم في مواجهة علية المجتمع اليهودي، قد أديا إلى ظهور أسماء ذات أصول شتى، وظهور ألقاب إغريقية. ووفق الأناجيل أن يسوع نفسه قد أطلق على بعضهم مثل هذه الألقاب، وكأني به قد حدد بذلك منزلة هؤلاء في حركته. والحقيقة أن إنجيل اليهود يقول ببساطة، إن لقب سمعان، هو بطرس. ونحن يجب ألا نرى في حالة الأسماء والألقاب هذه مجرد حالة طارئة بالنسبة لمنطقة الجليل الأدنى: لم يعتنق سكانها الديانة اليهودية إلا في زمن متقدم (فقد دعاها سفر أشعياء بالبلاد «الوثنية»)، وكان اليهود الأقحاح يحتقرون الجليليين الذين لم يعانوا فقط من نير الاستعمار الروماني بل من عبء الضغط الروحي الصادر عن كهنوت معبد أورشليم والمشرعين.

أما التركيبة الاجتماعية لتلاميذ يسوع، فنحن لا نستطيع تحديدها إلا بقدر ضئيل من الصحة. فقد كانت تنتشر على ضفاف بحيرة جينيسارت (= بحر الجليل) قرى صيادي الأسماك، وكانت مجدل هي مركز تلك القرى. وبين الحواريين دعي سمّاكاً كل من بطرس واندراوس، وكذلك يوحنا ويعقوب: دعاهما يسوع إذ رآهما يصيدان الأسماك من البحيرة. بيد أن بطرس لم يكن يقيم في قرية من قرى السمّاكين، بل في كفرناحوم، حيث كان له فيها منزل مرت أناجيل العهد الجديد والأناجيل اليهودية المسيحية على ذكره مروراً عابراً (لم يكن لمثل هذه الواقعة أي مغزى مقدس بالنسبة للإنجيليين)، وكانت عائلة بطرس تقيم هناك في ذلك المنزل. فبطرس كان متزوجاً، ومع أننا لا نعرف أي شيء عن زوجته، إلا أنه في مجمل



بحيرة جينيسارات (بحر الجليل)

الأحوال كانت له حماة أبرأها يسوع مرة من مرض ألمّ بها (لهذا فقط ورد ذكرها في إنجيل مرقس؛ وإنجيل لوقا). وحسب رواية إنجيل الإيبيونيتيين أن يسوع كان يجتمع بتلاميذه المختارين في بيت بطرس هذا تحديداً، وهنا أعلنهم رسله الاثني عشر[1]. ونحن يمكننا أن نفترض أن صيد الأسماك كان عملاً ثانوياً مساعداً بالنسبة لبطرس وأخيه، لأن الدخل في المدينة لم يكن كافياً. أما يوحنا ويعقوب فهما حسب الرواية سمّاكان بالوراثة: كان والدهما يصيد معهما. ويمكن أن تكون السهولة التي تخلّى بها رفاق يسوع هؤلاء عن منازلهم، شاهداً يوحي بأنهم لم يكونوا مرتبطين بعمل زراعي أو بأي عمل ثابت آخر: إن مثل هؤلاء تحديداً كانوا على أهبة الاستعداد دوماً للإيمان بالخلاص من المعاناة والفقر، والاستمتاع بنعيم مملكة الإله. وتذكر الرواية متّى جابي الإتاوات والضرائب، بين أتباع يسوع الأوائل. ولا نعتقد أن عشّاراً في تلك الأزمنة كان ينتمي إلى فئة الفقراء، بيد أن هذه المهنة كانت مهنة محتقرة في المقاطعات كلها، وبخاصة في فلسطين، وترافق كره السكان لها بموقف معاد للرومان. ولكننا لا نستطيع أن نجزم بدرجة صحة المعلومات المتوفرة عن العمل الذي كان يمتهنه متّى، بيد أن المعروف في تصورات المسيحيين الأوائل، هو أن يسوع كان يستميل إلى جانبه على وجه التحديد، الناس الذين كان المجتمع يحتقرهم، والفقراء فقط. كما انضم إلى يسوع أحد الذين كانوا ينتمون إلى الزيلوتيين، ويبدو أن هذا كان قد فقد الإيمان بجدوى الكفاح المسلح بعد سقوط انتفاضة يهوذا الجليلي تحت ضربات جحافل الرومان. وكان موقف يسوع من النساء متميزاً بدوره: حسب الرواية أنه دخل منزل الأختين مرثى وماريا. وسمح لامرأة بغي أن تمسح قدميه بالطيب، وقال رداً على سخط اليهود المتعصبين: «لقد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبّت كثيراً» (لوقا)؛ وكان بين الذين أبرأهم يسوع وتبعوه، نسوة سرن معه حتى لحظة إعدامه.

لقد جاب يسوع مع حوارييه الذين تركوا عائلاتهم، مختلف أرجاء الجليل مبتعدين عن المدن الكبيرة؛ فلم يدخلوا يوماً طيبريس أو سيفوريس، التي لم يرد لها ذكر في الأناجيل البتة. لقد كان النفور من المدن الكبيرة سمة تطبع موقف الفئات الدنيا من سكان الجليل بطابعها، وهذا ينسحب خاصة على المدن التي كانت مرتبطة بعهد هيرودوس أنتيبا الذي قتل يوحنا المعمدان. وإذا ما صدقنا الروايات المسيحية، فإن يسوع كان يعظ أساساً في المناطق الحدودية المتاخمة لحدود المدينتين الفينيقيتين صور وصيدا (لكنه لم يدخلهما)، وفي إقليم المدن العشر الإغريقي، وكفرناحوم، والبلدات والقرى المجاورة. فمن تلك الأرجاء كانت تتقاطر إليه حشود المولعين بالتبشير بقرب قيام مملكة الإله على الأرض.

---

١ ـ كان العدد ١٢ عدداً مقدساً عند اليهود، فهو عدد أسباطهم الاثني عشر.

وثمة كثير مما هو مشترك بين نشاط يسوع وعمل المعلمين الجوّابين: الرابّي، الذين كانوا يعظون في الكنس، فبما أن مكان عبادة يهوه كان في معبد أورشليم فقط، لذلك كانت الكنس في فلسطين وخارجها، هي الأمكنة التي كان يجتمع فيها اليهود المؤمنون. وقد شيدوا مباني خاصة لمثل تلك الكنس، بيد أنه كان يمكن للمؤمنين الذين يقيمون في أماكن صغيرة، أن يجتمعوا في المنازل السكنية. وكانت الوظيفة الأساس للكنيس، هي التعليم الديني، فقد كانوا يقرؤون هناك الكتاب المقدس: الكتب الخمسة، وكتب الأنبياء، ويلقون المواعظ، ويقيمون الصلوات. وبما أن اللغة الآرامية كانت هي لغة التخاطب، فقد كان «التولماتش» يقف دائماً إلى جانب القارئ لكي يترجم ما يتلوه هذا من اللغة اليهودية القديمة إلى اللغة الآرامية (لذلك كان من الطبيعي أن يقرأ يسوع النصوص التوراتية ويتلوها بالآرامية). وكانت المواعظ هي أهم الأجزاء المكونة لكتاب صلوات اليهود، لأنها كانت تخلق جواً انفعالياً، وغالباً ما كانوا يسوقون فيها أمثلة ذات مغزى وعظي، وكانت هذه تكرّس عادة للمسائل الاجتماعية والأخلاقية. لقد كان المثل يندرج في الفن الأدبي الفولكلوري الذي كان شائعاً في ذلك الزمن: حسب س. س. أفيرينتسيف أن المثل بيان تعبيري يستخدم لتوضيح المواعظ الأخلاقية مع شيء من التورية في بعض الأحيان[1]. وكان كثير من الدعاة ذوي التوجهات المعارضة يخطبون في الكنس والمنازل الخاصة. ووعظ يسوع بدوره في كنس ومنازل، بل في العراء أيضاً. وكان واضحاً أنه يحاول أن يتفادى الصدام مع السلطات، على الرغم من أنه هاجم الثروات الدنيوية والملكية الخاصة مهاجمة قاسية، وكان يمكن أن يثير موقفه هذا سخط الأثرياء وكبار مالكي الأراضي. ولكن في الأحوال كلها لا يقدم لنا التقليد المسيحي ولا التقليد المناهض للمسيحية ما يشير إلى أن يسوع كان زعيماً لجماعة متمردة، كما يرى بعض المؤرخين، بدءاً من كارل كاوتسكي الذي رأى أن يسوع كان يعد لهجوم على أورشليم. وفي العام ١٩٩٥ أعلن ج كارمايكل موقفاً مماثلاً: لقد أكّد هذا أن دعوة يسوع كانت في بادئ عهدها دعوة سلمية، ثم قرر بعد أن قطع مع يوحنا المعمدان وتلاميذه، أن يتحول إلى العمليات العسكرية إذ استولى على المعبد، الأمر الذي قدم لخصومه أساساً لاستصدار حكم ضده بالإعدام من السيندريون[2]. ولكن وجود واحد من الزيلوتيين بين الاثني عشر حوارياً (كما جاء في إنجيل لوقا)، ووجود السيوف لدى الرسل لا يعد قرينة

١ـ أفيرينتسيف س. س. منابع الأدب المسيحي المبكر وتطوره تاريخ الأدب العالمي موسكو، ١٩٨٣. ص ٥٠٧ـ٥٠٨.

٢ـ كاوتسكي ك. نشوء المسيحية. موسكو ١٩٩٠. ص ٣٣٨، قارن: كارمايكل ج. الكشف عن ظهور المسيحية. الرواية الزمنية. موسكو، ٢٠٠٢.

كافية على صلة يسوع بالزيلوتيين، وسعيه للعصيان ومقاومة السلطات الرومانية. فالمشاركة في أي أعمال عنف تتناقض مع كل ما نعرفه عن مواعظ يسوع. ولا توحي لنا الأخبار التي وصلت إلينا عن رفاق يسوع، بأنه كان ثمة أي تنظيم ينتمون إليه، وأكد يسوع في تعاليمه على وجوب ألا يكون بين تلاميذه تفاوت في المرتبة. فقد وضع العلاقات بينهم نقيضاً للسلطة السياسية، عندما «يسود أمراء الشعب عليهم.. ولكن مثل هذا لن يكون بينكم» (متّى)؛ لقد سار مع يسوع كل من شاء أن يفعل. ضف إلى هذا أن أخبار يوسف فلافيوس والمؤرخين الرومان عن الانتفاضات التي كانت تقع في المقاطعات، لا تعطينا أي أساس للظن بأن الولاة كانوا يكتفون بإعدام زعيم المتمردين وحده.

غني عن البيان أنه يصعب كثيراً استعادة المحتوى الأول لمواعظ يسوع؛ فلتحقيق ذلك يقارن الباحثون بين الروايات المسيحية المنعكسة في أناجيل العهد الجديد، مع تلك التي عكستها الأناجيل المبكرة غير المعترف بها (بما فيها مدونات خطب يسوع التي عثر عليها في مصر). ومن المعروف أن قرب نهاية هذا العالم وقيام مملكة الإله، كان من الأفكار الأساسية لدى يسوع («مملكة السماء» في إنجيل متّى؛ و «مملكة السموات» في النص الإغريقي، أي مملكة الإله على الأرض)، ولذلك كرس كل جهد ممكن لإعداد الناس للحظة قيام تلك المملكة. وقد جاء في أقدم الأناجيل: إنجيل مرقس: «... ما من أحد ترك بيتاً، أو أخوة، أو أخوات، أو أباً، أو أماً، أو زوجة، أو أبناء، أو أرضاً من أجلي ومن أجل الإنجيل (= البشارة المباركة - المؤلفة)، إلا وحصل الآن، في هذا الزمان، في حمّى الملاحقات، على مئة ضعف من المنازل، والأخوة، والأخوات، والآباء، والأمهات، والأبناء، والأراضي، والحياة الأبدية في الزمن الآتي». ويفهم من هذه الكلمات أن يسوع لم يدع إلى ترك الثروات فقط، بل إلى ترك الروابط العائلية كذلك، وهذا ما فعله هو وتلاميذه. ولكنه وعد في الوقت نفسه بمئة ضعف. فهل كان الوعد بإضعاف تلك النعم مجرد تورية للحياة الموعودة بعد يوم القيامة؟ ليس لدينا إجابة على هذا السؤال الشائك، بيد أنه كان يمكن لأتباعه أن يفهموا كلماته تلك بمعناها الحرفي. فقد انعكس تصورهم عن كينونة المملكة الإلهية في مؤلف المدعو بابيوس (النصف الأول من القرن ٢م)، الذي قال إيرينوس (في مؤلفه: «ضد الهرطقات») إنه كتب «شرح الأقوال الربانية»، وكذلك في قصص الأحبار. وفي هذه القصص إنه سوف تنبت الأرض شجراً من الكرمة على كل منها عشرة آلاف جفنة، وعلى كل جفنة عشرة آلاف عنقود، وفي كل عنقود عشرة آلاف حبة، وحينما يأتي الطاهر النقي ليقطف جفنة، تتوسل إليه الأخرى أن يقطفها هي أيضاً لأنها أفضل من جارتها. وسوف تحمل سنبلة القمح كذلك

عشرة آلاف حبة، ويتوقف العداء بين الحيوانات، وتغدو كلها مطيعة صاغرة لإرادة البشر. ثم يتابع إيرينوس اقتباس نص بابيوس فيقول: «وعندما لم يصدقه يهوذا الخائن وسأله كيف يخلق مثل هذا الفيض على النباتات، قال له الرب: هذا ما سوف يراه من يعيش في تلك الأزمنة (ضد الهرطقات). ومن الواضح طبعاً أنه ليس من الضروري أن تكون مثل هذه التصورات قد نشأت بالضرورة على أساس أقوال قالها يسوع فعلاً، إلا أنها تظهر أن مستمعيه قد آمنوا فعلاً بوعده بالمئة ضعف، وتحولوا في إطار أحلامهم بالبحبوحة المادية التي كانوا محرومين منها في عيشهم الحقيقي. وما ينبغي قوله، هو أن هذه القصة تنتمي إلى التقليد الشفهي، لأن بابيوس عمل على جمع ذكريات المسنين الذين استمعوا بأنفسهم مواعظ يسوع وتلاميذه.

لقد كان بلوغ المملكة الإلهية يتطلب نقاء روحياً وعزوفاً عن الخيرات المادية. ولذلك كانت كتابات المسيحيين الأوائل مليئة بهجمات معادية لكل ضروب الثروات المادية، وكررت الأناجيل هذا الموقف عينه. فقد جاء في إنجيل اليهود: «هناك كثرة من أخوتك، أبناء إبراهيم، تعلوهم القذارة ويموتون جوعاً، وبيتك مليء بالخيرات، فلا يتحول إليه أي شيء جديد». أما التعبير الشهير: «.. أسهل أن يدخل الجمل عبر خرم الإبرة من أن يدخل غني مملكة الإله»، فقد ورد في هذا الإنجيل وفي الأناجيل القانونية (متّى).

وربما كانت أقوال يسوع التي وردت في موعظة الجبل، تنتمي إلى ما صح من الأقوال المنسوبة إليه. وترد هذه الأقوال في إنجيليّ متّى، ولوقا، وفي إنجيل توما الذي اكتشف في مصر: «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم مملكة السماء. طوبى للحزانى لأنهم يعزون. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش للحقيقة لأنهم يشبعون» (متى)؛ وعند لوقا: «طوبى لكم أيها المساكين[1]، لأن لكم ملكوت الإله. طوبى لكم أيها الجياع الآن لأنكم سوف تشبعون. طوبى لكم أيها الباكون الآن، لأنكم سوف تفرحون» (لوقا). وفي إنجيل توما «قال يسوع: طوبى لكم أيها الفقراء، لأن لكم الملكوت السماوي.. وقال يسوع: طوبى لكم عندما يبغضونكم ويضطهدونكم. ولا يجدون مطارح هناك حيث يضطهدون.. وقال يسوع: طوبى للجوعى، لأن جوف من يطلب سوف يشبع». إن استخدام هذه الأقوال يبين أنها لم تكن بادئ ذي بدء تشكل قواماً واحداً لموعظة الجبل، ولكن ذاكرة التلاميذ نقلتها مع شيء من التنوع (وهو أمر معتاد بالنسبة للروايات الشفهية)، بصفتها أهم مكونات أقوال المعلم.

فلم يكن الفقر والتعاسة المرتبطان برفض المحيط، أساساً وحيداً للخلاص. ومع أن مجموعة من أتباع يسوع لم تعلن موقفاً مناهضاً لثوابت اليهودية الأرثوذكسية، كما فعل

١- في الترجمة القانونية أضيفت كلمة «بالروح»، أما في الأصل الإغريقي فلا وجود لها في إنجيل لوقا.

القمرانيون (لقد اعترف يسوع بمحكمة السيندريون، وبضرورة تأدية المساهمات النقدية لخزنة المعبد)، إلا أن مواقفه التي أعلنها ضد الالتزام بشكليات الطقوس وتفاصيلها، كانت لها أهمية كبيرة. وقد تميزت مواعظة على وجه الخصوص بالتأكيد على ضرورة النقاء الروحي لا الفيزيولوجي. وانعكس هذا الموقف بجلاء خاص في إنجيل مجهول عثر عليه في مصر (بردية يرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن ٢م)[1]. فقد قال يسوع للكاهن الذي لامه وتلاميذه على دخولهم حرم المعبد من غير أن يغتسلوا: «أنت اغتسلت بالماء الراكد الذي تستلقي الكلاب والخنازير فيه ليل نهار.. أما أنا وتلاميذي الذين قلت عنا إننا نجسون، فقد اغتسلنا بالماء الحي الذي يسكب من (السموات)...». ولا يحتوي القانون على المشاهد المرتبطة بشعيرة التطهر لدى دخول المعبد، بل ليس ثمة ما يؤكّد على هذه الشعيرة (أو يدحضها) في المصادر الأخرى. فيوسف فلافيوس يتحدث في «الحرب اليهودية» عن ضرورة التطهر قبيل دخول المعبد، لكنه لا يحدد هذا الطقس. ونحن نقف في إنجيلي مرقس ومتّى على مغزى فكري موازٍ لهذا المقطع، لكنه ليس واضحاً بما يكفي: لام الفريسيون تلاميذ يسوع لأنهم لا يغسلون أيديهم إذ يقبلون على أكل الخبز (متّى - مرقس)؛ لكن هذا لم يستند إلى الكتاب المقدس، بل إلى العادة)، وفي رده على ذلك وبخ يسوع الفريسيين على مراءاتهم. وكذا كان موقفه حيال الصوم الذي كان يلتزم به الفريسيون وتلاميذ يوحنا المعمدان: «.. لا يدنس الإنسان ما يدخل إليه من الخارج، بل ما يخرج منه يجعله نجساً» (إذا كان هذا القول لا يعكس حقيقة كلمات يسوع، فإنه يعكس بالتأكيد روح دعوته - مرقس؛ انظر أيضاً متّى). والحقيقة أن موعظة الجبل تحدثت عن الصوم، لكنها لم تتحدث عن ضرورته، بل عن الصوم في السر بحيث لا يظهر الصائم صائماً أمام الناس، إنما «أمام الرب السماوي» (متّى). ويبدو أنه من الصعب علينا أن نحدد الموقف الذي يعكس حقيقة موقف يسوع في هذا الشأن، لأن كل إنجيل يعكس فهم تلك الجماعات المسيحية التي وضع في أوساطها.

كما لم يكن موقف يسوع وأتباعه الأوائل متماثلاً تجاه مسألة تحريم القيام بأي عمل يوم السبت؛ وعلى أغلب الظن أن الإنجيليين قد رأوا تبعاً ليسوع، أنه يجوز تأدية أعمال خير في يوم السبت: «إذا كان لأحدكم معزاة واحدة ووقعت يوم السبت في الحفرة ألا يرفعها من هناك؟ أو ليس الإنسان أفضل من المعزاة بكثير»! (متّى؛ وما يلفت الانتباه أن المثل أخذ هنا من حياة الفقراء). بيد أنه من الواضح أن نكران السبت لم يكن موقفاً حاسماً، كما فعل بولس فيما بعد. ونحن فيما نرى أن الموقف البدئي لأتباع يسوع (وربما موقفه هو نفسه أيضاً)، قد

١- انظر ترجمة هذا الإنجيل لدى سفينتسيكايا إ. الأناجيل المنحولة، ص ٥٨.

انعكس في مقطع من إنجيل لوقا لم يدخل الصيغة النهائية لنص هذا الإنجيل القانوني: «في اليوم عينه رأى إنساناً يعمل في السبت، فقال له: أيها الإنسان إذا كنت تعرف ما الذي تفعله، فأنت مبارك، أما إذا كنت لا تعرف فأنت ملعون لأنك تخالف الناموس» (لوقا Codex D). ويتلخص مغزى هذا المقطع في أنه إذا كان هذا الرجل ينتهك تحريم العمل يوم السبت عن وعي لتحقيق أغراض خيرة فرضتها الضرورة (ومرة أخرى يكون التواصل مع فقراء)، فإنه رجل مبارك، ولكنه إذا كان لا يعرف الشريعة أو لا يريد أن يعرفها، وينتهكها دون تفكير، فإنه رجل ملعون، بمعنى آخر أن الالتزام بمتطلبات اليهودية ليس مهماً بحد ذاته، إنما المهم هو الأهداف التي من أجل بلوغها يجري الانتهاك أو الالتزام. وينتمي المقطع الذي سقناه هنا إلى المخطوط الأول المبكر لإنجيل لوقا، لكنهم استثنوه أثناء تقنين الإنجيل، لأن غالبية المسيحيين كانت قد كفت عن الالتزام بالسبت.

ولكن النواة الأهم في المعايير الأخلاقية التي بشر بها يسوع، هي متطلبات الحد الأقصى التي اجتمعت في موعظة الجبل «.. لا تقاوموا الشر بالشر.. أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، احسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا من أجل الذين يسيؤون إليكم ويضطهدونكم» (متّى). إن هذه المتطلبات التي لا يجري التقيد بها من حيث جوهر الأمر، هي التي ميزت تلاميذ يسوع عن باقي جماعات المجتمع اليهودي الأخرى في ذلك الزمن.

وانعكس تبشير يسوع بالرحمة ونبذ جملة من التقاليد القديمة، في المشهد الشهير مع الزانية، وهو المشهد الذي وصفه لنا إنجيل يوحنا لقد جاؤوا إليه بامرأة شوهدت وهي تزني، وحسب الناموس كان يجب أن ترجم. ولما ألحوا على يسوع بالسؤال عما ينبغي فعله تجاهها، أجاب بجملة واحدة طارت مثلاً: «من منكم بلا خطيئة، فليتقدم أولاً ويرمها بحجر». فتفرق الحشد الذي اتهمها، أما يسوع فقد دعا المرأة إلى أن تتوقف عن ارتكاب المعاصي. بيد أن هذا المشهد لا يترك انطباعاً بالأصالة، إذ من المشكوك فيه أن يمتثل الحشد الذي كان القضاة والمشرعون قد حرضوه، لقول يسوع. ضف إلى هذا أنه ثمة لدى يوحنا في إنجيله كثرة من المشاهد التي تحمل طابعاً رمزياً وليتورجياً، إلا أن مغزى القصة ليس فقط في أن القضاة أنفسهم يجب أن يكونوا بلا خطيئة، إنما أيضاً في مناهضة يسوع الخفية لهمجية طريقة الإعدام رجماً. ولا يتوفر لنا حتى الآن ما يفيد بما إذا كان يسوع قد أدى أي طقوس كانت، وليس هناك معطيات تفيد بأن تلاميذه تلقوا المعمودية. فيوحنا يقول في إنجيله، إن يسوع عاش مع التلاميذ وكان يعمّد، ويخبر في مكان آخر، إنه لم يكن هو نفسه يعمّد، بل تلاميذه الذين كانوا يفعلون ذلك. ولكن ربما يكون التقليد المتأخر هو المعكوس هنا، ويبدو أن مؤلف الإنجيل الرابع لم يكن يؤمن به.

وفي جانب آخر، ثمة إبهام يحيط بموقف يسوع وأتباعه الأوائل تجاه التبشير في الأوساط اليهودية. وللوهلة الأولى ينشأ انطباع بأن البشارة كانت مكرسة لليهود فقط. «إنما جئت فقط من أجل الخراف الضالة في بيت إسرائيل» (متّى). ولكنه حسب الرواية الإنجيلية، كان في غضون ذلك يشفي أبناء الاثنيات الأخرى ويدعوهم إليه: شفى خادم قائد المئة الروماني في كفرناحوم (لوقا)، وابنة امرأة سورية - فينيقية دعاها إنجيل مرقس هللينية (وفي الترجمة القانونية: وثنية، مرقس)؛ وتخاطب حسب إنجيل يوحنا مع امرأة سامرية، وكان اليهود الأصوليون يتجنبون هؤلاء (يوحنا). ومن الواضح أن سلوك يسوع هذا إنما يعكس تراجعاً عن الالتزام بالتقاليد اليهودية الصارمة من أجل تحقيق أغراض خيرة، والسعي إلى الانفتاح بتعاليمه على كل من آمن به. وبما أن ظهور مثل هؤلاء الناس يتوافق والواقع الذي كان قائماً في الإقليم الذي كان يسوع يبشر فيه بتعاليمه، إذ كان يقيم خليط من السكان (خاصة ضواحي المدن الفينيقية التي كانت تتمتع بالحقوق الإغريقية)، لذلك يمكننا أن نظن بأن المشاهد المعنية تنتمي فعلاً إلى أحداث واقعية حافظت عليها بحرص ذاكرة الرسل الذين بشروا فيما بعد بالمسيحية خارج فلسطين.

لقد ترافقت مواعظ يسوع بمعجزات شفاء: تقول الروايات الإنجيلية إنه شفى مسكونين بأرواح شريرة، ومكفوفين، ومصابين بالبرص، وأعاد إلى الحياة فتاة صغيرة كانت قد توفت لتوها، وكان قد قال: «الفتاة لم تمت إنما نامت» (مرقس). وكان بطرس يقصد الشفاء بالتحديد عندما أكد في أعمال الرسل، لدى حديثه عن يسوع: «... مثلما مسح الرب يسوع الناصري بالروح القدس ومنحه القوة، فمضى يبارك الجموع ويشفي المسكونين بإبليس، لأن الإله كان معه» (أعمال الرسل). ويؤكد علم الطب حقيقة المداواة القائمة على الإيمان والإيحاء. فثمة فرق بين الأمراض التي يتسبب بها خلل فيزيائي جدي، وبين الشعور بالمرض، الخوف منه: وهذه الأمراض الأخيرة، هي التي تعالج نفسياً، وبالنسبة للأزمنة القديمة، حيث السيادة للمعتقدات الخرافية والكل مهيأ للإيمان بالمعجزة، كان مثل هذا العلاج شائعاً على وجه الخصوص، وينسحب أول ما ينسحب على من كانوا يدعون مسكونين ويعيشون حالة غيبوبة. ويتضح من الأناجيل نفسها إن الإيمان كان الضرورة التي لا غنى عنها من أجل شفاء المريض: حينما جاء يسوع إلى الناصرة، حيث كان كلهم يعرفه منذ كان طفلاً، لم يستطيع حسب مرقس «أن يصنع هناك أي معجزة، فوضع يده على بعض المرضى وشفاهم. وتعجب لعدم إيمانهم».. (مرقس).

من كان يسوع يرى نفسه؟ إنه السؤال الذي لا نقف على إجابة له في المصادر المكتوبة. فإذا عدنا إلى الأناجيل فإنه يصعب كثيراً أن نفصل بين رؤية أنصاره التي نشأت لديهم عنه

بعد حدث الصلب، وبين أقوال يسوع الحقيقية. لقد دعاه التلاميذ رابي، أي معلماً، ويستفاد من كلمات بطرس التي سقناها أعلاه، أنهم أقروا بأنه هو مسيح الرب، أي المسيا؛ كما كان الحشد الذي تبعه يرى فيه مسيا أيضاً، لأن حالة التوتر التي كان يعيشها من كانوا بانتظار المخلص، كانت تسم بطابعها السيكولوجيا الاجتماعية عامة، مع أن يسوع لم يدع يوماً أنه المخلص. ولا ريب في أنه كان يحس بصلة مع الإله: الأب السماوي، بيد أنه في الأحوال كلها وحسب تصور التلاميذ، لم يدغم نفسه به، فعندما طلب إليه ابنا زبدي أن يجلسهما في مملكته عن يمينه وعن شماله، أجابهما يسوع قائلاً: «ليس الأمر متعلقاً بي أن أجلس عن يميني وعن شمالي، إنما المكان لمن أعده أبي» (متّى؛ لاحظ مرقس). أما تعبير «ابن الإنسان» الذي لم يستخدمه سوى يسوع، فإنه يمثل مسألة عويصة حقاً. ومن المعروف أن هذا التعبير يتكرر كثيراً على لسان يسوع في الأناجيل القانونية وحدها فقط. وترقى صورة هذه الشخصية إلى سفر النبي دانيال، حيث تنبأ بنهاية العالم وظهور ابن الإنسان: «لقد رأيت في رؤاي الليلية كأن ابن الإنسان يخرج من السحب السماوية». (دانيال)[1]. ويستخدم تعبير «ابن الإنسان» في أناجيل العهد الجديد في صيغة الغائب كقاعدة، وليس واضحاً دائماً ما إذا كان يسوع يتحدث عن نفسه، أم أن أحداً آخر هو الذي سوف يأتي في يوم القيامة وقيام مملكة الإله. فهو يقول مثلاً: «الحق أقول لكم، إن بعض الحاضرين هنا، لن يذوقوا الموت قبل أن يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته» (متّى). إن الأناجيل تقدم الإمكانية لهذا التأويل وذاك، ولكنه من الصعب أن نحدد[2] أي الأقوال يعود إلى يسوع نفسه، وأيها أدخله مؤلفو الأناجيل، التي لم توضع إلا بعد انصرام عشرات السنين. وفي الأحوال كلها فإن عداء الفريسيين والكهنة كان يمكن أن يكون مرده إلى الإيمان بمسيانيته في المقام الأول.

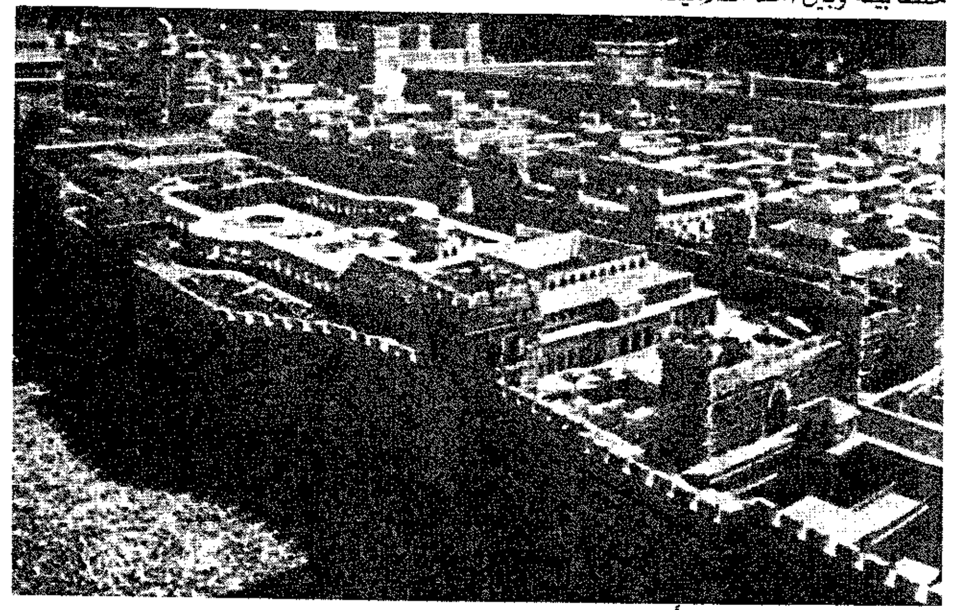
وليس معروفاً كذلك كم من الزمن دام العمل التبشيري الذي قام به يسوع. فحسب الأناجيل القانونية الثلاثة الأولى، أن نشاطه دام عاماً واحداً فقط، أما وفق إنجيل يوحنا فقد دام ثلاث سنوات (يأخذ أكثر الباحثين بمعطيات الأناجيل الثلاثة الأولى لاستعادة صورة الأحداث الحقيقية في حياة يسوع، وهذه الأناجيل متشابهة من حيث مادتها تشابهاً دعا

١- إن تعبير «ابن الإنسان» حاضر في المزامير النورانية «ما الإنسان حتى تذكره؟ وابن البشر حتى تفتقده»؟ ويبدو هذا التعبير في سياق المزمور كأنه يعمم الجنس البشري.

٢- يفترض بعض الباحثين أن «ابن الإنسان» هو شخصية أخروية منتظرة في «آخر الأزمنة»، وربما لم تدغم في بادئ الأمر بيسوع، ثم وقع الإدغام بعد صلب يسوع نتيجة لانتظار مجيئه الثاني انظر على سبيل المثال:
Edwads R.A.A. Atheology of Qphiladelphia 1976, A 36.

المتخصصين إلى تسميتها بالأناجيل السينوبتية، أي التي لها وجهة نظر مشتركة). وكان مجيء يسوع إلى أورشليم لحظة مفصلية في مسيرة عمله التبشيري. فما الذي أثار سخط الأوساط العليا للكهنوت اليهودي وشيوخ اليهود عليه، وحذرهم منه؟ إنه على أرجح تقدير قول واحد من أقواله وفعل من واحد من أفعاله. فالأناجيل الأربعة تنقل إلينا خبر مجيئه إلى المعبد وطرد الباعة والصيارفة منه (متّى؛ مرقس؛ لوقا؛ يوحنا). ويرى أكثر الباحثين أن هذا المشهد كان حدثاً واقعياً، بل ثمة من رأى فيه استيلاء مسلحاً على المعبد (كارمايكل على سبيل المثال)، وهو أمر له نصيب ضعيف من الصحة، لأنه لو كان كذلك فعلاً لتدخل الرومان في الأمر دون تأخير. وعلى أغلب الظن أن الأمر كله لم يتعد حدود الحركة المسرحية الرمزية التي لم تستمر لأكثر من لحظات قصيرة، بيد أن الفعل بحد ذاته كان يجب أن يثير انطباعاً قوياً: كان الباعة يبيعون طيور التقدمات. ولم يكتف يسوع بموقفه المناهض للتجارة التي دنست المعبد، بيت الصلاة، بل تعدى الأمر ذلك ليطال من حيث الجوهر طقس تقديم القرابين نفسه، أضف إلى هذا كله القول الذي نسب إليه: إنه يستطيع أن يهدم المعبد ويعيد بناءه في ثلاثة أيام (متّى؛ حسب مرقس أن المعبد ليس مصنوعاً بالأيدي)، مع أنه قصد بذلك إلى معبد الإيمان الحق. أما رد فعل الحشد الذي اجتمع في أورشليم عشية الفصح ليستمع إلى تعاليم يسوع ويرى مداواته، فلم يترك بدوره أثراً طيباً لدى قادة اليهود الذين كانوا يخشون الاضطرابات الجماهيرية ورد فعل الرومان تجاهها في المقام الأول، فإلى أورشليم كانت تتقاطر قبيل الفصح حشود من مختلف أرجاء فلسطين، ومن مختلف شرائح المجتمع، وكان هؤلاء كلهم شديدي الحماس ومتعطشين للمعجزة وظهور المسيا. ولذلك ألقي القبض على يسوع عشية الفصح بوشاية من تلميذه يهوذا الإسخريوطي الذي كان خازن أموال جماعة أتباع يسوع. وشخصية يهوذا هذا شخصية غامضة. وحتى لقبه ليس واضحاً، فكتابته بالإغريقية تنويعاتها محدودة، وله فيها جملة من التفاسير: إسخريوطي لقب مأخوذ من كلمة كريات (كريات)؛ ومن الصيغة المحرفة لكلمة «سيكاري»، أي الذي ينتمي إلى جماعة السيكاريين، أكثر فرق الزيلوتيين تطرفاً. ولا تزال الظروف التي أحاطت باعتقال يسوع غير واضحة ومبهمة في الروايات المسيحية. فحسب ما ترويه الأناجيل (حتى غير القانونية منها)، أن يسوع أقام مع تلاميذه وليمة، ولكن إذا ما كانت هذه الوليمة وليمة الفصح، فإنها لا تتوافق والتقويم اليهودي. ولذلك يرى بعض الباحثين أن يسوع وتلاميذه قد استخدموا تقويم القمرانيين؛ بينما يرى آخرون أنها كانت مجرد وليمة مشتركة عادية، ثم جعلها التقليد اللاحق، العشاء السري المقدس وربط بينها وبين الفصح. ولكن من غير الواضح لماذا كان

رؤساء الكهنة مضطرين إلى شراء يهوذا. قد تكون هذه الخرافة قد اختلقت على أيدي تلاميذ يسوع بعد إعدامه؟ لكن الحديث عن فعل الخيانة الذي ارتكبه الإسخريوطي لا يقتصر على الرواية المسيحية، بل قالت به الرواية اليهودية أيضاً: نقلها سيلس. وثمة كثرة كثيرة من الفرضيات عن أسباب تلك الخيانة. فلوقا الذي عجز على ما يبدو عن إيجاد تفسير منطقي لتصرف الإسخريوطي، عزى السبب إلى إغواء الشيطان. وهذه هي الرؤية اللاهوتية: لكي يتم ما قيل بالأنبياء؛ أما الرؤية الزمنية الدنيوية، فقد عزت السبب إلى الأنانية، والجشع، والعمل على دفع يسوع نحو الفعل. وزعم كارمايكل أن يهوذا كشف عن الملجأ الذي يختبئ فيه يسوع و..، بيد أن هذه الفرضيات تفتقر كلها إلى سند توفره الوقائع. وربما بسبب حصول عملية الاعتقال ليلاً، كان على يهوذا أن يشير إلى يسوع بالضبط كي لا يقع خلط بينه وبين أحد التلاميذ.



أورشليم زمن يسوع المسيح. تصميم.

وتقول رواية الأناجيل القانونية، إن يسوع أدين في محكمة السيندريون أولاً، ثم بعد ذلك حكم عليه بيلاطس البنطي بالإعدام المشين صلباً. فلم يكن يجري تنفيذ الإعدام صلباً إلا بالعبيد، وقطاع الطرق، والعصاة والخارجين على القانون عموماً. وكان من صلاحيات السيندريون أن يحكم بالإعدام رجماً إذا كانت الجريمة ذات طابع ديني، ولكن يسوع سيق إلى بيلاطس ليحاكم محاكمة رسمية وينفذ حكم الإعدام فيه بأكثر الطرق انحطاطاً: الصلب. ولكن وصف محاكمة بيلاطس ليسوع لا يركن إلى صحته، أما شخصية القاضي

بيلاطس فإنها لا تتوافق مع الشخصية التاريخية الواقعية لهذا الرجل. إذ من المعروف أن بيلاطس البنطي كان يتميز بقسوته المفرطة. فعندما تجمع مرة في السامرة حشد من الناس حول أحد الدعاة، أمر بيلاطس فرقة فرسانه أن تطأ الحشد بسنابك الخيل. ونتيجة لتزايد شكاوى الناس من بطشه وظلمه اضطر الإمبراطور طيباريوس إلى استدعائه وعزله من منصبه. ونقل يوسف فلافيوس حسب رواية أغابيوس، وكذلك نقل تاسيت أن بيلاطس البنطي هو من أعدم يسوع. ولكن الأناجيل القانونية تنقل في غضون ذلك صورة مغايرة: رؤساء الكهنة والشيوخ يطلبون إعدام يسوع، بينما يحاول بيلاطس إنقاذه، والحشد يصرخ: «دمه علينا وعلى ذريتنا». وحسب فريق من الباحثين أن ناسخاً ما، أضاف هذا القول في أثناء حمى الخلاف مع اليهود إثر دمار أورشليم في أواخر القرن ١ م؛ ثم أخذ هذا يغذي التعصب الديني المسيحي فيما بعد، الأمر الذي أدى إلى سقوط أعداد لا حصر لها من الضحايا[1].

نقش بيلاطس البنطي من القيصرية (عيّن طيباريوس بيلاطس البنطي حاكماً على سكان القيصرية)

وتقول الرواية، إنه عندما عرض بيلاطس إطلاق سراح يسوع، وفق العادة التي كانت متبعة في الفصح، اختار الحشد أن يطلق باراس اللص المتمرد. ولكن بيلاطس لم يكن يحب أن يترك للحشد العنان، فما بالك بمناقشة قراراته علانية، وتلبية مطلب الغوغاء. ومع أن يسوع لم يكن شخصية خطيرة بالنسبة له، بيد أن مطالبه بالمسيانية، أي إنشاء مملكة يهودية مستقلة (من وجهة نظر الرومان)، وسعي بيلاطس لاستعادة النظام، إضافة إلى خشيته من السلطة المركزية، هذا كله دفع به إلى الحكم على يسوع بالموت (تقول الرواية الإنجيلية: إنه غسل يديه وبرأ نفسه من دمه). وعلى أي نحن لا نستطيع أن ننفي إمكانية أن يكون إعدام

١- في اجتماع السينودوس الفاتيكاني الثاني، أسقطت الكنيسة الكاثوليكية إثم صلب يسوع عن اليهود، لأن آلامه وصلبه كانت مقدرة من فوق بصفته ذبيحة لمغفرة خطايا البشر كلهم.

يسوع نتيجة مؤامرة بين رئيس الكهنة اليهود قيافا وبيلاطس البنطي؛ لأن السيندريون حسب ما يؤكد يوسف فلافيوس، لم يكن يحق له أن يعقد اجتماعاً إلا بموافقة القاضي الروماني (بيلاطس). ويبدو وصف حدث الصلب الذي جاء في إنجيل بطرس، وهو إنجيل غير قانوني، يبدو أكثر توافقاً مع واقع الأشياء. وكان قد عثر على مقطع منه في مصر: يحاكم يسوع أمام السيندريون وهيرودوس أنتيبا (يتوافق هذا مع منشأ يسوع الجليلي)، وتجري المحاكمة في غضون ذلك في مقر الحاكم الروماني. وهنا أيضاً يغسل بيلاطس يديه ويحيل البت في أمر يسوع لا إلى الحشد، بل لمحكمة خاصة. وكان هيرودوس بالذات من اقترح صلب يسوع، وهو ما نفذه بيلاطس بلا مبالاة[1]: من غير تصديقه على الحكم لم يكن تنفيذه ممكناً. وحسب هذا الإنجيل عينه، إنه بعد إعدام يسوع «تمرمر الشعب وأخذ يضرب صدره»، وأسرع شيوخ اليهود إلى بيلاطس يطلبون منه أن يضع حرساً على القبر «لكي لا يأتي تلاميذه ليلاً ويسرقوه بطريقة ما فيصدق الشعب أنه قام من الأموات، ولم يتسبب لنا بأذى». وثمة في إنجيل متّى مقطع مشابه، ولكن تغيب عنه فكرة الخوف من الشعب (متّى). لقد ظهرت فرضية سرقة جثمان يسوع إثر شيوع قصص المسيحيين عن قيامته مباشرة: لقد كان كثير من المؤمنين اليهود يؤمن بإمكانية القيامة من الموت، ولكن في الزمن البعيد الآتي، بعد نهاية العالم، وليس قيامة شخص واحد الآن هنا، ولذلك فإنه من غير المحتمل أن يكون شيوخ اليهود قد طرحوا مثل هذه الفرضية إلا بعد أن وجدوا القبر فارغاً. وفي إنجيل لوقا أن بيلاطس حاول أن يحيل أمر يسوع إلى هيرودوس، لكن هيرودوس أنتيبا أعاده إليه بعد أن هزئ به بعض الوقت. ويذكر هيرودوس الأول بين القضاة في أعمال الرسل لقد قام ضد يسوع «هيرودوس، وبيلاطس البنطي، والوثنيون، وشعب إسرائيل». ولكن المصادر الأخرى لا تشير إلى مشاركة اليهود في المسألة، ولذلك ربما كان المقصود هنا هم الموظفون والجنود الرومان. وعلى هذا النحو يمكننا أن نزعم بوجود فرضية مشاركة هيرودوس أنتيبا بمحاكمة يسوع، وهذا ما يمكن القبول به أكثر من فرضية ضغط الحشد على بيلاطس. لقد كان الجنود الرومان هم الذين نفذوا قرار صلب يسوع، وهم الذين سخروا منه قبيل إعدامه. ولدى صلب يسوع أمر بيلاطس أن يكتب على الصليب ما يحدد الذنب الذي من أجله أعدم، فكتبوا: «ملك اليهود» (مرقس). وبذا يكون بيلاطس قد أعطى عملية الإعدام طابعاً سياسياً.

١- ليس في هذا الوصف حشد يصرخ مطالباً بالصلب، وهو الأقرب إلى الواقع. وليس في المصادر الأخرى حديث عن تقليد إطلاق مجرمين في الفصح. وهو تقليد لا يتوافق على أي حال مع سلوك الحكام المحليين الرومان.

أما كيفية حدوث فعل الصلب نفسه، فإنها لا تزال غير واضحة تمام الوضوح: يتحدث يوحنا في إنجيله عن مسامير؛ وتتحدث أعمال الرسل عن تعليقه على خشبة. وفي العقود الأخيرة أسفرت أعمال البحث الآثاري عن اكتشاف عظام شاب[1] دق في رسغه مسمار (يرجع تاريخ هذه العظام إلى حوالي القرن ١ق.م)، ومعنى ذلك أنهم كانوا يثبتون القدمين بالمسامير فعلاً، ولكن هل كانوا يثبتون اليدين بها أيضاً؟ نحن لا نعرف، إذ ربما كانوا يربطونهما ربطاً (ومن تعبير: علق على خشبة). وحتى الكلمات الأخيرة التي نطق بها يسوع لحظة صلبه، نقلها الكتاب مختلفة: الرواية الأكثر دقة، هي تلك التي ساقها مرقس ومتّى: «إلهي، إلهي! لماذا تركتني»؟ (مرقس؛ متّى)، فقد أورد الإنجيليان هذه الكلمات بالآرامية ثم ترجماها إلى الإغريقية. ويبدو على أرجح تقدير أنها الكلمات الحقيقية التي كانت آخر ما نطق به يسوع، ولذلك تناقلتها الألسن عبر تلاميذ يسوع. ومهما يكن من أمر فقد كانت تلك كلمات مأخوذة من مزمور توراتي نطق بها يسوع بلغته الأم: اللغة الآرامية بلهجتها الجليلة: حتى ظن الواقفون على مقربة منه أنه ينادي النبي إيليا.. وما يلفت الانتباه أن يسوع لم يستخدم في لحظة الآلام الجسدية تعبير: يا أبي، بل استخدم التعبير اليهودي التقليدي: يا إلهي (في صلاة الكأس التي رفعها يسوع في بستان جتسيماني استخدم حسب مرقس كلمة يا أبي. مرقس).


نسخة كاحل يخترقه مسمار

لقد كانوا يدفنون الخارجين عن القانون، والثائرين في مقابر جماعية، وقد يكون هذا هو سبب عدم عثور الآثاريين حتى الآن على قرينة واحدة تدل على الإعدام صلباً. وعليه فقد رأى بعض الباحثين الأكثر راديكالية، أن قصة قبر يسوع، هي نتاج مخيلة تلاميذه الذين كانوا على يقين بأن يسوع قد دفن فعلاً ثم قام من الموت. بيد أننا نعرف وفق شهادة فيلون الإسكندري أن بعض الحكام الرومان المحليين كانوا يجيزون لعائلة المعدوم دفنه. وحسب الرواية المسيحية أن يوسف الرامي، أحد أعضاء السيندريون قد قدم مثل هذا الالتماس لبيلاطس. وفي العهد الجديد أن يوسف طلب الأذن بدفن يسوع بعد أن تمت عملية الصلب، ولكن في العام ١٩٧٢م نشرت بعض المقاطع الإنجيلية 2949 (Oxyrinchus papyrus)، حيث ورد فيها وصف طلب يوسف الرامي هذا من بيلاطس، ولكن خلافاً لرواية أناجيل العهد الجديد، جاء طلب الرامي

١- كان اليهود عادة يحفظون عظام الأموات في صندوق خاص، وهذه هي المادة التي يدرسها علماء الآثار.

الإذن بدفن يسوع هنا، قبل الإعدام وليس بعده، وهو ما يتوافق مع ما جاء في إنجيل بطرس. ويبدو مثل هذا التسلسل أقرب إلى منطق الأشياء: كان على بيلاطس أن يقرر السماح بالدفن قبل الإعدام وليس بعده. وهكذا دفن يسوع وفق الطقس اليهودي في قبر (وليس في نعش كما في الترجمة القانونية)، كان يوسف الرامي قد حفره لنفسه في صخرة.

وبعد أن صلب يسوع كان الإيمان وحده بقيامته يمكن أن يبقي على تماسك تلاميذه الذين أفقدتهم الفاجعة صوابهم. وليس أدل على ضياعهم وخوفهم من الحكاية التي تروى عن نكران بطرس لمعلمه. وإذا ما حاكمنا الأمور وفق الأناجيل الأربعة، فإن أياً من التلاميذ لم يكن حاضراً لحظة الصلب، بينما شهدته النسوة اللواتي تبعن يسوع من الجليل، وقد ذكر مرقس أسماءهن كلهن، إذ كن يرقبن صلب يسوع من بعيد (والحقيقة أنه جاء في إنجيل يوحنا، أن التلميذ الذي كان يسوع يحبه كان عند الصليب وهو من أطلق عليه التقليد فيما بعد اسم يوحنا الإنجيلي، ولكن هل سمح له الحراس الرومان بالاقتراب من الصليب مباشرة؟).

وفي جو يلفّه الضياع والحزن تتالى ظهور يسوع لتلاميذه، وكان ذلك هو العامل الوحيد الذي يمكن أن ينتشلهم من هوة اليأس، وقد تحدثت الأناجيل القانونية عن ظهور يسوع مرات. ففي إنجيل لوقا قابله اثنان من التلاميذ في الطريق، ولم يعرفاه إلا بعد أن ناولهما الخبز، لكنه ما لبث أن اختفى. ولما رجعا عرفا من الرسل أن يسوع قد ظهر لبطرس، ثم ظهر بعد ذلك للأحد عشر رسولاً وتناول معهم طعام العشاء (لوقا). وفي إنجيل مرقس أن يسوع ظهر لماريا المجدلية أولاً (مرقس)؛ وأعطى إنجيل يوحنا وصفاً مفصلاً لهذا الظهور الأخير: لقد قال يسوع للمجدلية: «لا تلمسيني»؛ ويسوق يوحنا أيضاً قصة توما الذي لم يؤمن بقيامة يسوع إلا بعد أن وضع إصبعه في جرحه (يوحنا). أما في إنجيل اليهود فقد ظهر يسوع أول ما ظهر لأخيه يعقوب التقي.

لم يكن الإيمان بالقيامة، ولم تكن رؤى النشوة الدينية لظهورات يسوع لمختلف أتباعه، أضف إلى هذا اليقين بقرب مجيئه الثاني، لم تكن كلها حالة استثنائية، بل كان ذلك كله يتوافق مع يقين القمرانيين بالظهور المنتظر لقيامة معلم الحق. بيد أن الإيمان بقيامة يسوع، وعدّ صلبه المشين ذبيحة لمغفرة الخطايا، واليقين بأن المؤمنين حقاً سوف ينجون من الموت، بات هذا كله القاعدة التي استندت إليها الدعوة المسيحية في شتى أرجاء الإمبراطورية.

الفصل الخامس

المسيحيون الأوائل
في فلسطين وخارج حدودها

لقد ألفى تلاميذ يسوع أنفسهم في وضع معقد بعد أن تركهم. وحسب أعمال الرسل، أنهم اجتمعوا في أورشليم، حيث تروي الخرافة أن الروح حلّ عليهم، وغدا هدفهم مواصلة بشارة يسوع. وكان أول ما ينبغي عمله بالنسبة إليهم، هو المحافظة على عدد الاثني عشر المقدس، وانتخاب حواري جديد، هو المدعو ماتياس الذي لا نعرف أي شيء عنه. لقد كان على الحواريين أن يحافظوا على وحدتهم، فتراجعوا من حيث الجوهر عن مبدأ المعشر الحر الذي كان موجوداً حول يسوع، وحاولوا أن يؤسسوا طائفة قام على رأسها (كما يفيدنا بولس في رسائله) بطرس (كيفا بالآرامية)، ويوحنا، ويعقوب التقي أخ الرب. لقد جمعت في أعمال الرسل التي كتبها كما يتبين من لغتها وأسلوبها، الكاتب عينه الذي كتب الإنجيل الثالث في كتاب العهد الجديد، قصص هذه الطائفة كلها، إلا أن المؤلف لم ينوّه بأي تواريخ دقيقة، ولذلك ليست واضحة لنا التبدلات التي عرفتها هذه الجماعة مع الزمن. ولكننا نستطيع أن نظن أنه بالمجمل عكس صورة عن تلك الطائفة مبالغاً في مثاليتها مبالغة كبيرة، لأنها كان ينبغي أن تكون إلى درجة كبيرة نموذجاً للمسيحيين الآخرين. ولا شك في أن المؤلف يبالغ في الحديث عن عدد الذين اعتنقوا الديانة الجديدة. ومع هذا يمكننا أن نفترض أن الرسل حاولوا أن ينشئوا تنظيماً ظنوا أنه يمكن أن يعينهم في ظل غياب قائد حقيقي، على ألا يذوبوا ويتبعثروا في شتى الحركات الدينية - الاجتماعية.

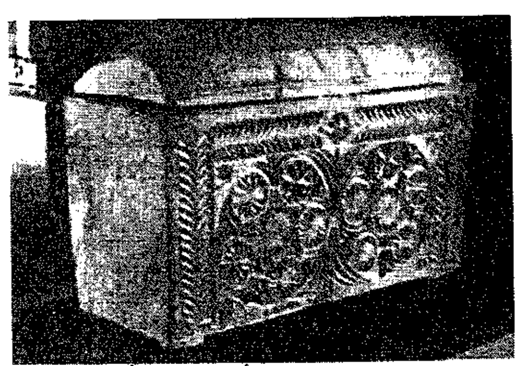
لقد كان يجب أن يتمثل مثل هذا التنظيم في مشاعة مؤسسة على المساواة ومبادئ الملكية المشتركة. وكان بمقدور مثل هذه المشاعة أن تتخذ من اتحاد اليسيين نموذجاً تحذو حذوه: مشاعة قمران على وجه التحديد، أو مجموعات اليسيين الأخرى التي كانت لا تزل

تعيش حسب وثيقة دمشق، في كثير من المدن. وكما تقول أعمال الرسل: «ومهما يكن من أمر فقد كان كلهم بعضهم مع بعض ويملكون كل شيء معاً. وكانوا يبيعون كل ملكية ويوزعون الثمن على جميعهم كل حسب حاجته» (أعمال الرسل). أما قصة حنانيا وسفيرا اللذين أخفيا قسماً من المال الذي باعا أرضهما به، وعوقبا بسبب خداعهما (سقطا معاً ميتين)، فهي خرافة واضحة الغرض منها التأثير على المؤمنين الآخرين. ولكن خلافاً لطائفة القمرانيين لم يكن لمسيحيي أورشليم مسكن مشترك. وتقول أعمال الرسل في هذا السياق، إن المسيحيين كانوا «يقسمون الخبز» على البيوت. لقد كانت طائفة أورشليم تضم أولئك الذين اتفق على تسميتهم باليهود - المسيحيين، أي أن هؤلاء مع تبجيلهم يسوع إلا أنهم كانوا يعدون أنفسهم يهوداً حقيقيين ويترددون دوماً على المعبد («في كل يوم كانوا يأتون إلى المعبد كرجل واحد» - الأعمال). ولكننا لا نعرف على وجه اليقين ماذا كانوا يدعون هم أنفسهم، إلا أننا نستطيع أن نزعم أنهم دعوا أنفسهم باسم ينتمي بدوره إلى اليسيين القمرانيين: «المساكين» (إيفيونيم)، أو الايبونيتيين، وهي الكلمة التي استخدمها المؤلفون المسيحيون لنقل كلمة ايفيونيم إلى اللغة الإغريقية. وحسب الكاتب المسيحي، الأسقف هيرينوس الليوني (القرن ٢م)، أن الايبونيتيين كانوا يتقيدون بأحكام الناموس، ويعيشون نمط العيش اليهودي، وعظموا أورشليم (ضد الهرطقات)؛ وهذا ما يتوافق مع ما جاء في أعمال الرسل.

لقد طالب قادة المسيحيين الأورشليميين بالسيادة على أنصار المسيح الذين أخذوا يظهرون خارج فلسطين. فقد كتب بولس في رسالته إلى الغلاطيين: إن يعقوب، وكيفا، ويوحنا يوقرون بصفتهم «أقطاباً»، وأنه ينبغي على بولس عندما يبشر في أوساط الوثنيين ألا ينسى «المساكين» (رسالة بولس إلى أهل غلاطيا). وقال في رسالته الأولى إلى أهل كورينثوس، إن التقدمات التي جمعها مسيحيو كورينثوس سوف ترسل إلى أورشليم. ويشهد جمع التقدمات لصالح مسيحيي أورشليم على مدى الفقر الذي كانوا يعانون منه. بيد أن ما نقلته أعمال الرسل في هذا الشأن، لا يتوافق وواقع الأشياء.

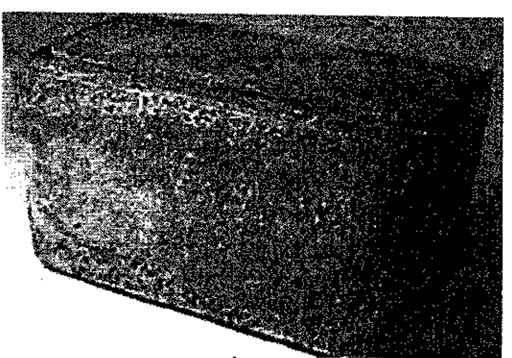
فإذا ما تحرينا رواية أعمال الرسل، فإنه يمكننا أن نتحدث عن تناقض في أوساط المتعاطفين مع المسيحيين، وعلى وجه الخصوص بين معتنقي المسيحية الجدد من يهود فلسطين، و «الهلنستيين»، أي اليهود الذين انخرطوا في الحياة الثقافية الهلنستية وكانوا يعيشون في فلسطين، أو الذين جاؤوا إلى أورشليم من شتى أرجاء الديارسبورا. أما سبب الخلاف فهو واحد: توزيع المعونات لقد كانت المساواة متعذرة في الواقع، من غير مساندة نظام انضباط صارم كالذي كان معمولاً به لدى القمرانيين، ولكن قادة طائفة أورشليم كانوا

عاجزين (بل لم يشاؤوا ذلك من حيث المبدأ) عن فرض مثل ذلك الانضباط. وناهض اليهود أنصار يسوع أيضاً على خليفة الاتهام القديم بسعيه لهدم المعبد. فحسب رواية ليس لدينا ما يؤكد صحتها، أن المدعو ستيفان قتل رجماً بالحجارة لأنه أهان المعبد، ويدل اسم ستيفان هذا على أنه كان من أوساط الهلنستيين. وربما كانت هذه التعقيدات كلها وراء انتقال بعض أتباع يسوع للتبشير بالدين الجديد في أماكن أخرى، في مختلف قرى فلسطين ومدنها وجوارها (حسب أعمال الرسل، أن فيليبوس بشر في السامرة ثم وصل إلى القيصرية)، وقد وصل بعضهم، «الذين شتتهم الاضطهاد الذي شاع بعد الذي حصل لستيفان»، إلى فينيقيا وسوريا، لكنهم لم يدعوا سوى اليهود، لأنهم كانوا لا يزالون يعدون أنفسهم يهوداً، ولكن كبار الرسل أقاموا في أورشليم ولم يغادروها. وقد شغل مكانة متميزة بينهم يعقوب التقي أخ يسوع، وبطرس. وفيما يتعلق بيعقوب فقد جاءتنا أخباره في رسائل بولس، وأناجيل اليهود - المسيحيين، والتاريخ الكنسي الذي كتبه يوسفوس القيصري، ويذكره أيضاً يوسف فلافيوس. ولكن، بما أن يعقوب أخ يسوع، لم يدخل العداد القانوني للتلاميذ الاثني عشر الذين انتقاهم يسوع، فإنه يمكننا أن نفترض أنه جاء إلى أورشليم قبل أن يأتي إليها يسوع وتلاميذه. وتستند رواية يوسفوس عن يعقوب إلى أخبار هيجيسيبوس كاتب القرن ٢م. (التاريخ الكنسي). ووفق ما يقوله، إن يعقوب التقي كان ابن يوسف من زواجه الأول. وقد عاش حياة زهد وتقشف، فلم يأكل أي لحوم، ولم يقص شعره، وكان يقضي جلّ وقته في المعبد ساجداً يصلي من أجل مغفرة خطايا الشعب اليهودي، ولعله كان مرتبطاً بفرقة الناسكين - الناصريين اليهود الذين كانوا قريبين إلى مسيحيي فلسطين. وعلى أي حال فقد لاقى يعقوب هذا مصيراً مأساوياً: يروي يوسف فلافيوس في «العاديات اليهودية»، أن رئيس الكهنة حنانيا الذي كان ينتمي إلى الصدوقيين المعروفين بشدة بطشهم في المحاكم، قد استغل فترة تبديل الحاكم الروماني المحلي (قبل وصول الجديد وبعد رحيل القديم) لينفث غلّه بالضحية التالية: لقد جمع السيندريون (حسب فلافيوس أنه لم يكن من حقه أن يفعل ذلك دون موافقة الحاكم الروماني المحلي)، وقدم له يعقوب أخا يسوع «المدعو مسيحاً»، ومعه الأشخاص الآخرين،


صندوق عظام الكاهن الأكبر قيافا وأفراد عائلته

واتهمهم بانتهاك الشريعة، وحكم عليهم بالموت رجماً. ووفق رواية يوسفوس أنهم رموا يعقوب من فوق السطح أولاً، ثم رجموه. وقد وقع هذا الحدث في حوالي العام ٦٣م. وبقي يعقوب بالنسبة للايبيونيتيين واحداً من أكثر الرسل تبجيلاً ووقاراً، وكان هذا قد ذكر في إنجيله أن يسوع قد ظهر له أولاً بعد قيامته من الموت. وبعد مقتل يعقوب واصل الإيبيونيتيون عيشهم في فلسطين؛ وحسب الرواية الكنسية أنهم غادروا إلى شرقي الأردن عندما وقعت الحرب اليهودية الأولى ٦٦- ٧٠م: على أغلب الظن بسبب عدم موافقتهم على سلوك الجماعات الراديكالية اليهودية.

في تشرين الأول من العام ٢٠٠٢ أعلن عن اكتشاف صندوق جيري عليه النقش الآرامي الآتي: «ya'd kov bar yosef a khui yeshua» أي «يعقوب ابن يوسف، أخو يشوا (= يسوع - المؤلفة)»؛ ولم يكن في الصندوق أي عظام. ثم نشر وصف مفصل للقية في «Biblical Atcheological Review» في عدد تشرين الثاني - كانون الأول ٢٠٢. وكان أحد العرب قد اشترى الصندوق. وحسب المعطيات الأولية أن اللقية ترقى إلى القرن ١م. (إلى حوالي ستينياته). ومن المعروف أن عادة دفن عظام الأموات في صناديق، بقيت قائمة في فلسطين حتى دمار معبد أورشليم على يد الرومان. ويرى المتخصصون أن النقش قديم أيضاً، وأنه نقش لدى صناعة الصندوق مباشرة. ويتوافق ذكر اسم الأب مع المعايير المعمول بها؛ أما اسم الأخ فلم يكن يذكر إلا إذا كانت مراسم الدفن قد جرت على نفقته، أو كان شخصية شهيرة (يمكن أن تنسب هذه الصفة الأخيرة إلى يسوع المسيح، لا سيما إذا كان المسيحيون هم من قام بعملية الدفن). وحسب ما قاله العربي (لا يرد اسمه في أي مصدر) صاحب اللقية، عندما باعها: إنه عثر على الصندوق في ضاحية من ضواحي أورشليم. ورأى الجيولوجيون أن الصندوق كان مدفوناً في تربة توافق تربة ضواحي أورشليم. وهكذا أرسل الصندوق إلى الولايات المتحدة وكندا لمزيد من الدراسة (أثناء نقله حدث فيه شق). بيد أن ما ينبغي التنويه به، هو أن العلماء يبدون حذراً شديداً حيال مطابقة عظام الشخص الذي دفنت (كان يجب أن تدفن) عظامه في الصندوق الحجري. فهم يقولون إن الأسماء الثلاثة يتواتر ذكرها كثيراً في فلسطين ولذلك سوف يكون من شبه المتعذر


صندوق عظام يعقوب أخ يسوع. ابن يوسف

إثبات صلة الصندوق برئيس الطائفة المسيحية الأورشليمية إثباتاً يقينياً، مع أن الحقبة الزمنية، والمكان، وتوافق الأسماء تعطي كلها فيما نرى، إمكانية لعد مثل هذه الصلة ممكنة، بل محتملة أيضاً. وقد كان من الجائز أن يكون الصندوق قد أعد مسبقاً، لأن العظام لم تكن تدفن فيه إلا بعد أن يتحلل الجسد، وربما لم يستطع أنصار يعقوب الذين تركوا أورشليم بسبب الملاحقات، أن يعثروا على جثمانه، فدفنوا الصندوق من غير عظام.

ويبدو أنه لم يكن للايبيونيتيين تأثير يذكر في الغرب، لكن أخبار اليهود - المسيحيين (ربما كان هؤلاء أحفاد الإيبيونيتيين)، بقيت تتردد في نصوص الشرق حتى حقبة القرون الوسطى. ففي سوريا انعكست آثار وجود الجماعة اليهودية - المسيحية في بحث إسلامي قرسطوي كتب ضد المسيحيين. وقد استخدم مؤلف البحث مصادر يهودية - مسيحية لكي يثبت أن يسوع لم يكن ابن إله، ويتبين من البحث أن الإنجيل الأول قد كتب باللغة اليهودية، وبعد ذلك استبدلت بالمسيحية «الحقة» مسيحية إغريقية. وينتمي مثل هذا الموقف إلى ما نعرفه عن تعاليم الإيبيونيتيين من مؤلفات المؤلفين المسيحيين. فقد كان عدم الاعتراف بالمنشأ الإلهي ليسوع أحد أهم نقاط الخلاف بين هذه المجموعة والمسيحية الأرثوذكسية التي قامت فيما بعد. فقد أشار هيرنيوس إلى أن الإيبيونيتيين لهم بشأن شخصية يسوع الموقف عينه الذي يعتمده كيرينوس: يرى هذا أن المسيح إنسان تميز عن باقي البشر بالعدل، والعقلانية، والحكمة؛ فهم «روحياً لا يقبلون الإيمان باتحاد الإله والإنسان، بل يقيمون على سمة الولادة القديمة عينها (الجسدية)». وحسب يوسفوس القيصري أن الإيبيونيتيين عدوا يسوع «إنساناً فقيراً عادياً نال الاعتراف به صديقاً تقياً لأنه كان ذا أخلاق كاملة، وولد من اتحاد رجل مع ماريا».

وفي مقاطع وصلت إلينا من إنجيل لا تعترف الكنيسة به، وأطلق عليه الكتّاب المسيحيون اسم إنجيل الإيبيونيتيين تحظى المعمودية بدور رائد حاسم. فالكلمات عينها التي رددها الصوت السماوي عندما خاطب يسوع، حسب إنجيل مرقس، تتردد في إنجيل الإيبيونيتيين، لكن يزاد عليها هنا: «.. اليوم قد ولدتك» (لقد افترض الإيبيونيتيون أن الإله لم يتبن يسوع ابناً مولوداً منه، إنما ابناً معداً لكي يكون مسيا). وفي إنجيل يهودي - مسيحي آخر، عرفناه عبر المقتطفات التي اقتبسها منه الكتّاب المسيحيون الأحدث الذين أطلقوا عليه اسم إنجيل اليهود، أن الروح القدس هو الذي يعترف بالمسيح ابناً له، ويعده بأن يستقر فيه، وبأنه سوف يحكم إلى الأزل. وبالنسبة لمن كانوا يتحدثون الآرامية، فإن كلمة «روح» مؤنثة الجنس، ولذلك كان الروح القدس بالنسبة إليهم، هو الأم الروحية ليسوع، فقد جاء في

إنجيل اليهود: «هكذا فعلت أمي، الروح القدس، فقد حملتني من شعري وجاءت بي إلى جبل تابور»[1].

لقد جاء توصيف رؤى الإيبيونيتيين في بحث يدعى «المنحولات الكليمنتية» التي يبدو أنه وضع في القرن ٢م، لكن المسيحيين ينسبونه إلى كليمينت، قائد المسيحيين الرومان في أواخر القرن ١م. ويظهر في هذا العمل بطرس (الذين كان اليهود - المسيحيون يجلّونه مع يعقوب)؛ وربما كانت قد انعكست في خطبه رؤى الإيبيونيتيين القريبة من تعاليم الطائفة القمرانية. فقد اتسمت الجماعتان بفهمها الثنوي للعالم، الذي يجري فيه صراع متواصل بين قوى الخير وقوى الشر. وتميز الايبيونيتيون (وكذلك القمرانيون) برفضهم القاطع لمبدأ تقديم القرابين، ودعوتهم إلى الزهد، والامتناع عن تناول اللحوم (يقول إنجيلهم: «أنا جئت لكي أبطل تقديم الذبائح، فغضب الإله لن يُرفع عنكم...». وعلى هذا النحو يمكننا أن نفترض أن المسيحيين الفلسطينيين كانوا الأكثر ارتباطاً بتقاليد أقدم جماعات اليسيين، وقد زادت الصلة متانة بعد إعدام يسوع؛ إذ بدأ يتشكل التقليد الشفهي أولاً ثم التقليد المكتوب بعد ذلك.

وبعد مقتل قائدهم يعقوب، وهزيمة الانتفاضة اليهودية، شكل مسيحيو فلسطين مجموعة مغلقة، خارج المجرى الأساس الذي تشكل الدين المسيحي في إطاره، ومع هذا واصل المؤلفون المسيحيون كتاباتهم عنهم حتى القرن ٥م. ومن المعروف أن المسيحيين الفلسطينيين قد انضموا إلى الانتفاضة الفلسطينية الثانية التي اشتعلت ضد الرومان في العام ١٣٢م. وقد استخدم الثائرون آنذاك كهوف قمران، إذ عثر هنا على رسائل زعيم الانتفاضة (بار كوخبا) والأوامر التي أصدرها. وجاء في واحدة منها ذكر الجليليين (أي المسيحيين على أغلب الظن). بيد أنهم سحبوا اعترافهم به عندما أعلن نفسه مسيا.

بيد أنه يصعب علينا أن نؤكد ما إذا كان المسيحيون الفلسطينيون كلهم قد انضموا إلى مجموعة الإيبيونيتيين، فربما كانت هناك مجموعات يهودية - مسيحية أخرى أقل انغلاقاً دعا الكتّاب الأصوليون المسيحيون أعضاءها «يهوداً». وكان يوسفوس قد قال بعد توصيفه معتقدات الإيبيونيتيين، إنه ثمة آخرون يعترفون بأن يسوع قد ولد من اتحاد الروح القدس بماريا، إلا أنهم لا يقرون بأنه كان موجوداً منذ ما قبل الأزل، ولا يوافقون على كونه كلمة إله وحكمته. ولكنه يبدو من غير المعقول أن يوقن اليهود - المسيحيون، أو ينشئوا عقيدة الحبَل بلا دنس، لأن هذا يتعارض مع العقائد اليهودية الأساس: لعلهم رأوا أن الحديث إنما

١- لقد ساق اوريجينوس هذا القول في تعليقاته على إنجيل يوحنا؛ ولم تصل إلينا الأناجيل اليهودية - المسيحية إلا عبر الاقتباسات

يجري عن المشاركة الرمزية (الروحية) للروح القدس في الحبل بيسوع وولادته، ولذلك لم يعترفوا بوجوده قبل الأزل.

غني عن البيان إنه لم يكن المسيحيون قد غادروا فلسطين كلهم إلى شرقي الأردن مع الإيبيونيتيين. فقد روى ناقد القرن ٢م. لوقيانوس عن مسيحيي فلسطين، في مؤلفه «نهاية بيريغرينوس»، الفيلسوف الجوّاب المتشرد، والدجّال، بل والمجرم حسب رأي لوقيانوس، الذي وجه الناقد مؤلفه هذا ضده. ففي واحد من المشاهد التي وصفها المؤلف، مشهد بيريغرينوس في فلسطين. فبما إن هذا لم يكن يهودياً، نجح في أن يكسب ثقة المسيحيين هناك ويعلّم في أوساطهم، بل يروى أيضاً أنه كانت له صلة بإنشاء بعض كتبهم. وأشار لوقيانوس في مؤلفه إشارة سريعة عابرة إلى حادثة إعدام يسوع، مؤسس هذه الجماعة الذي يصفه لوقيانوس «بالإنسان العظيم»، والحكيم المصلوب: من الواضح أنه لم يكن لدى لوقيانوس موقف عدائي تجاه المسيحيين أنفسهم. فقد أعطى توصيفاً لطبيعة العلاقات الداخلية عندهم، فقال: يمثل هؤلاء اتحاداً يقف على رأسه حسب لوقيانوس، بيريغرينوس هذا عينه، الذي كان يرئس الاجتماعات، ويشرح الكتاب المقدس (الذي كان قد تم وضعه وقتذاك). ويؤكد لوقيانوس أن الإيمان بالخلود، هو العقيدة الأساس عند المسيحيين. فهم يحتقرون الموت، بل ثمة منهم من يبحث عنه بنفسه. ويبدي لوقيانوس احتراماً واضحاً لروح التعاون السائدة بينهم، فكلهم يعد الآخر أخاً له. وعندما ألقت السلطات القبض على بيريغوينوس بتهمة مشايعة المسيحيين، بذل رفاقه كل جهد ممكن لمساعدته. ويقول لوقيانوس: مع طلوع الفجر كنت ترى عند أبواب السجن عجائز، وأرامل، وأطفالاً، ويتامى. وقد نجح قادة المسيحيين في شراء الحراس لقضاء الليل مع بيريغوينوس في السجن يحملون إليه مختلف صنوف الطعام ويديرون معه أحاديث مقدسة (نهاية بيريغوينوس). وفي آخر المطاف أطلق والي سوريا الروماني سراح بيريغرينوس إذ لم ير فيه أي خطر، وما لبث هذا أن ترك المسيحيين. ومع أن موقف لوقيانوس من بيريغوينوس يتسم بالتحيز، بمعنى المعاداة، إلا أن وصفه للمسيحيين تميز بروح التعاطف ومنطق السخرية. أما مشاركة العجائز، والأرامل، واليتامى في الطوائف المسيحية، فهو أمر يتوافق مع ما ورد في الكتب المسيحية نفسها. ومن الواضح أن هؤلاء الناس هم بالذات من أقام حول السجن. ولأن الرجال القادرين على العمل، كان ينبغي أن يكونوا منهمكين في تأدية أعمالهم. كما تلفت الانتباه في هذا السياق، ملاحظة لوقيانوس بصدد بعض المسيحيين الذين كانوا يجرون بأنفسهم بحثاً عن الموت (لقد سعى هؤلاء إلى الشهادة لكي تكون لهم الجنة): فيما بعد اضطر أساقفة المسيحية إلى اتخاذ إجراءات خاصة تحرم افتعال المسيحي ما يودي به إلى

الاستشهاد. وبدورها تعد المعطيات غير المباشرة المتوفرة لنا عن موقف السلطات المحلية من المسيحيين، معطيات جوهرية أيضاً: لم يكن اعتقال بيريغرينوس في سياق حملة ملاحقات طالت المسيحيين الآخرين، إنما اعتقل هو وحده، زد إلى هذا أن والي المقاطعة أطلق سراحه. والحالة عينها كانت قائمة في المقاطعات الأخرى، أي أن الأمر لم يكن متعلقاً بالصفات الشخصية للوالي الروماني، بل بمدى تأثير المسيحيين أنفسهم وطريقة سلوكهم. وفي فلسطين كان عدد المسيحيين قليلاً إلى حد لم يشكلوا فيه أي خطر حقيقي بالنسبة لسلطة روما، لا سيما بعد تصفية الحساب مع اليهود وطردهم من فلسطين. أما الطوائف المسيحية المهمة فقد تشكلت خارج حدود فلسطين: في سوريا أولاً، ثم آسيا الصغرى.

فبعض الرسل بشر بتعاليم الدين الجديد في سوريا: في دمشق وأنطاكيا، وحسب الرواية المسيحية، أن تسمية المسيحيين مسيحيين، قد ظهرت في أوساط يهود أنطاكيا الذين كانوا يتحدثون اللغة الإغريقية. وعند منتصف القرن الميلادي الأول، أخذت الطوائف (= الكنائس. - م) المسيحية تتشكل في مدن آسيا الصغرى واليونان. ومن هناك توجه الدعاة إلى الأرجاء الأخرى. وفي مصر كانت المسيحية قد ظهرت في وقت مبكر نسبياً، بخاصة في الإسكندرية حيث كان يقيم كثير من اليهود. وقد جاءتنا من أوائل القرن ١م مقاطع برديات تحمل نصوص أناجيل مجهولة تختلف عن الأناجيل القانونية، وكذلك مقاطع من أناجيل العهد الجديد: من إنجيل يوحنا على سبيل المثال. وإذا ما أخذنا بالرواية الكنسية، فإن مؤسس الكنيسة المسيحية الإسكندرانية، هو مرقس الإنجيلي. ويذكر بين مرافقي الرسول بولس، اليهودي الإسكندري أبوللوس الضليع جداً في الكتاب المقدس (أي في الكتاب المقدس اليهودي - أعمال الرسل). ولعل هذا كان من أنصار العقيدة اليهودية - المسيحية. فمن الواضح أن كرازته كانت تختلف عن كرازة بولس الذي لام مسيحيي كورينثوس لأنهم قالوا: «.. لأنه إذا كان واحد يقول: أنا لبولس وآخر لأبوللوس ألا تكونون بشريين...» (رسالة بولس) أي أنهم وزعوا أنفسهم حسب الرؤى التي يأخذ بها كل فريق.

لقد كان انتشار المسيحية في الغرب أكثر بطئاً، لكن عاصمة الإمبراطورية كانت استثناء في هذا الميدان. فقد كان عمل المبشرين في أوساط حشود العاصمة روما أيسر، لأن هذه كانت تتحدث لغات مختلفة. ولعل المسيحيين ظهروا فيها منذ عهد كلاوديوس. فقد كتب سفيتونيوس كاتب سيرة كلاوديوس، أن هذا الأخير «طرد من روما اليهود المهتمين دوماً بالمسيح». وربما يقصد الكاتب هنا إلى الصدامات التي كانت تقع بين المسيحيين الأوائل واليهود على خلفية مشاحناتهم أثناء نشر التعاليم المسيحية. وأشارت أعمال الرسل بدورها إلى

واقعة طرد اليهود من روما في عهد كلاوديوس: كان منهم المسيحيان أكيلا وزوجته بريسكيلا اللذان جاءا إلى كورينثوس وعاونا بولس، بل أرشدا آخرين إلى تعاليم المسيح (أعمال). بيد أن المسيحيين لم يكونوا قد شكلوا بعد مجموعة متميزة بالنسبة للإمبراطور كلاوديوس، إذ رأى في نزاعاتهم خصومة داخل صفوف المهاجرين اليهود.

بعد هزيمة الانتفاضة الأولى كان يمكن أن يكون بين الأسرى الذين بيعوا عبيداً، أو الذين هجروا جماعات يهودية مسيحية. وقد رصد وجود لليهود في مدينة بومبيوس: عثر بين نقوش ثكنة المصارعين على نقش لأحد اليهود المتحدثين بالإغريقية وردت فيه كلمة هينيسيس (= التسمية الإغريقية لسفر «التكوين» التوراتي). ويرى بعض العلماء أنه هناك بعض الكتابات المشفرة التي يمكن تأويلها ككتابات مسيحية. ولكن أكثر الكنائس المسيحية وتعاليمها التي سادت فيما بعد، قد نشأت في المقاطعات الشرقية.

ففي بادئ الأمر توجه الدعاة الذين جاؤوا من فلسطين، بدعوتهم إلى اليهود المقيمين في هذه المقاطعات. وكان انتشار اليهود في المقاطعات الرومانية الشرقية قد بدأ منذ حقب. ففي أوائل القرن ٦ق.م دمر الملك البابلي نبوخذنصر معبد أورشليم، وساق فريقاً من السكان اليهود إلى بابل. وبقي هؤلاء هناك بضع عشرات من السنين. وفي العام ٥٣٨ق.م استولى الملك الفارسي قورش على بابل، فأذن لليهود بالعودة إلى ديارهم، إلا أن جماعات منهم آثرت البقاء حيث تقيم. لقد استخدم الفرس الذين كانت فلسطين مقاطعة من دولتهم، وحدات عسكرية ينتمي أفرادها إلى أقوام شتى، ونشروها في أوساط سكانية غريبة: من المعروف أن المجندين اليهود شكلوا مستوطنة عسكرية في مصر. وبعد سقوط الإمبراطورية الفارسية دخلت فلسطين قوام مختلف الدول، ثم نالت استقلالها إثر انتفاضة المكابيين، إلا أنها وقعت في نهاية المطاف بين يدي الرومان. وأدت مضايقات المحتلين، وصراع المجموعات السياسية والدينية، والسعي وراء المصالح الاقتصادية والبحث عن عيش أفضل، أدت كلها إلى هجرة الفلسطينيين من فلسطين والانتقال إلى الإقامة في البلدان المجاورة، ومن ثم إلى روما. وعمل المهاجرون على الحفاظ على دينهم، فأسسوا روابط خاصة بهم، إلا أن التعايش مع الآخرين ترك بصمته على نمط عيشهم وطريقة تفكيرهم. ففقد كثير منهم لغته وغدا لا يتحدث سوى اللغة الإغريقية. ومنذ القرن ٣ق.م ترجم اليهود الذين كانوا يقيمون في مصر كتبهم المقدسة إلى اللغة الإغريقية: الترجمة السبعونية. وقد عد اليهود الناطقون بالإغريقية، ثم حذا المسيحيون حذوهم، عدوا نص الترجمة السبعونية نصاً مقدساً موحى به: لقد أخذ أكثر النصوص التوراتية الواردة في أناجيل العهد الجديد والرسائل، من نص الترجمة السبعونية.



سوسانا التوارتية
(من سفر دانيال) (روما. سراديب بطرس و مارسيلليني)

ولكن بصرف النظر عن العلاقات التي أقامها اليهود المهاجرون مع السكان المحليين، إلا أنهم أحسوا دوماً أنهم غرباء، وما عدا حالات قليلة، لم تكن لهم حقوق المواطنية في المدن التي أقاموا فيها، فما بالك بالمواطنية الرومانية التي كانت ترتبط بجملة من الامتيازات. عداك عن هذا أن صدامات إثنية متكررة كانت تقع من وقت لآخر في تلك المدن. وفي الوقت نفسه كان ينبغي على اليهودي أن يقدم ذبيحة ويؤدي طقوسه في معبد أورشليم تحديداً، وإلا عدت يهوديته ناقصة. وقد أفضى هذا كله إلى نشوء حالة سيكولوجية خاصة: فمن جهة أحس يهود الدياسبورا بالصلة التي ربطتهم بأورشليم، وأرسلوا أطفالهم ليتعلموا على معلمي الناموس، ومن جهة أخرى تمثلوا العادات المحلية، بل تزاوجوا أحياناً مع السكان المحليين. ولذلك ليس غريباً أن كان هؤلاء أكثر قبولاً لتعاليم لا تدعو إلى نظام سلوك دقيق صارم ضيق، وترفض سلفية بعض المجموعات الفريسية. لقد كان يهود الدياسبورا يجتمعون في الكنس، وكان السكان المحليون يشاركونهم إقامة الصلوات فيها. وقد عد هؤلاء متعاطفين مستمعين (يدعى هؤلاء في كتاب العهد الجديد: «الذين يمجدون الإله»). ونحن يمكننا أن نفترض أن أكثر أنصار الديانة المسيحية قد خرجوا في الأول من هذه الجماعات.

ويعد سفر أعمال الرسل المصدر الرئيس الذي يمكن بموجبه الحكم على تنظيم الطوائف المسيحية الأولى، وتركيبها، وحياتها الداخلية، وعلاقاتها مع السلطات: رسائل بولس الرسول إلى مسيحيي مدن ومناطق بعينها؛ والرسائل التي دخلت كتاب العهد الجديد باسم تلاميذ يسوع؛ وإصحاحات رؤيا يوحنا الثلاثة الأولى (حسب الباحثين المعاصرين، والتقليد الكنسي أن رؤيا يوحنا وضعت في أواخر القرن ١م)، التي وجهها إلى مسيحيي مدن آسيا الصغرى: أفَسُس، وسميرنا، وبرغاموس، وثياتيرا، وسردا، وفيلاديلفيا، ولأوديكيا، زد إلى ذلك بعض الكتب غير القانونية. ومن الواضح تماماً أن الرؤيا كتبت من مواقع اليهودية - المسيحية: يقول المؤلف في ندائه إلى مسيحي سميرنا إنه يعرف شر قول أولئك «الذين يقولون عن أنفسهم إنهم يهود، وهم ليسوا كذلك، لكنهم حشد شيطاني» (رؤيا). ودعيت الاتحادات المسيحية في نص الرؤيا بالكلمة الإغريقية: إيكليسيا (وفي الترجمة القانونية: كنيسة). وكانت هذه التسمية عينها تطلق على جهاز الإدارة الذاتية في المدن الإغريقية: مجلس الشعب. وقد عاكس المسيحيون مجالسهم عن سابق قصد، مع «الإيكليسيا» الحقيقية، أي مع أجهزة السلطة المعادية لهم. ولكننا إذ ندرس حياة المسيحيين في أواسط القرن ١م، من الضروري أن نأخذ بالحسبان، أننا إذا ما استثنينا رسائل بولس، فإن الأسفار الأخرى المشار إليها لم توضع إلا بعد سيطرة مديدة لتناقل

التعاليم شفهياً: لم تدون قبل الثلث الأخير من القرن الميلادي الأول، ولذلك فإن تحليلاً أكثر دقة لتنظيم الإيكليسيا وتطوره سوف نسوقه في فصل آخر.

تندرج رسائل الرسول بولس (في أقل تقدير تلك التي عدها الباحثون صحيحة)، وكذلك نشاطه العملي الذي يضيئه سفر أعمال الرسل، وكذا أسماء الحكام الرومان المحليين، والوضع الذي كان سائداً في الأقاليم المعنية التي بشّر فيها، يندرج هذا كله زمنياً في أواسط القرن ١م. وغني عن البيان القول، أن بولس أدى دوراً استثنائياً في صيرورة المسيحية وقيامها. اسمه اليهودي هو شاول، وينتمي من حيث المنشأ إلى مدينة طرسوس في آسيا الصغرى، كانت مهنته في الحياة صناعة الخيام، وكان يملك حقوق المواطنية الرومانية، الأمر الذي كان حصوله نادراً في القرن الميلادي الأول، إلا لأبناء الفئات الاجتماعية العليا. ولعل من حقنا أن نفترض أن مهنته هي التي كانت سبب حصوله، وحصول والده من قبله على المواطنية الرومانية (لقد كانت الخيام تلزم أكثر ما تلزم للجيش). وفي الأول كان شاول



بولس الرسول

أيقونة بيزنطية، أواخر القرن الرابع الميلادي

يهودياً سلفياً متعصباً أدى دوراً نشطاً في التنكيل بالمسيحيين في فلسطين (خاصة في رجم ستيفان)، لكنه بينما كان في طريقه إلى دمشق لكي ينظم فيها عمليات أخرى معادية للمسيحيين، سقط فجأة وفقد بصره وسمع صوتاً يسأله: «شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟» وقد أعلن الصوت أنه هو يسوع، وقال لشاول إنه سوف يبرأ من عماه في دمشق، الأمر الذي تحقق. ولا شك في أن شاول اختار لنفسه اسماً رومانياً دخل به التاريخ: بولس، ولا شك أيضاً في أنه آمن بالمعجزة التي وقعت له على طريق دمشق (يرى بعض المؤرخين وعلماء الطب أن الرجل تعرض لضربة شمس سببت له حالة هذيان). ومنذ تلك اللحظة صار بولس إلى أكثر دعاة المسيحية نشاطاً. وكتب عنه عدد كبير من الكتب والأبحاث. لقد كان لمواعظه أكبر الأثر في تعاليم المسيحية وانتشارها. بيد أن ما يعنينا الآن، هو أمر الناس العاديين الذين كانوا يستمعون إلى شتى ضروب الوعظ، وشكلوا قوام الطوائف المسيحية الأولى:

ما هي طبيعة تنظيمهم آنذاك، كيف كانت علاقاتهم بعضهم مع بعض، وكيف نشأت عقائدهم وصارت؟

حسب التقليد الكنسي، الذي يشاركه الرأي نفسه أكثر الباحثين، أن مؤلف الإنجيل الثالث هو نفسه الذي كتب سفر أعمال الرسل[1]. وقد جمع هذا العمل مدونات القصص الشفهية والخرافات المرتبطة بطائفة أورشليم التي لم يكن المؤلف على معرفة مباشرة بها، إضافة إلى ما يشبه اليوميات التي دونت باسم مرافقي (أو مرافق) بولس. وقد احتوى هذا الجزء على وصف أحداث معينة، ورد فعل متلقي المواعظ، وترد هناك أسماء الحكام الرومان المحليين المعروفة لنا في مصادر أخرى مستقلة، كما أدرجت في هذا الجزء نفسه تفاصيل من الحياة اليومية تتوافق فعلاً مع زمن الأحداث ومكانها. فثمة أخبار عن المسيحيين في أراضي الإمبراطورية الرومانية، نقلها مؤلفون وثنيون وسوف نعرض لها في حينه.

وإذا ما حاكمنا الموقف على أساس ما زودتنا به هذه المصادر كلها من معطيات تسترجع بكثير من التفصيل بعض مشاهد نشاط دعاة المسيحية الأوائل، بمن فيهم بولس الرسول، فإننا نرى أن هؤلاء أثاروا ردود أفعال متباينة: في بعض الأحيان كانوا ينصتون إليهم بانتباه، وفي أحيان أخرى كان الأصوليون اليهود يعارضونهم معارضة شديدة. فقد روت أعمال الرسل عن قيّم الكنيس اليهود في مدينة كورينثوس الإغريقية، الذي اعتنق المسيحية. وفي أنطاكيا تبع بولس ومرافقه برنابا وثنيون كانوا قبل ذلك قد اعتنقوا اليهودية، أما الجمهرة الأساسية من المؤلفين اليهود فقد سعت لإقناع حكام المدينة بطرد المسيحيين منها (أعمال الرسل).

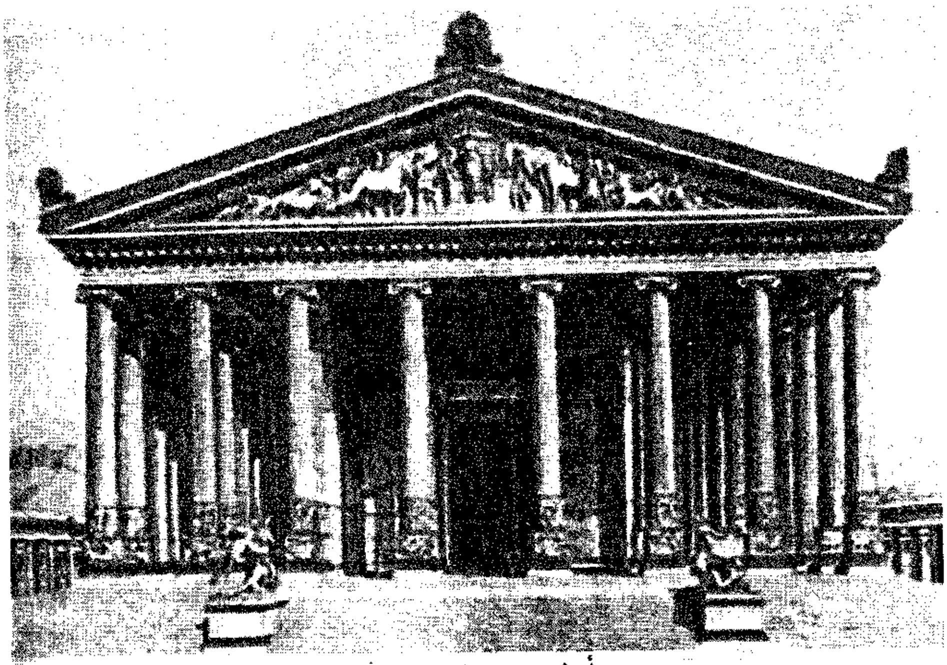
وعلى صعيد آخر، كانت علاقات بولس مع قيادة طائفة أورشليم تعاني تعقيدات كثيرة. فقد جاء إليهم بعد ثلاث سنوات من نشاطه التبشيري، وقابل هناك يعقوب وبطرس (رسالة بولس إلى أهل غلاطيا). ويبدو أن كثرة من اليهود - المسيحيين لم تكن لهم ثقة به، وحسب أعمال الرسل أن الأحبار كانوا يخشونه. ولم يعترف بصدق اعتناقه المسيحية منهم سوى برنابا الذي سيغدو بعد ذلك مرافقه، وقد حدّث هذا الأحبار بذلك (أعمال). لقد زار بولس أورشليم مرات عدة، واتفق مع قادة كنيستها على أن يمضي هو وبرنابا للتبشير بين الوثنيين بينما يبشّر هم المختونين، أي اليهود. ومن حيث الجوهر لم يقطع بولس مع اليهودية («... لقد كنت يهودياً بالنسبة لليهود»، الرسالة الأولى إلى أهل كورينثوس)، إلا أن الدعوة إلى اعتناق المسيحية في أوساط الوثنيين غدت غاية حياته (رسالة بولس إلى أهل غلاطيا)،

١- انظر: كوزار جيفسكي ا. تش. إشكاليات مصادر الأدبيات المسيحية المبكرة. موسكو، ١٩٨٥، ص ٦٢-٦٣.

وتمحورت أفكاره من حيث الجوهر حول مغزى واحد: سوف تقوم مملكة الإله عندما يؤمن اليهود والوثنيون بالمسيح.

ولم تكن المواعظ كلها تؤدي إلى نتائج مرضية بين اليهود أيضاً. ويثير الاهتمام في هذا السياق مشهد موصوف في أعمال الرسل، وقع لبولس وبرنابا في لاكونيا، وهي أحد الأقاليم المقفرة في آسيا الصغرى، حيث كان تأثير الثقافة الإغريقية فيها ضعيفاً. فقد وصل بولس وبرنابا إلى بوابات مدينة ليسترا وشرعا يتحدثان عن المخلص. ويبدو أن السكان لم يفهموا ما كانوا يسمعونه جيداً، ولكن حماسة الضيفين الغريبين، وتكرار كلمة «إله» على لسانيهما تركا انطباعاً لدى الجمع: ظن هؤلاء أن إلهين قد ظهرا لهم، ورأوا في برنابا زيوس، وفي بولس هرمس، وقد فسر مؤلف الأعمال أن سبب رؤيتهم لبولس هرمس، هو أن بولس كان «آمراً في كلامه»؛ ولكن قد يكون السبب أن برنابا كان أكثر إيحاء من بولس. وقد همّ كاهن معبد زيوس في المدينة أن يقدم لهما ذبيحة، فقاد الثيران وجاء بالأكاليل. وفي تلك الأثناء كان بولس وبرنابا يبذلان جهوداً لإقناع مستمعيهما، ووصل الأمر بهما إلى أن مزقا رداءيهما لكي يقنعا الناس بأنهما من البشر، وبالكاد نجحا في إقناع الحشد بالتفرق (الأعمال). وما تجدر الإشارة إليه، هو أن الآثاريين اكتشفوا بقايا معبد لزيوس عند بوابات مدينة ليسترا، الأمر الذي يؤكد على صحة وصف سفر أعمال الرسل لمسرح الحدث. ولم يكن التبشير بالمسيحية أقل تعقيداً في المدن الكبرى. ويحظى بالأهمية في هذا السياق وصف ما حدث في مدينة أفسس، أكبر مدن آسيا الصغرى. فبينما كان بولس ومرافقوه هناك، قام حرفيو المدينة ضدهم: صاغة المصنوعات الفضية (الأعمال). وكان الصاغة يصنعون رسم معبد الإلهة ارطميس الأفَسُسية تذكاراً يباع لزوار هذا المعبد الذي كان من عجائب الدنيا السبع. وها هو أحد الصاغة يحرض رفاقه ضد المسيحيين الذي زعم أنهم يؤكدون أن «كل ما تصنعه يد البشر ليس له أي جوهر إلهي». فألقى الصاغة القبض على رفاق بولس وجاؤوا بهم إلى المسرح، وهناك شرعوا يوجهون الاتهامات لهم ويمجدون أرطميس. ولكن الخروج العفوي للناس إلى الشارع أثار خشية الحكام. فخطب ناظر النظام في المدينة بالحشد، وشرع يهدئ الصاخبين الساخطين مطالباً من لديه شكوى بأن يتوجه بها إلى المحكمة، أو إلى حاكم المدينة، وإلا اتهم بإثارة الشغب، «لأنه ليس ثمة من سبب يمكن أن نعلل به مثل هذا التجمع». إن هذه القصة تعكس واقع الحياة الاجتماعية في مدن مقطعات الإمبراطورية، وحالة الخوف التي كانت السلطات المحلية تعيشها جراء كل ما يمكن أن يثير حفيظة السلطات الرومانية، كما تعكس كذلك سعي الحكام المحليين إلى تفادي حصول

أي تجمع غير مسموح به، وعدم رغبتها في الانخراط أو التدخل في أي خلافات دينية كانت، وتبرز الرواية أيضاً، وكذلك النقوش وجود اتحاد لصاغة الأعمال الفضية ذي تأثير مهم في مدينة أفَسُس. وغني عن البيان القول، إن مثل هؤلاء الصاغة لم ينضموا في أقل تقدير في بادئ الأمر، إلى المسيحيين.



معبد أرطميس في إفسس. تصميم

فمن كان إذن أنصار المسيح الأوائل خارج فلسطين؟ إن تحليل مصادر النصف الثاني من القرن الميلادي الأول، يجيز لنا بعض الاستنتاجات عن تركيبتهم الاثنية (الاثنية - الثقافية على الأصح) والاجتماعية. فرسائل بولس تورد كثرة كثيرة من أسماء العلم الإغريقية، كما تغلب هذه الأسماء أيضاً في رسالته إلى المسيحيين الرومان. والحقيقة أن هذه الرسالة أتت على ذكر اسمي امرأتين: يوليا ويونيا، قريبة مؤلف الرسالة. وقد حملت المرأتان لقبين عشيريين رومانيين، ويبدو على أغلب الظن أن المرأتين هما أمتان معتوقتان، لأن التقليد الروماني كان يقضي بأن يحمل المعتوق اللقب العشيري لسيده، وأن يغدو هذا مولاه الذي يحميه. ومن الأسماء التي وردت في رسائل بولس، لقب عبوديّ، هو اللغوي. ومن المعروف أنهم غالباً ما كانوا يطلقون على العبيد أسماء حركية حسب مهنهم (ربما كان يجري الحديث هنا على مثقف إغريقي كان مملوكاً لإحدى العائلات الثرية). وثمة عبد آخر يدعى أنيسيموس، يبدو أنه عبد فار اعتنق المسيحية، كرست له رسالة بولس إلى فيلمون. وأشار بولس في رسالته إلى أهل

كولوسي إشارة خاصة إلى اثنين قال إنهما: مرقس ابن أخت برنابا، ويسوع المدعو يوستوس (اسم مأخوذ من الكلمة اللاتينية يوستوس: العادل)، على أنهما من المختونين. إذن ها نحن مرة أخرى نقابل يهوداً اتخذوا أسماء رومانية، وهو ما يشهد بصرف النظر عن أصلهما اليهودي، على صلتهما بالوسط الوثني القديم (= الإغريقي - الروماني م). ونقف على حضور شخصية أخرى في رسالة بولس الأولى إلى الكورونثيين تحمل اللقب اللاتيني فورتون. وكان بين أنصار بولس شخص يدعى تيطوس (اسم روماني صرف)، تردد اسمه مرات في الرسالة الثانية إلى الكورونثيين، ولكنه يدعى في الرسالة إلى الغلاطيين هللينياً غير مختون. وهناك اسم لاتيني آخر، هو غايوس كان يحمله أحد مواطني مدينة دير في القصية في قفار آسيا الصغرى (يقول بولس إنه عمده: (الأعمال)، الرسالة الأولى إلى أهل كورينثوس)؛ ونحن نستبعد أن يكون روماني المنشأ كما تيطوس. وعلى وجه العموم تغلب الأسماء الإغريقية على الأسماء الأخرى الواردة في رسائل بولس وأعمال الرسل: تيموثاوس (والده إغريقي ووالدته يهودية)، وتيخيوس، واريستراخوس، وتروفيموس، بيد أننا لا نستطيع أن نؤكد على وجه الدقة ما إذا كان هؤلاء هللينيين، إذ منذ فتوحات الإسكندر المقدوني أخذ سكان المدن، ثم سكان القرى يتمثلون الثقافة القديمة ويتحدثون اللغة الإغريقية، بل ثمة منهم من اتخذ أسماء رومانية. وعلى هذا النحو فإن اختلاط أسماء مختلف الأصول، يمكن أن يدل على أن كثيراً ممن كانوا يحيطون ببولس لم يكونوا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالتقاليد المحلية أو العائلية، وهو ما سهل اعتناقهم العقائد الجديدة. وما تجدر ملاحظته في هذا السياق، هو أن دعوة بولس لم تلق نجاحاً يذكر في مدينة أثينا التي كانت مركزاً رئيساً للثقافة الهلينية: لقد سخر الناس هنا من حديثه عن قيامة الأموات الموعودة. ولم تذكر أعمال الرسل سوى اسمي اثنين ممن انضم إلى بولس في أثينا: الأثيني ديونيسيوي، وامرأة تحمل اسماً شرقياً واضحاً، هو دامار (أعمال). وكان بين معاوني بولس في تلك المدن، مهاجرون. ففي كورينثوس انضم إليه المدعو أكيلا، وهو يهودي


صاحب البيت تيرينسيوس وزوجته
زخرفة من بومبيوس (القرن الثاني الميلادي.
نابولي. المتحف الوطني)

من منطقة بونتوس في آسيا الصغرى (الساحل الجنوبي للبحر الأسود)، وزوجته بريسكيلا (اسم محوّر عن اللاتينية)؛ وكان هذان قد عاشا وقتاً ما وعملا في روما، ثم طردا منها في عهد كلاوديوس، فاستقرا في اليونان. واعتنقت المسيحية في مدينة فيلبي، المهاجرة ليديا التي كانت تعمل في تجارة الأقمشة. لقد كان من بين أول من اعتنق المسيحية من غير اليهود: أبناء الزيجات المختلطة، والمعتوقون، وربما العبيد، والمهاجرون الذين فقدوا روابطهم بديارهم. لقد كان هؤلاء يحسون بالدونية أمام سكان المدن الكبيرة المثقفين الذين كانوا يفاخرون بتقاليدهم الهلينية العريقة.

وعلى وجه العموم ترد في رسائل العهد الجديد التي تحمل اسم بولس، وكذلك في أكثر إصحاحات أعمال الرسل، أسماء من كانوا في محيط بولس وتلاميذه. بيد أن هؤلاء ليسوا وحدهم من كان قد آمن بيسوع. فرؤيا يوحنا تفيد عن يهود - مسيحيين في عدد من المدن التي بشر فيها بولس (أفَسُس، ولاوديكيا، لكنها لم تصل إلينا). وما يجدر التنويه به أن الرؤيا تقول في خطابها إلى مسيحيي أفَسُس، إنهم جربوا بأنفسهم أولئك الذين يدعون أنفسهم رسلاً، «وهم غير ذلك»: قد يكون المقصود بهذا الكلام بولس وتلاميذه الذين كانوا مرة في أفَسُس؟ فاليهود - المسيحيون، ولا سيما الإيبيونيتيين، لم يعترفوا بالرسول بولس، وعدوه مرتداً. وعلى وجه العموم كان بين الجماعات المسيحية التي أتت الرؤيا على ذكرها، من كان على تواصل مع الوثنيين وأكل من ذبائحهم. ورسالة بولس إلى اليهود كانت موجهة بدورها إلى اليهود - المسيحيين. فعند نهاية القرن ١م. كان هؤلاء موجودين في المدن الإغريقية إلى جانب تلك المشاعات التي قبلت الوثنيين في صفوفها ولم ترغمهم على الالتزام بالطقوس والشعائر اليهودية. لقد سعى بولس إلى توحيد كل من آمن بقيامة المسيح وقرب مجيئه الثاني. فقد قال في رسالته إلى الكورونثيين: إذا كان المدعو مختوناً «فلا يتخفى»، وإذا لم يكن مختوناً «فلا يختن» (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس). وتكررت دعوات بولس هذه في عدد من رسائله الأخرى: «لم يعد هناك يهودي، ولا وثني ولا عبد، ولا حر، وليس هناك من ذكر وأنثى، لأن كلكم صار في المسيح واحد» (رسالة بولس إلى أهل غلاطيا). وكانت تلك الدعوات موجهة من حيث جوهر الأمر نحو توحيد المسيحيين كلهم، بصرف النظر عن الانتماء العرقي والاجتماعين في بوتقة واحدة، هي بوتقة المسيحية، الأمر الذي أفضى إلى وضع الأسس الأولى لتحويل المسيحية إلى ديانة عالمية، ولكن النجاح لم يأت فوراً. فمن الواضح أن التناقضات كانت لا تزال قوية بين المسيحيين الجدد. ولدينا من الدلائل ما يجيز لنا أن نعتقد بأن بولس أمسى في آخر أيامه وحيداً. فقد جاء في الأعمال، أنه أثناء زيارته

الأخيرة إلى أورشليم، قام اليهود ضده، وربما اليهود - المسيحيون أيضاً. وألقي القبض عليه في حرم المعبد مباشرة. وبعد أن استمع إليه السيندريون، أرسله الحاكم الروماني المحلي ليلاً تحت الحراسة إلى القيصرية وربما كانت خشية الحاكم من انتقام الحشد من بولس، هي التي دفعته إلى تهريبه، فاليهود كانوا يرون في بولس مرتداً. وبصفته مواطناً رومانياً، أرسل بولس في نهاية المطاف ليمثل أمام المحكمة في عاصمة الإمبراطورية: روما. فقد كتب مؤلف الرسالة الثانية إلى تيموثاوس[1]، وهي الرسالة التي ربما كتبت قبل الرسالة الأولى، كتب يقول: إنه في سجن روما، وإن أنصاره من مقاطعة آسيا الصغرى قد تركوه، وإن كثيرين قد انفضوا عنه: «لقد تركني ديماس وأحب هذا العصر»، أي أن ديماس هذا ترك المسيحية كلها، ولما أجرى الرومان التحقيق الأول مع بولس لم يكن معه أحد. فهل تتوافق هذه الكلمات مع الواقع أم لا؟ نحن لا نعرف على وجه اليقين، ولكن هذا بالذات ما أحس به أولئك الذين وصفوا معاناة بولس، ربما استناداً إلى روايات شفهية نقلت عنه، أو استناداً إلى قصص ما أخرى. وقد ذكر هؤلاء أسماء الذين يعرفونهم ممن كانوا مع بولس وتركوه. وليس في أعمال الرسل معلومات عن خاتمة حياة بولس. ولكن الرواية السائدة في الأدبيات المسيحية تقول، إن بولس أعدم في روما في عهد نيرون. إلا أن رسائل كليمينت الروماني الذي تقول الروايات إنه كان رئيس الطائفة المسيحية الرومانية في أواخر القرن ١م، تحمل إشارات تفيد بأن بولس قد وصل إلى «الأطراف الغربية»، أي إلى أقصى المقاطعات الغربية: أسبانيا. ومن الواضح أن الإبهام الذي يحيط بخاتمة عمل بولس التبشيري، قد يكون مرتبطاً بقلة عدد أنصاره، الأمر الذي أدى إلى فقدان آثاره. ولم يطرأ أي تغير على هذا الوضع إلا في أواخر القرن ٢م، بعد أن تبدلت الحال داخل التجمعات المسيحية، وحظيت تعاليم بولس عن مساواة الناس كلهم[2] أمام المسيح بانتشار كبير، حينئذ فقط أنشؤوا عنه مختلف القصص والحكايات.

وفي الزمن الذي وضعت فيه رسائل بولس ورؤيا يوحنا، لم يكن عدد المسيحيين ملحوظاً بعد. وتتحدث أعمال الرسل أحياناً عن هللينيين ويهود تبعوا الدعاة المسيحيين، ولكننا إذا ما انتقلنا من التعابير العامة إلى الأمثلة المحددة التي وردت هناك، فإن صورة

١- يرى المتخصصون المعاصرون أن رسائل بولس إلى تيطوس، ورسالتيه إلى تيموثاوس ليست من تأليفه هو، إنما وضعها أنصاره بيد أن رسالته الثانية إلى تيموثاوس تبدو أقرب إلى أسلوبه وفكر. انظر:
Brown R. An Introduction the New Testament, N.Y 1997. p. 672 ff.

٢- يلفت الانتباه هنا أنه لم يرد اسم الرومان في عداد هؤلاء: من الواضح أن بولس كان يرى فيهم جماعة من المواطنين الرومان الذين لهم أهلية قانونية محددة، وكان يمكن أن يكون بينهم الهيلينيون، واليهود و- فما عدا العبيد والأحرار، لم تكن التقسيمات السياسية والحقوقية لهذا العالم تعني له شيئاً.

مغـايرة ترتسم أمامنـا. فعنـدما كـان بـولس في طـروادة مـثلاً، أقـام تلاميذه كلهم في حجـرة واحدة (الأعمال). وفي أفَسُس جعل بولس من اثني عشر من أتباع يوحنا المعمدان مسيحيين. وجاء في الرؤيا إنه ثمة في سردا «عدد ممن لم يدنسوا ملابسهم»، أي لم يرتّدوا عن التعاليم التي عدها المؤلف حقيقة.

إن أي تعريف للقوام الاجتماعي للمشاعات المسيحية الأولى، يثير جملة من الصعوبات الجدية بسبب شح المعطيات. ولكن المتفق عليه، هو أن الغلبة في بنيتها كانت للفئات السكانية الدنيا، بمن في ذلك العبيد، مع أن المصادر لا تفيدنا بكثير من الأمثلة المحددة عن مسيحيين - عبيد. ومن الوجهة النظرية فإن المسيحية كان يجب أن تجذب العبيد: لقد كان هؤلاء غرباء في المجتمع الروماني. ومهما كانت المكانة التي يشغلونها: مكانة عبد مؤتمن تحت تصرفه عبيد آخرون، أو مكانة عبد ريفي يرزح في الأغلال، فإنهم في الأحوال كلها مجرد أشياء من جملة الأشياء الأخرى التي يملكها السيد. ولم يعالج بولس في أي من رسائله مسألة العبودية معالجة مستقلة. ولكن رسالته الأولى إلى الكورونثيين تقول: «إذا دعيت عبداً فلا تبتئس، ولكن إذا استطعت أن تكون حراً فالأفضل أن تفعل. لأن العبد المدعو في الرب، هو سيدحر، تماماً مثلما الحر المدعو عبداً للمسيح». إذن لم تكن مسألة وجود الحرية الفعلية أو غيابها من المسائل الجوهرية بالنسبة لبولس والمسيحيين الأوائل بوجه عام: لقد كانوا ينتظرون نهاية هذا العالم، ومجيء يوم الحساب وقيام مملكة الإله على الأرض الجديدة التي سوف يكون سكانها متجددين أيضاً. ولذلك لم يكن لظروف حياتهم المؤقتة أي أهمية من وجهة نظرهم. وفي حالات معينة كانت مسألة عبودية هذا المسيحي أو ذاك تعالج داخلياً بين أفراد الطائفة. ففي رسالته إلى فيليمون (مع أنه من المشكوك فيه أن يكون بولس هو صاحب هذه الرسالة، إلا أنه ليس لهذا الجانب أهمية في هذا السياق) يطلب بولس من هذا الأخير أن يستقبل العبد أنيسيموس الذي ترك سيده وصار أخاً لبولس في المسيح، وأن يعامله هو بدوره كما يعامل أخاً حبيباً. ويزعم بعض العلماء أن أنيسيموس نال بعد ذلك حريته، وبما أنه كان لا يزال شاباً في مقتبل العمر، فقد شغل مكانة متميزة بين مسيحيي أفَسُس، إذ بات أسقفاً وعاش بعد ذلك ما يقارب نصف قرن. وورد اسم الأسقف أنيسيموس في رسالة اغناطيوس الأنطاكي (القرن ٢م) إلى الأفَسُسيين. ومن الواضح أنه كان بمقدوره أن يحتفظ برسائل بولس المبعثرة، بما فيها تلك التي حققت له حريته. ولا شك في أن هذه الرواية الرومانسية لقصة واحد من العبيد تستحق الاهتمام على ضوء تبجيل مسيحيي القرن ٢م لذكرى الرسول المقدس بولس.

في أواخر القرن ١م وقع كثير من اليهود فريسة العبودية، وقد عاش هؤلاء، وعملوا وقاتلوا على حلبات المدرجات مع سواهم من العبيد الآخرين. ومن كان منهم قد اعتنق المسيحية، أو كان يعرف قصة المسيح، كان يرويها على زملائه، ويحدثهم عن دينه الذي اعتنقه، ولم يكن كثير من هؤلاء يتأخر كثيراً عن الانضمام إلى الدين الجديد. وكان بين مسيحيي المقاطعات الشرقية مسيحيون يمارسون شتى المهن. فأكيلا، رفيق بولس كان يصنع الخيام، واشتغل مع بولس لبعض الوقت. وفي القرن ٢م سخر سيلس من المسيحيين لأنهم يعظون بتعاليمهم «الأجلاف» من نداف الصوف، واللبادين، والدباغين، وكانت هذه أكثر المهن انحطاطاً في الإمبراطورية. أما سكان الأرياف فلم تكن أعدادهم كبيرة خارج فلسطين في بادئ الأمر، ولكن مع بداية القرن ٢م أخذت المسيحية تتغلغل في قرى آسيا الصغرى، لا سيما تلك الواقعة غير بعيد عن المدن.. ففي رسائله التي أرسلها بليني الأصغر إلى الإمبراطور ترايان من مقاطعة بيثينا في آسيا الصغرى، يخبره فيها أن العقيدة الخرافية (يقصد المسيحية)، قد انتشرت في القرى (الرسائل). وفي أفَسُس كان المدعو تيرات مسيحياً أو متعاطفاً معهم، وكان هذا صاحب مدرسة علّم فيها بولس بعد أن طرد من الكنيس (الأعمال). ولكن زمن المثقفين في المسيحية لم يكن قد حل بعد. فأكثر كنائس القرن الأول كانت فقيرة. وقد كتب مؤلف الرؤيا عن مسيحيي سميرنا يقول، إنه يعرف مدى فقرهم (الرؤيا). وكان بولس دائم الحاجة إلى مساعدة أخوته في الدين، ولكن، لم يكونوا كلهم قادرين على مد يد العون أو راغبين في ذلك. فكتب في رسالته إلى مسيحيي فيليبوس يقول، إنه لما خرج من مقدونيا، لم يقدم أحد له التقدمات سواهم، فأرسل له هؤلاء مساعدة حتى عندما كان في تسالونيكيا. وتذكر علاوة إلى الفيليبوسيين كنائس أخرى غنية: لقد عدت كنيسة لاوديكيا نفسها غنية، ولا تعاني نقصاً من أي شيء، لكن مؤلف الرؤيا لا يرى في هذا ميزة، بل حسب قوله أن هذه الكنيسة، هي في واقع الأمر كنيسة عمياء، فقيرة، عارية (يقصد روحياً). لقد بقي الموقف السلبي تجاه الثروة حاضراً في أوساط اليهود - المسيحيين زمناً طويلاً، وترجع جذور هذا الموقف إلى مواعظ يسوع نفسه. ولكن المسيحية على أراضي الإمبراطورية لم تتوجه إلى الفقراء فقط، بل إلى المحرومين على وجه العموم. فما كتبه المسيحيون الأوائل مليء بالنداءات الموجهة إلى المعدمين، واليتامى، والأرامل، والمقعدين والآثمين، والبغايا، وكل من أحس أنه منبوذ اجتماعياً وأخلاقياً من قبل محيطه؛ كما دعوا أيضاً الذين فقدوا صلاتهم العائلية، وعلاقاتهم مع أوطانهم، والغرباء، والمشوهين فيزيائياً الذين كان يجب أن تستهويهم فكرة التعاطف والخلاص عبر الآلام.

وكان تصوّر المسيحيين عن الرحمة مختلفاً عن تصور العالم القديم لها. فقد كتب أرسطو في «البويتيكا» يقول: لا تكون الرحمة إلا لمن يعاني دون أن يكون مستحقاً المعاناة؛ ولا يثير الشفقة إلا أذى تسبب به الأقربون. أما إذا كان موقفك من العدو على هذا النحو، فإنه ليس ثمة أسى يثير الفعل أو يتأتى على المسعى. وبمعنى آخر، إن المعاناة بحد ذاتها لا تثير التعاطف. ولكن المسيحيين الأوائل قبلوا المعذبين كلهم دون تمييز: قبلوا جباة الضرائب الذين كان الجميع يكرههم ويحتقرهم، وقبلوا البغايا إذا ما تبن توبة حقيقية، وقبلوا المرضى، والمقعدين. ومن المعروف أن التشوهات الفيزيائية كانت تثير الاحتقار والنفور في دول المدن الإغريقية، حيث ساد مثال الإنسان البديع الرائع داخلياً وخارجياً. ولذلك ليس عبثاً أن كتب سيلس في مناظرته المسيحيين يقول، إذا ما شاء الإله أن يتجسد في إنسان، فإنه سوف يختار إنساناً أهيف، جميلاً، قوياً، فصيحاً، بليغاً، أما يسوع فإنه حسب كلام المسيحيين أنفسهم، لم يكن جميلاً، وكان قصير القامة. ونحن لا نعرف أين قرأ سيلس لدى المسيحيين مثل هذا الوصف ليسوع، لأن الذي كان على هذه الشاكلة، هو بولس وليس يسوع. بيد أن الملفت في قول سيلس، هو ضرورة ما ينبغي أن يكون عليه شكل الإله من وجهة نظر الوثني. لقد كان بين المقعدين الذين التحقوا بالمسيحية كثير من الفقراء والمعدمين على أرجح تقدير، لأن أكثر هؤلاء كان عاجزاً عن العمل، ولكن ربما كان بينهم من كان من الأغنياء أيضاً.

وقد كان للنساء مكانة خاصة بين المسيحيين، مع العلم أن الرأي العام في العالم القديم كان يرفض فكرة المساواة بين النساء والرجال. فأرسطو وصف المرأة بأنها كائن وضيع، مع أنها قد تكون نبيلة المنشأ (بويتيكا). وها هو سيلس هذا عينه يسخر سخرية شديدة من فكرة الحبَل بلا دنس، فيقول، إذا كان الإله قد أراد أن يرسل الروح إلى الأرض، فلماذا اختار له الإقامة في مكان على هذه الدرجة من القذارة، كما هي حال رحم المرأة (اوريجينوس. ضد سيلس). لقد كان موقف الرجال تجاه النساء إبان القرون الميلادية الأولى يتسم بكثير من التناقض فمن جهة ظهرت أعمال تمدح النساء وتتغنى بهن: كتب بلوتارخ مؤلفاً خاصاً «عن مروءات النساء»؛ وعدّ فيه التواضع، والإخلاص، والدفاع عن الشرف من أهم فضائل المرأة. ولكن واقع الحال، هو أن كثيراً من النسوة كن بعيدات جداً عن الالتزام بمثل هذه القيم. فمن وقعت منهن فريسة الفقر إذ فقدت معيلها، وجدت نفسها مرغمة على أن تحصّل لقمة عيشها بنفسها بأي وسيلة متاحة، فعملت عاملة مأجورة أو ممثلة على مسارح المجون في الميادين العامة، أو عازفة موسيقى، أما من منهن عجزت عن العثور على مثل هذه الأعمال، فقد غرقت في عالم العهر. وعلى صعيد آخر جاهدت النسوة اللواتي كن ينتمين إلى الطبقات الاجتماعية العليا،

لكي يكون لهن دور في الحياة الاجتماعية، وتأثير على الحياة السياسية، حتى لو اقتصر هذا على نطاق المدينة الأم. فبذلن المال لإقامة الاحتفالات وعملن على الدخول الاتحادات الرجالية الخاصة، بل أسسن اتحاداتهن الخاصة؛ بيد أن مثل هؤلاء النسوة كن قلة. لقد اصطدمت جهود النساء هذه بجدار التقاليد الجبار الذي لم يكن يسمح للمرأة بأن تشارك علانية في النشاط السياسي، أو تدخل اتحادات الرجال الباطنية. لقد أثارت التناقضات بين الرجال والنساء رد فعل سلبي لدى ممثلي عالم الرجال. فشاع في آداب ذلك العصر تصور رأى في المرأة حاملة للمبدأ المظلم، للعنصر القاتم، ويمكننا أن نتذكر في هذا السياق الساحرات الشريرات والداعرات الفاجرات، والقاتلات، اللواتي وردن في «تحولات» ابوليوس: المرأة التي قتلت زوجها، أو تلك التي «خدعت زوجها التاعس، ومضت منذ الصباح تحتسي الخمر وتمارس العهر مدنسة جسدها».

إذن ليس مستغرباً أن تجد الدعوة المسيحية في مثل هذه البيئة السيكولوجية صدى واسعاً في نفوس النساء، على خلفية توجهها إلى الجنسين على حد سواء. وكنا قد أوردنا هنا أسماء مسيحيات وردت في رسائل بولس وأعمال الرسل. وكانت بينهن معتوقات لأسياد رومان، وربما أيضاً الأمة بيرسيس (ورد اسمها في رسالة بولس إلى أهل روما)، وقريبات الدعاة المسيحيين: بنات الكاهن فيليبوس الأربع (الأعمال)، وأخت المدعو نريبوس (رسالة بولس إلى أهل روما) كما كانت والدة تيموثاوس تابع بولس، يهودية آمنت بالمسيح. وانضمت إلى المسيحيين أيضاً ليديا، تاجرة الأقمشة التي أشرنا إليها سابقاً. وقبلت سر المعمودية أيضاً نساء من فئات المجتمع العليا. وجاء في أعمال الرسل أن غير قليل من النساء التحقن ببولس وتابعه سيلا في تسالونيكيا، وقد كن من «الأوائل» (أي من العائلات الارستقراطية)؛ أما في مدينة بيروي فقد آمن الرجال من «العائلات النبيلة» (الأعمال). وقد أدارت المسيحيات نشاطاً تبشيرياً مكثفاً. ففي رسالته إلى أهل فيليبوس يطلب بولس مساعدة المرأتين يفدوكيا وسينتيخيا (اسمان إغريقيان)، «اللتان بشرتا معي وكليمينت». ومن معاونات بولس أيضاً الدياكونيا تيفا (رسالة بولس إلى الرومان). وكان بين النسوة متنبئات: حسب أعمال الرسل أن هذه النعمة كانت لبنات فيليبوس القيصري (الأعمال). وقد أرغم حرص النساء على المشاركة الفعالة في الصلوات الجماعية، بولس على وضع معايير صارمة لسلوكهن: ينبغي على النسوة أن يرتدين ما يغطي الرأس أثناء الصلوات، وكذلك ينبغي أن تفعل من منهن تتنبأ. وكان يجب على الحشد الأكبر من المسيحيات أن يصمت أثناء إقامة الصلوات الجماعية، ويتعلم من الرجال في المنازل. ولكن ثمة من المتنبئات اليهوديات - المسيحيات من كن يسلكن سلوكاً غير لائق. ففي رؤيا يوحنا إشارة إلى متنبئة تدعى إيزابيل، كانت تقود المسيحيين إلى الضلال، والزنى، وأكل لحوم الذبائح الوثنية.



صورة امرأة مسيحية

زخرفة (روما، سراديب بطرس ومارسيلليني)

وكانت المسألة الداخلية الأخرى لدى الكنائس المسيحية تتمثل في العلاقة بين الجنسين. فقد أفضى غياب الأواصر العائلية لدى الكثير من المسيحيين، وقصور فهمهم لمفهوم الاتحاد في الدين، واحتقارهم للإرشادات الدنيوية، هذا كله أفضى إلى شيوع الزنى في أوساطهم. ففي رسالته الأولى إلى الكورونثيين قال بولس بوضوح: «هناك إشاعة أكيدة عن ظهور الزنى بينكم، وقد بلغ في غضون ذلك درجة لم يعرفها حتى الوثنيون، فمنكم من لديه بدلاً من زوجته زوجة أبيه». وطلب بولس أن يطرد الزناة من بين المؤمنين، مؤكداً في الوقت نفسه على ضرورة طرد الزناة من أوساط المسيحيين، أما الخارجيون فسوف يدينهم الإله. ولم يطالب بولس بعزوبية المسيحي، لكنه حرم عليه الطلاق حتى لو كانت زوجته وثنية (أو كان الزوج وثنياً): ليس الطلاق ممكناً إلا إذا كان المرء غير مؤمن.

ومن الواضح أنه كان ثمة بين المؤمنين كثرة من الأرامل اللواتي كانت الطائفة تعيلهن وهو ما شكل عبئاً ثقيلاً على كاهل المسيحيين الآخرين. ورأى مؤلف الرسالة الأولى إلى تيموثاوس أن من له قريبات أرامل عليه أن يهتم بنفسه بهن، لكي تستطيع الكنيسة أن «تكفي الأرامل الحقيقيات». ويبدو أنهم كانوا يختارون لمهمة تقديم العون إلى الأرامل امرأة لا يقل عمرها عن الستين عاماً، معروفة بحبها لعمل الخير، لم تتزوج سوى مرة واحدة، سبق لها أن ربت أطفالاً، واستقبلت عابري سبيل. فمؤلف الرسالة يعبّر عن موقف حاد ضد الأرامل الشابات، ويدعو إلى عدم إعالتهن. فمثل هؤلاء يستغرقن في الترف، ومخالفة المسيح، وعادة ما يكن خاملات، وثرثارات، وفضوليات يتحدثن دوماً بما لا ينبغي الحديث به. ولذلك فإنه من الأفضل للأرامل الشابات أن يتزوجن مرة أخرى، وينجبن أطفالاً، ويدرن شؤون بيوتهن. ولكن غني عن البيان أن هذه الكلمات الانفعالية لا تعكس سلوك المسيحيات الشابات كلهن، بيد أننا يجب ألا ننسى عندما نتحدث عن دور المرأة في نشر المسيحية في مراحلها المبكرة، تلك الصدامات الحقيقية التي خلقتها مشاركتهن في حياة الطوائف المسيحية معاً إلى جانب الرجال.

ونحن ليس بين يدينا سوى قليل جداً من المعلومات عن حياة الطوائف المسيحية على أراضي الإمبراطورية الرومانية في أواسط القرن الأول الميلادي. بل إن مصطلح «طائفة» نفسه ليس سوى مصطلح مشروط. فالمسيحيون الأوائل أطلقوا على اتحاداتهم اسم: إيكليسيا، أي كنيسة. أما اتحادات الوثنيين فقد دعيت روابط، جمعيات، أخويات، وما إلى ذلك. وقد عاكس المسيحيون تجمعاتهم بروابط الوثنيين التي كانت المشاركة فيها مرتبطة بميثاق يحدد شروط العضوية فيها: لم ير المسيحيون ضرورة لوجود ميثاق من صنع البشر، فقد

التزموا في شؤون حياتهم بتعاليم يسوع. وخلافاً لكنيسة أورشليم لم يكن لدى مسيحيي خارج فلسطين لا مبدأ الملكية المشتركة ولا المساواة في توزيع الاحتياجات. ومن كانت لديه موارد يملكها، لم يبع أرزاقه، بل كان يمد يد المساعدة لأخوته في الدين. فقد كانت ليديا التاجرة المسيحية التي سبق ذكرها، تملك منزلاً دعت إليه بولس ومرافقيه، كما كان أكيلا وبريسكيلا يملكان منزلاً في أفَسُس. وفي رسالته الأولى إلى الكورونثيين، لام بولس المسيحيين على الإفراط وعدم ضبط النفس في أثناء الولائم المشتركة: «أليس لكم بيوت تأكلون فيها وتشربون؟» ويبدو أن الولائم المشتركة كانت جزءاً لا يتجزأ من اجتماعات المسيحيين، مثلهم في هذا مثل الاتحادات الدينية القديمة الأخرى، بما في ذلك المسرحيات الدينية التي كان أكل الطعام فيها واحتساء الخمرة جماعة ذا مغزى مقدس يعبر عن وحدة المشاركين في اللقاء. بيد أن الطقوس المسرحية لم تكن مرتبطة زمنياً. أما المسيحيون الذين كانوا يعيشون في محيط من العادات الوثنية، فقد وضعوا في الوليمة المشتركة مغزى جديداً، وجعلوا منها طقس الأفخارستيا: مناولة الخبز والنبيذ، كما أعطوا مغزى جديداً أيضاً لمفهومي البشارة والإيكليسيا.

إن استعادة صورة المعتقدات التي كان يؤمن بها مختلف الجماعات المسيحية الأولى التي كانت تنتشر على امتداد أراضي الإمبراطورية الرومانية، وهي المعتقدات التي كانت قائمة قبل إنشاء الهيكل الأساس للكتاب المقدس المسيحي، دون أن يؤخذ التسلسل الزمني بالحسبان، لهو أمر في غاية الصعوبة، لأن كمّ المصادر المتوفرة محدود. بيد أننا نستطيع أن نتحدث عن أفكار بولس (حسب درجة مقبوليتها في أواسط القرن ١م)، وإلى حد ما عن فكرة يوم الحساب كما وردت في الرؤيا، ومع أن هذا المؤلف وضع في أواخر القرن الميلادي الأول، إلا أنه يعكس الحالة الذهنية للمسيحيين بعد هزيمة انتفاضة ٦٦-٧٠م في فلسطين. لقد كانت فكرة الإيمان بقيامة المسيح بعد موته على الصليب من أجل خلاص الجنس البشري، هي الفكرة المشتركة التي آمن بها المسيحيون كلهم من غير استثناء (يقول بطرس في أعمال الرسل: «كل من يؤمن به ينال مغفرة الخطايا باسمه»). ومع أن موعظة بطرس هذه لم تتضمن قصة الحبَل بلا دنس ومولد يسوع بصفته ابن الإله، إلا أن مثل هذه المعتقدات كانت قد أخذت تظهر بين أوساط بعض المجموعات المسيحية. ولم ينكر بولس طبيعة يسوع البشرية، إلا أن جوهره الإلهي الأزلي، هو الذي كان المسألة الأساس بالنسبة إليه. فهو صورة «الإله الذي لا يُرى»، وتجسيد «المجد الإلهي» (كورينثوس الثانية). كما برزت أيضاً فكرة انتظار يوم الحساب بشوق، وهو اليوم الذي كان على المسيحيين أن يستعدوا له أفضل

استعداد، «لكي تكون طاهراً نقياً يوم ربنا يسوع المسيح» (كورينثوس الأولى). ففي المجيء الثاني، كما قال يسوع في مواعظه، يجب أن تقوم مملكة الإله ويبعث الأموات من القبور. ومن الواضح أن تعاليم قيامة الأموات (وقد باتت ذات أهمية ملحة بعد أن كان الرعيل المسيحي الأول قد توفي)، قد أثارت كثيراً من الأسئلة (لم يكن عبثاً أن سخر الأثينيون من هذه الفكرة بالذات عندما استمعوا إلى موعظة بولس). وقد أجاب بولس بقوله: إن القيامة سوف تحدث بجسد «غير الجسد المتعفن» (كورينثوس الثانية). وسوف يحكم الابن في مملكة الإله بالسلطة التي يمنحه إياها الآب، «إلى أن يرمي أعداءه كلهم عند قدميه. وسوف يباد العدو الأخير: الموت.. وعندما يخضع كلهم له، عندئذٍ يخضع الابن نفسه لمن أخضع كل شيء له، فليكن الإله الكل في الكل» (كورينثوس الثانية). وعلى هذا النحو لم تكن عقدية الثالوث المقدس قد تشكلت لدى بولس بعد، لأن الابن في تصوره يخضع في آخر المطاف للإله الآب. ويبدو موقف بولس هذا مفهوماً تماماً، فالرجل بقي مرتبطاً بالوحدانية اليهودية حتى اللحظة.

ولكن إذا كان بولس قد ألح على فكرة القيامة، فإن المسيحيين الذين خاطبهم مؤلف الرؤيا كانوا يعيشون على أمل يوم الحساب الذي سوف يهلك فيه الآثمون، وعبدة الأوثان، والقتلة. فالموضوع الرئيس هنا، هو صور العقاب الرهيب التي وصفها يوحنا بإلهام فريد. كما أثارت روما الكراهية أيضاً: «لأن آثامها وصلت إلى السماء وتذكر الإله بهتانها».. ونحن ينبغي علينا ألا نغفل أن الرؤيا قد كتبت بعد التنكيل الذي عانى المسيحيون منه في عهد نيرون. ولكن بولس وكذلك مؤلف الرؤيا لم يعكسا الصورة الكاملة لمعتقدات المسيحيين الأوائل التي لم تكن أصلاً قد اكتملت بعد. فقد كانت الكنائس المسيحية مفتوحة، وكان يعظ فيها وفق رسائل بولس، مختلف الدعاة والأنبياء. وحتى الرسائل نفسها كانت مرتبطة باجتهاد مؤلفها لتدعيم تعاليمه وإرشاداته الأخلاقية بوساطتها؛ وكانت هذه موجهة نحو الحياة الداخلية لكنائس المسيحية، وكذلك نحو علاقاتها مع العالم الخارجي. وكانت تلك العلاقات تتحدد من حيث جوهر الأمر بفكرة انتظار نهاية العالم، أي بتفاهة العلاقات الدنيوية. ويحمل دلالة مميزة تعبير «ذبيحة الأصنام»، أي لحوم الحيوانات المنحورة تكريماً للآلهة الوثنيين. فالمسيحيون، مثلهم مثل اليهود، اتخذوا موقفاً رافضاً حازماً لطقوس الوثنية كلها، وعدوا المشاركة فيها إثماً ثقيلاً: ارتداداً عن الدين. وفي الوقت نفسه بما أن مسيحيين كانت لهم صلات مع أشخاص من الوثنيين، فقد كان يمكن أن يأكل هؤلاء من لحم الذبيحة الوثنية. ومن المعروف أن التعليمات التي كان معمولاً بها في المدن القديمة،

كانت تقضي بحرق جزء من الذبيحة على مذبح الإله، وإعطاء جزء للكاهن، وبقاء الجزء الثالث لصاحب الذبيحة نفسه. وقد حاول بولس أن يعطي تعليمات محددة في هذا الصدد. فكتب رسالته الأولى إلى الكورونثيين يقول: كل ما يباع في الأسواق ويشترى يمكن أن يؤكل دون تردد، وإذا ما حل المسيحي ضيفاً على وثني، فلا ينبغي عليه أن يسأل عن مصدر الطعام الذي يقدم إليه. ولكن إذا قيل له إن هذا من قربان الوثن، فعليه أن يمتنع من أجل ضميره، ومن أجل ألا يعطي غواية لا لليهود، ولا للهللينيين، ولا لكنيسة الرب (كورينثوس الأولى). ومن الواضح أن هذا الموقف، هو موقف امرئ همه الرئيس هو الإعداد الروحي لملكة الإله وليس الالتزام بصغائر التعليمات. فقد كان على المسيحي أن يقرر سلوكه بنفسه وفق ما يمليه عليه ضميره. وفي الوقت نفسه كان السماح المفتوح بأكل لحوم ذبائح الأوثان، يمكن أن يؤدي إلى التخالط مع الوثنيين، وسقوط ذلك الاصطفاء الخاص بالزهد بهذا العالم المدان، وهو الاصطفاء الذي أحس به المسيحيون الأوائل إحساساً قوياً. ومن اللافت أيضاً أن بولس دعا إلى عدم لجوء المسيحيين إلى حل الخلافات التي تنشأ بينهم أمام المحاكم الرسمية، بل فيما بينهم، وذلك سعياً منه إلى المحافظة على الكنائس المسيحية وإبقائها بعيدة عن باقي هذا العالم. وتشهد إمكانية اللجوء إلى القضاة على أنه كان يمكن أن تنشأ الخلافات فعلاً بين المسيحيين، لا على خلفية التباين في التعاليم الدينية وحسب، إنما على خلفية الحياة اليومية كذلك. بيد أنه كان يجب ألا تؤدي تلك التناقضات إلى انشقاق المسيحيين، ويوحي هذا بدوره بأن معايير القانون المسيحي لم تكن قد نشأت عند أواسط القرن الميلادي الأول بعد، وعلى وجه العموم فإن من كان ينتظر نهاية العالم الوشيكة، لم يكن له أن يعمل على ترسيخ مثل هذه المعايير الدنيوية.



صورة روماني
(أواخر القرن الأول – أوائل القرن الثاني الميلادي. لندن. المتحف البريطاني)

وارتبط بهذه القناعة أيضاً، موقف المسيحيين من السلطات الزمنية، فهم لم يقوموا ضدها لأنها كانت بالنسبة إليهم جزءاً من هذا

العالم «الآثم» المحكوم بالهلاك. وبدورها لم تأخذ السلطات الرومانية المحلية أمر المسيحيين على محمل الجدّ في بادئ الأمر، إلا أنها أخذت تبدل موقفها هذا في سياق القلاقل المحتملة، ومع ذلك كانت ترى في المسيحيين فريقاً من اليهود المتذمّرين وحسب. ولكن تبدلاً جذرياً طرأ على الوضع برمته في العام ٦٤م. بعد الحريق المهول الذي دمر جزءاً كبيراً من أحياء روما الفقيرة. فبعد الحريق مباشرة أخذت تتسرب إشاعات تؤكد بإصرار على أن الإمبراطور نيرون نفسه أعطى الأمر بإشعال النيران لكي يبني في مكان الأحياء المدمرة مباني فخمة جميلة. وكان المؤرخ الروماني الشهير تاسيت قد وصف الحريق وصفاً دقيقاً في مؤلفه: «الحوليات» فقال: لقد كان من غير الممكن قطع دابر الإشاعات التي اتهمت الإمبراطور بأي وسائل كانت: لا بعطاءاته السخية، ولا بالتوجه إلى الآلهة. عندئذٍ عزم نيرون على أن يجد كبش الفداء. وكان طبيعياً أن يكون المذنبون أجانب غرباء: أي المسيحيون الذين كانوا خارج العلاقات التقليدية والمعتقدات التقليدية. ومع أن المسيحيين في روما لم يكونوا كثراً، إلا أنه كان من الضروري أن يسلم لبليبس روما الغاضب، أناس لا تقف وراءهم أي مجموعة اجتماعية أو اثنية لها نفوذ يذكر. وفي سياق هذه الأحداث تحديداً برز المسيحيون كأنهم مجموعة متميزة لم يكن سكان العاصمة يعرفون عنها قبل ذلك شيئاً يذكر، فسرت عن المسيحيين إشاعات شتى، وعدوهم أعداء لدودين للجنس البشري (ربما بسبب فكرتهم عن قرب نهاية العالم)؛ ويقول تاسيت: إنهم جلبوا لأنفسهم كره الجميع بسبب «سفالاتهم»، بيد أنه من غير الواضح فيما تكمن هذه «السفالات» تحديداً. وعلى أي حال فإن موقف نيرون لم يكن مناهضاً للمسيحية من حيث المبدأ، إنما المسألة كلها تمثلت في كون المسيحيين «كبش الفداء» الملائم، فقد نكلوا بهم أسوأ تنكيل قبل إعدامهم علانية؛ وكما يحدث دائماً أثناء انتشار موجات الإرهاب، فقد طالت الوشايات مختلف ضروب الناس، وليس المسيحيين فقط. ويقول تاسيت إنهم أخذوا أولاً من اعترف بمسيحيته علانية، ثم أخذوا بعد ذلك كثيرين ممن لم تكن تهمتهم في إضرام الحريق بقدر ما كانت في كره الجنس البشري. ويثير وصف موجات الإعدام انطباعاً رهيباً:



صورة امرأة عشية ظهور المسيحية
(سانت بطرسبورغ)

لقد ألبسوا المسيحيين جلود الوحوش البرية ورموا بهم للكلاب الضارية كي تمزقهم، وعلقوهم على الصلبان، وأحرقوهم أحياء مع هبوط الظلام جاعلين منهم «مشاعل حية» لإضاءة عتمة المكان. وقدم نيرون حدائقه مكاناً لمثل هذه الإعدامات الوحشية. وحسب الرواية أن بطرس وبولس راحا ضحية تلك الموجة المسعورة.

ولكن تلك الوحشية التي لا مثيل لها أثارت رد فعل معاكس. يقول تاسيت: لقد تحول الرومان إلى التعاطف مع الضحايا والمعذبين، «لأنهم رأوا أنهم لا يقتلون في سبيل ما فيه منفعة اجتماعية، بل بسبب تعطش نيرون لسفك الدماء». وهكذا اقترن التعاطف مع الضحايا بكره الناس لنيرون ليؤديا إلى زيادة أعداد أنصار المسيحية. وعلى أي فإن موجة ملاحقة المسيحيين والتنكيل بهم لم تتعد حدود روما، ولكن لم يعد المسيحيون وحدهم الآن يعرفون تعاليم الدين المسيحي، بل أدرك المحيط أيضاً أن لهذه التعاليم أهمية ما، وأنها تناقض عالم الوثنية، فأثارت اهتمامه أحياناً، وتعاطفه أحياناً أخرى، ونفوره أحياناً ثالثة لكونها عنصراً غريباً وافداً.



الفصل السادس

إنشاء الأدبيات المسيحية المبكرة:
العـهد الجـديـد والمنـحـولات

في النصف الثاني من القرن ٢م بدأت واحدة من أهم عمليات تحقيق الهوية المسيحية: إنشاء الكتب المقدسة الخاصة بالمسيحية.

وتمثل مسألة تحديد زمن الأدبيات المسيحية ومكانها، وسمات فنونها، وإبداعها، ومنابعها، ومصادر كتبها التي أقرتها الكنيسة كتباً مقدسة، والتي لم تقرّها، هذا كله يمثل صعوبات جمة. فالعهد الجديد، وهو الكتاب الذي يقره المسيحيون دون استثناء ويجلّونه، احتوى على سبعة وعشرين سفراً: الأناجيل الأربعة، وأعمال الرسل، وأربع عشرة رسالة تنسب إلى بولس، وواحدة ليعقوب، واثنتان لبطرس، وثلاثاً ليوحنا، وواحدة ليهوذا. وتدعى هذه الأخيرة أسفاراً جامعة مسكونية لأنها تعالج مسائل كنيسة عامة، وليست موجهة، خلافاً لرسائل بولس، إلى كنائس بعينها. وتنتهي مجموعة أسفار العهد الجديد برؤيا يوحنا اللاهوتي. ولكن الأسفار التي دخلت كتاب العهد الجديد لا تمثل في حقيقة الأمر سوى القليل من الأدبيات المسيحية الكثيرة التي أنشئت إبان القرون ١-٣م. ولم يقر قوام كتاب العهد الجديد إلا بعد نزاعات مديدة في مجمع لاوديكيا الذي انعقد في العام ٣٦٣، ثم في مجمع قرطاجة الذي انعقد في العام ٤١٩م، أي بعد قرون من ولادة المسيحية. وما له دلالته أنه لم يصل إلينا أي مخطوط كامل من الأسفار التي دخلت كتاب العهد الجديد، يمكن أن يكون مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بمؤلفيها أو بأول من نسخوها. وتنتمي أقدم مجموعة من كتاب العهد الجديد: قانون سيناء، إلى القرن ٤ م؛ بيد أنه لم يعثر إلا على قطع متفرقة من برديات لا يرجع تاريخها إلى قبل الربع الأول من القرن الميلادي الثاني.

وكنا قد أشرنا سابقاً إلى أن الدعوة بقيت شفهية إلى ما بعد صلب يسوع بعشرات السنين، وأن كلمة «إنجيل» لم تكن تعني النص الإنجيلي المكتوب، إنما كانت تعني بشارة يسوع وحسب. وهذا هو معنى هذه الكلمة في رسائل بولس الذي لم يستند ولو مرة واحدة إلى إنجيل مكتوب: في رسالته الثانية إلى الكورونثيين على سبيل المثال، يقول: «إنه إذا جاء أحد وأخذ يبشر بيسوع آخر، غير الذي نبشر نحن به.. أو ببشارة أخرى (= بإنجيل آخر) لم نعتمدها لكنتم متسامحين معه كثيراً». وبهذا المعنى عينه استخدمت هذه الكلمة أيضاً في رسالة بولس إلى الرومان. ولم تستخدم هذه الكلمة (كلمة «إنجيل»: من الكلمة الإغريقية «إيفنجيلي» = «بشارة»)، بمعنى النص الإنجيلي المكتوب، قبل القرن الميلادي الثاني. ففي أواسط القرن ٢م. نوه الكاتب المسيحي يوستينوس إلى أقوال يسوع و «ذكريات» الرسل، أي الأسفار التي نسبت كتابتها إلى الرسل: بعض الأناجيل.

وبقيت الروايات الشفهية موجودة حتى في الحقبة التي ظهرت فيها الكتب. ففي كتابه «التاريخ الكنسي» ساق يوسفوس القيصري قول بابيوس الذي جمع في النصف الأول من القرن ٢م، القصص الشفهية: «... إذا ما قيضت لي مقابلة أحد الكهول، كنت أسأله بحرص شديد عن تعاليم الأحبار: ماذا قال مثلاً اندراوس، وماذا قال بطرس، وماذا قال فيليبوس، وماذا قال توما أو يعقوب. لأنني كنت أعتقد أن معلومات الكتب لا تجديني النفع الذي يقدمه لي الصوت الحي الأكثر تغلغلاً في الزمن». وعلى امتداد القرن ٢٠ استخدم العلماء شتى طرائق التحليل وأساليبه لدراسة أناجيل العهد الجديد الأولى على وجه الخصوص، وأبرزوا فيها مجموعات مختلفة من الروايات: أقوال يسوع، والقصص التعليمية، وقصص المعجزات التي صنعها يسوع. وعدت نصوص الكتب اليهودية المقدسة التي كانت تتكرر من موعظة لأخرى. جزءاً لا يتجزأ من الرواية، وهذا ينسحب خاصة على كتب الأنبياء. ورأى بعض الباحثين أن أولى المدونات المسيحية لم تكن سوى نصوص مقتبسة من كتب العهد القديم، تلك النصوص التي تتحدث عن انتظار مجيء المسيا (لقد دعيت هذه النصوص: شهادات الأنبياء). وعلى أي حال لم يكن من الصعب أن تحفظ النصوص المقتبسة عن ظهر قلب.

وكان يجب أن يظهر التباين بالضرورة بين المواعظ الشفهية التي كان يلقيها مختلف الدعاة، وهو ما فرضته أسباب موضوعية (انتقائية الذاكرة)، وذاتية (المقاصد اللاهوتية التي وضعها هذا الداعية أو ذاك نصب عينيه). إذن، لقد كانت المسيحية المبكرة من حيث جوهر الأمر، عبارة عن كثرة من التنويعات التي غالباً ما كان المشترك بينها ضعيفاً، مع أن الجميع كانوا يدورون حول فكرة الإيمان بقيامة المخلص. لقد كان لكل مجموعة «قصة يسوع»

الخاصة بها. وفي تلك الظروف ظهرت رسائل بولس كأحد أقدم مدونات الأدبيات المسيحية. ويرى الباحثون المعاصرون استناداً إلى أُسلوب الرسائل ومحتواها، أنها ليست كلها من تأليف بولس، بل ثمة منها ما نسب إليه وحسب. ومن الرسائل التي كتبها بولس فعلاً: رسالة الرومان، ورسالة الغلاطيين، ورسالتا الكورونثيين (يستفاد من هاتين الأخيرتين أن هناك رسالة ثالثة لم تصل إلينا)، ورسالة تسالكونيكيا الأولى، ورسالة الفيليبوسيين، ويضيف بعضهم أحياناً الرسالة التي أرسلت إلى فيلمون. وفي وقت ما عدوا رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس من الرسائل الأصلية، لكن دراسات العقود الأخيرة نفت أصالتها، ورأت أن رسالته الثانية إلى تيموثاس تنقل تعليماته وإرشاداته بصورة قريبة جداً من واقع فكره وأسلوبه، مع أنه لم يكن هو الذي كتبها. ولا ريب أيضاً في أن بولس لم يكن هو الذي كتب رسالة الأفَسُسيين التي يختلف أسلوبها اختلافاً تاماً عن الرسائل الأخرى، وربما يكون تلاميذه قد كتبوها بعد وفاته ونسبوها إليه. وتتميز بجلاء رسالة اليهود، من حيث لغتها ومحتواها، فهي لا تشبه قط ما كتبه بولس. ومنذ القرنين ٢-٣م. كان الكتّاب المسيحيون (اوريجينوس، وترتوليانوس، و..)، قد شكّوا في أن يكون بولس هو مؤلف رسالة اليهود. ولم تكن رسائل بولس كتباً مقدسة عندما كتبها، مع أن بعض الكنائس بجلتها، وأعطتها تأملات مختلفة. فقد جاء في رسالة بطرس التي كتبت في القرن ٢م (ربما تكون هذه آخر المؤلفات التي دخلت كتاب العهد الجديد): «إن الجهلاء وضعيفي الإيمان يهلكون نفوسهم» إذ يجعلون مما جاء في رسائل بولس «شيئاً ما لا يعقل» (رسالة بطرس الأولى) (لم أجد هذا النص في المصدر الذي أشارت إليه المؤلفة - م).

ونحن نقف في رسائل بولس على إسنادات إلى أقوال قالها يسوع، ولكن ليس لهذه دائماً ما يماثلها في الأناجيل القانونية (لقد اتفق على تسمية مثل هذه الأقوال التي وردت لدى كتاب مسيحيين آخرين: «أغرافا»، أي غير مكتوب). ومثالنا على هذا، وصف المجيء الثاني للمسيح في الرسالة الثانية إلى التسالونيكيين: لأننا بهذا نقول لكم قول الرب، إننا نحن الأحياء الذين نبقى لنشهد مجيء الرب، لن ننبه الأموات، لأن الرب نفسه سوف ينزل من السماء لدى إعلان البشرى إذ ينفخ رئيس الملائكة ببوق الإله، فيقوم الموتى بالمسيح أولاً، ثم نخطف نحن الأحياء ونطير معهم في الهواء لنلاقي الرب في السحب، وهكذا نبقى مع الرب أبداً). وهناك «أغرافا» أخرى في رسالة الأفَسُسيين: «لقد قيل في هذا: انهض أيها الراقد وقم من الأموات وسوف ينيرك المسيح». وما يمكن قوله في هذا السياق، هو أنه ربما تكون بعض أقوال يسوع: لوغياته، من أولى المدونات. وقد وضع بابيوس مؤلفاً خاصاً كرسه للوغيات. أي «شرح أقوال

الرب». وفي العام ١٨٩٧ عثر في مصر على بردية تحمل ثمانية من أقوال يسوع كتبت باللغة الإغريقية، وبعد سنوات عثر على آخر. ويبدأ كل من هذه الأقوال بالفاتحة عينها: «يقول يسوع». ويتوافق بعض من هذه الأقوال مع كلمات يسوع التي وردت في كتاب العهد الجديد: «يقول يسوع. لا يقبل نبي في وطنه، وحتى الطبيب لا يستطيع أن يشفي من يعرفه» (قارن مرقس؛ متى، لوقا، يوحنا). وهناك من اللوغيات ما ينتمي إلى اليهودية - المسيحية: «يقول يسوع. إذا لم تجحدوا هذا العالم، لن تكون لكم مملكة الإله، وإذا أنتم لم تحفظوا السبت، فلن تروا الأب». ومن الواضح دون عناء أن هذا القول يعكس الموقف التنسّكي للمسيحيين اليهود الأوائل، الذين واصلوا الالتزام بالطقوس اليهودية: ربما يكون هذا واحداً من اللوغيات الأولى. ويتوافق كثير من الأقوال التي عثر عليها مع نص إنجيل توما الذي عثر عليه في مصر، فهذا الإنجيل يتألف بدوره من أقوال متفرقة: على سبيل المثال، «يقول يسوع حيث يوجد اثنان، فلن يكونا من غير الإله، وحيث يكون واحد وحده، هناك أكون أنا معه. ارفع حجراً تجدني هناك، اقطع شجرة، تجدني فيها». إذن قد تكون أقوال يسوع التي عثر عليها في مصر من أقدم المجموعات التي شكلت جنساً إنجيلياً تغيب عنه سيرة حياة يسوع، لكنه تألف من أقواله وتعاليمه.

لقد كان الثلث الأخير من القرن الميلادي الأول برهة زمنية بلغ فيها الإبداع الأدبي المسيحي واحدة من قممه. فقد أدى تشتتهم بعد هزيمة انتفاضة الأعوام ٦٦-٧٠م، إلى زيادة الشقاق في المواعظ. عداك عن هذا أنه لم يبق سوى القليل ممن كان يمكنه أن يقول، إنه سمع كلام يسوع، أو في أقل تقدير كلام تلاميذه. وفي مثل تلك الظروف الصعبة بات جمع عناصر التقليد كلها في كل واحد، ضرورة ملحة. فظهرت أناجيل من جنس جديد: روايات مسهبة، كانت نواتها موت المسيح على الصليب من أجل خلاص البشر، وقيامته في اليوم الثالث. وحول هذه النواة احتشدت أقوال يسوع، وأمثاله، والنبوءات التوراتية عن المسيا، ومشاهد من حياة يسوع (حقيقية أو مركّبة) متوافقة وهذه النبوءات. ولم تكن هذه سيرة حياة: لم يول المؤلفون أي أهمية لليقينية التاريخية، بل أنشؤوا تاريخهم المقدس الخاص بهم، فنوهوا بالوقائع الحقيقية التي كانت قائمة واستمر وجودها في الرواية الشفهية القديمة، وهي الوقائع التي كان تجاهلها أمراً مستحيلاً. وقام على هذه الخلفية جمع فريد بين الموعظة التعليمية والقصة، وهي عملية تميّزت بها الأناجيل القانونية، وعدد من تلك التي لم تدخل كتاب العهد الجديد، لا سيما الأناجيل اليهودية - المسيحية، ومقاطع الأناجيل التي اكتشفت في مصر. ومن المعروف أن العالم الإغريقي - الروماني قد عرف جنس السير، ولكن الأناجيل

تميزت عن هذه الأخيرة بتوجهها اللاهوتي، وغايتها التبشيرية، واستخدامها للتقليد. وفي الأول أعدت الأناجيل لتلاوتها بصوت مسموع في اجتماعات المؤمنين ثم ما لبث أن ظهر في الكنائس المسيحية أناس كتبوا التقليد ودرسوه. وهكذا جاء في الرسالة إلى الأفَسُسيين أن المسيح جعل بعضهم رسلاً وبعضهم الآخر أنبياء، وبعضهم الثالث إنجيليين، ورعاة ومعلمين. وفي الرسالة الأولى التي كتبها بولس بنفسه إلى الكورونثيين، أشار إلى الأنبياء، والرسل، والمعلمين. ولكن ليس لدى الإنجيليين ما يوافق واقع الحال في الكنائس المسيحية زمن بولس.

أما أقدم الأناجيل القانونية، فهو أقصر الأناجيل، إنجيل مرقس. ويدعى هذا في أصله الإغريقي: الإنجيل حسب مرقس (وكذلك الإنجيل حسب متّى، ولوقا، ويوحنا). ويزعم أن مؤلف الإنجيل الثالث الذي بدأه بالقول: «كما كان كثيرون قد أخذوا يضعون روايات عن الأحداث المعروفة بيننا تماماً». قد قصد إلى إنجيل مرقس، الذي كان يعرفه معرفة جيدة. وحسب الرواية التي حافظ عليها يوسفوس القيصري أن مرقس كتب بدقة متناهية ما حفظه عن بطرس الذي كان يعمل مترجماً له. ويقع تاريخ وضع هذا الإنجيل في حوالي العام ٧٠م، بعد تدمير أورشليم مباشرة. ولكنّ الإنجيل القانوني الذي وضعه مرقس لم يكن الكتاب الوحيد الذي حمل اسمه. فإلى المسيحية المصرية، وتحديداً الإسكندرانية، ينتمي مقطع إنجيل غير قانوني (يدعى أيضاً بالإنجيل السري أو الباطني) كتبه مرقس أيضاً. وكان هذا المقطع قد ورد في رسالة الكاتب المسيحي كليمينت الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)، التي عثر عليها في دير سوري في خمسينيات القرن ٢٠. وقد عنون كليمينت رسالته هذه إلى المدعو ثيودوروس. ورأى ناشر هذه الرسالة، م سميث[1]، أن الرسالة أصلية وكذلك المقطع الذي احتوته أصلي أيضاً (الأصح أنهما مقطعان وليس مقطعاً واحداً). فالرسالة ليست غريبة عن أسلوب كليمينت، إلا أنه من الواضح أن مؤلفاً آخر هو الذي كتب النص الإنجيلي الوارد فيها. ويرى أكثر الباحثين المعاصرين هذا الرأي نفسه. ومن المعروف أن مرقس الإنجيلي بُجّل في الإسكندرية بصفته مؤسس الكنيسة المسيحية في هذه المدينة. ويروي يوسفوس القيصري أن مرقس توجه إلى مصر وكان أول من كرز بالإنجيل فيها. وتخبر رسالة كليمينت أن مرقس نقل في الإسكندرية إنجيله إلى دائرة محدودة من الأشخاص المؤمنين بالمعرفة الحقة. وهنا في الإسكندرية أتم مرقس كتابة إنجيله. ويبرز كليمينت في رسالته أن مرقس كتب هذا الإنجيل بنفسه إلى المختارين، إلا أن

1- Smith M. Clement of Alexandria and Secret Gospl of Mark 51- Harvard 1373.

كتابته أعيدت بعد ذلك من جديد، وأنه حرف على أيدي أنصار المدعو كاربوكراتوس، الذي عد المسيحيون الأرثوذكسيون تعاليمه هرطقة: لذلك بالضبط ساق كليمينت في رسالته مقطعين من النص الأصلي «السري» لإنجيل مرقس، لكي يقارنه ثيودوروس بهرطقة الكاربوكراتوسيين. وعليه يمكننا أن نتحدث الآن عن وجود روايتين في أقل تقدير، لإنجيل مرقس: الرواية التي دخلت الكتاب القانوني، وقد كتبت كما لو أنها موجهة إلى المسيحيين كلهم؛ والرواية التي كان يجب أن يستخدمها المختارون، ورأى كليمينت أن هذه الأخيرة كانت أكثر إسهاباً من الأولى. فقد وردت في مقطع رسالة كليمينت، قصة الفتى الذي أقامه يسوع من الموت. فغدا تابعه. وقد تكون هذه القصة مرتبطة بتعميد يسوع لأتباعه. ولم يرد أي ذكر لهذه القصة في أي من الأناجيل الثلاثة الأولى. وكل ما في الأمر أن إنجيل يوحنا يقول في مكان واحد، إن يسوع كان يعيش مع التلاميذ ويعمّد. ويرى م سميث أن الفتى المذكور في مقطع رسالة كليمينت قد جاء بعد قيامته إلى يسوع عارياً ليتقبل منه المعمودية. ويقول الكاتب المسيحي هيبوليت (أواخر القرن ٢ أوائل القرن ٣م) في «الروايات الرسولية»، إن من كان يتقبل المعمودية وكذلك الذي يعمده، كانا يقفان في الماء عاريين. وثمة لوحة فسيفسائية في بابتيستيري (مكان التعميد) الآريوسيين (أنصار الأسقف آريوس الذي أنكر عقيدة الثالوث؛ عاش وعلم في أوائل القرن ٤م)، يظهر فيها يسوع واقفاً في مياه الأردن وهو عار تماماً. وإذا ما حاكمنا الأمر وفق المقطع المذكور، فإننا نستطيع أن نفترض أن المعمودية كانت بالنسبة للمسيحيين الأوائل سراً خاصاً لم تكن طقوسه تقام علانية.

وهكذا طرحت نفسها على بساط البحث العلمي، مسألة العلاقة بين إنجيل مرقس القانوني وإنجيله السري. وثمة وجهة نظر تقول باستقلالية الإنجيل «السري» عن الإنجيل القانوني (وجهة نظر كروسان)، أو بظهور الأول قبل الثاني (وهي وجهة نظر س. ج باترسون، ومن المعروف أن إنجيل مرقس القانوني، هو رواية معدلة عن إنجيله السري، استثني منه بعض المقاطع). وربما كانت تنتمي إلى هذا الإنجيل أيضاً، الإضافة التي وردت في آخر أحد مخطوطات إنجيل مرقس بين الإصحاحات (دعيت هذه الإضافة Freer Logion[1]: اسم الباحث الذي اكتشف المخطوط) يقول النص المضاف: «وتذرعوا (أي الرسل) قائلين: هذا عصر الكفر وطغيان الشيطان، الذي يمنع عبر الأرواح الدنسة إدراك القوة الإلهية الحقة. ولذلك أظهري لنا أيتها العدالة. فأجابهم المسيح: لقد تحققت مملكة الشيطان. لكن أحداثاً رهيبة توشك، لأولئك الذين قبلت الموت من أجلهم، من أجل أن

1- the complete Gospels p 410 D.D Crossan the Biuth of Christianity p. 115.

يعودوا إلى الحقيقة[1] ولا يأثموا بعد، بل يرثوا الروح، والمجد الأزلي الطاهر في السموات». ولكننا يجب أن نعترف بوجه عام، أن مشكلة تشكيل النص القانوني لإنجيل مرقس لا تزال تنتظر أبحاثاً واكتشافات جديدة.

وما يثير الاهتمام أكثر فيما يتعلق بإشكاليات إنجيل مرقس، هو أن نص هذا الإنجيل كان الأساس الذي أنشئ عليه إنجيلا متى ولوقا: لا يثير التشابه الكبير بين أناجيل العهد الجديد الثلاثة الأولى أي شك، وما يخرج لدى متّى ولوقا خارج إطار رواية مرقس، مأخوذ عن رواية شفهية لإحدى المجموعات المسيحية، لكن الإضافة الأساس فيهما مأخوذة من مدونة لم تصل إلينا، جمعت أقوال يسوع بين دفتيها (يحمل هذا المصدر في الدراسات العلمية الرمز Q، وهو الحرف الأول من الكلمة الألمانية Quelle: مصدر). فالأماكن المشتركة في إنجيلي متّى ولوقا، والتي لا وجود لها لدى مرقس، تتطابق تطابقاً حرفياً تقريباً، الأمر الذي يدل على أن مصدرهما مدون وليس شفهياً. ويتألف الجزء الرئيس من هذا المصدر من أقوال المسيح المجموعة وفق موضوعاتها، إلا أنه ثمة بعض القصص التي تتخللها: قصة إغواء يسوع، وقصة معجزة الشفاء. وقد كتب المصدر Q باللغة الإغريقية: يقضي تطابق نصي لوقا ومتى بأن يكونا قد قرأ المصدر باللغة الإغريقية، ولم يترجما من الآرامية. ومكّنت الآن، المقارنة الدقيقة لأقوال يسوع لدى كل من لوقا ومتى، من استرجاع نص المصدر Q بدرجة مرضية، ووفر تحليل النص أساساً للظن بأن الذين جمعوا هذه الأقوال قد عدوا ملاحقين ومضطهدين كأنبياء إسرائيل القدماء: فقراء، جوعى، منبوذين من أقاربهم وشعبهم. وكان ردهم على هذا، تهديد إسرائيل بالعقاب لأنها أنكرت يسوع وأنصاره. ونحن لا نعرف على وجه اليقين إلى أي درجة تعكس الأقوال المجموعة في المصدر Q كلمات يسوع الأصلية، إذ قد تكون على أرجح تقدير، انعكاساً لفهم العالم من قبل واحدة من مجموعات أنصاره الأوائل، التي دخلت مؤلفاتها جزئياً، الإنجيل القانوني.

ولا يزال زمن إنشاء الإنجيليين الآخرين وتسلسلهما التاريخي غير معروفين حتى الآن. وما يمكنه قوله عنهما في الوقت الحاضر، هو أنهما أنشئا في وسطين اجتماعيين - اثنيين متباينين. فمؤلف إنجيل لوقا هو إغريقي مثقف (يقول يوسفوس القيصري إنه كان طبيباً من أنطاكيا). ويبرز لديه تعاطف واضح مع الفئات الشعبية الدنيا، إذ يؤكد أن هؤلاء سوف يكونون أولاً في مملكة الإله: في إنجيل لوقا بالذات يولد يسوع في معلف للحيوانات وليس في

١- قد تكون العودة إلى الحقيقة مرتبطة في هذا السياق باعتقادهم، انه ينبغي على الإنسان أن يكتشف معرفة الحقيقة التي زرعها الروح فيه.

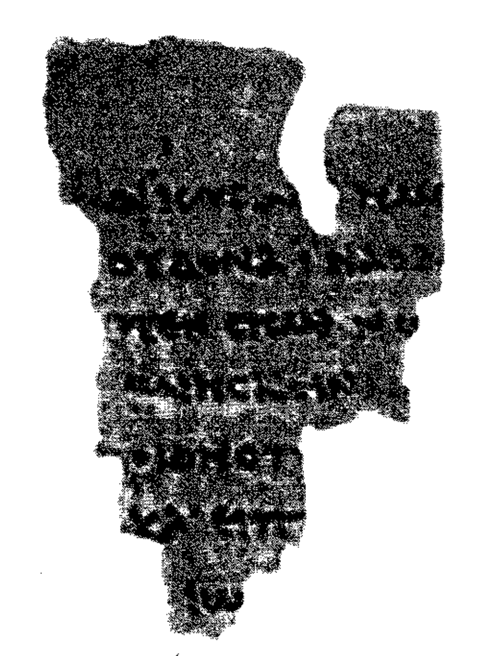
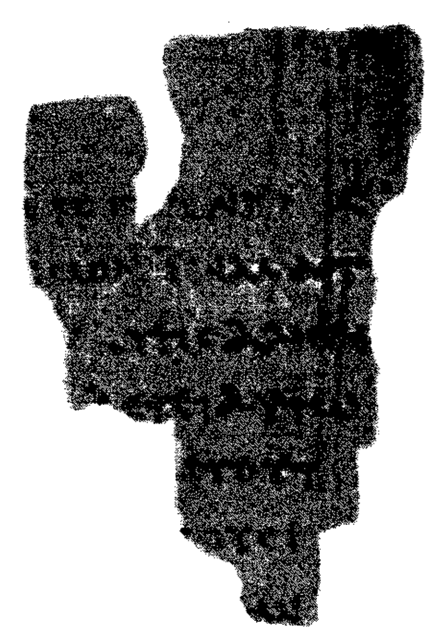
منزل كما لدى متى. ولا يهلل لمولده لدى لوقا السحرة بتقدماتهم الثمينة، إنما رعاة بسطاء وجاء في وصايا الطوبى، أنه طوبى للفقراء، والمساكين، والعطاش.

أما إنجيل متّى فإنه يظهر صلات أوثق بالتقليد اليهودي. وشاع لدى الكتّاب المسيحيين في القرون ٢-٤ رأي مفاده أن متى وضع إنجيله باللغة الآرامية، ثم ترجم بعد ذلك إلى الإغريقية. ويقول إيرينيوس، إن الإيبيونيتيين كانوا يستخدمون إنجيلاً آرامياً. وقد اشتغل مترجم النص التوراتي إلى اللغة اللاتينية هيرونيموس بالبحث عن المخطوطات في فلسطين وسوريا، وأكد هيرونيموس أنه ترجم من اللغة اليهودية (قصد بهذا اللغة الآرامية) إلى اللغة الإغريقية إنجيلاً رأى فيها كثيرون النص الأصلي لإنجيل متى. ولكن الباحثين يرون أن النص القانوني الذي وصل إلينا لا يمكن أن يكون نصاً مترجماً. فالنصوص التوراتية الواردة فيه مأخوذة عن الترجمة السبعونية، والنصوص المشتركة مع إنجيلي مرقس ولوقا ليست مترجمة هي الأخرى.

ويتميز إنجيلا متى ولوقا بكونهما يوردان سلسلة أنساب تعيد نسب يوسف النجار، زوج ماريا، إلى داود الملك، وهو ما يبرز واقعية رسالة يسوع المسيانية. وفي الآن عينه يحضر في الإنجيلين معاً الاعتقاد الذي كان قد ساد عن حبل ماريا بيسوع من غير رجل. ولا يناقض نسب يسوع هذه الفكرة: من وجهة نظر اليهود، عندما أخذ يوسف ماريا زوجة له، اعترف بيسوع ابناً له، وبذا تكون مسيانية يسوع قد باتت معللة. لقد أقامت موضوعة الحبَل بلا دنس صلة خاصة بين يسوع والإله؛ ضف إلى هذا أنه من الوجهة اللاهوتية كان من المهم بالنسبة للمسيحيين أن يظهروا أن يسوع كان في حل من الخطيئة الأصلية. وكان لوقا هو الأكثر تفصيلاً في معالجة هذا المحور، إذ أدخل مشهدي البشارة، وزيارة ماريا لأليصابات والدة يوحنا المعمدان. وكان هذا عنده بمثابة رواية فنية أعدت قبل كل شيء للمسيحيين الهلينيين الذين نشؤوا على الأدب الإغريقي. أما متى فهو أكثر تحفظاً بكثير: الحبَل بلا دنس بالنسبة إليه سر لا لزوم لمعرفة تفاصيله ولا يجب أن تعرف.

أما الإنجيل القانوني الرابع، إنجيل يوحنا، فإن مسألة تأريخه حتى نسبياً، لا تزال مسألة شائكة. ويتميز هذا الإنجيل من حيث المحتوى، والشكل، ومواعظ يسوع، تميّزاً جوهرياً عن أناجيل العهد الجديد الثلاثة الأخرى. وحسب التقليد الكنسي فإن إنجيل يوحنا كان الإنجيل الأخير. ويفيدنا يوسفوس القيصري بأن يوحنا كان يعظ شفهياً، لكنه قرر بعد أن ظهرت الأناجيل الثلاثة أن «يسد النقص» الذي تعاني منه. والواقع أن بداية إنجيل يوحنا نفسها، حيث يدعى فيها يسوع «كلمة» («وصار الكلمة جسداً، وأقام

معنا»)، تعطي الرواية كلها مغزى دينياً - فلسفياً خاصاً. فالرواية كلها تساق كأنها على لسان التلميذ الذي كان حبيباً إلى قلب يسوع، من غير أن يذكر اسمه. ولكن تأليف الإنجيل الرابع كان قد أثار شكوكاً منذ القدم. فقد رأى بابيوس مثلاً، أن الإنجيل الرابع ورؤيا يوحنا اللاهوتي عملان وضعهما شخصان مختلفان، ولم يكن سوى الثاني منهما حسب رأيه، تلميذاً ليسوع (يوسفوس القيصري، التاريخ الكنسي). وإذا كان مؤلف الإنجيل الرابع قد اطلع على الأناجيل الثلاثة الأولى، فإنه عملياً لم يحاول الإفادة منها. فهو لم يصف مولد يسوع، ولا مشهد معموديته: يتحدث يوحنا عن هذا الحدث الأخير نقلاً عن آخرين؛ كما لا يشير إلى مشهد صلاة يسوع في بستان جشيماني ولا يذكر آخر كلماته من العهد القديم، أي كل ما ينتمي إلى التقليد اليهودي - المسيحي المبكر حيث تبرز طبيعة يسوع البشرية. وفي الوقت نفسه ثمة في هذا الإنجيل، كما في كل المؤلفات الأخرى التي تنسب إلى يوحنا، تطابق واضح مع مخطوطات قمران، خاصة استخدام تعبير «الماء الحي»، الذي يتواتر استخدامه مرات في إنجيل يوحنا كما في مخطوطات قمران، وهو ما يشهد على أنه كان ثمة تقليد يربط بين اليسيين وأنصار يسوع الأوائل، تقليد ربما كان قد انعكس في المؤلفات الأولى التي كان مؤلف الإنجيل الرابع على اطلاع عليها. ومجمل القول، كما يكتب أ. تش كوزارجيفسكي، أن «الإنجيل الرابع يعكس فكراً لاهوتياً على مستوى عال من التطور، بعيداً عن استخدام الكلمات القديمة المتروكة التي يعج بها نص الرؤيا، فما بالك بوثائق قمران». ومن الواضح أن الكاتب المسيحي الشهير بوليكاربوس (القرن ٢م)، مؤلف الرسالة إلى الفيليبوسيين، لم يكن يعرف شيئاً عن الإنجيل الرابع، على الرغم من أن الرواية تقول إنه كان تلميذاً ليوحنا. ولكن هذا لا يدل على أن إنجيل يوحنا قد وضع في زمن متأخر بقدر ما يشهد على مدى محدودية انتشار هذا الإنجيل. أما فيما يتعلق بالمكان الذي كتب فيه هذا الإنجيل، فإن هناك عدة روايات: في أفَسُس، في سوريا، في جزيرة باتموس. ولكن الثابت هو أن هذا العمل كتب في وسط مجموعة متميزة من المسيحيين الذين استندوا إلى تقليد مغاير لذلك الذي استخدمه مرقس: ربما كان هؤلاء تلاميذ يوحنا الذين استمعوا يوماً إلى قصصه. وفي مصر عثر على بردية تحمل مقطعاً من إنجيل يوحنا (١٨ إصحاحاً)، وقدر المتخصصون أن تاريخ البردية يرجع إلى الأعوام ١٢٥-١٣٠م. إذن في الثلث الأول من القرن ٢م، كان إنجيل يوحنا قد بات معروفاً، ونسخ في مصر، أما تاريخ تأليفه فيرجع تقديراً، إلى أواخر القرن الميلادي الأول.

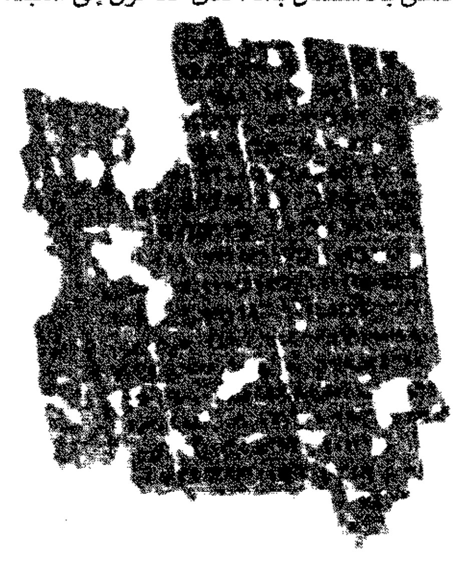



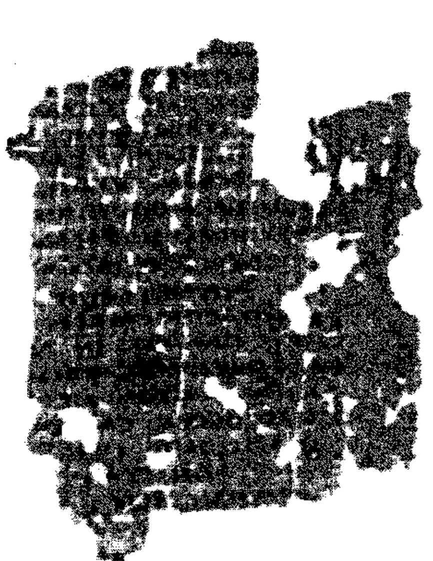
بردية رايلندس. مقطع من أنجيل يوحنا (١٨: ٣١-٣٣، ٣٧-٣٨)
لائحة النصف الأول من القرن الثاني الميلادي. مانشستر

وفي حقيقة الأمر أن الأناجيل التي غدت فيما بعد أناجيل قانونية، لم تكن سوى جزء غير كبير من المؤلفات الإنجيلية التي وضعها المسيحيون. ونحن كنا قد تحدثنا عن وجود أناجيل يهودية - مسيحية، كما وصلت إلينا مقاطع من أناجيل غير قانونية نوه بها المؤلفون المسيحيون، ويمكننا أن نتيقن إلى هذه الدرجة أو تلك من صحة انتمائها إلى مؤلفيها، ضف إلى هذا مقاطع من أناجيل مجهولة دونت على برديات عثر عليها مدفونة في أرض مصر. ومن أقدم هذه اللقى زمنياً (في العام ١٩٠٣م)، بردية اوكسيرينكس، التي حملت مقاطع صغيرة من أقوال يسوع (بعضها مدرج في وضع واقعي)، ولكن يجب أن نعترف بصعوبة ترميمها وامتناعها عن تشكيل نص متماسك. وحسب اعتراف العلماء أنفسهم، أن ترميم العبارات بحدّ ذاته يبقى مسألة إشكالية. ففي واحدة من العبارات التي تعد واضحة إلى حد ما، يلوم الكتبيون، والفريسيون، والكهنة يسوع لأنه يجلس إلى مائدة واحدة مع الآثمين. لكن إجابة يسوع غير مقروءة بصورة واضحة. وقد تكون متوافقة مع ما ورد في إنجيل مرقس، وإنجيل متى. وربما كان النص الأوضح قراءة في هذه البردية، هو نص مقطع من أقوال يسوع أعيد ترميمه بصورة مقنعة: يتحدث يسوع فيه عن ضرورة الصلاة من أجل الأعداء، «لأن من ليس ضدك، فهو معك» («إلى جانبك». قارن مرقس). وقد أعطى تحليل المقاطع (بما في ذلك بناء

التعابير والقواعد) أساساً للظن بأن المقاطع المعنية لا تنتمي إلى نصوص العهد الجديد مباشرة. ونص البردية نفسه يرقى إلى القرنين ٤-٥ ، لكن الباحثين يرون أنه وضع قبل هذا التاريخ بزمن طويل. وتكمن أهمية هذه اللقية بالنسبة للدراسات المسيحية ، في أن مصر واصلت استخدام الأناجيل غير القانونية التي استخدمت رواية تشبه رواية العهد الجديد ، حتى بعد أن أقر هذا الأخير قانوناً.

ولكن الاهتمام الأكبر تثيره بردية أوكسيرينكس ٨٤٠، وبردية أخرى تسمى بردية إدجرتون (حسب اسم المجموعة الموجودة فيها). وكان قد عثر على مقطع أوكسيرينكس في أوائل القرن ٢٠ ، ونشر في العام ١٩٠٨. وهذه الوثيقة عبارة عن ورقة واحدة ملئ جانباها بكتابة صغيرة الحرف: ربما كانت هذه البردية حرزاً ما. ففي بداية المقطع يحذر يسوع تلاميذه من الغدر الذي يمكن أن يودي بصاحبه إلى التهلكة. ويتضمن القسم الرئيس من المقطع الذي وصل إلينا المواجهة التي وقعت بين يسوع والكاهن ليفي في معبد أورشليم (يستخدم النص الإغريقي كلمة ارخيريوس بدلاً من كلمة كاهن، إلا أن هذه الأولى لا تعني بالضرورة: «رئيس الكهنة»، إنما تعني أحداً ما من كبار الكهنة). ويشبه هذا المقطع من حيث جنسه الأدبي ونزعته الأساسية، التقليد الذي يقوم في أساس أناجيل العهد الجديد الثلاثة الأولى. ولكن محور هذا المقطع مستقل قائم بذاته: ليس في الأناجيل القانونية مشاهد تتعلق بالاغتسال بالماء لدى الدخول إلى المعبد.





بردية ادجرتون. مقطع من إنجيل مجهول
لائحة النصف الأول من القرن الثاني الميلادي. المتحف البريطاني

لقد حاول العلماء مطابقة وثيقة أوكسيرينكس مع مختلف الأناجيل: مع إنجيل اليهود، وإنجيل المصريين، وإنجيل الناصريين، وإنجيل بطرس؛ إلا أن المسألة لا تزال مفتوحة. أما الفكرة الرئيسة التي يبرزها هذا المقطع لدى وصف مواجهة يسوع مع الكاهن الفريسي، فهي رفض يسوع لشكليات الشعائر الدينية (يعد إدغام الكاهن والفريسي في شخصية واحدة، حالة غير عادية من الوجهة التاريخية، لكنها مفهومة في سياق المواجهة بين يسوع وأنصاره من جهة، والفريسيين والكهنة من جهة أخرى). وفي غضون ذلك وضعت المقارنة بين الفريسي الذي يغتسل بالماء الراكد الآسن، ويسوع وتلاميذه الذين يغتسلون «بماء الإيمان الحي»، وضعت بصورة أكثر حدة بكثير مما هي عليه الحال في الجدال الذي دار في إنجيل مرقس حول عدم غسل الأيدي (مرقس). كما تثير البنية التعبيرية لهذا المقطع اهتماماً خاصاً: يتحدث يسوع فيه عن الكلاب والخنازير، ولكن من الصعب أن يكون ثمة خنازير في أورشليم، فهي عند اليهود حيوانات نجسة، ولذلك فإننا على أرجح تقدير أمام تعريف حاد جداً لحالة القذارة الطقوسية والفيزيائية التي يمكن أن يكون عليها أناس «دنسون» روحياً: لا يقتصر الأمر على كون الاغتسال بالماء الراكد لا يطهرهم، إنما هم يجعلونه أكثر قذارة إذ يغتسلون به. أما بالنسبة إلى المسيحيين المصريين، فقد كانت هذه الصورة واضحة تماماً، لأن الإغريق الذين كانوا مقيمين في مصر كانوا يربون الخنازير. وفي الإنجيل القانوني جاء رد يسوع على اتهام الفريسيين هذا، باتهامه لهم بالمراءاة لأنهم إنما يمجدون التقليد وليس الكتاب المقدس. وينقطع نص مقطع البردية عند كلمات غاضبة تنذر من لا يتطهر روحياً بالهلاك: على أي حال هكذا يجب أن يكون مغزى الجملة الأخيرة من كلام يسوع. وقد يكون القرن الميلادي الثاني هو تاريخ ظهور هذا الإنجيل، الذي من الواضح أنه وضع في مجرى رواية العهد الجديد. فمحتواه يشير إلى أن الرواية (الشفهية؟) لم تكن راسخة بعد، الأمر الذي مهد سبيل ظهور شتى تنويعات تعاليم يسوع ومشاهد أعماله.

ولدينا مقطع آخر يدعى إنجيل ايجرتون، عثر عليه مكتوباً على بردية أيضاً. كما عثر على عدد من المقاطع الأخرى في العام ١٩٢٤، وقد نشرت هذه في العام التالي[1]. وقد زعم ناشرها بيل أن النص قد كتب على البرديات في النصف الثاني من القرن الميلادي الثاني، أما الإنجيل الذي تنتمي إليه هذه المقاطع، فقد كتب في الربع الأول من القرن عينه، وفي الأحوال كلها قبل العام ١٥٠م[2]. ورأى بيل أيضاً، أن المقاطع كتبت على أساس رواية إنجيل يوحنا،

١- وهناك مقطع صغير آخر عثر عليه ونشر في العام ١٩٨٧ (بردية كيلن - ٢٢٥ papyrus kuln).

2- Bell H.1 Recent Discovories of Biblical papyr. Oxdord 1937 p. 20.

وكذلك تلك التي يمكن تتبعها في إنجيل لوقا، مع الاستعانة ببعض المصادر الأخرى، بما في ذلك القصص الشفهية. وعارض بيل في غضون ذلك رأي اللاهوتيين معارضة شديدة، إذ رأى هؤلاء أن مقاطع البرديات قد صنفت ببساطة على أساس مزيج مقتبس عن أناجيل العهد الجديد الأربعة (المرجع نفسه). وقد رأى كثير من الباحثين المعاصرين أن مقاطع بردية إيجرتون مستقلة تماماً عن أناجيل العهد الجديد. فلغة المقاطع، وطريقة استخدام الكلمات فيها لا يشبهان ما نقرؤه لدى مؤلفي الأناجيل الثلاثة الأولى، أما التقليد الذي يجمعها مع إنجيل يوحنا، فإن إعداده أضعف مما هي عليه الحال في الكتب القانونية، الأمر الذي يجيز لنا أن نفترض أن الكتاب الذي وصلت إلينا مقاطعه على البردية، يرقى إلى زمن أقدم، بالمقارنة مع زمن كتابة إنجيل يوحنا. فقد يكون النص الأول لكتاب مقاطع البردية، قد كتب في إقليم فلسطين - سوريا في النصف الثاني من القرن الميلادي الأول. وعندئذٍ تقريباً وضعت الروايات الإنجيلية الأخرى، ولكن اللافت، هو أن كتاب المقاطع هذا قد بجل وقدس ونسخ في مصر إلى جانب الأناجيل غير القانونية الأخرى، حتى بعد أن انتشرت كتب العهد الجديد.

إن بردية إيجرتون تعكس الزمن الذي كانت قد تكونت فيها طبقات مستقلة من الروايات: أقوال يسوع، وأمثاله، وقصص حياته الدنيوية، وبعثه. لكن هذه الروايات تأرجحت لدى كتابة النصوص وفق فهم كل مؤلف واختياره.

ويبدأ المقطع بنبذات يتضح منها أنهم اتهموا يسوع بانتهاك القانون اليهودي المعمول به. ثم تلي ذلك قصة تقول إنهم قرروا رجم يسوع بصفته مرتداً عن الدين، ولكنه تخلص من بين أيدي «الحكام» (وليس المقصود هنا طبعاً الحكام الرومان، إنما شيوخ اليهود، وكهنتهم). وفي هذه المشاهد تحديداً يمكن أن نرصد تماثلاً مع إنجيل يوحنا (مثلاً، «... لم يضع أحد يده عليه، لأن ساعته لم تأت بعد»). وتؤوّل مسألة تأدية جباية الإمبراطور (قيصر) هنا تأويلاً مغايراً تماماً للتأويل الذي ورد في كتاب العهد الجديد. والمسألة لا تتعلق هنا بالجباية التي فرضها الرومان على اليهود (كما تؤكد الأناجيل القانونية الثلاثة الأولى)، بل بالموقف من سلطة الدولة على وجه العموم: هل يجب تأدية ما تفرضه سلطة الملوك؟ لم يعط يسوع إجابة محددة على هذا السؤال، واتهم من سألوه بالمراءاة والغدر. ونلمس من تنويعة هذا المشهد التي وردت في البردية، معاكسة العالم الدنيوي بمملكة الإله التي كان المسيحيون ينتظرون قيامها بفارغ الصبر. ولم تكن مسألة «تأدية الجباية أو عدم تأديتها» ذات أهمية تذكر بالنسبة لواضعي هذا الإنجيل، لأنهم كانوا بانتظار النهاية الوشيكة لهذا العالم ورموزه، بما

في ذلك السلطة والمال و... كما لا ننفي أن يكون فهم المسيحيين الغنوصيين المصريين قد أثر على صياغة إجابة يسوع، وكان هؤلاء قد رأوا أن الاتحاد مع الإله هو الأمر الجوهري، وليس السلوك الدنيوي.

وجاء المقطع الأخير من إنجيل إيجرتون متقطعاً تقطعاً شديداً. وكل ما نستطيعه حياله، هو أن نخمن فقط أن الحديث يدور فيه عن معجزة ما صنعها يسوع على ضفة نهر الأردن، وهي المعجزة التي تبين مغزى سؤال طرحه يسوع على تلاميذه (نص السؤال لم يبق، ولكن بقيت كلمات تنقل حالة الحيرة والارتباك التي سببها السؤال للتلاميذ). وعلى أي حال يبدو أن هذه المعجزة كان يجب أن ترمز إلى الإيمان الحق الذي تطرح بذوره ثمراً كثيراً. وقد بذل العلماء جهوداً كثيرة لترميم هذا النص، ولكن أياً من محاولاتهم لم تلق التأييد المأمول.

ولا يزال هناك مقطع إنجيلي آخر يثير الجدال بين الباحثين، واللاهوتيين، وكان هذا قد اكتشف في العام ١٨٨٦ في مصر في قبر راهب قرسطوي. وكان هناك أيضاً كتاب رؤيا بطرس وكتاب حنوك. وينتمي مخطوط البرغاموس نفسه إلى القرنين ٨-٩م، ولكن لغته وأسلوبه يشيران إلى انتمائه للأدبيات المسيحية المبكرة. وربما وضعت هذه النصوص في قبر الراهب كتمائم، أو ربما كان الراهب المصري لا يشارك الكنيسة رأيها تجاه الكتب غير القانونية فأوصى بأن ترافقه هذه النصوص الثمينة بالنسبة إليه إلى الدار الآخرة، فهي على أي حال نصوص ترتبط بأسماء رسل أجلاء، كما هي حال بطرس مثلاً، وهو من أقرب التلاميذ إلى يسوع.

والمقطع الذي نحن بصدده مكرس لمحاكمة يسوع وصلبه وقيامته. وهو يبدأ عند منتصف تعبير وينقطع عند منتصف كلمة تقريباً. ولكن الناسخ لم يكن يعرف أكثر مما بقي في مقطع ورقة البيرغاموس: قبيل مكان انقطاع الجملة الأولى، وبعد الجملة الأخيرة غير المكتملة، رسم زخرفة من خطوط وصلبان متداخل بعضها مع بعض. ومن الواضح أنه حتى هذا المقطع الصغير كانت له قيمة كبرى لدى هذا الراهب المؤمن وأسلافه، فحافظوا عليه، ونسخوه وزخرفوه برموز مقدسة.

لقد جرت مطابقة المقطع الذي عثر عليه هنا مع إنجيل بطرس، استناداً إلى كون الرواية تروى فيه بصيغة المتكلم، ويدعو مؤلفها نفسه باسم سمعان بطرس. وكان الكاتب المسيحي أوريجينوس الذي عاش في الحقبة المتاخمة للقرنين ٢-٣م، قد نوه بإنجيل بطرس هذا في: «تعليقات على إنجيل متّى»، وكذلك فعل يوسفوس القيصري في: «التاريخ الكنسي». وفي سياق معالجته لمسألة أخوة يسوع الذين ذكرهم إنجيلا مرقس ومتّى (مرقس؛ متّى،)، كتب

أورجينوس يقول، إن الاعتقاد بأن أخوة يسوع، هم أبناء يوسف من زاوجه الأول، هو اعتقاد يرجع إلى إنجيل بطرس. ويؤكد يوسفوس القيصري في «التاريخ الكنسي»، أن سيرابيون أسقف كيليكيا والكنيسة المسيحية في سوريا (حوالي العام ٢٠٠)، اكتشف أن المؤمنين في هذه الكنيسة الأخيرة يستخدمون إنجيل بطرس. وفي الأول أذن الأسقف لهم بقراءة هذا الإنجيل، ولكنه بعد أن قرأ النص جيداً وتمعن فيه، أرسل إلى مسيحيي اسقفيته رسالة خاصة منع فيها قراءة إنجيل بطرس. وسبب هذا المنع حسب سيرابيون، هو أن الدوكيتيين استخدموا هذا الإنجيل، والدوكيتيون، هم «أسلاف أولئك الذين استمدوا نشأتهم منهم». وكلمة «دوكيت» مأخوذة بالأصل من الكلمة الإغريقية دوكييو: يهيأ له؛ وهي تسمية أطلقت على جماعة من المسيحيين أنكروا الطبيعة البشرية ليسوع المسيح، وعدوا وجوده على الأرض مجرد تهيؤ، غير حقيقي. وقد شاعت تعاليم الدوكيتيين التي تشبه تعاليم الغنوصيين، شاعت في سوريا إبان القرن ٢م. ومع إدانته للدوكيتيين الذين أثروا على إنجيل بطرس، إلا أن سيرابيون أكد في الوقت نفسه على أن كثيراً مما في هذا الإنجيل «يتوافق مع التعاليم الحقيقية للمخلص، إلا أن بعض الوصايا قد زيدت إليه». وفي مكان آخر من مؤلفه: «التاريخ الكنسي» يقول يوسفوس رأيه الخاص في إنجيل بطرس هذا واصفاً إياه بأنه إنجيل موضوع زائف.

ويسود في وقتنا الراهن رأي في الدارسات العلمية مفاده، أن نص إنجيل بطرس الذي وقع بين يدي سيرابيون، لم يكن النص الأول لهذا الإنجيل، إنما نسخة دس الدوكيتيون أنفهم بها. وهذا ما تشير إليه كذلك، كلمات كاتب مسيحي آخر عاش على تخوم القرنين ٤-٥م، هو ثيودوريت الذي قال في مؤلفه: «ترّهات الهراطقة وبدعهم»، إن اليهود (الناصريين) يجلون يسوع بصفته إنساناً عادلاً، ويستخدمون إنجيلاً يدعى إنجيل بطرس. بيد أنه من الواضح أنه إضافة إلى المسيحيين السوريين، استخدم هذا الإنجيل المسيحيون المصريون أيضاً. في العام ١٩٧٢ نشرت مقاطع إنجيلية صغيرة (oxyrinchus Papyrus 2949)، فيها وصف لطلب يوسف الرامي من بيلاطس، قبيل إعدام يسوع، أن يسلمه جثمانه، وهو ما يتوافق مع المقطع ذي الصلة في إنجيل بطرس. ويرقى تاريخ هذه البردية إلى أواخر القرن ٢- وأوائل القرن ٣م. وتشهد اللقية المصرية، وكذا مقطع البيرغاموس، على أن هذا الإنجيل كان مبجلاً مقدساً لزمن طويل في مصر (حتى القرون الوسطى).

وينتمي إنجيل بطرس إلى الجنس نفسه الذي تنتمي إليه أناجيل العهد الجديد. أي أنه لا يحتوي فقط على التعاليم، إنما يحتوي كذلك على مادة روائية: وصف محاكمة يسوع

وصلبه. كما يرد فيه أيضاً ذكر أخوة يسوع. وأقرب أناجيل العهد الجديد القانونية إلى رواية بطرس، هو إنجيل لوقا، إلا أن التباين بين الإنجيلين جوهري أيضاً.

إن المقطع الذي بين يدينا يصف محاكمة يسوع وإعدامه وقيامته، كما يصف أيضاً سلوك شيوخ اليهود، والشعب، والحاكم الروماني بيلاطس البنطي. ولكن الدور الرئيس في محاكمة يسوع كان لهيرودوس أنتيبا، حاكم الجليل (حيث كانت تعيش عائلة يسوع هناك في الناصرة). ونحن نرى أن زج هيرودوس هذا في محاكمة يسوع الذي عدوه جليلياً، هو أمر منطقي معقول، بخاصة أنه قد ورد اسمه في إنجيل لوقا، وأعمال الرسل، وهما مؤلفان يعتقد أن مؤلفهما شخص واحد. بيد أننا نقف في إنجيل بطرس على تقليد يرتبط بأناجيل قانونية أُخرى: يجري الحديث فيها مثلاً، عن المسامير التي دقت في يدي يسوع وقدميه، وهو ما قاله إنجيل يوحنا أيضاً.

وثمة في وصف آلام يسوع قبيل إعدامه، تفاصيل تختلف فيها رواية إنجيل بطرس عن رواية أناجيل العهد الجديد، مع أن الروايتين تتطابقان من حيث الأساس. ويقوم الفرق بينهما مثلاً، في أنهم أجلسوا يسوع على كرسي القضاء وخاطبوه ساخرين: «احكم بالعدل يا ملك إسرائيل». وليس هناك أي إشارة إلى كرسي القضاء في الأناجيل القانونية الثلاثة الأولى، بينما يجلس على هذه الكرسي لدى يوحنا، بيلاطس وليس يسوع. ولهذا التفصيل أهميته لأنه يرد لدى يوستينوس المنافح في القرن الثاني، في مؤلفه: «المنافحة». وهناك تشابه واضح بين مصطلحات إنجيل بطرس، إذ يبدو أن يوستينوس قد أفاد من هذا الأخير. ويتوافق إسناد يوستينوس أكثر ما يتوافق مع إنجيل بطرس، لأنه مكتوب بصيغة المتكلم.

وجاء وصف مشهدي موت يسوع وقيامته متميزاً وفريداً في إنجيل بطرس. فيسوع لم يتألم وهو على الصليب، وقال قبيل موته الجملة الآتية: «قوّتي، قوّتي، أنتِ تركتني!». وبعد ذلك أصعد. وتوحي مخاطبة يسوع قوة ما، وليس الإله كما ورد في الأناجيل القانونية، بإمكانية أن تكون كلمات يسوع قد حررت بتصرف على أيدي المجموعات المسيحية التي رأت أن قوة إلهية خاصة قد دخلت يسوع إبان فترة حياته الأرضية. ويجيز لنا وصف موت يسوع أن نعتقد بوجود صلة ما مع الدوكيتيين، لأن الجسد المتخيل لا يمكن أن يكابد آلاماً. بيد أنه من وجهة نظر مؤلف الإنجيل، كان يمكن أن يرتبط غياب الآلام بوجود قوة ما في داخل يسوع تبقي على الحياة فيه. وما يثير الاهتمام في هذا السياق، أن فكرة القوة الإلهية وردت في أعمال الرسل: تساق هناك كلمات بطرس الرسول التي تقول، إن الإله مسح يسوع «بالروح القدس، والقوة» (أعمال). ومن الواضح أن مؤلف الأعمال لم يربط الكلمات التي تتحدث عن القوة بالرسول بطرس مصادفة.

أما وصف مشهد قيامة يسوع فيبدو وصفاً خيالياً ومتعارضاً مع ما ورد في الأناجيل القانونية عن الحدث. ففي الإنجيل تحدث معجزة القيامة سراً. أما في إنجيل بطرس فهي تحدث أمام جميعهم، إذ يخرج رجلان رجلاً ثالثاً من القبر له مظهر خيالي: رأسه أعلى من السماء، ويسير الصليب خلفه من تلقاء نفسه، ويصدر عن الصليب صوت يجيب على السؤال الآتي: هل بشرت الأموات؟ وكأن هذا يؤكد فكرة الدوكيتيين التي تقول، إن طبيعة يسوع البشرية لم تكن سوى طبيعة ظاهرية متخيلة، وأن ما يبعث من الموت، هو طبيعته الحقيقية. إذن من الذي يجيب من الصليب؟ يمكننا أن نفترض أن هذا الوصف قد عكس التصور الذي كان شائعاً زمنئذٍ عن انفصال الإهاب الجسدي ليسوع عن الروح الذي دخل فيه: يسوع الموجود منذ الأزل (أو القدرة؟) يقول هيرما في مؤلفه: «الراعي»، الذي يرقى إلى القرن ٢م، إن الإله وضع الروح القدس «الموجود من قبل»، في الجسد الذي اختاره هو بنفسه. لقد بعث جسد يسوع من الموت لأنه جاهد كثيراً وتألم كثيراً. وقد قدس كثير من المسيحيين كتاب «الراعي» هذا الذي يعد من جنس الرؤيا، بل أدخل كتاب العهد الجديد الذي يرقى تاريخه إلى القرن ٤م. (ويدعى قانون سيناء). أما الصليب الذي شارك في مشهد القيامة، فهو ليس مجرد أداة إعدام، بل غدا رمز «شجرة الحياة»، ففي رؤيا بطرس أن الصليب يرافقه إلى السماء[1].

لقد أعطى هذا التخيل كله، إضافة إلى فيض المعجزات التي سيقت لدى وصف مشهد القيامة، أساساً للاعتقاد بأن هذا الإنجيل المنحول قد وضع في زمن متأخر نسبياً، بالمقارنة مع الأناجيل القانونية. ولكن الدراسات العلمية المعاصرة تؤيد فكرة الصلة القائمة بين النص الأول لهذا الإنجيل والروايات اليهودية - المسيحية. وتبدو آثار التأثير اليهودي - المسيحي واضحة في هذا المنحول، لدى معاكسته العلية اليهودية: الكهنة والشيوخ، بالشعب. فالشعب لا يشارك في إدانة يسوع الذي تجري محاكمته وفق إنجيل بطرس هذا، في مقر الحاكم الروماني أو في قصر هيرودوس في أورشليم. وبعد الصلب سخط الشعب وسار يدق الصدور معلناً إيمانه بالمخلّص. وما يذكر في هذا السياق، أن إنجيل لوقا ينوه كذلك إلى حزن الشعب وندمه: عندما قادوا يسوع إلى مكان الإعدام سارت خلفه كثرة من الشعب والنساء تبكي وتلطم، وبعد أن صلب عاد الشعب «يلطم في الصدور» (لوقا). لقد كان يمكن أن تكون

١- لقد عالج ج. دانيلو بالتفصيل «طقوسية الصليب» في تعاليم اليهود المسيحيين، وتعاليم الغنوصيين J. thelogle di iudeo iudeo- chritianime Tournae, 1958 p 291-292 Danielou في إنجيل فيليبوس الغنوصي يدغم الصليب بالشجرة، وتتم القيامة بفضل «شجرة الحياة».

معاكسة الشعب بالكهنة من السمات التي تميزت بها الجماعات اليهودية - المسيحية التي رأت أن سلوك الكهنة والفريسيين قد دنس معبد أورشليم. ومن المعروف أيضاً أنه كانت هناك فرق يهودية لم تعترف بالمعبد: الذين أقاموا في البرية حول البحر الميت في منطقة قمران، وكان يمكن أن يتأثر واضعو إنجيل بطرس بتعاليمهم.

كما تبدو درجة تبعية إنجيل بطرس للأناجيل القانونية، مسألة إشكالية بدورها. فقد شاع لزمن طويل رأي قال بوجود مثل هذه التبعية، لكن رأياً مغايراً أخذ يشق طريقه إبان السنوات الأخيرة بعناد، مفترضاً استقلال إنجيل بطرس عن أناجيل العهد الجديد استقلالاً تامّاً، بل يتحدث أصحاب هذا الرأي عن أقدمية الأسس الأولى لهذا الإنجيل على الأناجيل الأربعة. فيؤكد كروسان أن وصف مشهد القيامة ينتمي إلى مصدر مستقل مبكر يدعوه اصطلاحاً: «إنجيل الصليب» ويعزوه إلى اليهود - المسيحيين الذين اتهموا علية المجتمع اليهودي بكل شيء، لأنهم كانوا هم أنفسهم مرفوضين من قبل الأرثوذكسية اليهودية. كما يعزو كروسان إلى اليهودية - المسيحية التنويه ببشارة المسيح للأموات، وتعد هذه أول إشارة إلى نزول المسيح المزعوم إلى الجحيم. ونقف في إنجيل أحدث عهداً، يدعى إنجيل نيقوديموس (القرنان ٣-٤م) على رواية مسهبة تصف نزول المسيح إلى الجحيم، وتحريره الآباء اليهود الأوائل، والأنبياء من جحيم المملكة السفلية والمجيء بهم إلى الجنة. ولا نقف في إنجيل بطرس على مثل هذه التفاصيل، لكن فكرة بشارة الأموات يمكن أن تكون مرتبطة بكون المسيحيين الذين لم يكونوا قد قطعوا بعد صلتهم باليهودية، عاجزين عن قبول فكرة بقاء أسلافهم المقدسين محرومين من نعمة الخلاص لأنهم لم يعرفوا المسيح.

وهناك باحثون آخرون يقولون بأن هذا الإنجيل قد وضع في وقت مبكر. فيرى الأمريكي أ. ج ديفييه في مقدمته التي وضعها لهذا النص في الطبعة الأمريكية لإصدار «الأناجيل الكاملة»، أن إنجيل بطرس يعكس الرواية الأقدم للآلام. ويشير إلى أن وصف الآلام كله، قد قام على التلميحات والنصوص المقتبسة من المزامير التوراتية والأنبياء. ومن الواضح أن هذا الوصف لم يهدف إلى عكس الوقائع التاريخية (لم تكن هذه قد بدأت تثير اهتمام أتباع يسوع بعد)، بل كان بمثابة رد وهمي متخيل على الصدمة التي أحدثها هلاك يسوع، الذي لوحق، وعذب، لكنه حقق الخلاص في الموت. أما طقوسية معجزة القيامة التي وصفت في إنجيل بطرس: ظهور المبعوثين الإلهيين أمام أعين كثير من الشهود، وذعر المذنبين من الانتقام، فهي من حيث الجوهر تعويض للهوان الذي لحق بأنصار يسوع أثناء إعدامه المذل. وجاء في الكتاب المذكور نفسه، إن النص الأول لإنجيل بطرس، يرقى إلى زمن لا يتجاوز

النصف الثاني من القرن الميلادي الأول (أقدم التواريخ: حوالي العام ٥٠م). وبمعنى آخر، أن الباحثين أخذوا أثناء تحليل النص، العامل السيكولوجي بالحسبان، وقد يكون لهذا العامل الدور الأكبر في إنشاء القصص الأولى عن موت يسوع وقيامته. ولا يطال تغير وجهة النظر حيال الترتيب الزمني لهذا الكتاب المنحول ونسبه، مسألة خاصة فقط، إنما يؤثر أيضاً في القارئ المعاصر لتاريخ الأدبيات المسيحية المبكرة وسيكولوجيا من أنشؤوه. ويبدو على أرجح تقدير أن المقطع الذي وصل إلينا، ليس هو النص الأول الأصلي لإنجيل بطرس، الذي نسخ فيما بعد، وجرت معالجته على أيدي جماعات منها جماعات كانت قريبة من الدوكيتيين، ولكن الكتاب حافظ مع ذلك على أساسه الأول. ومن الواضح أن إنجيل بطرس هذا قد جرى إنشاؤه عندما كانت لا تزال المادة الإنجيلية مادة هلامية لا يحكمها أي قانون، وكان التعامل معها حراً من أي ضوابط.

أما التشابه بين رواية هذا الإنجيل والروايات القانونية، فيمكن أن يعزى إلى كون من وضعوا هذا الكتاب قد استخدموا لعرض حياة يسوع الزمنية، الرواية الشفهية عينها التي استخدمها لوقا، أو ربما كان مؤلف الإنجيل الثالث على معرفة بإنجيل بطرس؟! ففي بداية إنجيله يقول هذا الأخير مخاطباً المدعو ثيوفيل، إن كثيرين قد أخذوا يكتبون روايات «عن الأحداث المعروفة بيننا معرفة جيدة». إذن ليس مرقس وحده من وضع إنجيلاً، بل ثمة آخرون وهم كثر.. وعلى أي حال، بما أننا لا نعرف النص الكامل لإنجيل بطرس، فإنه من العسير علينا، إن لم يكن من المستحيل، أن نقول أي قول محدد حول كامل محتواه. ومن المهم أن نشير إلى أن اكتشاف مقاطع من إنجيل بطرس في مصر، لم يكن من قبيل المصادفة: لقد كان بطرس شخصية مبجلة لدى مسيحيي وادي النيل كله. ولدى شيوع المسيحية في النوبة (في القرن ٦م)، تحولت معابد آلهة مصر إلى كنائس مسيحية، وعثر في واحدة منها على رسم بدائي لبطرس بكامل قامته (كتب اسمه على الرسم)، تحيط به نقوش وثنية نافرة[1]. كما بقيت في دوائر مسيحية معينة ذكرى وجود إنجيل وضعه بطرس: جاءنا من القرون الوسطى رسم للمسيح يسلم كتاباً (إنجيلاً»؟ للرسول بطرس[2]. وقد يعثر في وقت ما على مقاطع أخرى تلقي مزيداً من الضوء على محتوى هذا العمل المتميز، وتبين أهميته الحقيقية.

في ١٩٤٦ ظهرت في مصر أهم الاكتشافات المرتبطة بالمسيحية. فبينما كان الفلاحون يؤدون أعمالهم الزراعية المعتادة عند سفوح جبل الطريف على الضفة اليسرى لنهر النيل، غير

١- بوميترانتسيفا، ن. فـ أيقونات جدران دير فيراسا مصر القديمة والمسيحية. موسكو، ٢٠٠١، ص ٦١.

2- Leipoedt J, Moren Heilige Schriften Leipzig 1953. tf 12.

بعيد عن قرية خينوبوسكيون (نجع حمادي حالياً)، وقعوا على مخبأ. وكان هذا عبارة عن مكتبة عثر فيها على أكثر من أربعين نصاً دينياً مكتوباً باللغة القبطية (وهي اللغة الأم لسكان مصر الأصليين، وكانت قد تطورت على أساس اللغة المصرية القديمة). وقد وضعت هذه النصوص مجموعة دينية متميزة من الذين دعوهم بالغنوصيين، الذين كانوا يرتبطون بالمسيحية المعدلة. وترقى النصوص التي عثر عليها في المخبأ، إلى القرون ٣-٥م، إلا أن أكثر المؤلفات المعنية كانت قد كتبت قبل ذلك باللغة الإغريقية، ثم ترجمت بعد ذلك إلى اللغة القبطية. وكان بين المخطوطات المكتشفة هنا: إنجيل توما، وإنجيل فيليبوس، وإنجيل ماريا، وإنجيل الحق. وكان إيرينوس قد كتب في كتابه «ضد الهرطقات»، ساخطاً على هذا الإنجيل الأخير فقال، إن بعضهم «وصلت به الوقاحة حداً جعله يدعو مؤلفه إنجيل الحق». وكانت تسمية مؤلفي هذه المؤلفات بالغنوصيين قد اشتقت من كلمة غنوصيص (gnosis): معرفة. وقام في أساس رؤى الغنوصيين، تصورهم عن المعرفة الحدسية الموجودة في الإنسان، والتي يمكنه بمساعدتها أن يدرك الإله المطلق ويتحد به. لكن العالم الزمني لا يديره هذا الإله، إنما يديره خالق غير كامل. وجادل مؤلفو هذه الأناجيل (أو محرروها) الموضوعات الأساس لأناجيل العهد الجديد. فمن أول أقوال إنجيل توما القبطي على سبيل المثال قوله: «قال يسوع: إذا قال لك الذين يقودونك: انظر، إن الملكوت في السماء! فعندئذ سوف تسبقك الطيور. وإذا قالوا لك إنه في البحر، فعندئذٍ سوف تسبقك الأسماك. لكن الملكوت السماوي في داخلك وليس خارجك». وبدورهم جهد الكتاب المسيحيون من أتباع المسيحية الكنسية (أو الأرثوذكسية)[1] في القرن ٢م، في مناظرة الغنوصيين (وهم بالذات من أسهب في استخدام هذه المصطلح). وكان الموضوع الرئيس الذي ركز عليه إيرينيوس انتقاداته، هو مختلف المؤلفات الغنوصية التي وصفها بالمؤلفات «الأبوكريفية والموضوعة». وكان مصطلح أبوكريف قد استخدم أول ما استخدم في سياق المؤلفت الغنوصية التي استخدم مؤلفوها صوراً رمزية معقدة، وأعطوا مغزى سحرياً للمركّبات العددية التي لا يمكن أن يدركها سوى «المختارين» وليست بمتناول إدراك غير المكرسين. ومثل هذه الطريقة هي بالذات التي مكنت إيرينيوس من أن يصف مؤلفات الغنوصيين بالمؤلفات الأبوكريفية، وبما أنه جادل هؤلاء لكي يبين أنهم يحرفون تعاليم يسوع الحقيقية، فقد عد مؤلفاتهم التي زعم أنها كتبت باسم الرسل، مؤلفات سرية، بل موضوعة ومنحولة. كما استخدم ترتوليانوس أيضاً المصطلحات: سرية - موضوعة -منحولة. وبعد ذلك باتت تستخدم كلمة «أبوكريف» لتسمية

١ـ كان كليمينت الإسكندري أول من استخدم كلمة «أرثوذكس» للدلالة على ذوي الإيمان النقي.

كل مؤلفات المسيحيين الأوائل التي لم تعترف بها الكنيسة مؤلفات مقدسة، مع أن كثيراً منها لم يكن سرياً، بل كان يقرأ علناً من قبل بعض الفرق المسيحية.

وشاع إلى جانب الأناجيل جنس آخر من الكتب المقدسة، هو الرؤيا، الذي تنتمي إليه رؤيا يوحنا اللاهوتي؛ وحسب معظم العلماء المعاصرين أن رؤيا يوحنا هذه قد كتبت في عهد الإمبراطور الروماني دومسيان في حوالي العام ٩٠م. كما كانت هناك رؤيا بطرس أيضاً، وقد عثر على نصها مع مقطع من إنجيل بطرس. وتحتوي رؤيا بطرس على أقدم وصف لجنة المسيحيين وجحيمهم. فالجنة في هذا الكتاب مدى رحب جداً يقع خارج هذا العالم، وينبعث منه نور مبهر خارق، أما الجحيم فقد دعتها الرؤيا مكان العقاب (ومن الطريف أن ملائكة جلادين هم الذين ينزلون العقاب وليس خدم الشيطان من يفعل ذلك). ولكن عثر على كتاب رؤيا آخر لبطرس في مكتبة نجع حمادي، وليس ثمة ما هو مشترك بين رؤيا بطرس الأولى ورؤياه الثانية هذه التي تعكس بدقة المعتقدات الشعبية التي كانت سائدة في أوائل القرن ٢م. وتؤكد الرؤيا الغنوصية على أن من علق على الصليب هو الإهاب الجسدي المتخيل للمخلّص، وليس المخلّص نفسه: يذكر هناك أن بطرس الذي كان يشهد الصلب رأى يسوع واقفاً إلى جانبه مشرقاً باسماً، وقد قال، إن الذي يدقون المسامير في يديه وقدميه ليس سوى الإهاب الجسدي وحسب. وينتمي إلى جنس الوحي أحد المؤلفات التي شاعت شيوعاً عريضاً في أوساط المسيحيين الأوائل: مؤلف «الراعي» الذي كتبه المدعو هيرما (شخص نسبت إليه كتابه هذا المؤلف). وهذا الكتاب عبارة عن وصف لسلسلة من الرؤى تختلف عن الرؤيا القانونية المرمزة ترميزاً معقداً يتطلب فك رموزه فهماً خاصاً. فرؤيا هيرما مؤلف كتب لدائرة عريضة من القراء العاديين، إنه كتاب شعبي يشرح الراعي فيه كل الرؤى ورموزها وتورياتها في معرض ردّه على أسئلة هيرما «الجاهل».

كما عرفت علاوة على الكتب التي عكست تعاليم يسوع، ومعجزاته، ومختلف ضروب الرؤيا، كتب أخرى ضبطت الحياة الداخلية للكنائس المسيحية. ومن مثل هذه الكتب، كتاب: تعاليم الاثني عشر رسولاً، أو الديداخي، الذي عثر عليه في القرن ١٩م. ويعد هذا المؤلف أهم مصادر دراسة تنظيم الكنائس الأولى، وسوف نتوقف عنده في حينه.

إن كثرة تنويعات البشارة، والنزاعات بين الدعاة وضعت أمام مسيحيي بعض الكنائس مهمة اصطفاء الكتب التي كان يمكن أن تكون مصادر لتعاليم الديانة المسيحية. وقد حاول تلاميذ يوستين تاتيان إيجاد حل لهذه المسألة: وضع يوستين سرداً مبتكراً لأناجيل العهد الجديد الأربعة، مضيفاً عليها بعض النصوص التي تتوافق مع نصوص من إنجيل

اليهود. ودعا يوستين مؤلفه هذا: دياتيسارون (= «حسب الأربعة»). ولم يتضمن الدياتيسارون سلسلة أنساب يسوع، كما لم يتطرق إلى سنوات طفولته. وترجم الدياتيسارون إلى اللغة السريانية، وعده المسيحيون السوريون لزمن طويل، كتاباً مقدساً. ولدى إجراء أعمال السبر الآثاري في قلعة دورايوروبوس السورية الواقعة على ضفة الفرات، عثر هناك على مقطع من الدياتيسارون يرقى تاريخه إلى القرن ٣م. ويدل مؤلف يوستين هذا على شيوع الأناجيل الأربعة من جهة، ورغبة المسيحيين في استخدام الكتب المقدسة من جهة أخرى.

وكانت قد جرت قبل محاولة يوستين تاتيان هذه، محاولة أخرى لاصطفاء عدد من الكتب بهدف وضع نص له مصداقيته وهيبته. وقد ارتبطت هذه المحاولة باسم ماركيون، وهو مالك سفن ثري جاء إلى روما من آسيا الصغرى. لقد قدم ماركيون مساعدة مالية كبيرة لكنيسة روما، وكان له فيها نفوذ كبير. وأكد الرجل على أن تعاليم يسوع قد حرفت في النصوص الشائعة لدى المسيحيين، ولم ينتق سوى إنجيل لوقا وعشر من رسائل بولس. ونحى من إنجيل لوقا النصوص التوراتية المقتبسة التي رأى أنها أدخلت النص من قبل أنصار اليهودية. وحسب «تحريره» هذا، أن إنجيل لوقا لم يتضمن خرافتيّ ولادة يسوع ويوحنا المعمدان. وقد افترض ماركيون أن يسوع نزل من السماء في العام الخامس عشر من عهد الإمبراطور طيباريوس، وظهر في كفرناحوم. وكتب ايرينيوس عن ماركيون ساخطاً يقول: «إنه يجدّف بطريقة وقحة على الإله الذي دعا إليه الناموس والأنبياء، وذلك عندما يقول، إن هذا الإله علة الشر، متعطش للحرب، مقاصده متغيرة، ويناقض نفسه بنفسه، وأن يسوع لم يخرج من هذا الإله، إنما من إله أعلى من الإله الذي خلق العالم» (ضد الهرطقات). وتبدو شخصية يسوع في هذا التأويل شبيهة بفهم الغنوصيين له. ولكن أكثر الكنائس المسيحية رفضت تعاليم ماركيون، وطرده مسيحيو روما من كنيستهم. إلا أن محاولات ماركيون وتاتيان أفضت إلى إرغام قادة الكنائس المسيحية على أن ينتقوا من كم الأدبيات المسيحية تلك النصوص التي يمكن عدها مصادر لتعاليم الدين، أي الكتب القانونية.

وكانت كلمة «قانون» (= «ناموس» - م) نفسها كما باقي المفاهيم الأخرى التي اعتمدها المسيحيون، قد جاءت من عالم الوثنية. واستخدمت هذه الكلمة للدلالة على النموذج، المقياس، المعيار. ونقف على كلمة «ناموس» في رسائل بولس بمعنى «طريقة» «...السلام والرحمة لمن يسلكون هذه الطريقة».. (رسالة بولس إلى الغلاطيين). وبعد عملية اصطفاء مديدة للكتب المقدسة، بدأ من أواسط القرن ٤م. استخدام كلمة ناموس بالنسبة لمجموعة الكتب المسيحية المقدسة. أما مصطلح العهد الجديد، فإننا نقف عليه ابتداءً من

أواخر القرن ٢م. تسمية لمجموعة الكتب التي اعترف بها كتباً مقدسة: لقد نوه يوسفوس القيصري إلى مؤلف مجهول المؤلف استخدم فيه مصطلح «العهد الجديد» بهذا المعنى تحديداً على الرغم من أن مفهوم العهد الجديد بحد ذاته (أي العهد المبرم مع الإله)، كان معروفاً قبل ذلك بزمن: في مخطوطات طائفة قمران التي أقام أعضاؤها عهداً جديداً مع الإله. وهنا تعبير مشابه استخدمه إنجيل لوقا: (.. هذه الكأس هي دمي للعهد الجديد، الذي يسفك من أجلكم».

إن أقدم لوائح الكتب المقدسة المعروفة لنا، هي اللائحة - المقطع، التي نظمت في روما في حوالي العام ٢٠٠م (والحقيقة أنه ثمة باحثون يفترضون لها تاريخاً أحدث)، وعثر عليها في العام ١٧٤٠م. وقد دعي هذا المقطع باسم العالم الذي عثر عليه: «ناموس موراتوري»، مع أن كلمة ناموس لم تستخدم هناك. وبصرف النظر عن كون بداية المقطع تلفت ولم تصل إلينا، إلا أنه من الواضح أن الحديث يجري في السطر الأولى عن الأناجيل الأربعة. ويشير واضع اللائحة إلى أن هذه الأخيرة متوافق بعضها مع بعض. ووضعت اللائحة «أعمال الرسل كلهم في كتاب واحد».. والمقصود هنا أعمال رسل العهد الجديد، لأن زمن تنظيم اللائحة كان يعرف أعمال كثرة من الرسل الآخرين. كما ضمت اللائحة ثلاث عشرة رسالة لبولس (استثنيت رسالته إلى اليهود)، لكن منظم اللائحة يتحفظ مؤكداً، أن رسالة بولس الثانية إلى الكورونثيين ورسالته الثانية إلى التسالونيكيين مكررتان. وتثير الاهتمام كذلك ملاحظته أنه لم يدرج رسائل بولس إلى تيطوس، وتيموثاوس، وفيليمون في لائحته إلا بدافع من حبه لبولس: من الواضح أن مسيحيي روما لم يروا في رسائل بولس هذه مغزى تعليمياً دينياً، ولكن من المهم أيضاً، أن بولس كان يحظى في روما بالذات بمكانة دينية مرموقة. وليس بين رسائل العهد الجديد المجموعة هنا رسائل بطرس، ورسالة يعقوب، ورسالة يوحنا الثالثة. وبالمقابل فقد ورد هناك كتاب «حكمة سليمان»، وهو الكتاب الذي لا وجود له في الناموس اليهودي القديم. لكنه دخل الترجمة السبعونية. أما عن الرؤيا فقد كتب منظم اللائحة يقول: «لا نقر من الرؤيا سوى رؤيا يوحنا وبطرس (من الواضح أن المقصود رؤيا بطرس اللا غنوصية - إ. س)، التي لا يريد بعضنا أن تقرأ في الكنيسة. ولكن هيرما كتب «الراعي» في أيامنا هذه هنا في روما، لما كان شقيقه بيوس أسقفاً، ولذلك يمكن أن يقرأ، لكن ليس علانية في الكنيسة، ولا بين الرسل، ولا بين الأنبياء». إذن، إضافة إلى المحتوى كان لقدم تأليف الكتاب أيضاً دوره في انتقاء الكتب المقدسة. ولم تكن لائحة موراتوري ناموساً بالمعنى الدقيق للكلمة، فهي تعكس موقف مسيحيي روما وحسب، وليس موقف الجماعات

المسيحية في الإمبراطورية كلها. ونحن كنا أشرنا سابقاً إلى أن الناموس النهائي كان أقر في مؤتمري الأساقفة اللذين عقدا في القرنين ٤-٥م. وتلفت الانتباه في الأدبيات المسيحية المبكرة، خصوصية مظهرها الخارجي. فاللقى المبكرة التي عثر عليها في مصر تجيز لنا أن نقول، إن المسيحيين عزفوا عن استخدام لفائف البردى وأخذوا بدلاً منها بالمجموعات: نصوص كتبية مكتوبة على صفحات. وربما ارتبط خيارهم هذا بسهولة قراءة النصوص في البيت كما في اللقاءات العامة للطوائف.

وبعد أن برزت في مختلف الكنائس المسيحية لوائح بأكثر الكتب المقدسة تبجيلاً، ترسخ هنا تقليد معين، فابتداءً من حوالي أواسط القرن ٢م، أخذت تنشأ كثرة من المؤلفات التي بدت كأنها تكمل هذه الكتب: مؤلفات كرست لطفولة يسوع، لوالدته ماريا، لبعض الرسل، وأخرى كرست لمن دعاهم التقليد المسيحي فيما بعد: «شهود المسيح». كما كرس عدد من المؤلفات لبيلاطس البنطي ومحاكمة يسوع، وقد ملئت هذه الكتابات بكثرة من التفاصيل الخرافية التي ابتدعها خيال المؤلفين (فجاء في إنجيل نيقوديموس مثلاً، أن الرماح التي يحملها الحراس الرومان أثناء المحاكمة، قد سجدت أمام يسوع).

ولكن مواقف أساقفة المسيحية تباينت تجاه هذه الكتب: بعضهم حرمها، وبعضهم الآخر أجاز قراءتها في المنازل، وقامت على أساس هذه الكتب نفسها وليس على أساس الكتب المقدسة، جملة من الأعياد الدينية (ميلاد والدة الإله، دخول يسوع إلى المعبد، رقاد ماريا). وقد ارتبط نشوؤها بانتشار المسيحية في أوساط أناس ينتمون إلى شتى القوميات والمعتقدات، والمستويات الثقافية، والآمال الاجتماعية، كما ارتبط نشوء هذه الأعياد أيضاً بخصوصية الوضع التنظيمي والإيديولوجي الذي كان في الكنائس المسيحية عند أواخر القرن الميلادي الأول وأوائل القرن الميلادي الثاني، وهذا ما سوف نتحدث عنه في حينه.

الفصل السابع

الكنـــائس المسيحيـــة
على أراضي الإمبراطورية. المسيحيون والوثنيون

بعد صلب يسوع تمثل التواصل بينه وبين أتباعه إبان السنوات الأولى التي تلت الصلب، في مواعظ التلاميذ والرسل الجوالين، وفي حالات الشفاء التي كان يقوم هؤلاء بها، وفي اجتماع المسيحيين للصلاة، وتأدية عدد من الشعائر، وإقامة الولائم المشتركة. وكانت غاية هذا كله، هي الاستعداد للمجيء الثاني للمسيح. ولكن المسيحيين لم يكونوا كالقمرانيين، فهم لم يعتزلوا في البراري، ولم يشكلوا أماكن عيش مشترك معزولة عن باقي العالم. وقد فرض عليهم وجودهم في وسط وثني، ضرورة إنشاء تنظيم معين يمكنهم من العيش عيشة طبيعية في ذلك الوسط. لكن ذلك التنظيم كان يجب ألا يكون مغلقاً وصارماً كتنظيم يسيي قمران، لكنه مع ذلك كان ينبغي أن تكون له تقاليده الخاصة وشكل من أشكال القيادة اللذان يضمنان عدم ذوبانهم في الوسط المحيط الذي واصلوا عيشهم وأعمالهم فيه، تنظيم يجعلهم يحسون أنهم جزء من جماعة مصطفاة من المؤمنين. ونحن لا نعرف إلا القلة القليلة عن تنظيم الكنائس المسيحية الأولى خارج فلسطين. فمؤلف رؤيا يوحنا لا يوجه كتابه إلى الجماعات المسيحية في مدن آسيا الصغرى وحدها، إنما أيضاً إلى ملاك هذه الكنيسة أو تلك. وربما يكون المقصود هنا، هو الملاك الحارس للكنيسة التي ينقل إليها المؤلف كلام الرب، ولكن بما أنه كان ينبغي على يوحنا أن يكتب للملاك، فإننا لا نستبعد أنه كان في كل كنيسة من الكنائس المعنية بشير يقرأ رسالة الداعية في اللقاء العام. ولا تتوفر لنا أي معلومات أخرى عن ملائكة الكنائس.

لقد كان المسيحيون يخاطب بعضهم بعضاً بكلمة أخي وأختي. وكانوا يقدمون مساهمات لتنظيم الولائم المشتركة وتقديم العون للمحتاجين، ولكن العيش على حساب المال

المشترك عد أمراً غير لائق، مع أنه كان بين المسيحيين من يسعى لذلك. ففي رسالته الثانية إلى التسالونيكيين يلح بولس على ضرورة العمل، وقد عد أنه ثمة بين المسيحيين من «يسلك سلوكاً معيناً، فلا يعملون شيئاً سوى أنهم يتذمرون». لقد أدى انفتاح الكنائس المسيحية إلى انضمام أناس إليها لا بدافع الإيمان بالمخلص إنما بسبب خصامهم مع العالم المحيط، وغني عن البيان أن هؤلاء أدخلوا معهم عاداتهم، وكرههم العيش من تأدية الأعمال المرهقة. وما العمل مع أولئك الذين إذا تخاصموا لجؤوا إلى القضاء الوثني؟ لقد حاول بولس أن يقدم نصائح وحسب، فدعا إلى قطع كل صلة مع الزناة، والمرابين، والمفترين و.. ومقاطعة المذنب إلى أن يخجل من نفسه ويرعوي، ولكن لا ينبغي معاملة هذا الأخير بصفته عدواً. ولتفادي وقوع النزاعات الداخلية، نصح بولس رعيته مؤكداً أن الإله منح البشر كفاءات شتى: أقام بعضهم رسلاً، وبعضهم أنبياء، ومعلمين، وجعل لآخرين قوى خارقة، ومنهم من منحه موهبة المداواة، والقيادة، ومعرفة لغات مختلفة (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس). وتلفت الانتباه هنا إشارة بولس إلى قيادة الحياة اليومية للرعية، وهي عنصر يصعب جداً تصور ضبط النظام الداخلي من غيره. ويبدو أنه منذ القرن ١م ظهر الشيوخ - الرعاة في بعض الكنائس. وحسب ما توحي به المعطيات المتناثرة أنه كانت لهؤلاء وظائف تنظيمية - اقتصادية: كانوا يوزعون المعونات، ويجمعون المساهمات، ويعودون المرضى، ويزورون المساجين. وكانت الكنيسة المحلية (= الطائفة -م)، هي التي تختار الراعي، ثم يكرسه أحد كبار الدعاة (الرسل) في عمله هذا. ويدعى الرعاة في أعمال الرسل ورسائل بولس، أساقفة (ناظرين: كانت مرتبة الناظر معروفة لدى القمرانيين أيضاً). وعلى أي حال لم تكن الوظيفتان مختلفتين حتى زمن ما، فقد كانت مراقبة الحياة الداخلية للطائفة واحدة من مهمات الشيوخ. وجاء في أعمال الرسل، أن بولس اجتمع برعاة مسيحيي أفَسُس، لكنه عندما خاطبهم، خاطبهم بلقب أساقفة. وفي رسالته إلى تيطوس يستخدم بولس اللقبين بالنسبة للأشخاص أنفسهم. فيخاطب مؤلف الرسالة المرسل إليه طالباً منه أن يتم العمل الذي لم يكتمل بعد ويضع الرعاة على المدن كلها، ثم يعدد الصفات التي يجب أن تتوفر في الراعي: لا عيب فيه، زوج لزوجة واحدة، له أبناء موثوقون، و.. ويكرر مؤلف الرسالة الأولى إلى تيموثاوس مطلب خلو الراعي المختار من العيوب ويؤكد على ضرورة أن يكون من الأغنياء، والناجحين في إدارة شؤون منازلهم.. ولكن كل فرد من أفراد الكنائس المسيحية في القرن ١م، كان يحلم بأن يحظى بالغبطة الإلهية، ويشعر أنه واحد «من أبناء الإله»، ولذلك كان الرسل والأنبياء الذين حققوا هذه الغبطة يحظون بوقار أكبر مما كان لأولئك الذين كانوا يهتمون بتنظيم

شؤون الحياة اليومية. لقد كان يمكن ألا يكون أفراد الطائفة راضين عن شيوخهم، فإدارة شؤون الطائفة من غير استخدام أي وسيلة من وسائل الإرغام، كان أمراً له ما يكفي من الصعوبات. ففي الرسالة الأولى إلى تيموثاوس (التي تعد من حيث جوهرها جامعة لقواعد الحياة الداخلية للكنيسة)، وهي الرسالة التي تحمل توقيع بولس مع أنه ليس هو من كتبها، يلح كاتبها على وجوب إبداء احترام خاص للرعاة المبجلين، ويطالب بأن يؤيد أي اتهام لأي منهم بشهادة شاهدين أو ثلاثة. إذن في النصف الثاني من القرن الميلادي الأول بدأ توزيع المناصب تدرجاً على قادة الطوائف المسيحية (الأساقفة - الرعاة). وكان هناك عداوة إلى هؤلاء، كنهة، وشمامسة يؤدون الخدمة أثناء إقامة ولائم القربان المقدس، وكان ينبغي على الكاهن ألا يكون من هواة الخمرة، أو نفعياً (من الواضح أنه كان لهؤلاء علاقة مع خزنة الكنيسة).

ولكن الصورة الأكثر كمالاً عن الكنيسة (= الطائفة - م) المسيحية عند تخوم القرن ١-٢م، يرسمها لنا أحد آثار الأدب المسيحي المبكر، الذي عثر عليه في العام ١٨٧٥م، وهو الديداخي (= الطريقان، السبيلان)، أو تعاليم الاثني عشر رسولاً. وقد أعاد بعض العلماء هذا المؤلف إلى الفترة الواقعة بين العامين ٧٠ و١١٢م، بينما رده آخرون إلى الربع الثاني من القرن ٢م. ولكن حتى لو كان الديداخي قد كتب في القرن ٢م، فإنه عكس مع ذلك وضعاً داخل كنيسة حافظت على تقاليد المسيحية الأولى. ويتألف الديداخي من ثلاثة أجزاء: جزء التعاليم الدينية، وهو يعالج «طريق الحياة»، أي سبيل الخلاص، و «طريق الموت» (الهلاك)، ويليه الجزء الثاني الذي يعطى فيه توصيف للطقوس والصلوات، ثم الجزء الثالث الذي يحتوي على القواعد التي تنظم الحياة الداخلية للكنيسة والعلاقات بين أفرادها والدعاة. لقد كان ذلك هو زمن صيرورة الوحدات المسيحية بزعامة قادتها، ووضع قواعد محددة لحياتها اليومية. فاعتمدت الكنيسة (= الطائفة - م) قانوناً أخلاقياً، لأن الراديكالية الأخلاقية التي اعتمدها يسوع كانت مستحيلة في الواقع العملي. ولكن المتطلبات والمحرمات جاءت في هذا القانون مستمدة من الوصايا الإنجيلية في المقام الأول، بيد أنه أضيفت إليها أشياء جديدة ارتبطت بتقاليد العالم المحيط وعاداته، وانضمام أعضاء جدد إلى الطائفة جاؤوا من الوثنية. فحرم التنجيم حسب طيران الطيور، وكان هذا شائعاً جداً لدى الرومان، كما حرمت ممارسة التنجيم (بعلم الرياضيات)، وكان هذا شائعاً جداً في المقاطعات الشرقية للإمبراطورية.

ومن الواضح أن قوام الطائفة المسيحية التي انعكس نمط عيشها في الديداخي، كان يتألف أساساً من الفئات السكانية الدنيا، وهو ما تشهد به كثرة الدعوات فيه إلى العمل

والتعاون. بيد أنه كان بين المسيحيين أشخاص أغنياء يملكون عبيداً. فقد حض الديداخي على الرفق بالعبيد من أبناء الدين ودعا هؤلاء إلى طاعة سادتهم.

وعندما كتب الديداخي لم تكن الطقوسية المسيحية قد أكملت تشكلها بعد، ولذلك تضمن الكتاب قواعد إقامة أقدم الطقوس: طقس المعمودية، وفضل أن يكون ذلك في مياه جارية، وطقس القربان المقدس: تناول النبيذ والخبز في وليمة مشتركة. وقد قام نظام تناول القربان المقدس على أساس رواية متى ومرقس لقصة العشاء السري، حيث أخذ ليلتها «يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطاهم قائلاً: خذوا كلوا، هذا هو جسدي. ثم أخذ الكأس وبارك وأعطاهم فشرب كلهم منها» (مرقس؛ قارن متى). أما عند لوقا فإن يسوع أعطى تلاميذه الكأس أولاً (لوقا)، ومن الصلوات التي يسوقها الديداخي صلاة «أبانا الذي»، لكن نصها يختلف هنا بعض الشيء عن النص الذي جاء في العهد الجديد، ونوه الديداخي كذلك إلى الصلوات التي ينبغي أن تتلى بعد الافخارستيا: صلاة درء كلّ شر عن الكنيسة: «اجمعها من الرياح الأربع إلى مملكتك التي أعددتها لها». ولا نجد مثيلاً لهذه الصلاة في أي أثر مسيحي آخر، الأمر الذي يوحي بأن الصلوات كانت تختلف بين كنيسة وأخرى. ومن اللافت أن هذه الصلاة احتوت على جملة بالآرامية: الرب أتى (ماران أتى) ونودي بهوسانا الإله داود. ويدعى هنا كل من داود ويسوع «ابناً للرب». وهذا ما يجيز لنا القول، إن لاهوت الديداخي هو لاهوت تابع اللا هوت التوراتي إلى حد كبير. وبذا تكون قد بقيت في الطائفة عناصر من اليهودية، واليهودية المسيحية. ويصف الفصل الأخير في الديداخي، المجيء الثاني للمسيح، وما سيسبق ذلك من آيات: الكراهية، والباطل، وظهور الوسواس الذي يغوي العالم وينتهك المحرمات كما لم يحصل من قبل أبداً. وسيقود هذا كثيرين إلى الغواية والهلاك لكن من يبق على إيمانه ينج. ويقوم الأموات، ولكن ليس كلهم إنما «يأتي الرب ومعه القديسون». وهذه الجملة الأخيرة عبارة عن اقتباس من كتاب النبي زكريا، وهي تدل على أن الإيمان بقيامة الأموات كانت له تنويعات، وفي الحالة التي بين يدينا هنا، قام هذا الإيمان على نبوءة توراتية، الأمر الذي يدل على بقاء التأثير اليهودي المسيحي.

وفي الوقت نفسه نأى أعضاء هذه الكنيسة بأنفسهم عن اليهود الأرثوذكسيين: لقد أتى الديداخي على ذكر الصيام ولاحظ بشكل خاص أنه ينبغي على المؤمنين أن يلتزموا بأيام الصوم، ولكن ليس عندما يصوم المراؤون (أي المؤمنون اليهود). إنما في أيام أخرى، كما يجب أن تكون صلواتهم مختلفة أيضاً. والحقيقة أنه كان يمكن للأنبياء أن يتلوا «أي صلوات يريدون» بعد الأفخارستيا. لقد كان أعضاء الكنيسة يعترفون بأخطائهم ونواياهم

السيئة علانية في اجتماع المؤمنين كلهم. فقد كان اجتماع الكنيسة هو بالذات من له الغبطة: دعي المسيحيون كلهم مقدسين، وكان بمقدورهم مجتمعين حل الآثام. وكان للتوبة العلنية مغزى شعيري. فلم يكن لرجال الدين صلاحية مغفرة الآثام بعد.

لقد بقي الأنبياء والرسل، كما كانت عليه الحال سابقاً، يؤدون الدور الأساس في حياة الطائفة. فكان الرسل دعاة جوابين يشرحون تعاليم يسوع، أما الأنبياء فقد تحدثوا كما لو أنهم يتحدثون بإلهام من فوق ناقلين إلى المؤمنين الرؤيا والوحي اللذين يهبطان عليهم: كان المسيحيون يؤمنون بأن الروح القدس نفسه يتحدث بأفواه الأنبياء. ولذلك نهض أمام أفراد الكنيسة السؤال الآتي: كيف يمكن التمييز بين النبي والرسول الصادق وبين النبي والرسول الكذاب؟ وقد قدم الديداخي نصائح بدائية جداً في هذا السياق، فهو لم يعتمد محتوى مواعظهم مقياساً، بل سلوكهم: ينبغي ألا يقيم الرسول أو النبي الحقيقي لدى الكنيسة المعنية أكثر من يومين، وعندما يرحل يمكنه أن يحمل معه خبزاً للطريق، أما إذا طلب نقوداً فإنه رسول كذاب أو نبي كذاب. وإذا ما طلب أثناء تنبوئه إقامة وليمة للفقراء ولم يأكل هو نفسه منها، فإنه نبي حقيقي، أما إذا أكل منها فإنه نبي كذاب. وغني عن البيان أن هذه القواعد تعكس فقر الكنيسة المعنية كما تشير إلى وجود دعاة جوابين بعيدين عن المسيحية ساعين غالباً إلى استغلال موارد الكنيسة لمصلحتهم الخاصة (ربما كان بيريغرين الذي وصفه لوقيانوس، واحداً من هؤلاء الدجالين).

وعدا عن الأنبياء الجوابين، كان ثمة أنبياء يقيمون إقامة دائمة في القرية التي تقع فيها الكنيسة المسيحية. وقد أجاز الديداخي للنبي الوافد أن يقيم في المكان بصفته صاحب حرفة، أما إذا لم يكن صاحب حرفة ما، فإنه ينبغي عندئذ البحث عن عمل له (لم يكن من حق الوافدين امتلاك أرض). بيد أنه كان قد بدأ ظهور «أنبياء حقيقيين»، و «معلمين حقيقيين» لا يؤدون أي عمل سوى نشر الدعوة والتنبؤ. وقد عاش مثل هؤلاء على تقدمات المؤمنين: «من نتاج المِسنّ والبيدر، ومن الثيران والغنم»؛ كما كانت تؤدى مساهمات مالية، وجزء من الطعام والنبيذ، والملابس، «ما تراه ضرورياً»، إذ لم تكن قد فرضت معايير محددة بعد. أما إذا لم يكن ثمة نبي مقيم في الكنيسة، فقد كانت التقدمات تعطى للفقراء. ويدل طابع التقدمات، وهي عينية من حيث الأساس، على أنه كان بين المؤمنين حرفيون وفلاحون أيضاً.

ومن الواضح أنه كان قد ظهر في الكنائس التي كتب الديداخي لها، أساقفة يشغلون مناصب قيادية محددة، فقد ورد فيه: «ضعوا أيديكم وكرسوا الأساقفة والشمامسة،

الجديرين بالرب، إنهم رجال ودعاة، صادقين. مجربين: إنهم يؤودون عندكم خدمة الأنبياء والمعلمين... لذلك لا تبخسوهم قدرهم، وليكونوا مكرمين لديكم إلى جانب الأنبياء والمعلمين». ولهذه الجملة الأخيرة دلالتها الخاصة، إذ تشير إلى أنه كان للأساقفة والشمامسة منزلة أدنى من منزلة الأنبياء والمعلمين، لأنهم كانوا يؤدون وظائف اقتصادية. ولذلك حاول واضعو مجموعة قواعد الديداخي أن يساووا بين الأساقفة والشمامسة من جهة والأنبياء والمعلمين من جهة أخرى، أي جعل الأوائل ذوي هيبة في مسائل الدين.

كما ترسخت هيبة الأساقفة بصعوبة في بعض الكنائس الأخرى. ففي رسالته إلى مسيحيي كورينثوس يتحدّث كليمينت قائد المسيحيين الرومان (في أوائل القرن ٢م)، عن نزاع كبير وقع في داخل هذه الكنيسة: لقد قام شباب الكنيسة ضد شيوخها، وأزاحوا الأساقفة فدعا كليمينت «الشباب» إلى طاعة أساقفتهم. وكان النزاع قد طال مسائل الإيمان، إذ رفض «الشباب» تعاليم القيامة بالجسد، وكانت هذه واحدة من أكثر المسائل حدة، فقد كان يصعب كثيراً على الذين جاؤوا المسيحية لتوهم من الوثنية أن يعقلوا مثل هذه القيامة. بيد أن الأسقفية أخذت ترسخ جذورها بالتدرج نتيجة لتدفق أفواج متواصلة من الناس إلى الدين الجديد، وضرورة استمرار الوجود داخل المجتمع الإمبراطوري.

ونحن لكي نستطيع أن نكوّن فكرة عن أسباب انتشار المسيحية وموقف مختلف الفئات السكانية منها، يجب أن يكون لدينا لو تصور تقريبي عن الحالة العامة للإمبراطورية الرومانية في القرن ٢م. ففي أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الميلاديين، اكتملت صيرورة تنظيم الدولة الإمبراطورية. لقد قتل الإمبراطور دومسيان في العام ٩٦م وكان هذا قد أثار الكراهية والمقت بسبب حملات التنكيل التي شنها ضد من لم يحظ برضاه، وحل بعد مقتله عهد سلالة الأنطونيين الذين سعوا إلى تحقيق الاستقرار الاقتصادي والسياسي في الإمبراطورية. فمنح الأباطرة حقوق المواطنية الرومانية للفئة العليا من سكان المقاطعات، وأدخلوا ممثليها قوام السينات. وكانت تسوية الوضع بين المقاطعات الشرقية والغربية، وتخالط السكان نتيجة للهجرات، من أهم عوامل التنمية الاجتماعية في الإمبراطورية. وعزفت الإمبراطورية منذ عهد هادريان عن شن أي حروب خارجية توسعية. لقد كان ذلك هو السلام الروماني الذي جرى في ظله التخلص تدرجاً من التقاليد المدنية، وحسب المؤرخ غ. س كنابه، أن التهدئة كانت تعني عملياً إبعاد الشعب عن السياسة، التي لم تعد عملاً له أهميته الملحة بالنسبة إليه. ولكن الاستقرار لم يكن في واقع الحال سوى استقرار ظاهري إلى حد كبير: لقد أثار اعتماد السلطة الإمبراطورية على الأرستقراطيا المحلية ومعتوقي الإمبراطور، سخط

مختلف فئات السكان، ووقعت الصدامات بين الأغنياء والفقراء، وبين موظفي السلطة الإمبراطورية وباقي الفئات السكانية. وفي القرن ٢م كانت السيطرة في العلاقات الزراعية قد باتت لمبدأ الريعية: لقد أعطى أكثر مالكي الأراضي الزراعية، بمن فيهم الأباطرة، أراضيهم للكولونات والعبيد الذين غرسوهم في الأرض. وكان أكثر الكولونات يعاني، خاصة في أراضي الإمبراطور، معاناة مريرة من جور القضاة ووحشية الموظفين، وما زاد الأمر سوءاً هو أن هذه الظاهرات كانت شائعة في كل مكان. فقد وصلت إلينا شكاوى ضد تعسف موظفي الإمبراطور (لا شك أنه لم يصل إلينا من مثل هذه الشكاوى إلا تلك التي وصلت بالفعل إلى الإمبراطور أما التي لم تصل إليه فلا أحد يعرف شيئاً عن أعدادها) في المقاطعات، رفعها إليه فلاحون: بعضها يفيد بأن ناظري أراضي الإمبراطور قد غالوا كثيراً في فرض الجبايات، وأن الحكام المحليين يغطون سلوك هؤلاء الموظفين، بل يرمون الشاكين في السجون، كما حصل في شمالي أفريقيا. وتروي شكاوى أخرى كيف يبتز موظفو الإمبراطور الأموال باعتقال الفلاحين اعتقالاً غير قانوني. ولم يكن الوضع في المدن أقل اضطراباً، فقد تزايدت هنا أعداد الحرفيين، واندلعت القلاقل من حين لآخر بسبب صعوبات تأمين الخبز، لكن السلطات كانت تقمع مثل تلك التحركات بقسوة.

في العام ١٣٢م اشتعلت في فلسطين انتفاضة قادها سمعان بن قوسيبا الذي أعلن نفسه مسيا ودعا نفسه باسم بار قوبا: ابن النجم. وقد نجحت الانتفاضة في الاستيلاء على أورشليم. كما توضعت قواتها في كهوف قمران. لكن الانتفاضة أخمدت بقسوة، وحرم على اليهود أن يقتربوا من أورشليم أكثر من مرة واحدة في العام. وأقام الرومان على أنقاض أورشليم مستعمرة رومانية دعيت إيليا كابيتولينا، وشيد في المدينة معبد للإله جوبيتر الكابيتولي، الإله الأكبر عند الرومان. وكان الوضع يعني عملياً تشتت اليهود في شتى أرجاء الإمبراطورية. وساد الظن بأن الإمبراطورية منيعة راسخة، ولا يمكن التحرر من نيرها إلا روحياً. وقد وجد الناس في المسيحية خلاصهم الروحي، فقد دعت هذه إلى الاتحاد في المحبة، وأقصت مسألة «الألم الجائر»، لأنها أعلنت أن الغبطة والخلاص في مملكة الإله يتحققان عبر الآلام.

مع بداية القرن الميلادي الثاني أخذت تظهر المعطيات الموثوقة عن المسيحيين وموقف السلطة والمحيط السكاني منهم، وقد جاءت هذه المعطيات في مصادر غير مسيحية، الأمر الذي يدل على أن هؤلاء كانوا قد برزوا على مسرح الأحداث. فقد ورد ذكر المسيحيين مثلاً في مراسلات بليني الأكبر مع الإمبراطور ترايان. وكان الإمبراطور قد أرسل بليني لفرض النظام في مقاطعة بيثينيا في آسيا الصغرى. ومن بين المسائل التي واجهته، مسألة

وجود المسيحيين. فقد حمل إليه مجهول لائحة بأسماء كثرة من المسيحيين، لكن التحقيق بين أن بعض هؤلاء لم يكونوا مسيحيين، وبعضهم الآخر كان قطع صلته بالمسيحية قبل سنوات كثيرة من مجيء بليني إلى المقاطعة (الرسالة). فما هي دوافع هذا الواشي المجهول؟ من الواضح أن الحصول على مكافأة لم يكن غرضه، يدل على ذلك حرصه على أن يبقى في الظل. ومن المستبعد أن يكون هذا من فئات المجتمع العليا، لأن هؤلاء كانوا وقتئذٍ قلة نادرة بين المسيحيين أو في الدوائر القريبة منهم، ومن المستبعد أيضاً أن يخفي أحد كبار الشخصيات الاجتماعية اسمه عن مبعوث الإمبراطور. ولذلك فالراجح، هو أن الواشي كان ينتمي إلى فئات المجتمع الدنيا، وربما كان هو نفسه ممن شاركوا حيناً في اجتماعات المسيحيين ثم رفض هؤلاء قبوله في صفوفهم: هذا ما تدل عليه حقيقة أنه كان بين أسماء اللائحة حسب بيلني، أسماء أشخاص قطعوا صلتهم مع المسيحيين منذ زمن بعيد. وربما كان سبب ما دعا هذا الشخص إلى إلحاق أكبر الأذى بأبناء الدين الغريب، هو أن أقرب أقاربه قد انتموا إليه: زوجته، أخته، ابنته، الأمر الذي خلق في نفسه مقتاً شديداً للمسيحيين. وتلك هي الحالة المعيارية التي وصفتها أعمال الرسل المنحولة كلها تقريباً في القرن ٢م، ولذلك فإنها قد تكون انعكاساً لواقع حقيقي. وفي الأحوال كلها من الواضح أن الواشي كان يعرف مسيحيي محيطه، وقد عدهم غرباء، مبهمين، ولذلك فهم معادون للعالم الذي يعيش فيه. أما وجود أسماء لغير مسيحيين في اللائحة المذكورة، فقد تكون له صلة بكون الواشي أضاف إليها أسماء خصوم يريد أن يسبب لهم الأذى. ولكن الأمر الثابت في الأحوال كلها، هو أن المسيحيين قد أخذوا يبرزون في المجتمع بصفتهم كياناً اجتماعياً متميزاً، وأن نمط عيشهم كان يستهوي الوثنيين المحيطين بهم، ويثير غيظهم في الآن عينه. فقد حملت الوشايات التي كانت تقدم ضد المسيحيين تهماً اختلقها خيال خصب حاقد، إذ اتهموا حتى بقتل المواليد، واستمرت الحال على ما هي عليه على امتداد القرنين ٢-٣م، ومن الواضح أن التهم ضد الدين المسيحي الجديد كانت تصدر في غالب الأحيان عن فئات المجتمع الدنيا. وتعد معطيات بليني مهمة بالنسبة للحياة الداخلية لدى مسيحيي آسيا الصغرى، كونها تظهر إلى حد كبير حركية تركيب الطائفة: لقد كان الناس ينضمون إلى المسيحيين، لكنهم كانوا ينفضّون عنهم متى شاؤوا. وقد سهل انفتاح الكنائس، وحضورها الدائم مع العالم المحيط، طريق تزايد أعداد المؤمنين، لكن هذا عينه كان يمكن أن يؤدي أيضاً إلى تناقض هذه الأعداد بانفضاض الأعضاء الطارئين بالطريقة عينها التي انضموا بها إلى الكنيسة المعنية.

ويبدو أن بليني قد وجد نفسه في موقف صعب لدى تحريه الحقيقة في تلك الوشاية. فكتب إلى ترايان يقول: «أنا لم أشهد مرة تحقيقاً مع المسيحيين، ولذلك لا أعرف عما ينبغي أن أسأل، كما لا أعرف معيار العقوبة التي يجب فرضها.. هل أصفح عن الذين يعلنون توبتهم أم أن الارتداد لا يجدي المسيحي نفعاً، إنما يجب إنزال العقاب بمن حمل هذا الاسم بصرف النظر عن وجود جرم أو عدم وجود أي جرم، لأن حمل الاسم عينه يعد جرماً». وحقق بليني مع الذين وردت أسماؤهم في الوشاية وأقروا بأنهم مسيحيون، ثم أعاد التحقيق مرة ثانية وثالثة مفسحاً في المجال لمن يريد أن يعيد النظر في موقفه. ومن أعلن أنه ليس مسيحياً، أو أنه كان كذلك منذ زمن، أرغمه بليني على أن يسجد ويقدم الذبيحة لأصنام الآلهة ورسم الإمبراطور، ويجدف على المسيح (وكتب بليني يقول: «لا يمكن لأي مسيحي حقيقي أن يفعل أي شيء من هذا القبيل»). ومن عاند ورفض، أمر بقلته. أما المواطنون الرومان من المسيحيين، فقد أمر بليني بإرسالهم ليمثلوا أمام المحكمة في روما. وبينت تحقيقات بليني أن المسيحيين كانوا يجتمعون في يوم معين عند غسق الفجر، فيسبّحون المسيح ويمجدونه، ويتعهدون بالابتعاد عن السرقة، والنهب، والزنى، والكذب.. واجتمعوا كذلك لتناول الطعام، طعام عادي غير مدنس»: أكد بليني بهذه الكلمات الأخيرة عدم صحة الشائعات التي تحدثت عن ذبائح دموية، وقتل مواليد وما شابه. لقد حقق بليني مستخدماً أساليب التعذيب مع أمتين مسيحيتين (كان ينبغي كقاعدة أن يعذب العبيد أثناء التحقيق معهم، وألا عدت شهاداتهم كاذبة). وكانت هاتان من طائفة الدياكونيسيين. وفي المحصلة، يقول بليني إنه لم يكتشف شيئاً سوى «عقائد خرافية» مشوهة تثير الشفقة.

وتعد معطيات بليني عن اجتماعات المسيحيين المشتركة التي كانت تلتئم في آخر الليل (قبيل الفجر)، مهمة بالنسبة لدراسة الحياة الداخلية لكنائسهم. فموعد الاجتماعات نفسه يؤكد على أن أكثر المسيحيين كان يعمل. ولكن من غير الواضح أين كانوا يجتمعون: ربما في العراء، أو في منازل الحرفيين والفلاحين. وكانت اجتماعاتهم تلك مكرسة للصلوات، والتراتيل، وربما للتوبة، والوعود بعدم الإتيان بأي سلوك سيئ، ولإقامة الولائم المشتركة (وهي حسب الديداخي الطقس الأساس لدى الكنائس المسيحية الأولى). وأشار بليني إلى أنه بين المسيحيين أشخاص من مختلف الأعمار، والفئات الاجتماعية، والانتماء الجنسي. وواقع الحال، أنه علاوة إلى العبيد، انضم إلى المسيحيين أشخاص كانوا ينتمون إلى عليّة المجتمع المحلي، وكان هؤلاء قد منحوا حقوق المواطنية الرومانية: كانت السلطات الرومانية تكافئ مواطني المقاطعات بحق المواطنية الرومانية لقاء خدمات مميزة يقدمها هؤلاء

للدولة. ولم يشر بليني إلى قادة الكنائس، الأمر الذي يمكن أن يعني أن مؤسسة الأسقفية لم تكن قد ظهرت في هذا الإقليم بعد، أو أنه لم يكن لها دور مهم فيه، ولذلك لم يسترع وجودها انتباه بليني. وينوه بليني في ختام رسالته إلى أن «وباء هذا المعتقد الخرافي لم ينتشر في المدن وحدها، بل امتد إلى القرى والمحلات أيضاً». وعليه فإن الاعتقاد السائد في الدراسات العلمية بأن المسيحيين عاشوا أساساً في المدن، وأن الوثنية بقيت على قيد الحياة زمناً أطول في القرى، هو اعتقاد لا يتوافق وواقع الأشياء في المقاطعات الشرقية، بخاصة في آسيا الصغرى، وهذا ما تؤكده إضافة إلى ما تقدم، النقوش التي أقامها سكان المناطق الريفية.



منظر داخلي للسرداب

ويتضح بجلاء في رسائل بليني موقف السلطات من المسيحيين: يبدو أن صاحب الرسائل قد سمع شيئاً ما عن المسيحيين، ربما في سياق ذكرياته عن مجازر نيرون، إلا أن معرفته بهم ضعيفة جداً. لقد كانت التحقيقات في مسألة الانتماء إلى المسيحية لا تزال نادرة إلى درجة أن بليني لم يعرف كيف تدار. وعلى أي حال فإن كل ما كان يهتم له الرجل، هو أن يظهر المسيحيون ولاءهم لسلطة الإمبراطور المتمثلة في تبجيل الإمبراطور الإلهي ولذلك أمر بإعدام كل من رفض أن يفعل ذلك. لقد كان الموظف الروماني يرى أن الإيمان بأي إله كان، لا يمكن أن يتعارض مع تبجيل سيد الإمبراطورية، فتأدية شعائر مثل هذا التبجيل كانت ذات طابع شكلي صرف، ولم يكن لها بالنسبة لأكثر سكان الإمبراطورية أي مغزى مقدس. لقد كان تبجيل آلهة روما وإمبراطور روما واجب كل موظف روماني ومسؤول روماني بصرف النظر عن أحاسيسه ومعتقداته الشخصية. ولكن بليني كان عاجزاً عن فهم سيكولوجيا المسيحيين، الذين رأوا في الامتناع عن السجود للأصنام إخلاصاً للمسيح وأملاً في نيل الحياة الأبدية. وكان موقف ترايان نفسه من المسيحيين شبيهاً بموقف بليني منهم. فقد تلخص مغزى إجابته على تقرير بليني في أنه لا يمكن وضع أي معايير عامة، وليس ثمة من جدوى للبحث عن المذنبين، ولكن إذا ما وشي بهم وتبين أنهم مذنبون فإنه ينبغي عندئذٍ أن يعاقبوا. أما من يعلن توبته وارتداده عن دينه الجديد، فيجب أن يترك وشأنه. بيد أنه يجب إهمال كل وشاية من مجهول. وفيما بعد اتهم الكاتب المسيحي ترتوليان، الإمبراطور ترايان بازدواجية الموقف: من جهة يجب ألا يجري البحث عن المسيحيين (أي أنهم ليسوا مذنبين في شيء)، ومن جهة أخرى يجب معاقبتهم بصفتهم مذنبين إذا ما عثر أحد ما على أي منهم. ولكن ما ينبغي قوله، هو أنه ترايان كان منطقياً جداً في محاكماته الذهنية: بما أن المسيحيين أنفسهم لا يسببون أي إزعاج لممثلي السلطة العليا، فليتركوا إذن وشأنهم، ولكن العصيان العلني يجب أن يستدعي العقاب، في المقام الأول كعبرة للآخرين.

إن مراسلات بليني الأصغر وترايان، تعكس مرحلة انتقالية في تاريخ المسيحية، فقد باتت هذه الديانة تبرز أكثر فأكثر. وامتد انتشارها ليشمل المقاطعات الرومانية الغربية: غاليا، وأسبانيا، وشمالي أفريقيا، وشاعت المسيحية هناك أول ما شاعت في أوساط الوافدين، ثم انتقلت إلى أوساط الرومان والسكان المحليين الذين أخذوا اللغة اللاتينية لغة لهم. وكان المسيحيون الشمال أفريقيون هم بالذات الذين وضعوا أول المؤلفات المسيحية باللغة اللاتينية. لقد أخذت أعداد المسيحيين تتزايد في روما نفسها. والحقيقة أن الوافدين كانوا يشكلون في القرن ٢م غالبية مسيحيي روما؛ وقد كانت الإغريقية هي لغتهم، فبهذه اللغة

كتب في القرن ٢م قادة المسيحيين الرومان، وباللغة الإغريقية نقشت أقدم النقوش في المقابر الرومانية التي بنيت تحت الأرض، حتى الاسم الروماني روفينا كتب في نقش أواخر القرن ٢م بالأحرف اللاتينية، لكن استخدام اللغة اللاتينية في القرن ٢م كان يمكن أن يكون مجرد احترام للتقليد المقدس.

عند أواخر القرن ١م وعلى امتداد القرن ٢م، أخذت تتزايد أكثر فأكثر أعداد معتنقي المسيحية من أوساط المجتمع العليا. وربما كان المؤرخ ديون ماسيوس قد قصد المسيحية بالذات عندما كتب يقول: إن الإمبراطور دومسيان (أواخر القرن ١م) قد أعدم قريبه كليمينت وزوجته دوميسيلا متهماً إياهما من بين تهم أخرى بالكفر بآلهة روما. ووجهت التهمة عينها حسب قول المؤرخ إلى كثيرين آخرين مالوا نحو الطقوس اليهودية. ومن غير المستبعد أن تكون المسيحية هي المقصودة بتعبير الطقوس اليهودية. ومن المعروف أن ترتوليان كتب أيضاً عن ملاحقات دومسيان للمسيحيين. وثمة قرينة غير مباشرة أخرى توحي بوجود مسيحيين متنفذين في روما، وردت في رسالة أسقف أنطاكيا أغناطيوس (القرن ٢م)، الذي اعتقلته السلطات المحلية. فقد وجه أغناطيوس رسالة إلى أخوته المسيحيين الرومان يطلب فيها منهم ألا يستخدموا نفوذهم لإطلاق سراحه (كان الأسقف يؤمن إيماناً راسخاً بأن الشهادة تضمن له الحياة الأبدية).

ولم يقتصر نشاط أغنياء المسيحيين في روما على مد يد المساعدة لأخوتهم في الدين، إنما تعدى ذلك إلى جانب آخر كان شديد الأهمية في حياة المؤمنين ألا وهو تأمين الأماكن الضرورية لعقد الاجتماعات المشتركة. فالأكثرية الغالبة من مسيحيي روما كانت من الفقراء الذين كانوا يقيمون في أكواخ بائسة منتشرة في ضواحي العاصمة، وعلى ضفتي التيبر، وحول مختلف ضروب مصادر الإنتاج. لقد كان هؤلاء يعملون في البناء، وتنظيف الشوارع، وما إلى ذلك. ولم يكن من الهيّن بالنسبة إليهم أن يجتمعوا في أي مكان في روما لإقامة طقس الأفخارستيا، وحضور المواعظ، وإقامة الصلوات، لقد كان ذلك ممكناً في المنازل الخاصة فقط. وشيئاً فشيئاً غدت مثل هذه المنازل - الكنائس أمكنة ثابتة لعقد الاجتماعات، وقد دعيت المنازل المعنية بأسماء مالكيها: بعد أن غدت المسيحية ديانة علنية، حافظ المسيحيون على ذكرى أسماء هؤلاء، وأحياناً ما ساووا بينهم وبين الشهداء القدّيسين. وقد وصلت إلينا أسماء بعضهم: سابينا، وبولبينا، وأناستاسيا، وكريزوغون، ويوسفوس و.. ولكن مساهمة هؤلاء لم تقتصر على تقديم المنازل - الكنائس، إنما ساعدوا أيضاً في حل مسألة أخرى كان يعاني منها مسيحيو روما والمدن الكبرى الأخرى، وهي مسألة تأمين

أراضي المقابر. فقد كان الطقس الروماني يقضي بإحراق جثامين الأموات، لكن عادة دفنهم كانت موجودة أيضاً. بيد أن المسيحيين الذين كانوا يؤمنون بقيامة الجسد حرموا حرق جثمان المتوفى تحريماً قاطعاً، وقالوا بوجوب دفنه في الأرض حتماً. عداك عن هذا أن المسيحيين رغبوا في أن يدفن واحدهم إلى جانب الآخر لكي يبعثوا معاً. ولكن أرض المقابر حول روما كانت باهظة الثمن، ولذلك عمد أغنياء المسيحيين الرومان ابتداءً من القرن ٢م، إلى تقديم قطع من أملاكهم مقابر، ضف إلى هذا المقابر الدياميس التي كانت تشكل سراديب تحت الأرض. وقد دعيت هذه المدافن بدورها بأسماء أصحاب الأراضي: بريسيلا، ودوميسيلا، ومكسيم، وكومودبلا، واغنيسا، وأتافيلا (يلفت الانتباه في هذا غلبة أسماء النساء: يبدو أنه بقيت الغلبة للنساء بين مسيحيي روما الأغنياء). واستخدمت لبعض الدياميس سراديب يرجع تاريخ بنائها إلى ما قبل المسيحية، وكانت هذه كثيرة في روما: قنوات متروكة، ومناجم حجارة زيد في اتساعها وعمقها. ويؤكد علماء اليوم أن تلك السراديب - المدافن لم تبن كملاجئ يتخفى المسيحيون فيها في عهود الملاحقات والتنكيل (لقد كانت السلطات الرومانية تعرف هذه الأماكن معرفة جيدة، بل مجرد حفرها وإخراج التراب من داخلها سراً كان أمراً مستحيلاً). لقد كانت تلك المدافن موجودة على الأراضي المتوضعة خارج أسوار روما، وفيها وجد يهود روما ومسيحيوها المكان المناسب لدفن الأموات من أتباع ديانتهم الذين كانت أعدادهم في ازدياد مطرد. كما بقيت دياميس من مدن أخرى أيضاً كان العثور على أراضي للمقابر فيها أمراً صعباً جداً: سيراكوزا، ونابولي و..

وعلى صعيد آخر، أدى نشاط أغنياء المسيحيين هذا، إلى إحداث تبدل في الموقف العام للمسيحية تجاه الثروة والأثرياء. وقد ظهر هذا التبدل بوضوح في كتاب «الراعي» الذي ينسب إلى هيرما، ويرقى تاريخ كتابته إلى النصف الأول من القرن ٢م. إذ ثمة دلالة ملفتة لشخصية المؤلف التي بنيت في هذا العمل. فهو ينتمي إلى الشرائح الاجتماعية الدنيا (معتوق)، ولكنه حاول أن يحقق ثروة من عمله في التجارة، ففشل وحل به الإفلاس: إنه ممثل نموذجي للشرائح الوسطى التي أخذت تلتحق بالمسيحيين. فهيرما هذا لا يدين الثروة، إنما يدين فقط البذخ والسعي إلى ملذات هذا العالم. ويدعو إلى عمل الخير، ويبني في غضون ذلك نظرية فريدة لضرورة تلازم الأغنياء والفقراء: ينبغي على الأغنياء أن يضحوا بجزء من ثرواتهم للفقراء، وعندئذ يحظون برضى الإله. ويساعد الفقراء بدورهم الأغنياء على الخلاص، لأنهم سوف يرفعون صلواتهم من أجل المحسنين إليهم. وعلى هذا النحو بات وجود الأغنياء والفقراء في الكنائس المسيحية واقعاً معترفاً به، يسهم في جذب أناس من شرائح المجتمع العليا إلى تلك الكنائس.

كما كان يمكن أن يتزايد عدد الأغنياء بين المسيحيين على حساب إفادة بعض أعضاء الكنائس من العلاقات بين مسيحيي مختلف المناطق لإدارة عمليات تجارية ناجحة، ولكن كان هناك أيضاً من سعى إلى تحقيق مكاسب على حساب موارد الكنيسة: لقد ورد في رسالة أسقف سميرنا بوليكاربوس، أن هذا الأخير يتفجع على المدعو فالينت الذي دخل حيناً سلك الاكليروس، لكنه ما لبث أن أظهر توقاً لامتلاك الثروة. وكانت الوصاية على الأملاك الموصى بها إلى الكنيسة، واحدة من وسائل تحصيل الموارد: في مثل هذه الحالات كان المسيحيون يعيّنون الرعاة قيّمين على تنفيذ الوصية. وفي القرن ٣م أوجب استغلال الوصاية على أملاك القاصرين لتحقيق مكاسب شخصية، إصدار تعليمات أسقفية خاصة تحرم على رجال الاكليروس ممارسة أي أعمال دنيوية. وفي مثل تلك الظروف أدى الأغنياء والمثقفون على وجه الخصوص دوراً متميزاً في قيادة شؤون الكنيسة فكرياً وتنظيمياً، فقد كان هؤلاء يحظون بسمعة طيبة حقيقية ووقار حقيقي.

ففي القرن الميلادي الثاني ظهر بين المسيحيين أفراد على معرفة بالفلسفة الإغريقية - الرومانية، إلا أن هذه الفلسفة كانت قد باتت لا ترضيهم. وبدؤوا يعدون اللاهوت المسيحي، ويضعون أسسه ساعين إلى بناء نظام لاهوتي متماسك في إطار الدفاع الفكري عن المسيحية. وكان يوستين واحداً من أشهر المنافحين عن المسيحية في القرن ٢م. وينتمي هذا إلى عائلة إغريقية ثرية كانت تعيش في فلسطين. وقد قال يوستين عن نفسه، إنه تلقى العلم على فلاسفة كانوا ينتمون إلى مدارس شتى، لكنه استقر في آخر المطاف على المسيحية، وشرع يبشر بتعاليمها متنقلاً من مدينة لأخرى إلى أن استقر في روما حيث أسس فيها مدرسة خاصة للمسيحيين. ثم انتهى يوستين شهيداً في حوالي العام ١٦٦م، إذ وشى به أحد الفلاسفة الوثنيين، فألقي عليه القبض وحوكم وأعدم. وفي النصف الثاني من القرن ٢م أنشئت في الإسكندرية مدرسة للاهوت المسيحي رئسها لبعض الوقت كليمينت الإسكندري الذي كان ينتمي إلى عائلة ارستقراطية، وقد اشتغل قبل اعتناقه المسيحية بالفلسفة الإغريقية - الرومانية؛ ثم رئس المدرسة بعد كليمينت، الفيلسوف المسيحي الشهير اوريجينوس. ومن أكثر الكتاب المسيحيين شهرة في حقبة أواخر القرن الميلادي الثاني وأوائل القرن الميلادي الثالث، مواطن إقليم شمالي إفريقيا ترتوليان. لقد تلقى ترتوليان تعليمه في قرطاجة، وتخرج فيها محامياً ومارس مهنته هذه في روما. وكان ترتوليان قد نبذ المسيحية في بادئ الأمر، لكنه ما لبث أن تحول إلى واحد من أعظم دعاتها في عصره. كما كتب إيرينيوس أسقف مدينة ليون (مدينة لوغودون في غاليا)، مؤلفاً مسهباً «ضد الهرطقات»، دافع فيه عن أناجيل العهد

الجديد الأربعة، وعن الموضوعات الأساسية للأرثوذكسية المسيحية. ومن اللافت أن ايرينيوس ينتمي من حيث المنشأ إلى آسيا الصغرى، كما كان قادة مسيحيون بارزون آخرون من الوافدين إلى روما أيضاً: تاتيان، وثيوفيل تلميذ يوستين جاء روما من وادي الرافدين، وجاء إليها اثينوغوراس من اليونان، و.. ولم يكن لانتقال هؤلاء من مواطنهم الأم إلى روما سبب معين واحد، فقد سعوا إلى الحضور في مركز ثقل المسيحيين في روما، كما كانت بهم رغبة لنشر الدين الجديد في المقاطعات التي لم يكن الحضور المسيحي فيها كثيفاً، قصارى القول: لقد كان التبشير مهنة المثقفين المسيحيين. ولذلك ليس مستغرباً أن شغل هؤلاء المراكز القيادية بين مسيحيي المقاطعات الغربية.

ونحن لن نقدم هنا توصيفاً للاهوت المسيحي الناشئ، الذي تعايش مع المسيحية الشعبية، بيد أن تبدّل التنظيمات المسيحية قد أدى دوره في تطورها التالي وبروز قادة ذوي سمعة. وكانت الحاجة إلى مثل هؤلاء القادة قد زادت بالمقارنة مع القرن ١م. إذ زاد انتشار المسيحية في شتى مقاطعات الإمبراطورية، وبات كثير من المسيحيين لا ينطق الآن باللغة الإغريقية إنما باللاتينية الشعبية. وغني عن البيان القول، إن المسيحيين الجدد كانوا بحاجة إلى تعاليم، ومواعظ، وكتب مقدسة مختارة. وسوف نرى أن القرن ٢م كان حقبة التمايز بين مختلف المجموعات المسيحية، حقبة النزاعات المريرة حول مسائل التعاليم الدينية، ولم يكن عبثاً أن كتب سيلس يقول: في بادئ الأمر كان عددهم قليلاً، لذلك كانت آراؤهم موحدة، لكن ما إن تكاثرت أعدادهم حتى دبت الخلافات بينهم وانقسموا: «كل يريد أن تكون له مجموعته». وبما أن القيام الوشيك لملكة الإله قد أخذ يتراجع ليدخل باب المستقبل المجهول (حسب معتقدات مسيحيي ذلك الزمن أن مملكة الإله سوف تقوم عندما يؤمن كثيرون بالمسيحية)، فإن المسائل الأخلاقية ارتدت أهمية خاصة على هذه الخلفية، وكذلك مسائل الموقف من السلطات، وموقف كل مسيحي من أخيه في الدين، والموقف من الوثنيين، وضرورات حياة الزهد والتنسك التي طبعت التقليد المسيحي المبكر بطابعها. وبرزت أيضاً مسائل أخرى على خلفية الملاحقات التي كان يتعرض لها المسيحيون، فيرتد كثيرون عن إيمانهم المسيحي. فهل يمكن العفو عن مثل هؤلاء «الضالين» إذ ما ندموا وأعلنوا توبتهم؟ ومن هي الجهة المخولة حق منحهم المغفرة؟ ولم تكن الإجابة على أسئلة من هذا النوع موجودة في أي من الكتب القديمة، لذلك كان ينبغي على قادة الكنائس المسيحية أن يأخذوا الأمر على عاتقهم ويجدوا إجابة لكل سؤال من هذا النوع. وقد كتب الأسقف أغناطيوس في رسالته إلى مسيحيي فيلادلفيا يقول متألماً، إن بعض المسيحيين يقول له: «إذا لم يكن هذا موجوداً في

الزمن القديم، فإني لن أصدق الإنجيل، وعندما أقول لهم إن هذا مكتوب فعلاً في كتبنا القديمة،. يجيبون: يجب إثبات ذلك». ولا شك في أن المطالبة بالبرهان تعكس حفاظ المسيحيين الجدد الذي جاؤوا لتوهم من عالم الوثنية، على طريقة التفكير المنطقي التي كان يتميز بها الفكر الهلنستي.

ومن المسائل المهمة التي نهضت أمام المسيحيين والقيادات المسيحية، مسألة الموقف من اليهودية: لقد بقيت اليهودية المسيحية في أطراف العالم المسيحي، وفي فلسطين، بينما نبذت الكتلة الرئيسة من مسيحيي العالم الوثني اليهودية، وبدا هذا الموقف واضحاً وضوحاً خاصاً بعد الانتفاضة الفلسطينية ضد روما بزعامة باركوبا. فقد بينت هزيمة الانتفاضة للمسيحيين أن الإله يعاقب اليهود بتخليه عنهم، لأنهم رفضوا يسوع المسيح. كما تداخلت هنا الاعتبارات الدينية مع المصالح الفعلية للناس الذين خشيوا ملاحقات السلطات الرومانية لهم، لا سيما أن هذه السلطات بقيت ترى في المسيحيين واليهود ملة واحدة. ولذلك فإن القطيعة الكاملة مع اليهودية، أفضت بالنسبة للمجموعات المسيحية الأساسية إلى ما يشبه «الخلق المقدس» الجديد من جهة، وضرورة الحفاظ على الرواية التوراتية التي أجلّها يسوع، وإدراجها نظام العقائد المسيحية من جهة أخرى، ولكن هذا خلق صعوبات جمة أمام اللاهوتيين وأربك عقول المؤمنين العاديين.

لقد خلقت حاجة المسيحيين إلى الوحدة وفرض الهيبة، في أوساطهم قناعة مفادها، إنه إذا ما كان المسيحي الفرد ضعيفاً بمفرده، فإن مجموع المسيحيين كلهم يحظى بالغبطة الإلهية. وباتت الكنيسة بالنسبة إليهم الآن عبارة عن مجلس يضم مجموعات من المسيحيين، أما الكنيسة على وجه العموم فقد ارتبطت صوفياً في أذهانهم بالإله نفسه. وكان أغناطيوس أول من استخدم في رسائله مفهوم الكنيسة «الجامعة، العمومية»، وبذا يكون مفهوم كنيسة قد أخذ يتحول إلى مفهوم مجرد، ويكتسب مغزى مقدساً. فلم تعد الكنيسة الآن، مجالس متفرقة، ولا جمعاً من المؤمنين، بل معشراً أسسه المسيح يضم تحت جناحيه مسيحيي كل الأزمنة والشعوب. ونحن نقف على مثل هذا الفهم للكنيسة في الرسالة إلى الأفسسيين التي يبدو على أغلب الظن أن بولس ليس مؤلفها، مع أن كتاب العهد الجديد ينسبها إليه. فقد جاء في هذه الرسالة أن المسيح «أحب الكنيسة، وضحى بنفسه من أجلها، ومن أجل تقديسها طهر جرن المعمودية بالكلمة، ومن أجل أن يراها كنيسة ممجدة لا عيب فيها ولا دنس ولا شيء مثل ذلك» (أفَسُس). ونقف على مثل هذا الفهم لمفهوم كنيسة، في «راعي» هيرما[1]. فتتمثل

١ـ نشرت الترجمة الروسية لكتاب هيرما: «الراعي» في موسكو في العام ١٩٩٧.

الكنيسة في رؤيا مؤلف هذا الكتاب في صورة أمّ أولى «خلقت... قبل كل شيء، وخلق العالم من أجلها». ولكن وجود الكنيسة يتحقق في العمل الفعال الذي يقوم به المؤمنون. وتجمع الكنيسة تحت سقفها الصديقين الأحياء، والرسل الذين عاشوا في زمن مضى، والتائبين الذين يمكن أن ينضموا إليها في المستقبل. وعندما يكتمل بناء الكنيسة يحل أوان المجيء الثاني للمسيح (بذا يكون قد تم رفع المسألة التي كانت تقلق المسيحيين الأوائل: موعد نهاية العالم). وما دامت الكنيسة قيد البناء، تبقى الفرصة قائمة لمن يريد أن ينال الخلاص بالندم والتوبة، لكن الباب سوف يغلق إلى الأبد لحظة اكتمال عملية البناء. ولا ترفض الكنيسة طالما هي في طور البناء، سوى المرتدين والخونة، لأن إثم هؤلاء عظيم. ومع التقدم في بناء الكنيسة تزداد الأم الأولى شباباً، فرحة بغيرة المؤمنين. لقد دعا هيرما إلى وحدة الكنيسة، وكانت هذه المسألة مسألة ملحة حيوية بالنسبة لزمن كتابة «الراعي». ولم يشر المؤلف في كتابه هذا إلى قادة الكنائس، ولا تتوافق رؤاه توافقاً تاماً مع التعاليم الأساس (التعاليم الأرثوذكسية)، ولكن النزاعات، والشقاقات كانت تضعف الكنائس المسيحية، وكان هذا جلياً بالنسبة لمؤلف كتاب «الراعي». بيد أن تحقيق أي مستوى من مستويات الوحدة كان يتطلب أن يكون على رأس الكنائس أشخاص مثقفون يتمتعون بالاحترام الذي يؤهلهم لقيادة شؤون الحياة اليومية للطوائف. وسوف يضطلع بالمهمات المذكورة رجال الاكليروس (= مجموع قادة الكنائس). وفي بادئ الأمر كان الأساقفة، والكهنة، والشمامسة ينتخبون انتخاباً، ولكن لكي يتلقى هؤلاء البركة الخاصة كان ينبغي أن يكرسهم في مهماتهم زملاؤهم الأقدم منهم، فينقلون إليهم الغبطة التي تلقوها بدورهم عن أسلافهم وصولاً حتى الرسل الأوائل.

وفي القرن ٢م برز في صفوف الشيوخ - الرعاة قادة بعض الكنائس أو المناطق: أساقفة باتت مهماتهم الآن تختلف عن مهمات الرعاة. وكان بروز الأسقفية قد سبقه نشوء وضع متميز لكبار الرعاة، إذ كان من حق الراعي الأكبر أن يقيم طقس القربان، ويبارك الرعاة الآخرين والشمامسة، وينوب عن رعيته في علاقاتها مع الكنائس الأخرى. وكانت الكتلة الأساسية من المسيحيين تقف خلف الأساقفة الذين كانوا يجسدون وحدة مسيحيي المنطقة المعنية، وبفضل المفاوضات مع الأساقفة الآخرين كانت دائرة الوحدة تمتد أكثر فأكثر. وتعد رسائل الأسقف أغناطيوس أسقف أنطاكيا السورية في النصف الأول من القرن ٢م، مصدراً مهماً للحكم على صيرورة سلطة الأسقف. وحسب الرواية الكنسية أن أغناطيوس أدين في زمن الإمبراطور ترايان (من غير المعروف حتى الآن بما أدين أغناطيوس)، فاعتقل

ورحل إلى روما مكبلاً بالأغلال. وفي الطريق عبر آسيا الصغرى كان يتوافد إليه المسيحيون ويديرون معه نقاشات. وكتب مساعده الذي كان برفقته الرسائل التي بعث بها أغناطيوس إلى مختلف الكنائس المسيحية، وكذلك إلى بوليكا ربوس أسقف سميرنا (من الواضح أن الحراسة على الأسقف لم تكن شديدة). وقد بلغ مجموع عدد رسائل أغناطيوس سبع رسائل، لكن هذا العدد عدد رمزي على أغلب الظن، إذ كأني بهذه الرسائل تردد أصداء الرسائل التي وردت في فاتحة رؤيا العهد الجديد. ومن غير الواضح ما إذا كان الأسقف أغناطيوس، هو صاحب هذه الرسائل كلها، أم أن عدداً منها قد جاء بمثابة معالجة لمحادثاته، بيد أن الرسائل تعكس على أي حال، تسلسل أفكار أغناطيوس بما يكفي من الدقة والالتزام. فالفكرة الأساس التي عملت الرسائل على ترسيخها، هي ترسيخ هيبة الاكليروس والأسقف، وهذا ما كان يتوافق مع الحالة العامة السائدة في أوائل القرن الميلادي الثاني، إذ أخذت سلطة الأساقفة تتعزز شيئاً فشيئاً. لقد ألح أغناطيوس على أن سلطة الأساقفة ترجع في أصولها البدئية إلى رسل يسوع المسيح، وأن الأساقفة بالذات، هم الورثة الشرعيون المباشرون لهذه السلطة. ودعا إلى السير خلف الأسقف بخضوع وطاعة كما خضع يسوع المسيح للأب (حسب تصور أغناطيوس، وكذلك بولس، كان يسوع والإله الآب لايزالان منفصلين). لقد كان الأسقف أو من يفوضه، هو من يقيم في الكنيسة طقس القربان المقدس. وحملت إلينا رسالة أغناطيوس إلى مسيحيي فيلاديلفيا، التعليل اللاهوتي لسلطة الأساقفة: «إن جسد الرب يسوع المسيح لنا واحد، وكأس دمه واحدة، والمذبح واحد أوحد، وكذلك الأسقف واحد مع أكليروسه». وعليه ينبغي على المؤمنين أن يتبعوا الأساقفة كما الأغنام الوديعة. وبمعنى آخر فإن كاتب الرسائل يدعو إلى أن تكون سلطة الأساقفة على الرعية سلطة ملكية. بيد أن مثل هذه السلطة تتحقق على الأرض في كل مكان: لقد أشار أغناطيوس إلى أولئك المسيحيين الذين يعترفون بسلطة الأسقف قولاً وحسب، بينما هم يفعلون كل شيء من غيره.

وفي بعض المقاطعات بقيت تقود شؤون المسيحيين مجموعات من الرعاة ذوي النفوذ. ومن غير المعروف أيضاً ما إذا كان لمسيحيي روما أسقف أم لا: ربما لم يكن قد برز هناك أسقف واحد بعد، إنما كان ثمة مجموعة من القادة الذين يفصلون في مختلف مسائل حياة المسيحيين الرومان. فأغناطيوس لم يذكر الأساقفة قط في رسالته إلى مسيحيي روما. أما الرواية الكنسية فقد أرجعت قيادة المسيحيين الرومان إلى بطرس الرسول، ولكن إذا كان بطرس قد سقط حقاً ضحية مجازر نيرون في روما، فإنه لم يكن يوماً القائد المقيم في روما، بل كان رسولاً متجولاً له نفوذ كبير على المسيحيين استمده من كونه كان تلميذا ليسوع

المسيح نفسه. كما لم يرد أي ذكر للأساقفة في رسالة بوليكاربوس لمسيحيي مدينة فيليبوس. وحساب هذه الرسالة أن الرعاة هم الذين كانوا يديرون شؤون كنيسة فيليبوس. أما الإسكندرية فكانت قد عرفت الأساقفة، ولكن حتى القرن ٣م كان الرعاة هم الذين يمنحون الأساقفة بركة تكريسهم في مهماتهم. ولكن خلال القرنين ٢-٣م كان الأساقفة قد قاموا على رأس أكثر الكنائس المسيحية. وقد مارس هؤلاء تنظيم شؤون الخدمة الإلهية، واقتراح الكتب المقدسة، واعتمدوا نظام العقوبات التأديبية بأنفسهم أو بمساعدة قضاة. وفي عهود الملاحقات والتنكيل، أولي اهتمام خاص للموقف من «الضالين»، أي الذين كانوا يرتدون عن الدين، ثم يعودون طالبين أن تأخذهم الكنيسة تحت جناحيها من جديد. فقد أخذ الأساقفة والاكليروس لأنفسهم حق منح هؤلاء المغفرة، فارضين عليهم عقوبات معينة مؤقتة. وهكذا لم يعد الاجتماع العام لمسيحيي الكنيسة المعنية، هو الذي يمنح الحل من مثل تلك الآثام الثقيلة، كما كانت عليه الحال في زمن الديداخي، بل الاكليروس. ومن حيث الجوهر لم يعد المسيحي المقدس يحس أنه مختاراً، مقدساً (كما دعاه الديداخي)؛ فالمختار المقدس الآن هو من ينتمي إلى سلك الكهنوت فقط. وتوقفت إقامة الولائم المشتركة في أكثر الكنائس المسيحية. ومنذ نهاية القرن ٢م وضعت مؤسسة الأسقفية تعاليم الأسرار المقدسة، أي الطقوس التي كان يقيمها الاكليروس لمنح المؤمنين البركة. ومن أهم تلك الأسرار المقدسة، سر المعمودية وسر القربان. وقد أفضى هذا في واقع الأمر إلى انفصال الاكليروس عن باقي المؤمنين ليس تنظيماً، بل روحياً.

لقد غدا الأساقفة يتصرفون بالأملاك الكنسية، ويوصون بالكتب المقدسة التي يجب أن تدرس. وقام نظام معين لتأدية الخدمة الإلهية بات رجال الدين يقرؤون أثناءه مقاطع من الكتب المقدسة، ثم يلقون المواعظ. وغدت كلمة أسقف نفسها كلمة دينية. وفي العاصمة حيث كانت أعداد المسيحيين في تزايد مطرد، قسم فابيان أسقف روما في القرن ٣م (لم تترسخ تسمية أسقف روما بابا إلا في القرن ٥م)، قسم المسيحيين هناك إلى سبعة أقاليم، وعيّن على كل إقليم شمامسة يشرفون على شؤون حياة المسيحيين ونشاطاتهم الخيرية. ووزعت المقابر الواقعة خارج أسوار روما على هذه المناطق عينها.

ولكن الموقف من السلطة كان أحد أهم الإشكاليات التي واجهت الأساقفة والكتاب المسيحيين. فقد أكد أسقف مدينة سردا، ميليتون أن السلام الذي أقامه أغسطس في الإمبراطورية كان جزءاً من إعداد إلهي لتمهيد سبيل انتشار البشارة بيسوع المسيح. وكتب ترتوليان في «منافحته» يقول، إن المسيحيين يصلون «من أجل الأباطرة.. والسلطات كلها».

ولكن في الوقت عينه، أصر المسيحيون على موقفهم الرافض رفضاً قاطعاً السجود لتماثيل الأباطرة وتقديم القرابين للآلهة الوثنيين.

بيد أن شمولية سلطة الأساقفة كانت مثالاً أكثر منها سلطة واقعية. فبروز مؤسسة الأسقفية في القرن ٢م، لم يكن يعني بعد نشوء تنظيم كنسي موحد. لقد كانت الكنائس الأسقفية في شتى الأقاليم تلتزم عاداتها الخاصة بها. وكان من أقدم أعياد المسيحيين عيد الفصح[1]، عيد قيامة المسيح، بيد أنه لزمن طويل لم يكن ثمة اتفاق على موعد الاحتفال بهذا العيد. فمسيحيو آسيا الصغرى، واليهود - المسيحيون في فلسطين، احتفلوا بالفصح وفق التقويم القمري اليهودي في الرابع عشر من شهر نيسان. أما في روما فلم يحتفلوا به كل عام، وعندما كانوا يحتفلون به، كانوا يحتفلون به في اليوم السابع من الأسبوع: يوم الرب (القيامة)، بعد اكتمال الأول للقمر، الذي يلي مباشرة يوم الاعتدال الربيعي. ويروى أن أسقف سميرنا بوليكاربوس قد جاء إلى روما ليزيل هذا التباين. إلا أنه لم يوفق إلى الاتفاق مع الرومان، وبقي مسيحيو آسيا الصغرى حتى القرن ٤م يحتفلون بالفصح وفق التقويم اليهودي. وفي أواخر القرن ٢م أعلن فيكتور أسقف روما موقفاً مناهضاً لمسيحيي آسيا الصغرى وأدانهم واصفاً إياهم بأنهم مسيحيون مزيفون. لكن أساقفة الأقاليم وقفوا يدافعون عن مسيحيي آسيا الصغرى ضد هجوم فيكتور، الأمر الذي أرغم هذا الأخير على سحب إعلانه، كما نشأت الخلافات بين شخصيات هذه الكنيسة أو تلك. فأوريجينوس الذي كان يقود واحدة من أهم المدارس المسيحية في الإسكندرية، اختلف مع أسقفها ديمتري، فألفى نفسه مرغماً على الرحيل إلى قيصرية فلسطين. وفي أوائل القرن ٣م نشب في روما نزاع مرير بين اثنين من الطامحين على منصب الأسقفية: كاليستوس وهيبوليتوس. وعندما انتخب الأول أسقفاً رفض فريق من المسيحيين الاعتراف به، وانتخبوا هيبوليتوس أسقفاً. بيد أن صراعهما هذا كان عبثاً، لأنهما هلكا معاً في حملة التنكيل التي شنت ضد المسيحيين.

لقد قاد الأساقفة نشاط المسيحيين في المدن الكبرى والمناطق المحيطة بها، كما كان ثمة وجود للمسيحيين في القرى أيضاً. ولكن ليس لدينا في هذا الخصوص سوى معطيات متقطعة مبعثرة أساساً على شواهد القبور، إذ نقف هنا على إشارات مباشرة أو غير مباشرة تدل على انتماء الشخص المدفون إلى المسيحية. ففي القرى كان المسيحيون يعيشون جنباً إلى

١- ترجع كلمة فصح إلى الكلمة اليهودية القديمة فيساخ، وهو العيد الذي يحيي به اليهود ذكرى خروجهم من مصر. وصادف أن تشابه نطق هذه الكلمة مع نطق الكلمة الإغريقية باسخو (الفصح) التي معناها: يتألم. وهذا ما جعل المسيحيين يحتفلون بهذا العيد إحياء لذكرى آلام يسوع وقيامته.

جنب مع الوثنيين. وقد ضمت المدافن نفسها مقابر هؤلاء وأولئك. ووصلت إلينا شواهد قبور المسيحيين القرويين، كما توفرت لنا كذلك نقوش مسيحية مفترضة من فريجيا وليكاونيا في آسيا الصغرى، إذ استخدمت هنا أسماء علم معروفة عند المسيحيين، ورموز كان يمكن أن يقتبسها المسيحيون عن القبور الوثنية. وبيّن تحليل نقوش المقابر الريفية أن الدور الرئيس هناك كان للرعاة، والشمامسة من ذكور وإناث (في القرى بقيت الشمّاسات يؤدين دوراً استمر حتى القرن ٣م، أما بعد هذا التاريخ فلا نقف لهن على أثر). لقد كان للرعاة عائلاتهم: يقول أحد شواهد القبور: يرث الراعي ابنه الراعي؛ وكانت بنات الرعاة تصبحن شماسات. ويبدو أن هذا الأمر كان مرتبطاً في القرى بكونهم كانوا ينتخبون رؤساء الكنائس من دائرة ضيقة من العائلات المعروفة المشهود لها، وقد حاول المسيحيون أنفسهم أن يحافظوا على علاقاتهم العائلية (خلافاً لشواهد قبور الوثنيين، كانت شواهد قبور المسيحيين تذكر عدداً أكبر من أسماء الأقارب: الأبناء، والأخوة، والأخوات). فليس بين شواهد قبور المسيحيين في القرى أي شاهدة فردية وضعها صاحبها وهو على قيد الحياة. وثمة كثير من الشواهد حمل أسماء ابن العم والعمة، والصهر، وهناك شاهدتان قرويتان حملتا اسمي الحمي والحماة. ولم يعثر في المنطقة المعنية إلا على شاهدتين لشخصين، وقد عثر عليهما في المدينة. إحداهما أقامها أسقف لنفسه وهو على قيد الحياة.

لقد كان بين سكان القرى المسيحيين في آسيا الصغرى، أفراد ينتمون إلى السكان الأصليين حافظوا على أسمائهم التقليدية: عثر على شاهدة قبر شماسة تدعى غولاسا، أو غولاسي، أقامها لها اثنان، أحدهما يدعى لوكيوس، وهو اسم روماني، والآخر يدعى واكا، وهو اسم محلي. وما يثير الاهتمام هو أن المسيحية كانت قد وصلت خلال مئة عام من انتشارها إلى أصقاع لم يستطع سكانها أن يفهموها في أول الأمر: على سبيل المثال، ليكاونيا، حيث رأوا في حينه في بولس وبرنابا إلهين وثنيين. لقد كانت المسيحية الريفية تختلف من حيث بنيتها، وإلى حد ما من حيث معتقداتها، عن مسيحية المدن الكبرى.

لقد أثار انتشار المسيحية والنشاط التبشيري الذي رافق تلك العملية، ارتكاساً مركباً لدى المحيط السكاني. فإذا كان قد التحق بالمسيحيين كثير ممن ينتمون إلى الفئات السكانية الشعبية، وبعض ممثلي الصفوة المثقفة، إلا أن أكثر سكان الإمبراطورية اتخذ من التعاليم الدينية الجديدة موقفاً حذراً اتسم بكثير من التردد، وأحياناً بالعداء الصريح. ويمكننا أن نحدد في هذا السياق مجموعتين من خصوم المسيحيين: ابتداءً من القرن ٢م بدأت الانتقادات توجه إلى المسيحية من قبل الفلاسفة، والشخصيات الاجتماعية،

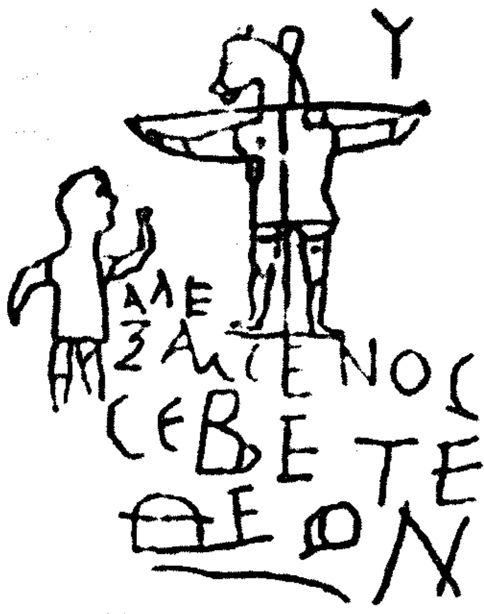
أي من قبل تلك الصفوة عينها التي خرج منها رجال اللاهوت المسيحي. أما المجموعة الثانية، فعلى الرغم من أنها لم تكن محددة المعالم، إلا أنها كانت تشكل الخطر الأكبر على المسيحيين: إنهم قاع المجتمع، الحشود السكانية التي رأت في المسيحيين غرباء، ومرتدين ممقوتين خاصة لأنهم ينتمون إلى البليبس (= الفئة الوسطى - م). ففي زمن الكوارث الاجتماعية والبيئية، يبحث الناس دوماً عن المذنبين، بين أولئك الذين يختلفون عنهم، متهمين إياهم بالسحر والشعوذة الشريرة و... وإذا كان أول كتاب الزمن القديم (الإغريقي - الروماني - م) الذين أشاروا إلى المسيحية، قد وصفوها بأنها عقيدة خرافية مثيرة للاشمئزاز، فإن النصف الثاني من القرن ٢م، قد عرف مؤلفات خاصة اتهمت المسيحيين صراحة بالخرافية، بل بالإجرام كذلك. فقد أعلن الخطيب إيليوس اريستيد مثلاً، أن المسيحيين لا يقدمون أي منفعة لأحد، ويرفضون المشاركة في الاحتفالات الاجتماعية، واجتماعات مجالس المدن. ووصفت المسيحية في مؤلفات لوقيانوس، وسيلس، وفرونتون، بأنها نقيض الفلسفة القديمة والثقافة القديمة. وكان لوقيانوس الأكثر هوادة تجاه المسيحيين، لكن موقفه منهم كان يحمل طابع السخرية دوماً. فقد وصفهم بالبائسين التاعسين الذين يوقنون بأنهم سوف يكونون خالدين. أما سيلس فقد وجه إليهم نقداً مريراً، نقله أوريجينوس بكثير من الإسهاب. فلم يكتف سيلس هذا بتكرار ما قاله اليهود ضد المسيحيين، بل وصف هو نفسه يسوع بالساحر المشعوذ، وجاهد لكي يظهر مدى غباء العقائد المسيحية وسخفها، أما موضوعات المسيحية التي تستحق الاستحسان، فقد وصفها بأنها مقتبسة ولا علاقة للمسيحية بها من حيث الأصل. وفي هذا السياق جاء وصفه ليوم القيامة شديد السخرية إذ قال: ليس أسخف من يقينهم بأن الإله عندما يضرم النار كأي طباخ، فإن البشرية كلها سوف تشوى عليها ما عداهم، لأنهم سوف يبقون على قيد الحياة، وليس هذا وحسب إنما أمواتهم أيضاً سوف ينطلقون من تحت التراب بالجسد محلقين في الهواء، إنها حقاً «آمال ديدان». ومن وجهة نظر المنطق، فإن سيلس يحلل قيامة يسوع مؤكداً أنه إذا كان قد قام فعلاً، فقد كان عليه أن يظهر أمام جميعهم ليبرهن على حق وأنه إله حق (إن هذا المنطق موجود إلى حد ما لدى من كتبوا إنجيل بطرس، الذي يؤكد أن حدث القيامة قد وقع على مرأى من الحراس). ويسعى سيلس إلى البرهان على أن المسيحيين أخذوا كثيراً عن الفلاسفة القدماء: الدعوة إلى عدم مقاومة الشر بالشر مثلاً، موضوعة قيلت منذ أقدم الأزمنة، وهي واردة لدى أفلاطون. وقد رأى سيلس أن المسيحيين لم يفهموا تعاليم أفلاطون عن الحكمة البشرية والحكمة الإلهية، والإله نفسه، فخلطوا هذا

كله مع الطقوسية الفارسية (المقصود هنا طقوسية الإله ميترا). بيد أن اللاهوتيين المسيحيين الأوائل قد امتلكوا فعلاً ناصية الفلسفة القديمة، وسعوا إلى إنشاء نظام لاهوتي متماسك أدخلوا إليه الأفكار الفلسفية القريبة إلى قناعاتهم، بعد أن نقلوها إلى لغة المسيحية. ولا ريب في أن يسوع والمسيحيين الأوائل لم يقرؤوا أفلاطون، فتعاليم موعظة الجبل لا صلة لها بتعاليم الفلاسفة القدماء؛ وقد كان كثير من أفكار المسيحيين الأوائل محلقاً في الهواء، وهو ما يظهر أيضاً بوضوح في أدبيات طائفة قمران، وطقوسها الدينية التي تختلف كما بيّنا سابقاً، اختلافاً مبدئياً عن مثيلتها المسيحية.

وعكس حوار «اوكتافيوس» الذي وضعه مينوسيوس فيليكس في أوائل القرن ٣م، رؤى الجماهير الشعبية عن المسيحية أكثر مما عكس رؤية فلسفية عنها. ففي هذا الحوار ساق المدعي سيسيليوس مزايا الوثنية التي تتفوق بها على المسيحية، وكان إيمان الأسلاف واحدة من أهم حججه، بيد أنه لم يكن لهذه الحجة أي تأثير على المسيحيين الذين رأوا في مجيء المسيح بداية حياة جديدة وبشرى عالم جديد. وبعد ذلك يعطي سيسيليوس توصيفاً لسخافة سلوكهم ومبادئهم الأخلاقية. فوصفهم «بالطائفة البائسة، المحظورة، اليائسة التي تتألف من الحثالات الرافضين التشريعات والأرجوان، ولا يخافون الموت أو التعذيب، لكنهم يخشون الموت بعد الموت، ويخمد الأمل عندهم الخوف إذ يسربله بحلم القيامة». لقد حملت الكلمات التي سيقت على لسان سيليوس كل الاتهامات التي اختلقها خيال الغوغاء ضد المسيحيين: يعبدون رأس حمار، وينغمسون في «شبق شهواني مقزّز»، ويقتلون المواليد. ويصور هذا الطقس الأخير تصويراً مجسماً بتفاصيله كلها التي أمكن لخيال خصوم المسيحية الخصب أن يختلقها: يضعون أمام الشخص الذي يكرسونه في أسرارهم مولوداً مطلياً بالطحين، ويطلبون إلى العضو المستجد أن يطعنه، فيقتل هذا الوليد بطعنات متتالية، بينما يلعق الآخرون دماء الضحية..

ومن الواضح أن هذه القصص الرهيبة ترتبط عند الوثنيين بسر الأفخارستيا المسيحي الذي لم يكن مفهوماً لدى الوثنيين، وقد أجج سعيرها مقت السكان المحليين للغرباء، بخاصة أن المسيحيين لم يكونوا يمثلون أي خطر بالنسبة للوسط السكاني المحيط، كما كان سيسيليوس يحتاج بدوره إلى ما يبرر «بغضه الشديد للغرباء». ويبدو على أرجح تقدير أن الزعم التهكمي الأكثر شيوعاً، كان الزعم القائل، إن المسيحيين يعبدون إلهاً في صورة رأس حمار، وقد كتب عن هذا حتى ترتوليان، فقال: إن خصوم المسيحية صوروا الإله المسيحي إنساناً له أذنا حمار وحافر في إحدى قدميه. كما عثر في الفاتيكان على رسم

جداري كاريكاتوري يصور شخصاً مصلوباً له رأس حمار. وقد يكون ظهور الحمار ارتبط هنا بالدور الذي أداه الحمار، والأتان في القصص التوراتية: أتان بلعام الشهيرة التي نطقت بلسان بشري بإرادة من الإله، والأتان التي ركب عليها يسوع عندما دخل أورشليم. وفي الوقت نفسه قدم الحمار في الحكايات والإمثولات مثار تهكم وهزء، فهو يتصف فيها بالغباء، والمعاندة، والشبق. لقد تراوح موقف الوثنيين من المسيحيين بين الازدراء، والنقد المنطقي، والاتهامات الخيالية. وكان مزاج الغوغاء هو الذي يمثل الخطر الأكبر بالنسبة للمسيحيين قبل بدء حملات التنكيل ضدهم في القرن ٣م إبان حكم الإمبراطور ديسيوس. ففي العام



رسم كاركاتوري للمسيح. العصر الإغريقي - الروماني بتوقيع (إليكسامين يسجد للإله) روما. قصر البالاتين. القرن الثالث الميلادي

١٧٧م. اندفعت في مدينتي لوغودون (ليون) وفينا الغاليتين موجة ملاحقات شاملة ضد المسيحيين إثر قرار السلطات المركزية منع العبادات الجديدة التي تثير القلاقل الشعبية. والحقيقة أن تلك التعليمات لم تكن موجهة ضد المسيحيين على وجه التحديد، بيد أن المسيحيين منعوا في بادئ الأمر من التواجد في الأماكن العامة: حمامات السوق، والأسواق وما شابه. ومن الواضح دون ريب أن الغرض من ذلك كان منع هؤلاء من إلقاء المواعظ. ولكن ما إن غادر والي الولاية مدينة لوغودون، حتى قامت ضد المسيحيين حشود من السكان أثار حنقها رفض المسيحيين التخلي عن عقيدتهم. فرموهم بالحجارة، وجرجروهم إلى ساحة المدينة، وأرغموا حاكم المدينة على الزج بهم في السجن. لقد اتهموا المسيحيين بالكانيبالية (= أكل اللحم البشري - م)، والإباحية الجنسية. وكان اللوغودونيون المسعورون على استعداد لاتهام المسيحيين بأنهم سبب مآسيهم كلها، فطالبوا بتعذيبهم، وإعدامهم على حلبات المدرجات. وقد سارت السلطات المحلية فعلاً خلف حقد الغوغاء القطيعي فعذبت السجناء وأقامت مشاهد الإعدامات الوحشية التي طالت أناساً ينتمون إلى شرائح اجتماعية مختلفة: الأمة بلاندينا، وهي فتاة تقول الرواية إنها أظهرت أثناء تعذيبها شجاعة خارقة (كرست فيما

بعد قديسة)، وسيدها، وطبيباً، ومحامياً، وشماساً من فينا أجاب في التحقيق معه قائلاً باللغة اللاتينية: «أنا مسيحي». ولكن الملاحقات لم تطل حتى الآن سوى مجموعة صغيرة نسبياً من المسيحيين، وبقيت الكنيسة في لوغودون قائمة، وغدا ايرينيوس أسقفاً عليها.

وفي أواخر القرن ٢م عرفت ولاية شمالي إفريقيا موجة من الملاحقات ضد المسيحيين والتنكيل بهم. ففي حوالي العام ١٨٠م أدين هناك مسيحيو مدينة صغيرة تدعى سكيليا. ثم تكررت الملاحقات في شمالي إفريقيا بعد ذلك، وهنا أيضاً كان بين من أعدموا أناس ينتمون إلى شتى شرائح المجتمع. ولكن إذا كانت الغوغاء قد حضت السلطات المحلية على ملاحقة المسيحيين، فإن بعض الولاة لم يظهر حماساً في هذا الميدان. ويروي ترتوليان أنه في أثناء موجة ملاحقات في إحدى المقاطعات، جاء مسيحيو المقاطعة كلهم إلى الوالي (ربما كان في هذا بعض المبالغة). فأمر بسجن بعضهم، وخاطب الآخرين قائلاً: «أيها الجبناء، إذا كنتم تريدون الموت أليس ثمة ما يكفي من الحبال والمهاوي؟» يبدو أن هذا الوالي لم يكن يعرف أن الانتحار بالنسبة للمسيحي إثم. وذكر ترتوليان ولاة معينين حاولوا مساعدة المسيحيين بمختلف الفذلكات القضائية. فأحدهم رأى في المسيحيين مجرد أناس ينتهكون النظام، وحكم عليهم بالاعتذار من المواطنين، وأطلق آخر سراح مسيحي لأنه يأنف من تأدية هكذا أعمال، وثمة ثالث حسب رواية ترتوليان، أدخل في حيثيات الاتهام ضد مسيحي سيق إليه، موضوعة الابتزاز، وبما أنه ليس هناك شهود على ذلك، فقد أعلن أن متابعة المحاكمة لا تجوز قانوناً. وعلى أي حال ربما تكون هذه مجرد حالات فردية، ولكن الآخرين تصرفوا بدافع الولاء لسلطة الدولة، وليس بدافع البغض الأعمى للمسيحيين، كما كانت تفعل الغوغاء. وفي القرن الثاني راح ضحية الوشايات بعض الدعاة المسيحيين: أغناطيوس، وأسقف سميرنا العجوز بوليكاربوس ويوستين. وبوجه عام كانت الملاحقات ضد المسيحيين في المقاطعات أشد ضراوة بكثير مما كانت عليه الحال في روما حيث كان المسيحيون وخصومهم الوثنيون تحت مراقبة يقظة من قبل سلطات المدينة.

ولكن قادة المسيحية وأنصارها المدافعين عنها لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام أمواج النقد التي وجهت إليها. فكتب أوريجينوس عملاً مسهباً فند فيه كل الانتقادات التي وردت في كتاب سيلس. وأكد الكاتبان المسيحيان أثيناغوراس وثيوفيل الإسكندري، أن آلهة الوثنية أختلقهم الشعراء القدماء. وزعم مينوسيوس فيليكس أن آلهة الوثنيين ما هم إلا أسلاف مؤلهون؛ ودعا ترتوليان قصص هؤلاء الآلهة إمثولات. ولكن المسيحيين العاديين كان لهم تصور مختلف عن آلهة الوثنيين، فقد انتقلوا شيئاً فشيئاً من النبذ القاطع «للأوثان» إلى تصور الآلهة

الوثنيين أرواحاً شريرة: شكل من أشكال المعتقد المقلوب الذي اتسم به الوثنيون الذين تركوا الوثنية لتوهم واعتنقوا المسيحية. وناهض الكتّاب المسيحيون مناهضة حادة عادات المجتمع الروماني الهمجية مثل: المصارعة. فكتب كبريانوس أسقف قرطاجة يقول: «وأي شيء يمكن أن يكون أكثر لا إنسانية، وأكثر وحشية من هذا؟» كما فضح التعسف والطغيان والرشاوى التي تفتك بسكان الإمبراطورية، وأكد أن المظالم التي ترتكب تبقى من غير عقاب لأن المتواضعين يصمتون، والشهود يخافون، ومن يجب أن يقضي يُشرى. ولقد نأى المسيحيون بأنفسهم بعيداً عن مثل هذه الظاهرات. فكتب ترتوليان يقول، إن التعايش مع الوثنيين مباح، ولكن مشاركتهم أخلاقياتهم محرمة بالمطلق.

بيد أنه كان ثمة في غضون ذلك نزعة أخرى: المصالحة مع السلطة الزمنية القائمة، والعمل على إقناعها بأن المسيحيين لا يسعون إلى تغيير النظام السياسي على الأرض، إنما إلى نشر الإيمان بالمسيح وحسب. وكان ترتوليان قد كتب في «منافحته» يقول: «إننا (يقصد المسيحيين) نجتمع لنصلي لإله الشعوب كلها، طالبين رضاه، إننا نصلي من أجل الأباطرة والسلطات كلها، ومن أجل رخاء العالم، ونتوسل إقصاء الساعة الأخيرة».

إن مجيء شتى ضروب البشر إلى المسيحية، بدوافعهم التي لا حصر لها، أدخل مختلف التأويلات على التعاليم الأولى، وكان تأثير المعتقدات الوثنية فيها أمراً لا مناص منه. فقد جاء الوثنيون إلى المسيحية حاملين معهم آمالهم، ومطالبهم.. لقد كان القرن الميلادي الثاني قرن انتشار المسيحية، وصيرورة لاهوتها الأرثوذكسي، لكنه كان أيضاً قرن الصراع الإيديولوجي الحاد بين أولئك الذين دعوا أنفسهم مسيحيين. وتمحور ذلك الصراع حول المسائل الآتية: جوهر يسوع المسيح، العلاقة بين الآب والابن، وسبل الخلاص.

الفصل الثامن

صـــراع التـيـــارات
في مسيحيـــة القـرن ٢ م

عندما نستخدم التعبير: مسيحيي القرون الميلادية الأولى، علينا أن نأخذ في حسابنا أن هذه التسمية، هي تسمية عامة تشمل شتى الجماعات بلاهوتها وكتبها المقدسة، وطقوسها وما إلى ذلك. والمشترك الذي يجمع بين مختلف هذه الجماعات، هو أنها كانت كلها تعبد يسوع المسيح بصفته وسيطاً بين البشر والإله، مع أن تصوراتهم عن جوهره كانت متباينة تبايناً شديداً. فقد استمر وجود الخلافات مع اليهودية - المسيحية، وهذا ما يشهد به الجدال مع الإيبيونيتيين الذي ساقه إيرينيوس. ولكن في القرن ٢م، وعلى الرغم من بقاء اليهود - المسيحيين حاضرين في ساحة الشرق، إلا أنه لم يعد لهم في المقاطعات الغربية من الإمبراطورية سوى تأثير باهت غير مباشر. وهذا ما كان قد مهد له السبيل موقف اليهود من المسيحيين: في نهاية القرن الميلادي الأول وبداية القرن الميلادي الثاني، وبعد هدم معبد أورشليم، ظهرت ثمة ضرورة ملحة بالنسبة لليهود، إذ بات ينبغي عليهم أن يتلاحموا ويتمايزوا عن أولئك الذين عدوهم الآخر: فأضافوا إلى الصلاة التي كانت تتلى في كنسهم كلها، لعنة على كل يهودي يتمسك برؤى دينية «مغلوطة»، وهذا ما كان ينسحب على اليهود المسيحيين. ثم أعلنوا بعد ذلك أن النصوص التوراتية التي نسخها المسيحيون ليست نصوصاً مقدسة. وفي القرن الميلادي الثاني قطع المسيحيون بدورهم كل صلة لهم باليهودية (وكان أكثر المسيحيين قد بات من منشأ وثني)، فاتهموا اليهود بإدانة يسوع وصلبه، وكذلك بملاحقته واضطهاده أثناء نشاطه التبشيري. وحاول فريق من قادة المسيحية في أثناء دفاعه عن التعاليم أمام الأباطرة، أن يستبعد أي ذنب للإدارة الرومانية في إعدام يسوع، ضف إلى هذا أنه نشأ في أثناء ذلك تصور في أوساط المؤمنين عن الجبروت الكلي الذي كانت تتمتع به المسيحية من لحظة بدء المسيح

بشارته، وعن اعتراف الرومان بتعاليمها مثلهم مثل كل الذين تواصلوا مع المبشرين المسيحيين: ما عدا اليهود «أبناء جلدة» يسوع. وتكثف السعي في هذا السياق لتبرئة بيلاطس البنطي حتى بالمقارنة مع ما ورد في الأناجيل القانونية. فقد شاع في القرن ٢م تقرير وضعه المؤلفون المسيحيون وادعوا أنه تقرير بيلاطس البنطي إلى الإمبراطور طيباريوس، ووصفت في التقرير الأحداث التي رافقت محاكمة يسوع، وقد أشار ترتوليان إلى هذا التقرير واصفاً بيلاطس على أساسه «بالمسيحي في روحه» (المنافحة)، كما ذكره أيضاً يوسفوس القيصري (التاريخ الكنسي). ثم وضعت بعد ذلك «رسالة بيلاطس إلى الإمبراطور كلاوديوس»، مع أن كلاديوس اعتلى العرش الإمبراطوري بعد أن كان بيلاطس قد عزل من منصبه بسبب الإفراط الذي لا مبرر له في استخدام العنف. ولكن من وضعوا هذه الرسالة المزيفة مثلهم مثل من وضعوا كثيراً من الوثائق والمؤلفات المزيفة الأخرى، لم يلقوا بالاً لواقع التسلسل التاريخي للأحداث، فقد كتبوا ما رأوا أنه يجب أن يكون قد حدث، مستبدلين بواقع الأشياء أمنياتهم، وربما آمنوا فعلاً بالخرافة التي اختلقوها هم أنفسهم. ولم يصل إلينا الأصل الإغريقي لرسالة بيلاطس هذه، أما النص اللاتيني لرسالته إلى كلاوديوس، فقد دخل إنجيل نيقوديموس الذي لم يكتب قبل القرن ٣م، وساق لنا مؤلفوه أو مؤلفه وصفاً خيالياً لمحاكمة يسوع في الجزء الأول منه، أما جزؤه الثاني فحمل لنا وصفاً مماثلاً لنزول يسوع إلى الجحيم. ويقول يوستين مدافعاً عن المسيحية في مؤلفه «المنافحة»، أنه ينبغي على خصوم المسيحية أن يعرفوا يسوع والمعجزات التي صنعها من ما سماه «وثائق بيلاطس»، التي ورد فيها وصف العجائب التي وقعت لدى إعدامه. ولكن من غير المعروف ما إذا كان يوستين قد قصد إلى «رسالة بيلاطس إلى طيباريوس «ورسالته إلى كلاوديوس»، التي وضعها المسيحيون أنفسهم، أم التقرير الذي تضمنه الأرشيف الحكومي والذي يزعم يوستين أنه يجب أن يكون تضمن وصف تلك العجائب. فقد حملت إلينا المخطوطات القرسطوية النص الإغريقي لتقرير بيلاطس (المرسل إليه في إحدى النسخ): إلى أغسطس قيصر، أي الإمبراطور، وفي النسخة الأخرى: إلى الإمبراطور طيباريوس). والنسختان مشابهتان من حيث المحتوى «لرسالة بيلاطس إلى كلاديوس»: من الواضح أنهما وضعتا على أساس الأصل الإغريقي لواحد من المنحولات التي تضمنت «رسالة بيلاطس» (انظر الملحق). وعلى أي حال يبدو أن الرسالة قد وضعت بالاعتماد على سير الأحداث كما وردت في أناجيل العهد الجديد، لكن لها سماتها التي تتميز بها؛ وأولها هو سعيها إلى جعل بيلاطس «شاهداً للمسيح»، يصف ما حدث وصفاً «موضوعياً» مشوباً بكثير من التعاطف مع الضحية البريء. أما اليهود الذين كانوا يصيحون مطالبين:

«اصلبه!» فقد هلكوا حسب الرسالة المزعومة، في هزة أرضية ضربت المكانة بعد أن فارق يسوع الحياة، وابتلعتهم الأرض.

ولكن على الرغم من كل ما جرى بين اليهود والمسيحيين، إلا أن علاقة هؤلاء الأخيرين بالتقليد اليهودي كانت شديدة التعقيد: لم يكن بمقدور المسيحيين الأرثوذكسيين (أو الكنسيين) أن ينبذوا النص التوراتي اليهودي، لأن مواعظ يسوع نفسه، وكذلك الأناجيل القانونية تستند دوماً على الناموس والأنبياء. وهكذا بدأت عملية إدخال الكتب التوراتية المقدسة كلها في النظام اللاهوتي المسيحي على المستويين الفلسفي والمعتقد الشعبي. وتحمل أهمية خاصة في هذا الشأن مؤلفات يوستين، وهو أول فيلسوف مسيحي معروف لنا معرفة أكيدة. فقد زعم هذا في مؤلفه: «حديث مع تريفون اليهودي»، أن كتب العهد القديم ليست سوى ناموس «مؤقت»، بينما المسيحية عهد جديد للبشرية كلها، إنها إسرائيل جديدة. وأشار يوستين إلى تناقضات يتضمنها النص التوراتي، ثم يطرح على وجه التحديد موضوعة تؤكد أن الإله لا يرتاح حتى في يوم السبت. ويولي يوستين في غضون ذلك اهتماماً مكثفاً لتأويل كتب الأنبياء التوراتيين الذين تنبؤوا بمجيء المسيا يسوع.

وبالنسبة للمسيحيين الذين انفصلوا عن اليهود، بات كل ما سبق من تاريخ البشرية تاريخاً سابقاً، مقدمة لمجيء المسيح، الذي أعدت له حتى الكتب التوراتية، لكن اليهود لم يدركوا المغزى الحقيقي لهذه الكتب. وعلى هذا النحو لم يعد الصليب يؤوّل على أنه مجرد أداة إعدام، بل شجرة الحياة التي نمت في الجنة، وصار موسى الذي أخرج الماء من الصخرة، بشير المعمودية؛ والنبي يونان الذي أمضى ثلاثة أيام في بطن الحوت، رمز الخلاص من الظلمات والعودة إلى نور الإيمان الحقيقي.. وبعد تثبيت عقيدة الثالوث المقدس، صارت زيارة الملائكة الثلاثة لأبرام وسارة بشير الثالوث المسيحي ورمزاً له. وبذا بدا كأن اليهود قد أُقصيوا لا عن الكتاب المقدس المسيحي فقط، إنما عن كتاب العهد القديم. ولكننا سوف نرى لاحقاً في هذا الكتاب، أنه ليس كل من عبد يسوع المسيح أخذ بالنص التوراتي وكتب العهد الجديد وأدخلها نظام معتقداته.

لقد دارت النقاشات في القرن الثاني أيضاً بين أولئك الذين عدوا أنفسهم أتباع المسيحية الكنسية. وعلى هذا النحو تطرق هيرما في «الراعي» إلى مسألة جوهر شخصية يسوع. وحسب تأويله أن الإله وضع الروح القدس «الموجود قبل الأزل» في الجسد الذي اختاره هو نفسه. وكان يسوع هو ذاك الجسد. لقد جعل الإله من يسوع وسيطه. وبعد الصليب عاد المسيح إلى الإله، وبعث جسده من الموت، لأنه جاهد كثيراً وتألم كثيراً. إذن ما يحدث هنا، هو انفصال يسوع

الإنسان عن المسيح: يحاول هيرما أن يقدم تصوراً عن يسوع المسيح فاصلاً بين جوهره البشري وجوهره الإلهي، الأمر الذي رفضته العقيدة الأرثوذكسية فيما بعد. كما فصل هيرما كذلك بين الآب والابن: لقد ساق في كتابه «الراعي» مثل كروم العنب الذي لا وجود له في أناجيل العهد القديم (لم تكن الأناجيل المذكورة قد تقننت في القرن ٢م بعد). يقول المثل: إن سيداً عهد بكرمه إلى عبده حيناً من الزمن غاب هو فيه عن المكان، وطلب منه أن يبني سياجاً حول الكرم. لكن العبد قام بأعمال أخرى إضافة إلى ما طلبه سيده منه، وجنى محصولاً وفيراً. ولما عاد السيد أقرى عبده طيبات كثيرة، فحملها هذا ووزعها على رفاقه. فأعجب السيد بعبده إعجاباً شديداً وجعله وريثه. وقد أوّل هذا المثل على النحو الآتي: السيد هو الإله، وكرم العنب هو الشعب الذي خلقه الإله نفسه، والعبد هو ابن الإله الذي جعله وريثاً له لأنه أنقذ «الكرم». إذن يظهر يسوع هنا بصفته عبداً، كما يظهر بصفته ابناً للإله منفصلاً عنه. ومن الواضح هنا أن هيرما لم يكن يعرف عقيدة الثالوث، لأنها على أرجح تقدير لم تكن قد صيغت بعد.

وظهرت عند أواخر القرن الميلادي الثاني تعاليم خاصة طرحها اليهود - المسيحيون، وكتب عنها هيبوليت، وكذلك يوسفوس القيصري (التاريخ الكنسي). ووفق هذه التعاليم أن الإله «تبنى» يسوع الإنسان، لكن أسقف روما أقصى دعاة هذه التعاليم الذين جاؤوا من الشرق (حملوا أسماء إغريقية)، عن الكنيسة.

ولكن الفهم الأكثر راديكالية لشخصية يسوع المسيح وطرق الخلاص، كان لدى المذهب الغنوصي، وهو المذهب الأكثر انتشاراً في القرن ٢م، وكان تيار الغنوصية النقيض المباشر للمسيحية الكنسية. وكان هذا التيار بالذات هو التيار الذي ناهضه ايرنيوس مناهضة شديدة في كتابه «ضد الهرطقات»، ودعا فيه خصومه بالغنوصيين. ولكن أنصار الغنوصية لم يكونوا تياراً موحداً، إذ انقسموا إلى مجموعات مختلفة. وقد أبرز أ. خوسرويف السمات المشتركة الآتية بين هذه المجموعات: الإدعاء بأنهم وحدهم فقط يمتلكون المعرفة التي أسفر عنها الإلهام الإلهي، الأمر الذي قادهم في نهاية المطاف إلى وضع أنفسهم في مواجهة باقي المسيحيين الذين لم يتلقوا مثل هذه المعرفة حسب زعمهم، والسمة الثالثة، هي نبذهم للتراتبية الكنسية، وقولهم بعدم وجود كنيسة واحدة، والسمة الثالثة، هي استخدامهم لمختلف التقاليد غير التوراتية في غالب الأحيان، لبناء مقولاتهم النظرية، وتأكيدهم على الفرد في عملية الإبداع النظري. لقد ناهض أكثر المجموعات الغنوصية اليهودية مناهضة حادة، مع أنهم أخذوا عنها الكثير. وحملت هذه السمات طابعاً عاماً، وظهرت في مختلف الصور والرموز بسبب غياب عقيدة متماسكة.

ومن السمات المهمة لتعاليم الغنوصية، التي وجه المنظرون الأرثوذكسيون انتقاداتهم ضدها، سمة الثنوية كأساس لفهم العالم. فخيبة الأمل في الواقع القائم، وفي الاعتقاد بالتركيب العقلاني الحكيم للكون، أفضت إلى بروز فكرة الانقسام الثنائي لطبيعة العالم، فكرة الصراع المتواصل بين الخير والشر، وهي الفكرة التي نرصدها لدى القمرانيين أيضاً. لقد باتت هذه الفكرة هي الفكرة الرائدة الآن في الفلسفة، والمعتقدات الدينية، والسيكولوجيا الاجتماعية لدى مختلف فئات السكان. وغني عن البيان القول، إن لهذه الفكرة جذوراً عميقة في العبادات الإيرانية، بما فيها الميترية، وكذلك لدى عبدة هرمس المثلث العظمة الذي جمع في ذاته شخصيتي هرمس الإغريقي وتوت المصري، وقد شاعت عبادة هذا الهرمس شيوعاً خاصاً في مصر. وحسب تصورات الهرمسيين التي انعكست في مؤلفاتهم، أن الأرض والعالم الجسدي كله شر، مبدأ قائم، لم يخلقه الإله، الذي يمثل الخير المطلق والنور، إنما قوى بينيّة. وتنزل الروح البشرية عبر المجالات الكونية من النور إلى الظلام فتفقد كمالها. لقد رأى الهرمسيون في كل ما هو جديد ظلاماً يسعى لابتلاع النور. وليس ثمة سبيل للخلاص من الشر سوى الاتحاد الصوفي مع الإله بالطريقة التي يختارها الفرد، بما في ذلك استخدام تعاويذ صوفية خاصة.

ولم تكن المعتقدات الدينية وحدها التي حاولت أن تنشئ نظاماً نقيضاً للوثنية البدائية، وتمنح أملاً بعون القوى الإلهية، بل فعلت ذلك التعاليم الفلسفية أيضاً. فمنذ القرن الميلادي الأول كان فيلون الإسكندري قد أنشأ تعاليم فلسفية حاول أن يجمع فيها بين التوحيد اليهودي والفلسفة القديمة (= الإغريقية - الرومانية - م). وحسب فيلون أنه ليس للإله أي صفات، وليس له امتداد، وهو يحيط بكل ما في الكون. وثمة وسيط بين هذا الإله المطلق والعالم، هو اللوغوس - الكلمة، العقل، واللوغوس وليد الإله، الملاك الأول. تأتي بعده مباشرة بدرجة أدنى، القوى الإلهية التي تؤثر في العامل والإنسان: الإحساس، والرحمة، والعدل، والقدرة، والحكمة.

لقد كان يتقاطر على المسيحيين أناس من عالم المعتقدات الصوفية والمحاكمات الفلسفية رفضوا قبول البنية التراتبية التي كانت تنبني في الكنائس المسيحية، ضف إلى هذا اختلاف الكتب المقدسة التي كانت متداولة في أوساط المسيحيين المصريين، فأدى هذا كله إلى ظهور تعاليم قامت في أساسها جملة أفكار عن إلهٍ غير مدرك، وعالمٍ لم يخلقه الإله بل قوى دنيا، ولوغوس هو وسيط بين الإله والعالم، وإنسانٍ ينبغي عليه أن يوقظ في ذاته المعرفة الحقة ويعيد اتحاده مع الإله. وقبل اكتشافات نجع حمادي كانت معارفنا عن الغنوصيين -

المسيحيين متقطعة ومحرفة على أيدي خصومهم. فقد أورد الكتاب المسيحيون الأرثوذكسيون أسماء بعض الدعاة الذين كانوا أول من أدخل الأفكار التي أشرنا إليها هنا، إلى التعاليم المسيحية. وكان هؤلاء على وجه الخصوص سمعان الساحر الذي أنشأ مع رفيقته يلينا، فرقة السمعانيين. وكانت أعمال الرسل قد نوهت إلى سمعان الذي كان يمارس السحر في السامرة ويزعم بأنه «شخصية عظيمة». وقد جاء هذا السمعان إلى الرسل وعرض عليهم مالاً لكي يسمحوا له أن يمنح الناس بركة الروح القدس. لكن بطرس طرده (أعمال الرسل). ولكن يبقى من المشكوك فيه أن يكون سمعان الساحر ومؤسس فرقة السمعانيين شخصية واحدة، فاسم سمعان اسم شائع جداً، إلا أن التقليد الكنسي رسخ إدغام الشخصيتين في شخصية واحدة. ويتلخص جوهر تعاليم السمعانيين في أنه ثمة قوة وحيدة يقوم عليها العالم، وهي تتجلى في العقل. وينشئ العقل الفكر كقوة أدنى منه مباشرة، ويملك الفكر قوة الإبداع، فهو الذي أنجب الملائكة والقوى التي أنشأت العالم الأرضي. ولكن الفكر فقد سيطرته على مخلوقاته في أثناء عملية الخلق، فاعتقلته هذه لديها في العالم «السفلي»، عالم الشر. ومن الضروري تحرير الفكر من الأسر الذي هو فيه. وعلى هذه الخلفية تداخلت عند السمعانيين تصوراتهم الصوفية مع السحر، وهذا ما أعطى حجة أخرى للقب سمعان الساحر. ويروى عن سمعان أنه كان يقود معه إلى كل مكان امرأة تدعى يلينا (وصفها الكتّاب المسيحيون بأنها عاهرة)، عدها التجسيد الحي للفكر الإلهي. وقد رأى المسيحيون في سمعان هذا واحداً من خصوم الإيمان الحقيقي الرئيسين. ونقل كثير من الكتّاب المسيحيين أشياء كثيرة عن سمعان وتعاليمه، ومنهم إيرينيوس، وهيبوليت، وترتوليان. وله حضور في أعمال بطرس المنحولة أيضاً.

كما يمكننا أن نرى الأفكار الغنوصية في المعلومات التي وصلت إلينا عن ماركيون، وكنا قد رأينا أن هذا عمل يوماً على انتقاء الكتب المقدسة ومراجعتها. لقد رفض ماركيون رفضاً قاطعاً أن يكون ليسوع طبيعة بشرية، ورأى أنه ليس للإله المطلق أي علاقة بخلق العالم والإنسان، وأن الجنس البشري غريب تماماً عنه. وقد جاء المسيا يسوع لينقذ هؤلاء الناس الغرباء بالنسبة لهذا الإله المجهول، فاشتراهم بدمه، ولا أحد يشتري سوى ما لا يملك. لقد صحح ماركيون النصوص بما يتفق ورؤاه هذه. ففي رسالة بولس إلى الغلاطيين مثلاً وضع ماركيون بدلاً من التعبير: «الذي أحبني» (والمقصود هنا هو المسيح)، تعبيراً آخر، هو «الذي اشتراني». ولم يكن للمملكة الإلهية مكان في تعاليم ماركيون، كما أنه لم يعترف بكتاب العهد القديم. ولكن على الرغم من راديكالية أفكاره هذه كلها، فقد كان ماركيون ينشط داخل

كنيسة روما ساعياً إلى إقناع أعضائها بصحة أفكاره. بيد أن الكنيسة المعنية ما لبثت أن طردته من صفوفها، بل ردوا إليه مساهمته المالية التي كان قد قدمها للكنيسة. ومع ذلك واصل ماركيون دعوته، وقد حاول قادة الجماعات الأرثوذكسية إقناعه بالعودة إلى الإيمان الحق تفادياً لخطر تأثيره؛ لكن الحوار معه لم يفض إلى نتيجة: لقد مات ماركيون.

إذن، لقد حاول ماركيون أن يسخّر النصوص المقدسة المعترف بها لخدمة أغراضه وفرض سيطرته على الكنيسة الأرثوذكسية الرومانية. لكن القرن ٢م عرف انتشاراً عريضاً لجماعات ذات طابع غنوصي وقفت بعيداً في الطرف المواجه للمسيحية الكنسية، بل وصفت هذه الأخيرة بأنها هرطقة. ومن حيث جوهرها المحدد كانت التعاليم الغنوصية تعاليم يختلف واحدها عن الآخر. أما المشترك الذي كان يجمع بينها، فهو إقرارها بأن العالم المادي خلق نتيجة خطأ ما، أو وفق إرادة شريرة، فلا يمكن إنقاذ أي شيء جسدي، وليس سوى المختارين الذين حافظوا في أرواحهم على قبس من النور الإلهي، يمكنهم أن ينالوا الخلاص عن طريق المعرفة الوجدانية للذات، ولم يكن ليسوع طبيعة بشرية بالنسبة للغنوصيين الذين دعوا أنفسهم أتباع المسيح، فهو المخلص الموجود قبل الأزل، «آدم السماوي» اللوغوس. ورفض هؤلاء قيامة يسوع بالجسد وقالوا إنه لا يمكن أن يؤمن بهذا سوى الأغبياء السذّج. فالقيامة من وجهة نظرهم ظاهرة روحية وليست مادية، وقد رمزت إلى كيفية الإحساس بوجود يسوع الآن: تقول رؤيا بطرس الغنوصية، إن المسيح روح مليء بنور متلألئ. ولذلك لم يكرس الغنوصيون كتاباتهم لحياة يسوع الزمنية، إنما لتعاليمه وأحاديثه مع تلاميذه الذين اصطفاهم بعد قيامته. وأوّل بعضهم وجود يسوع معلقاً على الصليب على انه وجود وهمي متخيل، بينما رأى آخرون أن يسوع قد اختفى أساساً قبيل الصليب. وأن اليهود الذين أصيبوا بعمى البصيرة قد صلبوا بدلاً منه سمعان الذي حمل صليب يسوع إلى مكان الصلب (ومن المعروف أن رواية «شبه لهم» قد أخذ بها الإسلام أيضاً).

واتخذ الغنوصيون موقفاً شديد العداء من التنظيم الكنسي الناشئ: لقد وردت في نص رؤيا بطرس الذي عثر عليه في نجع حمادي، الكلمات التي قالها المسيح الخارج لتوه من القبر، لبطرس، إذ زعم هذا أن المسيح قال له، سوف يظهر نوع من الناس يقمع أخوته: «وعبر هذه (أي الطائفة الكنسية. - أ. خوسرويف مترجم النص إلى الروسية) يمنح إلهنا الرحمة، لأن خلاصنا يمكن أن يكون فيها (فقط)..» وقال أيضاً، إن أولئك الذين يدعون أنفسهم أساقفة أو شماسة يطمحون إلى احتلال الصفوف الأولى. (ولكنهم) «قنوات لا ماء فيها»[1].

١- لقد جاءت نصوص رؤيا بطرس التي سقناها هنا، في ترجمة أ. خو سرويف (من تاريخ المسيحية المبكرة ص ٣٢١). وعلّق خوسرويف بإسهاب على هذا الأثر التاريخي.

وشغلت مكانة مهمة في تعاليم أكثر الغنوصيين، تأملاتهم وتخميناتهم بصدد ظهور العالم الجسدي كنتيجة لسقوط الروح الموجود قبل الأزل، وانقسام الكل الكامل إلى متعاكسات: علوي - سفلي، ويميني - يساري، ومذكر - مؤنث. ورأى هو في البناء الكوني هرماً مدرجاً يقف الإله المطلق في أعلى رأسه (وهو كلّي، أب، صالح)، وتتوضع متدرجة على درجاتها نزولاً مختلف درجات الملائكة، والقوى، والسلاطين الذين أخذوا يفقدون رويداً رويداً كمالهم البدئي. ومن تصورهم عن المادي بصفته شراً، توصل الغنوصيون إلى استنتاجات أخلاقية متضاربة. فدعوا إلى التنسك وتطرفوا في ذلك، كما دعوا إلى حياة العزوبية لكن بعضهم قال: بما أن الجسد والروح ينتميان إلى العالم الدنيّ، فإن إصلاح شأنهما مستحيل، لكن المختارين الذين اكتشفوا قبس الروح الإلهي في ذواتهم، نجحوا في الانفصال عن جوهرهم المادي. لقد اتصف أكثر معلمي الغنوصية بالفردية المتطرفة. فقد زعم الغنوصي البارز الذي عاش في القرن ٢م فاسيليس، أن الكائنات البشرية لا تنال الخير الحق إلا عندما يعرف كل نفسه ومجاله. وكان لفاسيليس موقف لا مبال تجاه من يرتد في زمن الملاحقات والتنكيل، إذ رأى أن الألم والشهادة لا معنى لهما، وأن الارتداد الظاهري لا أهمية له، فالمهم هو الحالة الداخلية للإنسان، رؤية الإله.

ومن أشهر غنوصي القرن ٢م، الداعية والشاعر فالينتين. وكان هذا قد ولد في مصر، وجم تعاليم المصريين في الدين والسحر والصوفية. وفي بادئ عهده علّم فالينتين في الإسكندرية، ثم انتقل فيما بعد إلى روما. لكن مسيحيي روما نبذوه، ومع ذلك كان له أنصار كثر في مصر. وآسيا الصغرى، وبعض مدن إيطاليا. ولم تصل إلينا تعاليمه إلا في رواية ألد خصومه.

وتميزت التصورات الغنوصية عن الإله برؤياها له شخصية ثنائية في وحدتها: يمتلك العنصرين الذكري والأنثوي. وحسب هيبوليت أن بعض الغنوصيين كانوا يصلون للإله الواحد الأب والأم. ورأى الغنوصيون أن العنصر (= المبدأ - م) الذكري خلق العقل (نوس، في اللغة الإغريقية اسم مذكر)، بينما خلق العنصر الأنثوي الفكر (إيبيونا، في اللغة الإغريقية اسم مؤنث)، ومع أن هذين يختلف أحدهما عن الآخر، إلا أنهما واحد. وقد طور فالينتين نظرية مشابهة فقال: الإله، هو الأب الأول المجهول الذي لا يرى ولا يعبر عنه، إنه العمق الذي لا قرار له؛ والمبدأ الأنثوي، هو الغبطة، الحضن، أمّ كل ما هو موجود. وقد دخلت في الصمت كما في الحضن، ومن هنا ظهرت انبثاقات الإله كلها، مختلف الأيونات (الماهيات الأزلية)، التي يشكل مجموعها تمام الوجود. ثم ظهرت خارج البليروما (الكثرة، الوفرة) أزواج من شتى القوى والسلاطين (وأنجب

كل زوج من المتعاكسات زوجاً جديداً). ورأى فالينتين أن السلطان اليميني، هو الخالق المباشر للنظام الكوني (=الكوسموس)، وأن السلطان اليساري، هو خالق الشيطان، ويبدو أن فالينتين قد استعار صورة هذه الشخصية جزئياً من اليهودية، وجزئياً من المعتقدات المسيحية الناشئة في القرن ٢م، ومن المعروف أن الديانتين رأتا في الشيطان حامل الشر أما المسيح، فهو عند فالينتين واحدة من الماهيات الصوفية، الذي فتح أمام الجنس البشري إمكانية الغنوصوص: بلوغ البليروما روحياً. ورفض فالينتين وأنصاره أن يكون للأساقفة حتى قيادة المسيحيين. فليس لأحد نفوذ أو تأثير إلا لمن يستطيع أن يقيم صلة مباشرة مع «الحيّ» (أي مع اللوغوس - يسوع). ورأى هؤلاء أن الانفعال الذاتي (الصحوة) وحده معيار الحقيقة، ورفضوا كل تقليد آت من الآخر. وعلى هذا النحو فإن نيل النفوذ والسمعة، هو عملية كارزمية ومفاجئة، إنه اكتشاف.

ولكن البنى الغنصوية اللا منطقية المقطوعة عن واقع الأشياء، لم تكن مجرد محاولة للجمع بين الفلسفة المثالية، خاصة رؤى فيلون الإسكندري، وتعاليم المسيحية، إنما كانت تعبيراً عن إحساس هؤلاء بتفاهة العالم الواقعي، وسعيهم لإنشاء لوحة عن البناء الكوني مطرودة تماماً خارج الحياة الواقعية، ومتقوقعة كلياً في داخل ذاتها. وقد شكل سرد هذه الايونات النازلة من فوق، المولودة من ذاتها، مزاجاً محدداً، وفهماً للعالم المحيط بصفته مظهراً تختفي وراءه الماهيات الحقيقية المحجوبة عن الإنسان العادي. ومن هنا جاءت التأويلات الصوفية، ورمزية الحروف والأرقام والأسماء، والصيغ السحرية. وقد انتقل بعض المجموعات الصوفية خاصة في مصر، وأقام في معتكفات معزولة، بعيداً عن المدن الكبرى، لكي يتفادى أفرادها التواصل مع غير المكرسين ويخلقوا جواً روحياً خاصاً لبلوغ الصحوة. وفي المسيحية الأرثوذكسية تمثل إرث تلك الجماعات في حركة الرهبنة التي ظهرت في مصر إبان القرن الميلادي الثالث، وكانت هذه حركة غريبة من حيث روحيتها عن الكنائس المسيحية المفتوحة أمام كل من يؤمن بيسوع.

ومن البدهي أن يسوع كان بالنسبة لفالينتين وسواه من الغنوصيين الآخرين، كائناً مجرداً من الماهية البشرية. وكان كليمينت الإسكندري قد ساق ما قاله فالينتين عن أن يسوع كان يأكل ويشرب بطريقة فريدة من غير أن يرد ما يأكل ويشرب، لقد كانت قوة الممانعة فيه تمنع الطعام الذي يتناوله من الانحلال والتعفن، لأنه هو نفسه كان منيعاً على الانحلال والتعفن.

ولقد جاءنا التصور الأكمل عما كتبه الغنوصيون، بفضل الاكتشافات التي جرت في نجع حمادي. وكما كانت الحال بالنسبة لمخطوطات قمران، كذلك هنا اكتشفت مكتبة

نجع حمادي مصادفة على أيدي العرب المحليين. وقد حملت مخطوطات اللغة القبطية نفسها هنا تاريخياً يرقى إلى حوالي ٣٥٠-٤٠٠م، ومن الواضح أن المخطوطات المعنية قد أخفيت هنا في العصر الذي انتصرت فيه الكنيسة الأرثوذكسية (القرن ٤م)، ولوحق الغنوصيون بصفتهم هراطقة. وقد أثارت هذه المخطوطات جدلاً في الدراسات العلمية حول زمن كتابة نصوصها الأصلية، أي النصوص التي ترجمت هذه المخطوطات أو نسخت عنها. فبعضها لا يمكن أن يكون قد كتب بعد النصف الأول من القرن ٢م، فايرينيوس يتحدث عن كثير من الأناجيل التي كانت شائعة في زمنه (حوالي العام ١٨٠م) في روما، واليونان، وآسيا الصغرى. وحسب الباحثين أن واحداً من أقرب الكتب إلى الكتب المسيحية المبكرة: إنجيل توما، يتضمن لوغيا يسوع التي يرقى تاريخها إلى النصف الثاني من القرن ١م، وربما تكون هذه أقدم من إنجيل مرقس وإنجيل متى، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا. فمؤلف هذا الكتاب لم يشر قط إلى أي من الأناجيل القانونية. ويرقى تاريخ النسخة القبطية التي وصلت إلينا من إنجيل توما، إلى حوالي القرن ٢م. ولا تزال مسألة تحديد مكان ظهور هذا الإنجيل غير محسومة. فهو يبدأ بالكلمات الآتية: «هذه هي الكلمات الخفية التي قالها يسوع الحي وكتبها ديديدم يهودا توما». ونقف على مثل هذه الصيغة لاسم الرسول توما في كتاب أعمال توما المكتوب باللغة السورية (= السريانية - م): لقد كان توما ذا شعبية واسعة في أوساط المسيحيين السوريين على وجه الخصوص، وعليه ربما تكون المجموعة الأولى لأقوال يسوع التي دخلت هذا الإنجيل، قد جمعت في سوريا، ولكننا لا نستطيع أن ننفي استخدام أقواله اليهودية - المسيحية التي كانت شائعة في فلسطين: في القول الثاني عشر يسأل التلاميذ يسوع من الذي سيكون الكبير عليهم بعد أن يرحل هو عنهم، فيجيبهم يسوع: «في المكان الذي تأتون إليه، تذهبون إلى يعقوب العادل، الذي من أجله ظهرت السماء والأرض». وعليه فإن تأثير أورشليم على النص الأصلي أمر وارد. ومن حيث جنسه الأدبي، ينتمي إنجيل توما إلى «أدب الحكمة» اليهودي الذي من نوع سفر الجامعة وحكمة سليمان، والأمثال. فثمة فيها طائفة من الأقوال التي أنشئت في تقاليد هذا الأدب، لا سيما منها تلك التي تنتمي إلى القرن ١م، فهي كأدب الحكمة، مكرسة لحياة الناس، والقيم الأخلاقية، ولما هو سيئ في هذا العالم، زد إلى هذا أن أكثر الأمثلة الواردة هي أكثر تحديداً ودقة من تلك التي وردت في أناجيل العهد الجديد. ويستحق الاهتمام في هذا السياق المثل الذي ساقه توما عن الوليمة التي أوردتها الأناجيل في تنويعات مختلفة. ففي إنجيل توما أن سيداً أمر عبده بأن يدعو ضيوفاً إلى العشاء، لكنهم رفضوا تلبية الدعوة. أحدهم رفض لأن عليه أن يتسلم الأموال من التجار، والآخر لأنه اشترى

منزلاً جديداً، والثالث لأنه مدعو إلى حفل زفاف، والرابع لأنه اشترى ضيعة ومضى يجمع الجبايات.. عندئذٍ أمر السيد عبده أن يمضي إلى الطريق ويدعو من يجده هناك. ثم ينتهي المثل بالتهديد التالي: «لن يدخل الباعة والمشترون مطارح أبي». ويعد هذا المثل هو الأقرب إلى ما ورد في إنجيل لوقا. فهنا أيضاً يرسل السيد عبده ليدعو الضيوف، فيعتذر هؤلاء عن المجيء بسبب انشغالهم. عندئذٍ أمر السيد عبده أن يدعو الفقراء، وذوي العاهات من عرج ومكفوفين وما شابه: يتميز هذا الإنجيل بتوجهه الدائم إلى الفقراء والمستضعفين. ولا يحتوي إنجيل لوقا على التعبير المتعلق بالباعة والمشترين. فقد جاء في آخر المثل: «المدعوون كثر، لكن المختارين قلة»، أي قلة هم الذين يتبعون يسوع وينالون الثواب (لوقا). أما في إنجيل متى فالمثل مقطوع عن الواقع الفعلي، ولا يزال أكثر رمزية، وينبغي على المتلقي نفسه أن يفهم رمزيته: يقيم الملك وليمة زفاف ولده؛ ولم يكتف المدعوون برفض الدعوة، بل قتلوا العبيد، فنال كل منهم عقابه في اللحظة عينها، إذ أرسل الملك قواته فأحرقت مدينتهم. وأمر العبيد بأن يدعوا الجميع إلى وليمة العرس. وأضيف إلى هذا المثل مشهد الشخص الذي جاء إلى الوليمة مرتدياً ملابس «غير ملابس العرس». فأمر الملك خدمه أن يرموا به «في الظلمة الخارجية، وهناك يكون البكاء وصريف الأسنان» (متى). إذن، لم يقتصر العقاب في هذا المثل على من اضطهدوا خدم الملك، إنما طال أيضاً ذلك الذي جاء في الملابس غير الملائمة، أي ذلك الذي لم يعتنق التعاليم الحقة. ويظهر الملك عند متّى قاضياً رهيباً منتقماً. ويبدو أن مثلي توما ولوقا ينتميان إلى مصدر أكثر قدماً وربما إلى ما قاله يسوع فعلاً، لأنه ليس فيهما ابن وقتلة عبيد الإله، فالملك عند متّى ليس سوى إله العهد القديم الرهيب. ومن أقوال يسوع التي تدين الثروة والأثرياء، ما جاء في إنجيل توما عن يسوع: «انظروا إلى ملوككم وكباركم، إنهم يرتدون ملابس خفيفة، فهم عاجزون عن معرفة الحقيقة».

وكما أشرنا في أثناء توصيفنا لوصايا الغبطة، فإن هذه موجودة أيضاً في إنجيل توما. ولكن إضافة إلى وعد الفقراء والمضطهدين والجوعى بالغبطة (وهو يشبه ما جاء في إنجيل لوقا)، أدخلت إلى النص في إنجيل توما جملة ترتبط مباشرة بالفهم الغنوصي للأشياء: «أيها المغبوطون وحدكم المختارون، لأنكم ترون الملكوت. لأنكم منه وإلى هناك تعودون من جديد».

ويمثل قول إنجيل توما الداعي إلى ضرورة نشر التعاليم الجديدة، صدى التقليد المسيحي القديم: «ما تسمعه بأذنك، بشر به الآخر من أبناء جلدتك. إن أحداً لا يشعل المصباح ويضعه تحت القدر، ولا أحد يضعه في مكان خفي». ومن الواضح أن هذا القول هو من جدال ضد عزلة القمرانيين وانغلاقهم، وقد جاء في أناجيل العهد الجديد أيضاً. ولكنه يبدو في

إنجيل توما الموجود لدى القبطيين المليء بأفكار الغنوصيين، قولاً مناقضاً لسرية التعاليم. ونقف هنا أيضاً على نظائر للوغيات البرديات الإغريقية مقتبسة بوضوح من التقليد اليهودي - المسيحي: «إذا أنت لم تنبذ هذا العالم، فإنك لن تجد الملكوت، وإذا لم تجعل السبت سبتاً، فإنك لن ترى الآب». وفي الآن عينه يرفض المؤلف رفضاً قاطعاً طقس الختان اليهودي، وقال: لو كان في الختان منفعة لجعل الآب الإنسان مختوناً بالولادة، أما الشيء الوحيد المفيد، فهو ما يدعوه مؤلف إنجيل توما هذا رمزياً: «الختان الروحي».

وفي الوقت عينه فإن إنجيل توما مليء بالأفكار التي لا تعارض تعاليم المسيحية الأرثوذكسية وحدها، إنما تمثل أيضاً نقيضاً للقيم الثقافية السائدة وقتئذٍ. فمؤلف هذا الإنجيل يجادل مشككاً في ضرورة أن يرفع المسيحيون الصلوات ويوزعوا الحسنات، ويلتزموا بالصوم: «لقد قال يسوع: إذا صمتم، خلقتم الإثم في نفوسكم[1]، وإذا صليتم فسوف تدانون، ،إذا أعطيتم الحسنات، تسببون الأذى لأرواحكم. وإذا جئتم أرضاً ودخلتم قرية واستقبلوكم، فكلوا ما يقدمونه لكم. وداووا المرضى. لأن ما يدخل أفواهكم لا يدنسكم، إنما يدنسكم ما يخرج منها». لقد استخدمت في هذه الجمل الأقوال التي دخلت نص العهد الجديد أيضاً: ضرورة مداواة المرضى، وما قيل عن أن ما يدخل إلى الإنسان لا يدنسه (ويبدو أن هذه الموضوعة الأخيرة، هي واحدة من موضوعات المسيحيين المبكرة، التي ربما تعود إلى يسوع نفسه، إذ وضعها في سياق معارضة القيم الروحية للطقوسية اليهودية). ولكن الامتناع عن تأدية الصلوات، أي الامتناع عن التوجه إلى الإله، لم يكن أمراً متوافقاً مع الحياة الدينية، ليس للمسيحيين فقط، إنما لأتباع الديانات الشرقية الأخرى أيضاً، أما إدانة منح الحسنات، فهي موضوعة وضعت صاحبها ومن أخذ بها خارج دائرة القيم الأخلاقية المعمول بها، لا سيما لدى المسيحيين.

ووصف إنجيل توما العواقب التي سوف تترتب على مجيء يسوع وصفاً أكثر جلاء وتوتراً مما فعل كتاب العهد الجديد. وفي بادئ الأمر كان هذا الوصف وصف يوم القيامة، لكن الحديث يجري هنا عن دمار النظام الكوني برمته: «قد يظن الناس أنني جئت أرمي السلام على الكون، وهم لا يعلمون أنني أتيت لأرمي الشقاق، والنار، والسيف والحرب فيه.

١- وترد في قول آخر (١٠٨) كلمات قريبة من تلك التي جاءت في العهد الجديد، وهي لا تدين الصوم والصلاة في غياب يسوع ـ عندما يخرج العريس من خيمة العرس، عندئذٍ فليصوموا (من الواضح من هم هؤلاء)، وليصلوا ربما ورد هذا في واحدة من الصيغ المبكرة، لكن المحرر الغنوصي ادخل فيما بعد تقويمه الخاص لهذه العادات.

لأنه إذا كان في البيت خمسة، فإن ثلاثة سوف يقومون ضد اثنين والاثنان ضد الثلاثة. فالأب ضد ابنه، والابن ضد أبيه وهم سيقفون متفرقين». أما في الأناجيل القانونية، فقد ورد النص مختصراً فاستخدم متّى رمزية السيف: «لم آتِ لأجلب السلام، بل السيف» (متّى) بينما استخدم لوقا الكلمة الأكثر تحديداً: «الشقاق».

ويتميز مؤلف إنجيل توما الذي وصل إلينا نصه، بفهمه الخاص لمفهوم المملكة الإلهية. فثمة في فاتحة هذا الإنجيل جدل مع فكرة الكلمة الإلهية في السماء: (..الملكوت في داخلكم وفي خارجكم»؛ ويقول في مكان آخر إن الملكوت موجود في الأرض كلها، لكن الناس لا تراه. وبكلمات أخرى. تساق هنا فكرة الوجود الأزلي للروح الإلهي: ملكوت الإله، ولن يناله الإنسان إلا إذا أدرك ذاته، ووجده فيها إذا كان في داخله نور. ويسوع هو النور: «قال يسوع: أنا النور الذي على الكل. أنا كل شيء: كل شيء خرج مني وعاد إلي»، إنه مكلوء بالأسرار. ففكرة مناعة ماهية يسوع على التعبير حاضرة في المشهد الذي يسأل يسوع فيه تلاميذه بمن يشبهونه، أي من يشبه هو. فشبهه بطرس بالملاك، وشبهه متّى بالفيلسوف الحكيم، وقال توما إن فمه عاجز عن التعبير عن تشبيهه بأحد. وعندئذٍ قال يسوع لتوما بضع كلمات لم يجرؤ هذا الأخير على البوح بها للتلاميذ الآخرين. فالمسيا يسوع إنما يساعد «بني البشر» الذين من أجلهم ظهر (لم يولد!) بالجسد، على أن يتذكروا من أين أتوا وإلى أين ينبغي أن يعودوا. ولم يدغم يسوع بالإله، ففي قوله الشهير الذي ورد في أناجيل العهد الجديد. كما في الأناجيل اليهودية - المسيحية رداً على سؤال بخصوص إمكانية تأدية الضريبة لروما، قال يسوع في إنجيل توما، إضافة إلى ما جاء في أناجيل العهد الجديد: «ما هو لي أعطونيه». وفي هذه الإضافة فصل بين يسوع والإله الذي كان يؤمن اليهود - المسيحيون به، لكنه لم يكن بالنسبة للغنوصيين إلهاً حقيقياً، فتوما لم يدعه إلهاً، بل أباً. وربما يكمن في هذا سبب إسقاط صفة «الإلهي» في إنجيل توما، عندما يجري الحديث عن الملكوت. وقد تكون هذه الصفة تركت أيضاً لأنها تستدعي تداعيات راسخة بصدد موعد حلول مملكة الإله على الأرض، وهو ما كان غريباً مرفوضاً بالنسبة للوعي الفردي لمؤلف إنجيل توما. ولم يحتوِ هذا الإنجيل على وصف لخلق العالم، والإيونات، ونزول الروح وإمكانات تساميه، والقوى والسلاطين اليمينية واليسارية، وهو ما اتصف به الفكر الغنوصي المتطور. فإنجيل توما عكس الخطوات الأولى لسير المسيحيين الأوائل نحو الغنوصية، ورفض العالم الواقعي، وهو التوجه الذي حقق لحظة ازدهاره في النصف الثاني من القرن ٢م. لقد كان الأمر الأهم بالنسبة لتوما، هو أن تحقق الشخصية ذاتها في هذا العالم الذي يبدو عالماً قاسياً وتافهاً.

وإذا كان إنجيل توما يرتبط مباشرة بالتقليد المسيحي القديم، فإن إنجيل فيليبوس يمثل بحثاً دينياً - فلسفياً متميزاً، أعد لدائرة ضيقة من القراء. فهو يتضمن ميثولوجيا ورمزية غنوصيتين، ويتألف من أقوال متفرقة لا يرتبط بعضها مع بعض دائماً. وكانت تسمية إنجيل فيليبوس قد جاءت في آخر المخطوط القبطي الذي يرقى تاريخه إلى القرن ٤م، لكن الباحثين يرون أن النص الأصلي لهذا الإنجيل كان قد وضع في القرن الميلادي الثاني إبان عصر انتشار التعاليم الغنوصية.

وقد أولى هذا الإنجيل اهتماماً كبيراً لمسائل نشوء العالم، وماهيته ومعرفة الحقيقة، وبخاصة لمسألة من هو المسيحي الحق. ويبرز بجلاء في هذا الإنجيل تصور العالم الناقص منقسماً إلى عناصر (مبادئ - م) متضادة: النور والظلام، واليمين واليساري، والحقيقة والضلال، والمذكر والمؤنث، وقد استدعى هذا كله حضور الموت: «النور والظلام، والحياة والموت، واليميني واليساري أخوة واحدهم للآخر»؛ «عندما كانت حواء في آدم، لم يكن ثمة موت. وبعد أن انفصلت [عنه]، ظهر الموت. وحينما تدخل إليه ثانية، يختفي الموت». إذن يجب أن يكون العالم الروحي الكامل كلاً واحداً.

أما ظهور العالم المادي فقد جاء نتيجة خطأ ارتكب؛ فخالق العالم أراد أن يجعله خالداً غير قابل للهلاك، ولكنه لم يبلغ ذلك. ولا يشير إنجيل فيليب إلى من خلق العالم الزمني. بيد أنه نوه إلى قوى شتى، وسلاطين يملؤون ما بين الإله الكامل والعالم الدنيّ، فيظهر السلاطين قوى تعمل على هلاك الإنسان وخداعه وتحويله إلى عبد لها.

ولا يكتفي مؤلف إنجيل فيليبوس بإظهار الموقف الغنوصي من النظام الكوني، إنما يعلن أيضاً عن نفسه أنه مسيحي. ولذلك فهو يسعى إلى شرح بعض العقائد المسيحية، فأخذ ببعضها ونبذ بعضها الآخر. وكان من أبرز المسائل التي نهضت أمامه، مسألة العلاقة بين وجود الشر وجبروت الإله المطلق. وقد اعترف المؤلف في سياق بحثه لهذه المسألة بأن الشر نسبي: في نهاية المطاف تخضع قوى الشر أيضاً، للروح القدس. وكما جاء في هذا الإنجيل: «فقد ظن السلاطين أنهم فعلوا ما فعلوه بقواهم الذاتية وإرادتهم هم. لكن الروح القدس هو الذي فعل ذلك كله بوساطتهم من غير أن يعلموا، وقد فعل كل شيء كما أراد هو». ولكن الناس يمكنهم أن يهزموا الشر، شريطة أن يدركوا الحقيقة، ولذلك فهو يدعو الإنسان إلى تدمير الشر في قلبه (وهي فكرة مسيحية مشتركة)، إلا أن الشر لن يهزم إلا إذا استطاع الإنسان أن يدركه. فالمعرفة وحدها التي تجعل الإنسان حراً. فالحقيقة هي الحرية، والجهل هو العبودية: إنه المفهوم المفتاحي لدى فيليبوس. ولكن الحرية والعبودية لا تحملان في تعاليمه

أي صبغة اجتماعية. فالحرية بالنسبة إليه هي الحرية الروحية التي تتحقق ببلوغ معرفة الحقيقة، والعبودية هي عدم المعرفة، الجهل وحسب: «إن الذي يملك معرفة الحقيقة حر. والحر لا يرتكب الآثام، لأن من يرتكب الإثم عبد للإثم». وثمة في إحدى المواعظ كلمات تنسب إلى اللوغوس (الكلمة الإلهية): «لقد قال اللوغوس: إذا أنتم أدركتم الحقيقة، فإن الحقيقة تجعلكم أحراراً). بيد أن معرفة الحقيقة ليس بالأمر اليسير، لأنها «لم تأت إلى العالم عارية، بل في رموز وصور». ومن الواضح أن هذا الإنجيل مكلوء بالرموز والصور التي ينبغي فكها، والإحساس بها، وبذا تغدو مفهومة ومدركة.

وتحتلّ مكانة مرموقة في هذا المؤلف الاستدلالات العقلية التي سيقت بصدد الذين يستطيعون امتلاك المعرفة الحقيقية. وقد ساق المؤلف في فاتحة كتابه واحدة من أفكاره الرئيسة التي تقول: إن الذين يمتلكون المعرفة الداخلية «هم كذلك منذ البدء»، وهؤلاء المختارون. هم بالضبط من يصنع الناس الحقيقيين الآخرين. بكلمات أخرى، إن الناس المتميزين الذين أرسي فيهم نور خاص، وحدهم القادرون على معرفة الحقيقة. ثم يسوق المؤلف بعد ذلك مثالاً تعبيرياً: «في دورانه حول حجر الرحى يقطع الحمار مئة ميل. وعندما فكوا رباطه، كان واقفاً في المكان عينه. وثمة أناس يروحون ويغدون في حركة دائمة، لكنهم لا يبرحون مكانهم. وحينما هبط عليهم الليل لم يروا مدينة ولا قرية، ولا مخلوقات، ولا طبيعة، ولا قوى، ولا ملائكة. لقد راح جهدهم عبثاً».

ولكن كيف تتوافق هذه التعاليم مع إعلان المؤلف عن انتمائه إلى المسيحية؟ فقد قيل في بداية إنجيل فيليبوس: «عندما كنا يهوداً كنا يتامى، لم يكن لنا سوى الأم فقط، وعندما صرنا إلى مسيحيين ظهر لنا أب وأم». بيد أن مسيحية مؤلف إنجيل فيليبوس، هي مسيحية فريدة من نوعها. فالإيمان بقيامة الجسد غريب عنه، إذ يكتب بشيء من السخرية فيقول، هناك من الناس من يخشى القيامة عارياً. إنهم يريدون أن يبعثوا بالجسد. ولكن الجسد والدم لا يستطيعان أن يرثا الملكوت الإلهي (من حيث الجوهر تردد هذه الجملة صدى قول مماثل قاله بولس الرسول). إن من يبعث هو من نال جسد يسوع ودمه، فجسده هو اللوغوس، ودمه هو الروح القدس. ومن الواضح أن الموقف من الجسد هنا موقف سلبي، وفي قول آخر يوصف الجسد مباشرة بأنه محتقر. ويجب على المرء أن ينال القيامة الروحية وهو على قيد الحياة: «ما لم ينالوا القيامة أولاً، وهم أحياء، (فإنهم) لن ينالوا شيئاً بعد أن يموتوا». وينسحب هذا الفهم عينه على طقس المعمودية، فالطقس بحد ذاته لا يعطي أي شيء، وما لم ينل الإنسان الروح القدس، فإنه لا يمكن أن يدعى مسيحياً.

أما شخصية المسيح في هذا الإنجيل، فإنها شديدة التعقيد. فهو يحتوي على كل شيء في ذاته: الإنسان، والملاك، والسرّ، والآب، وهو لم يظهر على ما هو عليه في حقيقة الأمر. فظهر عظيماً للعظيم، وضئيلاً للضئيل، وملاكاً للملاك، وإنساناً للبشر. ومع ذلك بقي العنصر البشري في المسيح بالنسبة للمؤلف، مجرد وسيلة للتواصل مع البشر. فأسماؤه التي عرف بها: يسوع، والناصري، والمسيح، ليست أسماء حقيقية، لأن الاسم الحقيقي للوغوس سر لا يعرف. ويرى فيليبوس في أسماء يسوع هذه مجرد رموز: يسوع = الفداء، والناصري = الحقيقة. ويثير الاهتمام في هذا الإنجيل جداله ضد عقيدة الحبَل بلا دنس: «لقد قال بعضهم: إن ماريا حملت من الروح القدس. وإنهم لعلى ضلال. فهم يهرفون بما لا يعلمون. إذ متى كانت المرأة تحبل من امرأة مثلها؟ إن ماريا عذراء لم تدنسها القوة (والقوة كما أشرنا سابقاً، مفهوم سلبي)». ثم يضيف: «وما كان الرب [يقول]: [أبي الذي في] السموات، لو لم يكن له أب [آخر]، وإلا لقال أبي وحسب». إذن يقوم اعتراض فيليبوس الأول في كون كلمة «روح» باللغة الآرامية مؤنثة الجنس، وربما كان لهذا صلة كذلك بمناداة الأناجيل المبكرة الروح القدس بلقب: أُمّنا. أما الاعتراض الثاني فيستند إلى التعابير التي استخدمتها الأناجيل القانونية أو، ربما اللوغيات. ونادراً ما يستخدم إنجيل فيليبوس كلمة «الرب». وربما يكون النص الذي استخدمت فيه هذه الكلمة مقتبساً من كتاب ما أكثر قدماً، وقد يكون هذا كتاباً يهودياً - مسيحياً له صلة برؤى الإيبيونيتيين استخدمه مؤلفه ليبدي فيه رأياً مناهضاً للمسيحية الأرثوذكسية، ثم أدخل إليه التأويل الصوفي لشخصية ماريا، التي يرد اسمها في مكان آخر بصفتها أخته، وأمه، ورفيقته.

إن إنجيل فيليبوس كتاب معقد ومتنوع الدلالات كثيرها. فقد جم عناصر الفلسفة القديمة بمنهجها الدياليكتيكي وتعاليمها عن الكلي، إضافة إلى المعتقدات الشرقية، وموضوعات أبحاث الفلاسفة المسيحيين التي كانت شائعة في ذلك الزمن. ونحن لم نظهر هنا سوى بعض جوانب الأثر المتصلة بتاريخ المجموعات التي ظهرت داخل المسيحية المبكرة، وعكست السعي إلى إنشاء تعاليم تتمحور حول العالم الداخلي للإنسان.

وهناك إنجيل آخر اكتشف في نجع حمادي، هو إنجيل الحقيقة، ويعد هذا بدوره كتاباً بعيداً جداً عن مؤلفات العهد الجديد المعروفة. ومثله مثل الكتب الأخرى المماثلة، فإن فكرة إنجيل الحقيقة الرئيسة، هي بلوغ الحقيقة. فأب الحقيقة، هو الإله المطلق؛ والكلمة، هو الوسيط بين الناس والإله. ومن الواضح أن مؤلف إنجيل الحقيقة عارف بالرواية المسيحية لحياة يسوع وتعاليمه؛ فقد عثر العلماء عنده على جملة من التعابير المتطابقة مع ما هو موجود في

كتاب العهد الجديد (الأناجيل، ورؤيا يوحنا ورسالة اليهود). ولكن فهم المؤلف للتعابير المعنية والسياق الذي سيقت فيه مختلفان. فالحديث يجري هنا بصورة أساسية عن الكلمة - اللوغوس الذي ينقذ أولئك الذين لا يعرفون الأب. وجاء فيه عن يسوع أنه لجأ إلى العالم بما يشبه الجسد، أي أننا من جديد أمام فكرة لا واقعية الطبيعة البشرية ليسوع. ونقيض الكلمة فيه، هو الضلال: وليس هذا سوى مفهوم مجرد تجريداً لا حد له. وقد لاحق هذا المفهوم يسوع لأنه منح البشر النور: ليس ثمة حضور هنا لفكرة آلام يسوع تكفيراً عن آثام البشر. فلم يلق المؤلف بالاً لظروف صلب يسوع: لقد سمّر على الشجرة، رمز شجرة الحياة، وصار إلى ثمرة المعرفة بالأب. وهو لم يبعث بالجسد، إنما عاد إلى ذاته ثانية بعد أن رمى عنه الثوب الفاني. وتؤوّل في إنجيل الحقيقة مواعظ يسوع التي عرفها المؤلف. تأويلاً رمزياً: يفسر مثل إنقاذ المعزاة في السبت، أن يسوع منحها الحياة لكي يبيّن للناس أن الإنقاذ مستمر والخلاص لا يعرف يوم راحة. وكما هي الحال عند الغنوصيين الآخرين، فإن المسيحية لدى مؤلف إنجيل الحقيقة، هي العودة إلى المعرفة الحقيقية عن الإله الذي نسيه الناس. ومثلما يفعل الشعراء، فقد شبه المؤلف الحياة الدنيا بالحلم الفارغ. فالناس هم ضحايا الصور الفارغة التي يرونها في أحلامهم، وفريسة الكآبة والخوف اللذين حملهما الجهل إلى العالم. «وانتشرت الكآبة كما ينتشر الضباب، فحجبت الرؤيا. ولذلك بات الضلال جباراً». ولكن عبر الإلهام الصوفي: الغنوصوص، يستيقظ الناس، فيتذكرون، ويتخلصون من أخطائهم. ويحمل الغنوصوص - gnosis بالنسبة للمؤلف طابعاً حدسياً وليس طابعاً منطقياً. ولا يواجه مؤلف هذا العمل أي مسائل أخلاقية: إن الإنسان في منظوره كائن وحيد موجود خارج العالم المحيط، وبعيد عن الناس. ونحن نرى أنه ربما كان فالينتين أو أحد أنصاره المقربين، هو مؤلف إنجيل الحقيقة. وقد حاول هذا أن يحرر أنصاره من الخوف: ليس الخوف من القوى الخارجية وحسب (وفي القرن الميلادي الثاني كان الخوف آفة ترمي بثقلها على حشود متزايدة من الناس)، إنما الخوف من الإله كذلك، الخوف من العقاب، والخوف من الحرمان من إمكانية دخول ملكوت الإله، هذا الخوف الذي كان يسيطر على الذين عدوا أنفسهم آثمين، من أتباع المسيحية الأرثوذكسية. فمعرفة الإله تعني الاتحاد به.

وانعكست هنا بأكثر ما يكون الوضوح، فكرة الإنسان المجرد الموجود خارج المجتمع، والعلاقات العائلية، والأخلاقية، والتقاليد. ويتضح من إنجيل فيليبوس وإنجيل الحقيقة[1]، أن الغنوصيين قد رفضوا الإقرار بوحدانية الإله التوراتي، مع أنهم كانوا على

١- مع أن هذين المؤلفين سميا إنجيلين، إلا أنهما في حقيقة الأمر بعيدان من حيث جنسهما الأدبي عن الأناجيل بعداً كبيراً، الأمر الذي حدا بجامعي الأناجيل إلى استبعادهما تماماً من المجموعة.

معرفة أكيدة بالروايات اليهودية - المسيحية والتعاليم الأرثوذكسية، لكنهم أوّلوها بطريقتهم الخاصة.

وتلقت فكرة تماثل العنصرين: الذكري والأنثوي، في المسيح صياغتها النهائية المكتملة لدى الغنوصيين. فقد أنشأ هؤلاء إنجيل ماريا (أي ماريا المجدلية)، ومع أن هذا الإنجيل لم يعثر عليه في نجع حمادي، إلا أنه يتوافق مع المؤلفات التي عثر عليها هناك. ويعد إنجيل ماريا هذا بدوره نسخة قبطية مترجمة عن أصل إغريقي. وجاءت تسمية الإنجيل، إنجيل ماريا، في آخر المؤلف. وفي هذا الإنجيل (الذي لم يصل إلينا منه سوى مقاطع)، يتحدث يسوع إلى التلاميذ أولاً، ثم تروي المجدلية لهم قصة لقائها مع يسوع. وتنقل لهم تعليماته. لقد ناقش يسوع الإثم الذي يرتكبه الجنس البشري. ويقول قبيل اختفائه كلاماً هو من حيث مغزاه قريب مما جاء في إنجيل توما عن ضرورة الحذر من قادة المسيحية: «ها هنا! أو ها هناك! فإن ابن الإنسان في داخلكم». وهناك كثير مما قالته المجدلية نفسها، يذكر بالرواية الإنجيلية القانونية، بيد أن ما تبقى من أقوالها يتعارض مع هذه الرواية. وترد في إنجيل ماريا المجدلية حواراتها مع الرسل، التي لا يفهما منهم سوى اللاوي. وتعبر في إنجيل ماريا موضوعة صعود الروح إلى المجالات العليا، وصراعها ضد القوى الشريرة. ويبدو هذا المؤلف كأنه يرسخ هيبة المجدلية ودورها، ويحط في الآن عينه من قدر الرسل الذين عارضوها ولم يفهموها، ومن هؤلاء بطرس واندراوس اللذين كانا مبجلين تبجيلاً كبيراً في الكنائس المسيحية الأخرى. ومن الواضح أن إنشاء هذا الإنجيل قد جاء ليعكس النقاش الدائر حول دور المرأة في المسيحية المبكرة، فالغنوصيون يقرون بإمكانية بلوغ المرأة والرجل على حد سواء، حالة الصحوة الروحية، وهو ما كان ينبغي أن يلغي التفرقة بينهما.

إننا لم ندرس هنا سوى جزء يسير من المؤلفات الغنوصية التي وضعت ابتداءً من القرن الميلادي الثاني، مع أنه ثمة معتقدات مشابهة تضمنتها مؤلفات مسيحية أكثر قدماً (مثلاً، يسوع - الكلمة في فاتحة إنجيل يوحنا، أو قوله في الإنجيل نفسه: «قوْتي أن اصنع إرادة الذي أرسلني» - يوحنا)، ونصوص أخرى غير مسيحية (تنوية القمرانيين) وقد حاول المفكرون الغنوصيون صياغة تلك المعتقدات في نظام واحد متكامل. ولكن الانغلاق على الذات، والحالة الباطنية، والطقوس السحرية المعقدة التي كان ينبغي أن تستدعي الصحوة الداخلية، لم تجذب إليها سوى بعض الأفراد والمجموعات المعزولة، الذين وضعوا أنفسهم خارج المجتمع القائم. ضف إلى هذا أن فكرة الاصطفاء منذ الأزل، كانت فكرة غريبة عن الكتلة الأساسية من جماهير المسيحيين، وكذلك الحال بالتسبة لفكرة استبدال مفهوم الإيمان،

وهـي الفكـرة الأسـاس بالنسبة للاتجاهـات المسيحية الرئيسة، والأخذ بالغنوصـوص gnosis الحدسي، عداك عن غياب معايير أخلاقية واضحة لدى الغنوصيين، وإسقاطهم فكـرة حلول المملكة الإلهية غداة يوم القيامة.

لقد كان صراع المسيحية الكنسية ضد الغنوصية صراعاً طويلاً ومريراً. بيد أن ذلك لم يكـن المواجهـة الوحيـدة بين النـاس الـذين عـدوا أنفسهم مسيحيين. فقـد أثـارت صـيرورة الكنيسة الأسقفية بتراتبيتها الهرمية، سخط غير الغنوصيين أيضاً. وفي القرن ٢م ظهر تيار جديد آخر دعا دعاته إلى العودة إلى معايير الحياة المسيحية الأولى. وارتبط ظهور هذا التيار باسم المدعو مونتان. وكان هذا في زمن مضى كاهن إلهة آسيا الصغرى الشهيرة كيبيلا الأم، ثم اعتنق المسيحية وشرع يناهض التنظيم الكنسي، ساعياً إلى إعادة إحياء المبادئ التي عاش وفقها أنصار يسوع الأوائل. وكان للأنبياء والنبيات الدور الأهم بين أنصار مونتان، كما كان هو نفسه يتنبأ، وتنبأت كذلك رفيقتاه مكسيميلا وبريسيلا. ومن الواضح، أن لهذين الاسمين أصل لاتيني، وربما كانت المرأتان مرتبطتين بمدينة أو أكثر، كما قد تكونان من فئة المواطنين الرومان. وحسب اعتقادهم أن موهبة التنبؤ كان يمكن أن توهب لأي مؤمن أو مؤمنة، وعبر مثل هؤلاء الأنبياء انتشرت أفكار مونتان. لقد أعاد المونتانيون إحياء تقليد اجتماع المؤمنين الذي ترافقه إقامة وليمة مشتركة، وكانت الكنائس المسيحية الأخرى قد تخلت عن هذا التقليد منذ زمن بعيد، وأقامت بدلاً منه اجتماعات لإقامة الصلوات وسماع مواعظ الأساقفة. وشغل المكانة الرئيسة بين المونتانيين أحبار مدينة بيبوزا، أما باقي المؤمنين فقد كانوا رفاقاً وحسب، ولم يكن للأساقفة هنا سوى دور باهت اقتصر على إدارة بعض الشؤون الاقتصادية. ولكن موقف المونتانيين من الأسقفية أثار حفيظة الكنائس المسيحية الأخرى. وتميز المونتانيون بسمة أخرى ذات أهمية: لقد بشروا بقرب ظهور المسيح ثانية وحلول نهاية العالم، مقتفين بهذا أثر مؤلف رؤيا يوحنا. وزعموا أن ظهور المسيح ثانية سوف يكون في مدينة بيبوز، وهي مدينة صغيرة عدها المونتانيون «أورشليم السماوية». وقد كان أتباع مونتان يتقاطرون على بيبوزا جماعات لكي يشهدوا حدث مجيء يسوع. واستعداداً ليوم الحساب، دعاهم مونتان إلى التنسك والزهد، والصوم وفك أواصر الزواج. لقد كانت حركة المونتانيين واحدة من آخر موجات الأمل بقرب انتصار مملكة الإله على الأرض، إبان زمن الإمبراطورية الرومانية. ولا ريب في أن هذه الحركة كانت وليدة الأزمة السياسية المتصاعدة في نظام الحكم الإمبراطوري، والإحساس العميق بالارتداد عن المعتقدات الأولى التي انعكست في الأناجيل القديمة. ودفعت السذاجة المأساوية للإيمان بقرب لحظة مجيء

يسوع ثانية، بكثير من المؤمنين إلى ترك كل ما يملكون والسير إلى بيوزا جوعى في غالب الأحيان، للقاء المجيء الثاني الذي خيب الآمال ولم يحصل.

ومثلهم مثل سواهم من الفرق، كانت للمونتانيين كتبهم المقدسة الخاصة بهم، ولكن الدعوة الشفهية أدت الدور الأهم في حركتهم. بيد أن مؤلفاتهم لم تصل إلينا، ولم ينقل إلينا خصومهم سوى مقتطفات منها لا تتعدى الجمل في بعض الأحيان. ويدل شح الاقتباس على أنه لم يكن ثمة تباين عقيدي جوهري بين المونتانيين والفرق المسيحية الأخرى. وحسب ترتوليان أنهم أقروا الأسرار والأعياد نفسها التي أخذت بها الجماعات المسيحية الأخرى. ولذلك لم يتناول الجدل جوهر التعاليم. لقد ناهض القادة الكنسيون راديكالية المونتانيين وحسب. فتداعى الأساقفة إلى مؤتمرات محلية كان الهدف منها إدانة المونتانيين ورصّ صفوف المؤمنين في الصراع ضدهم. ومن لم يتمكن من الحضور كانوا يستفتون رأيه كتابة: بهذه الطريقة جرى الحصول على إدانة «المعذبين الليونيين» للمونتانية، إذ كان هؤلاء يقبعون في سجون لوغودون (ليون المعاصرة). فقد جرى الاتصال مع هؤلاء على ما يبدو، عبر من كانوا يزورونهم من أخوتهم في الإيمان، أو المتعاطفين معهم. وعلى هذا النحو يكون قد ظهر شكل جديد من أشكال اتحاد الزعماء الكنسيين تمثل في المؤتمرات (= المجامع)، وقد أدت المجامع دوراً رائداً في صيرورة العقائد المسيحية خلال عصر تحول المسيحية إلى ديانة سيدة. ولكن مجمع الأساقفة لم يكن يتوفر بعد على إمكانية لإلزام المسيحيين كلهم بالخضوع لقراراته. وهكذا واصلت المونتانية امتدادها، وانضم إليها ترتوليان نفسه، الذي كان يعيش في قرطاجة. وما لبث خصوم هذا التيار أن تحولوا من الجدال في المسائل الجوهرية، إلى كيل اتهامات خرافية مختلفة. فقد أعلن سوتير زعيم المسيحيين الرومان على سبيل المثال، أن المونتانيين يستخدمون دماء الولدان في أثناء إقامة أسرارهم، أي أنهم يرتكبون جرائم قتل طقوسية. وغني عن البيان القول، أن مثل هذه الاتهامات كانت كيلت في زمن سابق إلى أتباع يسوع المسيح كلهم. والآن أخذ الأصوليون المسيحيون الكنسيون يستخدمون الاتهامات عينها للنيل من خصومهم. زيادة على هذا أن مثل هذه التهم لم تكن ترمي إلى رد المؤمنين عن المونتانيين وحسب، إنما قصدت أيضاً إلى لفت انتباه السلطات الرومانية إلى هؤلاء، وكانت تلك السلطات تخشى بالأصل مسيرات المؤمنين المتعصبين الحاشدة إلى مدينة بيوزا. ويبدو إذن، أن سوتير سعى إلى التنكيل بالمونتانيين، لكن على أيدي سلطات روما. ومن الواضح أنه كانت هناك صدامات مباشرة بين أنصار مونتان وخصومه. فقد أخبرنا يوسفوس أن المونتانيين دعوا خصومهم: «قتلة الأنبياء»، أما النبية مكسيميلا فقالت، إنهم يلاحقونها كما يلاحقون الذئب.

لقد استمرت حركة المونتانيين على قيد الحياة بين توهج وخبو، زمناً طويلاً نسبياً. ففي القرن ٦م أصدر الإمبراطور جستنيان إرادة إمبراطورية حرم عليهم بمقتضاها أن يجتمعوا، أو يقيموا ولائم مشتركة.

وهكذا يبدو كأن الغنوصية والمونتانية كانتا تيارين متطرفين في مسيحية القرن الميلادي الثاني. وفي الصراع ضدهما نشأت عقيدية تلك المسيحية التي كانت الأكثر تجاوباً مع متطلبات جمهور المسيحيين، والأكثر توافقاً وتلاؤماً مع المجتمع المحيط. كما اكتمل في مسيرة ذلك الصراع نفسه بناء نظام القيم الأخلاقية، والهيكل التنظيمي لهذه المسيحية الأخيرة. ولكن القرن ٢م لم يكن قرن صراع التطرف فقط، بل كان أيضاً الزمن الذي ظهرت فيه وتطورت في أطر الاتجاهات المسيحية الرئيسة، الكتب المقدسة الأرثوذكسية، والمعتقدات والكتب التي خرجت على أطر مضمون كتاب العهد الجديد.

الفصل التاسع

نشوء عبادة العذراء ماريا
إنجيـــل الطفـولـة

في القرن الميلادي الثاني، وبعدما كانت قد أنشئت أهم الأناجيل المقدسة، أخذت تظهر مؤلفات مسيحية خاصة من نوعها، قريبة من الأناجيل ملأت الفراغات الباقية في قصص حياة يسوع والناس الذين ارتبطوا به، كما وفرت هذه فرصة لعكس تلك التصورات التي شاعت في أوساط المسيحيين عند نقطة التقاء التعاليم الأرثوذكسية، واليهودية - المسيحية، والغنوصية. وتبرز بين تلك المؤلفات القصص التي رويت عن ماريا وطفولة يسوع المسيح.

ومن المعروف أن العذراء ماريا لم تشغل أي مكانة مهمة في تعاليم المسيحيين الأوائل. فالايبونتييون رأوا فيها حسب تصورهم عن يسوع، امرأة عادية، وزوجة ليوسف النجار (وقد يكون صدى هذه الرواية تردد في قول إنجيل متّى، إن ماريا أنجبت بكرها. وثمة في رؤيا يوحنا رؤيا تظهر فيها امرأة تضع طفلاً في آلام مخاض ممضة، لكن المرأة ليست من عالم البشر قط. فهي امرأة متسربلة بالشمس، يلاحقها تنين عازم على أن يدخل في حرب «مع الآخرين من ذريتها، الذين يحفظون وصايا الإله، ويشهدون ليسوع المسيح» «رؤيا يوحنا). وبمعنى آخر، إن أبناء هذه المرأة هم المسيحيون المؤمنون كلهم. وقد تكون شخصيتها هنا مجرد صورة رمزية كما هي حال شخصيات هذا العمل كلها، ترتبط بتصور اليهود - المسيحيين عن الأم الروح القدس. فوصفها يحتاج مثله مثل وصف روما: ضالة تجلس على وحش له سبعة رؤوس، إلى تأويل يفضي إلى إدراك المغزى المكنون، ولذلك فهي لا تمت هنا بأي صلة لامرأة حقيقية. ولا يشير إنجيل مرقس إلى مولد يسوع، أما والدته فلا يرد ذكرها إلا عرضاً. ويتحدث إنجيلا متّى ولوقا عن حَبَل ماريا بيسوع من غير رجل. وقد أسهب لوقا في سرد موضوعة الحَبَل بلا دنس هذه إسهاباً واضحاً لدى وصفه لحدث البشارة، بشارة الملاك لماريا

بحبلها من الروح القدس. كما يحتوي هذا الإنجيل على مشهد مشابه، هو المشهد الذي يزف فيه الملاك لزكريا العجوز خبر إنجابه ولداً (هو يوحنا المعمدان). وساق لنا لوقا أيضاً وصفاً لزيارة ماريا إلى أليزابيت زوجة زكريا، إذ قضت عندها ثلاثة أشهر. ولا يعود إنجيل لوقا إلى مريم بعد ذلك سوى مرة واحدة عندما جاءت مع يسوع ويوسف إلى أورشليم في الفصح. وبعدئذٍ تختفي عملياً من الرواية. وليس هذا بغريب إذا تذكرنا أنه حسب رواية الأناجيل الثلاثة الأولى، وكذلك حسب الأناجيل اليهودية - المسيحية، أن يسوع تخلى عن والدته وأخوته. ولا تذكر هذه الأناجيل أن ماريا كانت بين النسوة اللواتي شهدن صلب يسوع وجئن في صباح اليوم الثالث إلى القبر. فقد انفرد إنجيل يوحنا. وحده بالقول، إن ماريا والدة يسوع كانت واقفة عند الصليب. وأنه عهد بها إلى تلميذه الذي كان يحبه.. وحسب أعمال الرسل أن ماريا حضرت الصلاة التي أقامها الرسل بعيد صلب ابنها يسوع، وكان معها أخوته أيضاً (أعمال الرسل). هذا هو من حيث الجوهر الأمر كل ما ورد في نصوص العهد الجديد عن العذراء ماريا.

أما اليهود فقد استخدموا شخصية ماريا في سياق انتقادهم للمسيحية، للحط من قدر يسوع الذي وصفوه بأنه ابن غير شرعي لأحد الجنود الرومان وغزّالة. وكان سيلس قد كتب في حينه عن الاتهامات التي كانت تتهم بها ماريا، كما كتب عنها أيضاً ترتوليان «بحث في عروض الترفيه». فقد اتهمت ماريا من قبل معاصريها بأنها ضالة، ووصفوا يسوع بأنه ابن امرأة ضالة ورجل نجار. وولادة يسوع غير الشرعية وضعته تلقائياً خارج اليهودية الأرثوذكسية: حسب سفر تثنية الاشتراع أنه لا يجوز لابن امرأة ضالة (حتى الجيل العاشر من ذريته)، والخصي أن يدخل عداد «طائفة الرب» (تثنية)[1]. ولم تعط إعادة النظر في تأويل العهد القديم بصفته الامتداد التاريخي للمسيحية، إمكانية لدحض تلك الاتهامات أو لإعادة تأويلها: لقد كان ينبغي دحضها. وربما كان الرد على الاتهامات الموجهة لوالدة يسوع بداية للدفاع عن ماريا، التي اكتسبت شخصيتها في أثنائه سمات جديدة تتوافق والمزاج النفسي لمسيحيي القرن الميلادي الثاني. فيمكننا أن نرى في القصص التي رويت عنها تنامي عناصر المعجزة، وهي الحالة التي كانت تميز المزاج الشعبي في ذلك الزمن، وتتوافق مع تقاليد عبادة الإلهات التي كانت حاضرة دون ريب في الوعي الباطني (في أقل تقدير) لمن اعتنق المسيحية لتوه تاركاً

١- ولكن ثمة قصة في سفر القضاة عن المدعو يفتاح وهو ابن امرأة ضالة طرده أخوته من الزوجة الشرعية لكن يفتاح قاد جنود إسرائيل ضد أعدائهم العمونيين وهزمهم فقبله اليهود واحداً منهم، متذرعين بكون يهوه نفسه وقف معه

الوثنية. ضف إلى هذا أن تلك القصص كانت تحاول جاهدة إعادة تقويم التاريخ اليهودي المقدس بهدف «العثور» على خطة يهوه لإنقاذ الجنس البشري عبر يسوع المسيح.

وفي «قصة يعقوب عن مولد ماريا» وما يدعى أيضاً «كتاب يعقوب»، حكاية مسهبة عن طفولة ماريا وزواجها. وقد دعت الدراسات العلمية هذا العمل: ما قبل الإنجيل. وكان هذا النص قد لاقى شهرة عريضة جداً، بخاصة في أوائل عصر القرون الوسطى، إذ ترجم إلى كثير من اللغات، بما في ذلك اللغة السورية (= السريانية - م)، والقبطية، والأرمنية، واللغات السلافية.

لقد وصل إلينا النص الإغريقي لهذا الكتاب في عدد من المخطوطات القرسطوية. أما أدق نص «لإنجيل يعقوب» هذا، فقد عثر عليه في مصر مكتوباً على بردية، ونشر في العام ١٩٥٨م (ويعرف الآن باسم بردية بودمير). وأعطيت في النص المذكور تسمية: «مولد ماريا. ورؤيا يعقوب». ويرقى تاريخ البردية إلى القرن ٣م، ولكن ربما يكون النص قد خضع لبعض المعالجة. وبما أن أوريجينوس عرف هذا النص (هو من أطلق عليه اسم «إنجيل يعقوب» في تعليقات على متى)، فإنه يجب أن يكون قد كتب على أرجح تقدير بين العامين ١٥٠ و٢٠٠م. وقد بينت مقارنة نص البردية مع المخطوطات أن إضافات قد أدخلت على هذه الأخيرة: لحظة ولادة يسوع بدأ يوسف يتحدث بصيغة المتكلم (قبل هذا المقطع وبعده جاءت الرواية في صيغة الغائب). كما يختلف أسلوب هذا المقطع عن أسلوب سرد باقي النص، ويبدو أن هذا النص المضاف قد اقتبس من مؤلف ما آخر كان قد كتب باسم يوسف. وتبدو القصة الختامية غريبة بدورها عن النص الأصل، فهي لا تمت بأي صلة لمولد ماريا ويسوع، بل مكرّسة لمقتل زكريا وفرار زوجته الياصابات مع صغيرها يوحنا خوفاً من ملاحقات الملك هيرودوس. ومن الواضح أن هذا المقطع أضيف بعد أن كان تشكل النص الأساس نهائياً، فأوريجينوس لا يعرف عنه شيئاً. ومن الجلي أنه اقتبس من واحدة من القصص التي كرست ليوحنا المعمدان.

ولقد أدى شح المعلومات عن ماريا في الروايات الأولى، بالمؤلف إلى بناء قصته عنها استناداً إلى مصادر مختلفة: العهد القديم، والأناجيل القانونية، وروايات أخرى شفهية أو مكتوبة أنشأها مختلف الجماعات المسيحية ولم يصل منها إلينا شيء يذكر.

لقد كتب هذا الإنجيل باسم يعقوب، الذي يظهر فيه ابناً ليوسف النجار من زواج سابق. فيبدأ بوصف حزن يواكيم (الذي ينتمي إلى سلالة داود!) وحنّة وكربهما لأن يهوه لم يهبهما ذرية، وتردد هذه القصة صدى قصة النبي صموئيل التوراتي (ملوك أول أو صموئيل الأول)، التي

تقول، إنه لم يكن لزوجة ألكان ذرية، مما أثار حزنها، فصلت (ثمة في إنجيل يعقوب صلاة مماثلة رفعتها والدة ماريا). والتشابه مع النص التوراتي واضح على امتداد هذا الإنجيل كله، بل ثمة تعابير اقتبسها النص الإغريقي حرفياً. ولكنه يتضمن مع ذلك ما يتعارض بوضوح مع الواقع اليهودي الفعلي. فخلافاً للنص التوراتي حيث تتحمل حنة وحدها التقريع والثلب، يحرم هنا يواكيم بوشاية من اليهودي روبيم، من دخول المعبد، ويمنع من تقدمة القرابين، وهو أمر غير معقول يهودياً. بيد أن هذا زاد من فعالية العنصر الدرامي، وأظهر جهل اليهود لحقيقة ما كان يجري. وعلى أي حال فإن الكاتب لم يكن يهودياً مؤمناً، على الرغم من أنه استخدم النص التوراتي، وعلاوة إلى هذا فإنه كتب مؤلفه هذا في زمن لم يكن فيه للمعبد وجود، كما كانت التقاليد المرتبطة بالمعبد قد غاصت بدورها في عالم النسيان. لكن واقع الأشياء لم يكن يعني شيئاً بالنسبة إليه، فهو كتب «القصة» كما كان يجب أن تكون، وملأها برمزية خاصة اختبأت خلف ظاهر أحداث زعم أنها حقيقية. وهذا ما تتميّز به منحولات القرنين ٢-٣م. الأخرى كلها. لقد تلقى كل من يواكيم وحنة على حدة، من الملاك آية عن ولادة طفل لهما.

وحينما ولدت ماريا أعدت لها والدتها مكاناً خاصاً (مقدساً)، في حجرة النوم، وإذ أتمت الصغيرة عامها الأول، دعا والدها الكهنة والكتبيين، والشيوخ وشعب إسرائيل كله: فباركها كهنة المعبد، ورؤساء الكهنة وأقر الشعب ذلك («فليكن كذلك»!). ومن الواضح أن هذه القصة تربط ماريا بالتقليد اليهودي، بل على أغلب الظن بالتقليد اليهودي - المسيحي: لقد كان مشهد المباركة ضرورياً بالنسبة للمؤلف، لتعظيم ماريا أمام اليهود، رداً على الانتقادات المريرة التي كانت تتعرض لها من قبلهم بالذات. كما تظهر جلية في القصة، كما في كثير من منحولات القرنين ٢-٣م، رغبة مؤلفها لتعظيم المسيحية وترسيخ انتصارها منذ اللحظة التي ولدت فيها، وسعى المؤلف كذلك إلى تحقيق المقصد الإلهي، في أقل تقدير ابتداءً من والدي ماريا. ولما بلغت الصغيرة عامها الثالث حملتها والدتها إلى المعبد مؤدية بذلك نذرها الذي نذرته. ويعد هذا النذر بدوره مقتبساً من كتاب صموئيل، لكن المنذور هنا كان ولداً. وبالنسبة للمؤمنين اليهود كان إدخال الفتاة إلى المعبد ووضعها مقيمة في قدس الأقداس أمراً مستحيلاً في واقع الحال. ونحن لا نرى في إيراد المؤلف لمثل هذا المشهد جهلاً منه بالتقاليد الدينية اليهودية، إنما هو أراد أن يؤكد بذلك على أن كل شيء في حياة ماريا كان معجزة، الأمر الذي يضعها مباشرة فوق مستوى الناس العاديين. وتواصلت المعجزة عندما أقامت ماريا في المعبد تقتات بقوت خاص كان يحمله إليها الملاك كل يوم (ويمكننا أن نتذكر هنا الوقت الخاص الذي كان يقتات به يسوع حسب قول

فالينتين). وغدا مصيرها الآتي كله تابعاً للإرادة الإلهية. فعندما أتمت الثانية عشرة من عمرها، أمر الملاك الكهنة فدعوا الشيوخ لكي يختاروا واحداً من بينهم وصياً عليها. وكان الأرمل يوسف النجار واحداً من أولئك الشيوخ. فاختير هو نفسه مرشداً لماريا، لأن الحمامة انطلقت من عصاته، ومن المعروف أن الحمامة سوف تغدو في أذهان المسيحيين صورة الروح القدس الذي هبط على يسوع لحظة عمادته على يدي يوحنا في مياه الأردن. وحتى في تفاصيل حياتها الآتية تتكشف آيات الاصطفاء الإلهي لماريا: في المعبد آلت إليها بالقرعة قطعة القماش الثمينة، القطعة الأرجوانية الحقيقية. وللأرجوان هنا مغزى صوفي مكنون: على أي حال هكذا أوّل الأمر اللاهوتيون البيزنطيون. فكأن غزل الأرجوان يبشر «بغزل» جسد الوليد من دماء أمه.

وتعد البشارة[1]، ثم مجيء ماريا إلى أليزابيت قصة درامية وتفصيلية خاصة وضعت على أساس رواية إنجيل لوقا (ثمة جمل تتكرر هنا حرفياً)، كما يوصف بالتفصيل أيضاً رد فعل يوسف الذي حمل الملاك إليه الآية، حسب إنجيل متى. ولما بات حمل ماريا ظاهراً، ظهر خصم آخر من اليهود، هو الحنان الذي حمل الخبر إلى رئيس الكهنة. عندئذٍ أخضعوا ماريا ويوسف لاختبار «ماء الغيرة»: لقد كانت هذه عادة قديمة ترغم بموجبها المرأة المتهمة بالزنى على أن تشرب ماء مخلوطاً بالقاذورات[2]: يتحدث المؤلف هنا عن عادة كانت معروفة فعلاً لدى اليهود، وهذا ما يرغمنا على أن نفترض أنه فيما تبقى من سرده يتراجع عن سابق قصد عن المعايير الحقيقية للشريعة اليهودية التي كان على درجة ما من الاطلاع عليها. وخرج يوسف وماريا نقيين من الاختبار.

وتشغل قصة مولد يسوع مكانة بارزة في هذا المنحول. وعلى الضد من أناجيل العهد الجديد، لم يولد يسوع في بيت لحم، إنما في كهف في مكان مقفر. وكان يوستين يعرف رواية الميلاد في الكهف، الأمر الذي يوحي بأنها كانت معروفة في واحدة من الروايات المستقلة التي ربما تكون قد ظهرت بعد رواية العهد الجديد. لقد كانت لهذه الرواية رمزية لاهوتية أكثر وضوحاً من رمزية المولد في بيت لحم (إنجيل متّى)، أو في معلف البهائم (إنجيل لوقا، الذي قصد إلى إبراز حالة البساطة والفقر اللتين تناقضان رسالة يسوع السامية). وبالنسبة للقرن الميلادي الثاني، كان يمكن لرواية الميلاد في كهف لا في بيت لحم، أن تشد المسيحيين أكثر، بخاصة بعد هدم معبد أورشليم وتحويل المدينة نفسها إلى

١- لقد رأى بعض الغنوصيين، أن المسيح الأزلي نفسه ظهر لحظة البشارة ودخل جسد ماريا.

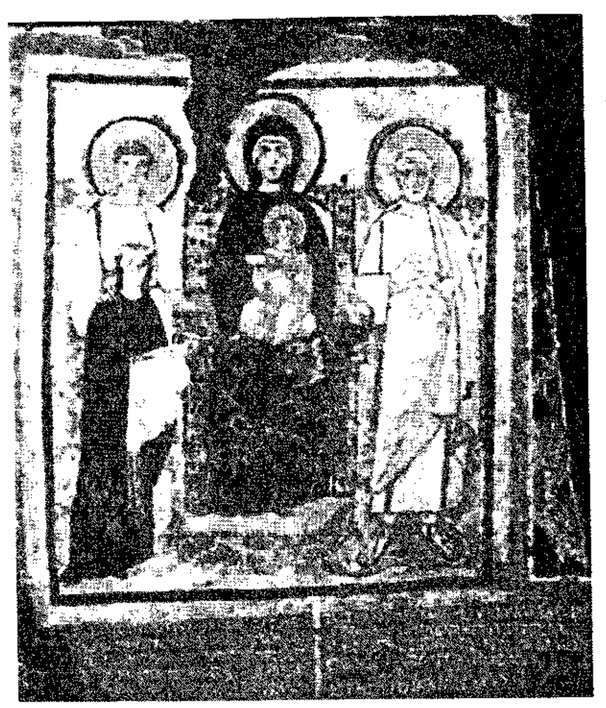
٢- في سفر العدد يعطي الكاهن المرأة المتهمة بالخيانة الزوجية «ماء مراً جالباً اللعنة».

مستوطنة رومانية تحت اسم إيليا الكابيتولية، ففي تلك الحال لم يعد لشخصية المسيا الداودي مخلص إسرائيل وباني مملكتها الجديدة أي مغزى. وهكذا بات يسوع إلهاً كونياً. وغدا مولده مولد النور في الظلمة يضيء ظلام الكهف ويطرد العتمة. وهنا بالضبط، في لحظة الميلاد، أُضيف إلى رواية المنحول الوصف الذي لا وجود له في البردية، إذ تلاشت حسب قول يوسف، الطبيعة وكل شيء حي: «وها أنذا يوسف، مشيت ولم أتحرك من مكاني. ونظرت إلى الهواء فوجدته جامداً لا يتزحزح، وتطلعت إلى السماء فرأيتها قد توقفت، وتوقف طيران الطيور وهي محلقة». لقد وقف كل شيء في الطبيعة جامداً من غير حراك منتظراً لحظة ظهور المعجزة.

أما السمة ا لتي تميزت بها عبادة ماريا في طور نشوئها، فهي اعتقادهم بعذريتها التي لا تنتهك، ولم تشر الأناجيل إلى هذا قط. ولذلك أدخلوا لدى وصف ميلاد يسوع شخصيات إضافية: القابلة المولّدة وامرأة أخرى تدعى سالومي عبرت عن شكّها في بقاء ماريا عذراء بعد الولادة، فتلقت عقابها في اللحظة عينها: شلت يدها. لكنها أسرعت تصلي مذعورة (لا وجود لهذه الصلاة في بردية بودمير)، فظهر لها الملاك وقال لها أن تقرب يدها صوب الوليد، ففعلت فشفاها. وعلى هذا النحو تبدو في هذا المنحول نزعة تقديم يسوع إلهاً كلي القدرة منذ اللحظات الأولى لمولده، ثم ظهرت هذه النزعة بأكثر ما يكون الوضوح في الكتب التي كرست لطفولة يسوع. وورد في إنجيل يعقوب مشهد السحرة، وملاحقة هيرودوس للطفل، بيد أن هذا الإنجيل لا يعرف شيئاً عن فرار العائلة المقدسة إلى مصر. وكل ما قيل فيه، هو أنه عندما سمعت ماريا أنهم يقتلون الأطفال، وضعت الطفل في المعلف. فالمؤلف استخدم هنا موضوعة إنجيل لوقا، التي من الواضح أنها كانت تحظى بقبول عريض لدى الأوساط الشعبية المسيحية، ولكن في سياق مغاير تماماً. فقد كان ينبغي ألا يظهر الإله الكلي القدرة على مقربة من البهائم، إنه لم يكن هو نفسه يسوع الذي قال، حسب أوريجينوس: «من أجل الضعفاء كنت ضعيفاً، ومن أجل الجوعى جعت، ومن أجل العطاش عطشت» (تعليقات على متّى).

إذن، تظهر ماريا في هذا المؤلف بمثابة بشير ذي صفات إلهية معترف بها من قبل رؤساء الكهنة، ولكنها عانت في الوقت نفسه من وشايات اليهود الحمقى وافتراءاتهم. لقد استخدم هذا الإنجيل روايات شتى: الرواية اليهودية - المسيحية القائمة على التقليد التوراتي، والرواية الغنوصية برمزية الظلام - النور، ورواية العهد الجديد، وكان ذلك أمراً لا بد منه، بسبب غياب رواية خاصة بسيرة حياة ماريا. وعلى أي حال فإن البدايات الأولى

لعبادة ماريا قد أرسيت. ففيما بعد، وعلى الرغم من أن إنجيل يعقوب هذا لم يدخل عداد الكتب المسيحية المقدسة، إلا أن جملة من الأعياد المسيحية قد تأسست واعتمدت استناداً إلى قصص هذا المؤلف: «ميلاد والدة الإله» و «دخول السيد إلى المعبد». وثمة منحول آخر وضع في القرن ٤م، هو «رقاد ماريا». وقد جاء هذا المؤلف يعجّ بمختلف ضروب المعجزات المستحيلة (على سبيل المثال، نزول الشمس والقمر إلى البيت الذي سجيت فيها ماريا).



والدة الإله مع الطفل زخرفة في سراديب رومانية

وبالتوازي مع عبادة ماريا أخذت تنتشر تصورات يمكننا أن نقف على حضورها في إنجيل يعقوب أيضاً: عن يسوع المسيح بصفته إلهاً كلي القدرة أخذ منذ ولادته يعاقب ويصفح. وحظي بشهرة مميزة بين المنحولات المكملة لرواية أناجيل العهد الجديد، منحول طفولة يسوع، بين عامه الخامس وعامه الثاني عشر، ومع أن تأليف هذا العمل نسب إلى توما إلا أن نسخته الأصلية حملت اسم فيلسوف إسرائيلي. ولم توضع مخطوطاته باللغة الإغريقية إلا في زمن متأخر (مخطوط درزدن، ومخطوط بولونيا: في القرنين ١٥-١٦م، وكذلك مخطوط القرنين ١٤-١٥م الذي جاءنا من دير سيناء مرفقاً بقصة موجزة عن طفولة يسوع). وثمة أيضاً الرواية اللاتينية، والرواية السورية (يرجع تاريخ أقدم مخطوطات الروايتين إلى القرن ٥م)، والرواية السلافية القديمة، والرواية الجورجية القديمة، والرواية العربية، والاثيوبية. وعلى الأرجح أن النص الإغريقي الأصل كان قد أنشئ في النصف الثاني من القرن ٢م، عندما شاعت تعاليم الغنوصيين التي تركت تأثيرها على قصة طفولة يسوع. وكان إيرينيوس قد أشار إلى قصص الغنوصيين عن طفولة يسوع. ويشهد موقف هذا المنحول المتحرر إلى درجة كبيرة من رواية أناجيل العهد الجديد، على أن ظهوره كان سابقاً على زمن الصياغة النهائية للناموس

المسيحي، أو أن أكثر الكنائس لم تكن قد أقرت هذا الناموس بعد. ولكن استعادة هذا النص في صيغته المتماثلة لا يزال أمراً متعذراً. وعليه فقد أبرز ناشر إنجيل الطفولة، ك. تيشندورف روايتي هذا الإنجيل: المسهبة والموجزة، اللتين تختلف واحدتهما عن الأخرى بعض الاختلاف.

لقد وضع إنجيل الطفولة في العصر الذي كان قد تشكل فيه إنجيل العهد الجديد، وشاعت فيه في أوساط الجماهير المسيحية شتى القصص التي تكمل معطيات هذا الإنجيل عن يسوع نفسه وعن مولده. ومن المسائل التي كان يمكن أن تقلق المؤمنين لدى إنشاء مثل هذه الخرافات، المسألة الآتية: إذا كان يسوع قد صنع المعجزات أثناء خدمته العلنية وتحدث باسم الإله، فمتى تلقى هو نفسه هذه القوة؟ هل نالها لحظة تلقى المعمودية عندما حل عليه الروح القدس، كما رأى اليهود - المسيحيون الأوائل، أم قبل ذلك؟ فوفق رأي ر. براون، الباحث الأشهر في تاريخ العهد الجديد، أن قصة الطفولة، وكذلك قصة إنجيل لوقا عن مجيء يسوع ابن الاثني عشر عاماً إلى المعبد، كان الغرض منهما إظهار امتلاك يسوع لسمات الإعجاز كلها منذ أن كان طفلاً صغيراً (ومن حيث جوهر الأمر، منذ ولادته)، وفي غضون ذلك لم يكن المستمعون إلى قراءة إنجيل الطفولة أو قارئوه يلقون بالاً إلى أن قصة يسوع الطفل يمكن أن تتعارض مع عدم اعتراف سكان الناصرة به، فهؤلاء كان يجب من حيث المبدأ أن يفهموا تصرفاته وهو بعد طفل صغير، وبسبب عدم إيمانهم به عجز عن صنع أي معجزة أمامهم.

ولكن ليس هذا الموقف العقلاني إلى حد ما (هذا إذا كان القادمون إلى المسيحية من الوثنية قد حافظوا على شيء من عقلانية العصر القديم)، وحده الذي حدد خصوصيات إنجيل الطفولة ورواياته الكثيرة. فهذا الإنجيل عبارة عن عمل ذي طبقات متعددة، وهو من جهة يرضي حاجة المسيحي العادي إلى المعجزة التي شهدت على القدرة الكلية للمسيحية منذ لحظة ولادة يسوع، ويعكس من جهة أخرى التصورات الغنوصية للرمزية المكنونة لكل ما فعله يسوع، وهي تصورات لم تكن دائماً مفهومة فهماً واضحاً. فمن حيث الجوهر لم يعترف الغنوصيون بالطبيعة البشرية ليسوع، وحسب تصورهم أنه لم يكن مولوداً حقيقياً، إنما كان له ظاهر المولود وحسب. وفي هذا السياق نقل إلينا المؤلف الغنوصي «بيستيس» (الإيمان صوفيا)، قصة تقول، إن طفلاً (روحاً؟) دخل بيت يسوع بينما كان هذا في الثالثة من عمره، وكان الطفل شبه يسوع بالمطلق، وكان يسوع الصغير يعمل وقتئذٍ مع يوسف النجار في الكرم. فسأل الوافد: «أين أخي يسوع»؟ فراع الأمر ماريا

التي دعت الضيف إلى المجلس ومضت إلى يوسف تقص عليه ما حصل. ولما سمع يسوع الكلام سأل: «أين هو إذن، إني انتظره هنا؟» وما إن دخل يسوع الحجرة حتى تلاشى الوافد فيه تماماً وباتا كلاً واحداً، وبذلك الاندغام تم تفادي انقسام الطفل يسوع (الذي ظهر أنه كان يملك معرفة خاصة لأنه كان ينتظر الوافد)، مع ذاك الذي جاء في إهابه: المسيح - اللوغوس. الموجود منذ الأزل، والذي يملك صفات خارقة ومعرفة مطلقة[1]. لقد كان ينبغي أن ترمز أعمال يسوع في طفولته، وتنبئ أيضاً، بما سيفعله فيما بعد. فالقصة تبدأ بالمشهد الآتي: عند جدول الماء يعجن يسوع الطفل يوم السبت طيناً ويشكل منه طيوراً، ثم يبعث فيها الحياة ويطلقها اثني عشر طيراً: رمز تلاميذه - رسله الاثني عشر الذين أرسلهم ليبشروا العالم؛ وفي المنحول، أن يسوع الزراع الصغير يجمع محصولاً لا مثيل له من بذرة زرعها: رمز انتشار المسيحية؛ وتلبية لطلب والدته حمل الماء في ردائه دون أن يريقه، لأنه كان قد كسر القدر وهو في طريقه إلى النبع، وليس الماء الذي حمله يسوع سوى رمز لماء الإيمان المحيي.

وما يسترعي الاهتمام أن كل المعجزات التي وصفت في هذا المنحول، يجري صنعها في بيئة أعمال الأب، ولهو الأطفال، وكان ينبغي لمثل هذه التفاصيل المزعومة أن تؤكد للقراء «صحة» الأحداث التي يروى عنها، ولكن مثل تلك التفاصيل لم يكن يعكس بأي حال واقع المدينة الفلسطينية التي لم يكن المؤلف يعرف عنها شيئاً. وقد دعا بعض الباحثين مثل هذه الحكايات التي أنتجها خيال الفئات الشعبية المسيحية، بالحكايات السحرية المتنوعة الشيقة. بيد أنه من غير المحتمل أن يكون المسيحيون قد رأوا في قصص طفولة يسوع حكايات سحرية، فهم لم يهتمّوا للقصة بحد ذاتها، إنما أنشؤوا نوعاً من الميثولوجيا «التاريخية» (أو التاريخ الممثلج). ولهذا بالذات لم يهتم المؤمنون حتى لتغاير مثل هذه القصص مع نصوص الأناجيل القانونية: لقد كان التقليد المسيحي الذي انعكس في المنحولات ضرباً من تقليد مبتكر نشأ وتطور من تلقاء ذاته. ولكن مؤلف إنجيل الطفولة، أو من كتبوه، سعوا في أثناء ذلك إلى إقامة رابطة شكلية بين قصتهم والنص القانوني. لقد ختموا مؤلفهم هذا بالرواية المسهبة لقصة مكوث يسوع الصغير في المعبد، التي أخذوها عن إنجيل لوقا حرفياً تقريباً، لكنهم أعطوها معالجتهم الخاصة. ولهذه المعالجة

١- وفي هذا تباين آخر مع الناموس المسيحي، فقد جاء في إنجيل لوقا الذي من الواضح أن مؤلف النص المعني كان يعرفه جيداً، أن يسوع «كان يكبر ويزداد قوة بالروح، ويمتلئ حكمة» (لوقا)، أما في المنحول فقد امتلك يسوع الحكمة منذ أن كان في الخامسة من عمره.

بحد ذاتها مغزاها: حسب الإنجيل القانوني أن يسوع جاء إلى أورشليم مع والديه، لكنه لم يعد معهما بل بقي هناك. ويقول إنجيل لوقا إن والديه وجداه في المعبد يستمع إلى المعلمين ويسألهم «.. ودهش كل من كان يسمعه، كيف استطاع وهو الطفل أن يرغم شيوخ الشعب ومعلميه على أن يقفوا حائرين أمام شرحه للناموس والأنبياء».. ولما رأى الكتبة والفريسيون والدة يسوع قالوا لها، إننا «لم نر يوماً مثل هذه الجرأة، ولم نسمع يوماً مثل هذه الحكمة» (XIX). إذن في هذه الرواية لم يكتف يسوع بأن يسمع ويجيب، إنما يرغم المعلمين على أن يصمتوا، وحتى الكتبة والفريسيون خصومه في المستقبل، أقروا حسب الكتب المبكرة، بحكمته. وفي الأماكن الأخرى التي استخدم فيها مؤلفو إنجيل الطفولة تعابير أو جملاً من الأناجيل القانونية، لم يحافظوا على أمانة الاقتباس. ففي إنجيل لوقا على سبيل المثال، يصف شهود المعجزات يسوع «بالنبي العظيم» (لوقا). أما في إنجيل الطفولة فيصفه من شهد معجزاته بأنه إله أو ملاك، ولم يوصف هنا لو مرة واحدة بأنه نبي.

وتشغل مكانة مهمة في هذا المنحول قصص العقاب الفوري الذي ينزله يسوع الطفل بكل من يعارضه، والمساعدات التي كان يقدمها للجرحى والقتلى. وقد عكست تلك القصص تعطّش الناس لمعجزات الخلاص والعقاب العاجل، في حياتهم اليومية وليس في يوم القيامة. فقد عاقب يسوع أحد أترابه لأنه رشه بماء البركة حيث كان يلعب (لقد جفّ الصغير وذبل)، أما الصغير الآخر الذي دفع يسوع، فقد سقط ميتاً من فوره، وفقد بصره كل من شكاه ليوسف، وسقط ميتاً في مكانه معلّم يسوع الذي سولت له نفسه أن يرفع يده عليه.... وغني عن البيان أن بطش يسوع هذا لا يتوافق مع الصورة التي رسمتها له أناجيل العهد الجديد، حيث قيل هناك «... لم يأت ابن الإنسان ليهلك أرواح البشر، إنما لينقذها» (لوقا)، ليس ثمة في إنجيل «طفولة يسوع» هذا أي أثر لموعظة يسوع على الجبل. فالفئات المسيحية الدنيا المضطهدة كانت تحلم بالثأر: حتى قصص العقاب، وبصرف النظر عن أيّ مغزى مكنون قد يضعه فيها الراوي أو المحرر، إلا أنها كانت تعوّض لدى هؤلاء الشعور بالذلّ والاضطهاد في العالم الوثني. ولكن يسوع الصغير أتى أعمالاً صالحة أيضاً: شفى جاره الذي جرح نفسه بالفأس، وأبرأ أخاه يعقوب من لدغة الثعبان. وعندما اعترف المعلم الآخر بأن يسوع مليء صلاحاً وحكمة، قال له الصغير، إن المعلّم الآخر سوف يعود إلى الحياة إكراماً له. وعلى هذا النحو، يبعث الكاتب الخوف في قلب القارئ، لكنه لا يلبث أن يظهر له إمكانية نيل الرحمة. لكن شريطة الإيمان بيسوع.

وفي غضون ذلك فإن كلّ عمل من أعمال يسوع، أكان انتقاماً أم إبراء، يخفي وراءه مقصداً سامياً لا يدركه عقل الإنسان العادي: يجب أن تمهّد العجائب سبيل بلوغ الحقيقة السامية. وحسب إنجيل الطفولة، أن يسوع كان يملك منذ صغره معرفة حقيقية مكنونة. وثمّة دلالة خاصة في هذا السياق لمشهد المعلّم الذي أخذ يعلّمه الألفباء الإغريقية: عندما أراه المعلّم الأحرف كلها من الألفا حتى الأوميغا، وطلب منه أن يردها، قال له الصغير: «كيف تستطيع أنت الذي لا تعرف ما هي الألفا، أن تعلم الآخرين ما هي البيتا». ثم شرع يشرح للمعلم تركيب الحرف ألفا، وما هي خطوطه، وأي سمة له في وسطه، وكيف تتلاقى الخطوط وتتباعد، والرموز الثلاثة التي للسمة عينها وكيف يرتبط واحدها بالآخر ويسانده.. ويبدو أن إيرينيوس كان على معرفة بخرافات طفولة يسوع، وربما كان على علم أيضاً بتنويعة ما من تنويعات هذا الإنجيل، إلا أنه عده إنجيلاً «مزيفاً»: لقد نقل قصة المعلم عينها: «... لما كان الرب يتعلّم القراءة والكتابة في صغره، قال له المعلّم كما هو معتاد: قل «ألفا» فقال «ألفا»، ثم عندما طلب منه المعلم أن يقول «بيتا» أجابه الرب قائلاً: قل لي أولاً ماذا تعني الألفا لكي أقول لك ما هي البيتا. وقد فسروا ذلك بأنه وحده كان يعرف الباطن الذي أشار إليه في صورة الألفا». ورأى إيرينيوس أن الغنوصيين هم الذين يقفون وراء هذا المشهد، لأنهم هم الذين استغرقوا في تأويل المغزى الباطني للأرقام والأشكال الهندسية.

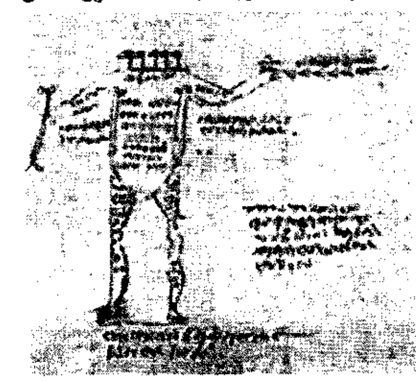
ويظهر التأثير الغنوصي أكثر ما يظهر في الرواية الموجزة لإنجيل الطفولة، وفي التنويعة السورية لهذا الإنجيل، التي تعد من حيث جوهر الأمر مؤلفاً مستقلاً «في هذا الموضوع». فقصة الطفولة هنا ليست مربوطة إلى النص القانوني، الذي ربما كان المؤلف لا يقاسمه الرأي كلياً. لقد أبرزت التنويعة الموجزة أن يسوع الصغير يملك معرفة متميزة عن الماضي والمستقبل، بما في ذلك عن آجال الحياة البشرية، وهذا ما حدث به يوسف والمعلم (يمكننا أن نقرأ في هذا تلميحاً خفياً لقدرية وجود كل إنسان، الأمر الذي لا وجود له في كتاب العهد الجديد). أما في التنويعة السورية، فإن أفكار الغنوصيين أكثر وضوحاً، كما تظهر فيها أفكار الدوكيتيين الذين رأوا أن الشكل البشري ليسوع ليس سوى صورة متخيلة. وهذا ما تشير إليه كلمات يسوع ليوسف، إذ قال له، إنه ليس بين الناس المحيطين به، وأنه عندما يصعد، سوف يرمي هذه الطبيعية البشرية: «لأنني لست فيكم، مع أني أعيش بينكم. وليس لي كرامة في جسمانيتي. فأنت تعيش وفق الناموس وللناموس تخضع. أما أنا فقد كنت موجوداً قبل أن تولد أنت. وأنت تظن

أنك أبي. لأني حينما أصعد فسوف أرمي ذلك الجزء الذي معي من عشيرتك». إذن، لقد كانت أناجيل الطفولة تمثل خليطاً من المعتقدات الخرافية الشعبية والتعاليم الغنوصية الساذجة عن المعرفة الحقيقة. فيسوع الصغير يظهر هناك إلهاً رهيباً صارماً، إذ يدب الذعر من جديد في قلوب الناس، ويسلبهم الأمل، وهذا بالذات ما سعت مواعظ يسوع الناصري إلى تحريرهم منه، وكذلك إنجيل الحقيقة.

الفصل العاشر

المسيحية الشعبية في القرنين ٢-٣ م

في القرن الميلادي الثاني، وعلى امتداد حياة الإمبراطورية الرومانية في طورها الأخير كله، حدثت نقلات نوعية مهمة في الوعي الاجتماعي، لا سيما في الأوساط الجماهيرية. وإذا كان المثقفون قد واصلوا في الطور المذكور، فهم العالم في إطار العقلانية القديمة (أي عقلانية العصر الإغريقي الروماني)، والفلسفة القديمة، فإن ذلك الطور عينه كان بالنسبة للناس العاديين زمن الرعب اللاعقلاني المتنامي. وقد شغلت قوى الشر الغيبية: الساحرات، والعفاريت، مكانة أساسية في هذا الفهم الجديد للكون، بصفتها قوى شريرة فاعلة ينبغي على الإنسان أن يقاومها مقاومة متواصلة، وأيضاً بعون من قوى خارجية ذات قدرات خارقة. وهكذا خيم الإحساس بالمعركة غير المرئية فوق حياة الناس الدينية والفكرية، وانسحب هذا في غضون ذلك على الوثنيين والمسيحيين على حد سواء. فالعفاريت باتت مسؤولة عن الرزايا كلها، سواء الفردية أو الاجتماعية: شح المحاصيل، والأمراض، وحتى فشل الحياة العاطفية. وقد حاول الوثنيون تفادي أذى العفاريت باللجوء إلى السحر، والتعاويذ، وطلب العون من شتى الآلهة. فانتشرت في مصر عبادة هرمس المثلث العظمة: توجهوا إليه بتعاويذ: «.. فليبتعد عني كل روح، وكل عفريت، وكل لقاء رديء، وكل قوة من قوى الشر» (بردية ليدن). ووصلت إلينا بردية سحرية



عفريت من غير رأس. بردية سحرية.

تحمل رسم عفريت مخيف بغير رأس، جسده مغطى كله بالكتابة السحرية. وقد حاول المؤلفون القدماء تقديم صورة هزلية لذلك الخوف كله، كما فعل على سبيل المثال، أبوليوس في القصة التي أدخلت إلى مؤلف «الحمار الذهبي»، وهي قصة الساحرات التساليات اللواتي

اجتمعن لكي يقطعن أنف الميت وأذنيه، لكنهنّ بدلاً من ذلك قطعن هذه الأعضاء لدى الشخص الذي كان يحرس المتوفى. ووصف لوقيانوس بكثير من السخرية ساحرة تستخدم الكبريت، وترمي الملح في النار، وتدور المغزال وهي تنطق في أثناء ذلك بأسماء رهيبة بربرية (أسماء أرواح؟) ولكن السخرية لم تجد نفعاً..

فما الذي كان يقف خلف انتشار موجة الخوف تلك؟ غني عن البيان القول، إن الإمبراطورية الرومانية كانت تعيش عند نهاية القرن الميلادي الثاني أزمة عميقة، فالبرابرة اجتاحوا مقاطعاتها الغربية، وقادتها العسكريون كانوا يتصارعون على السلطة. كما كان العالم القديم يعاني حرباً بين قادة جيوش الإسكندر المقدوني، ليست أقل رعباً بالنسبة للإغريق. لقد دمرت الحرب الأهلية الرومانية المقاطعات الشرقية، فتزايد تعظيم الديانات الشرقية. وكان هذا كله يجري في إطار الفهم التقليدي للنظام الكوني بصفته كلاً موحداً منظماً، وكانت الاتحادات الدينية الخاصة تضع مواثيقها، والمدن تعتنق على أساس قرارات مجالسها الشعبية، أكثر الديانات شعبية.

ونحن نرى أن مصدر القلق والخوف قد تمثل في المقام الأول، بانحلال العلاقات الجماعية التقليدية في الإمبراطورية المترامية الأطراف، بما فيها العلاقات العائلية والمدنية. فنظام دولة المدينة استهلك تاريخياً وتحولت المدن إلى مجرد مدن عادية تعيش فيها كثرة من السكان الذين ينتمون إلى أعراق مختلفة: لقد أظهر تحليل شواهد القبور في آسيا الصغرى إبان القرنين ٢-٣م، أن كثرة من الشواهد قد أُقيمت خاصة في المدن الكبرى (وصل إلينا ثلثها)، وقد أقامها أصحابها «لأنفسهم وهم بعد على قيد الحياة»، أي، لم يكن هؤلاء يعتمدون على أن أحداً ما سوف يؤدي لهم واجب الدفن. إذن لم يعد الفرد ينظر إلى الكون بصفته معطى منظماً. لقد بقي الإنسان وحيداً مع إلهه وجها لوجه، ولم ير دوماً أنه ند له، لقد بقي الإنسان وحيداً في مواجهة رزاياه كلها، وكان من السهل بالنسبة له ألا يرى أسبابها في سوء سلوكه هو نفسه، إنما في دسائس قوى الشر الغيبية. ومن المعروف أن إلقاء الذنب على العالم الخارجي. هو الحالة السيكولوجية النموذجية بالنسبة للوعي الجماهيري، بيد أن هذه الحالة تخلق بالضرورة الخوف الشديد أمام هذا «الخارجي».

وقد سيطر هذا المزاج حتى على الجماهير الشعبية التي اعتنقت المسيحية. فقد قام في مسيحية القرن الميلادي الثاني وضع إيديولوجي شديد التعقيد إلى درجة كبيرة: من جهة ظهرت مؤلفات الفلاسفة المسيحيين الناصريين الذين جموا كثيراً من معطيات التعاليم القديمة، وصاغوا مسائل لاهوتية معقدة، ومن جهة أخرى اندفع إلى المسيحية سيل من

المعتنقين الجدد الذين جاؤوا من العالم الوثني وكانوا ينتمون إلى شتى الأعراق ومختلف الطبقات والفئات الاجتماعية، ولم تكن لهؤلاء أي صلة بمثل هذه المسائل. وحمل هؤلاء معهم إلى المسيحية إيمانهم بقوة الطقوس السحرية، والشعوذة، وكثرة كثيرة من العفاريت الذين يؤثرون في العالم المحيط. ونحن إذا عدنا إلى الكتابات المسيحية المنحولة التي ظهرت في القرون ٢-٤م، لوجدنا أنها مليئة بوصف مختلف ضروب المعجزات المستحيلة التي صنعها المسيح، وماريا، والرسل. بيد أنه إلى جانب الإيمان بالقدرة العجيبية اللا متناهية التي كان يملكها القديسون، كانت تتشكّل تصورات عن جبروت قوى الشر.

فتداخلت في المسيحية نفسها الآن معتقدات الوثنيين بالعفاريت مع المعتقدات التي ورثتها المسيحية عن اليهودية، «بأمير الظلام»: الشيطان خصم الإله.

ولم يعد مسيحيو القرن الميلادي الثاني وما بعده مجرد جماعة صغيرة من المؤمنين الذين يرون في أنفسهم قلة مصطفاة تعيش خارج المجتمع. فقد باتوا الآن يعيشون وفق قوانين هذا المجتمع، وثمة منهم من أثرى، وارتكب الآثام من وجهة نظر موعظة الجبل، بل ثمة منهم من ارتد عن الدين في أزمنة الاضطهاد. ولذلك كانت مسألة الذنب والعقاب التي طرحها إنجيل الطفولة وكذلك مسألة تحديد درجة المسؤولية الشخصية من أكثر المسائل أهمية وحدة.

ومن المعروف أن المخاطر التي يصنعها الشيطان، كانت في وعي سكان أوروبا إبان القرون الوسطى أكثر بكثير من فرص الخلاص الضئيلة، ولذلك غلب الخوف حسب قول لي غوث، على الأمل. بيد أن معادلة الإنسان - الشيطان كانت عولجت في مسيحية ما قبل مجمع نيقيا، وقبل كل شيء في المنحولات، إذ أعطت هذه اهتماماً كبيراً لدور الشيطان وأتباعه العفاريت بصفتهم أعداء الإنسان.

لقد جاءت شخصية الشيطان غير محددة المعالم في النص التوراتي، فهو يظهر في سفر أيوب محرضاً يهوه على اختبار إيمان الصدّيق، وهو يدخل في أثناء ذلك على الإله مع أبناء هذا الأخير من غير أي عائق، كما يجيز له يهوه أن يفعل بأيوب ما يشاء ولكن شريطة ألا يؤذيه هو نفسه (أيوب): حسب أفيرينتسيف س. س أن الشيطان لا يظهر في هذا السياق عدواً ليهوه، بل مدعياً ضد الإنسان. إنه شخصية ما تشبه «المدعي العام الكوني». ولكنه في سفر آخر يحرّض داود على إجراء إحصاء سكاني، وهو ما لم يكن يهوه راضياً عنه (أخبار الأيام الأول)؛ كما ورد ذكر الشيطان كذلك في سفر زكريا، حيث يظهر هنا واقفاً إلى جانب ملاك الرب مع رئيس الكهنة، وهو يستعد على ما يبدو لتوجيه الاتهام إلى هذا الأخير، لكن الإله يهوه يمنعه. ولم يجر تشكيل شخصية الشيطان بصفته مغوياً للإنسان إلا في الكتابات

اليهودية المتأخرة (كتاب حكمة سليمان، على سبيل المثال، إذ يظهر الشيطان هنا مندغماً بالحيّة التي أغوت حواء).

ولم يشغل الشيطان مكانة ذات أهمية تذكر في تعاليم يسوع، كما قدمتها الأناجيل القانونية، لأن الخلاص مرهون هنا بالإيمان وسلوك الفرد نفسه، بنبذه لما هو دنيوي والتزامه بتعاليم موعظة الجبل. أما اختبار الشيطان ليسوع في البرية، فيبدو هنا كأنه حدث جرى بإرادة علوية، لأن الروح القدس هو الذي أصعده إلى البرية. وربما كان الحديث يجري عن الأمر نفسه في واحد من أناجيل اليهود - المسيحيين المبكرة، وهو الإنجيل المدعو إنجيل اليهود. ونحن كنا أشرنا سابقاً إلى أن يسوع كان بالنسبة لبعض المجموعات اليهودية - المسيحية شخصاً صالحاً حل عليه الروح القدس أثناء معموديته وأعلنه ابناً له. وربما كان هؤلاء قد رأوا أنه من الطبيعي أن يؤكد يسوع المسيا حقيقته هذه عبر تجاوزه تجربة الغواية.

ومن ناحية أخرى يظهر الشيطان في العهد الجديد بصفته قوة كونية ما، أمير هذا العالم (في النص الإغريقي: «سلطان هذا الكون»، يوحنا). ولكن ظهور يسوع أعلن نهاية هذا العالم وسيده: يقول يسوع في إنجيل لوقا: «لقد رأيت الشيطان منحدراً من السماء كما الصاعقة»، وما يثير الاهتمام أن الشيطان حسب تصور مؤلف هذا الإنجيل، كما حسب تصور مؤلف إنجيل أيوب أيضاً، يمكن أن يكون موجوداً في السماء.

وجاءت المعركة مع «أمير الظلام» جلية بأكثر ما يكون الجلاء، في رؤيا يوحنا حيث يتخذ هذا فيها هيئة التنين الأحمر: لقد دارت رحى هذه المعركة في السماء، وانتهت بإلقاء الشيطان وقواته من السماء إلى الأرض. ويدعى الشيطان في النص المذكور مغوي المعمورة إلى الضلال، والمدعي ضد البشر، وفق التصورات التوراتية، أمام الإله. وبعد أن قذف به من السماء، يتابع التنين معركته على الأرض. وثمة في الرسالة إلى الأفَسُسيين دعوة إلى عدم الانقياد لمكر الشيطان، وضرورة مناهضة سلاطينه، وولاة عالم الظلام[1]، وأرواح الشر السماوية. وعلى هذا النحو رأوا في الصراع ضد الشيطان مواجهة كونية يضع مجيء يسوع نهايتها. وفي تعداد هذه الرسالة للأرواح الشريرة. لا يظهر الشيطان كبيرها، بل واحداً منها وحسب، وهذا ما يجيز لنا أن نظن بأن تراتبية هذه الأرواح لم تكن قد شاعت بعد. وقد ورد مفهوم الشيطان بصفته نقيضاً (ليسوع)، في أعمال المسيحيين الأوائل أيضاً.

١ـ ربما يكون الاعتقاد بأرباب الظلام قد جاء من تعاليم طائفة قمران عن الروحين الضدين اللذين خلقهما الإله: أمير النور، وملاك الظلام الذي تتركز بين يديه كل السلطة على ابناء الباطل حتى نهاية العالم (نصوص قمران سانت ـ بطرسبورغ، ١٩٩٦، ميثاق الطائفة، ٣ ص ١١٦).

وإلى جانب فهمهم للشيطان بصفته قوة كونية تشن حرباً متواصلة ضد الإله، عرفت المسيحية المبكرة فهماً آخر له فهو الدافع المحرض الذي يقف خلف كلّ تصرفات الناس السيئة ومقاصدهم الشرير، وهو رئيس عصابة كبيرة من الأبالسة (العفاريت). ولا يعطي إنجيل العهد الجديد حلاً متماثلاً للإغواء: تقول رسالة يعقوب، إن الإله لا يغوي الإنسان (من الواضح أنه كان ثمة وجهة نظر تقول بهذا، وأن يعقوب يجادل ضدها)، «ولكن كل إنسان تغويه، وتفتنه، وتغرر به شهوة نفسه». ومعنى هذا أن مصدر الإثم كامن في داخل الإنسان. وبما أن يعقوب أرسل رسالته إلى اليهود في الشتات، فإنه من الجائز لنا أن نفترض أن المؤلف يعكس وجهة نظر أول جماعة من المؤمنين: اليهود - المسيحيين.

ولكن مصدر الإثم أخذ ينتقل شيئاً فشيئاً إلى الخارج، بالنسبة لوعي الكتلة الأساس من المؤمنين المسيحيين: لقد تحول الإثم إلى نتيجة للعمل الشيطاني الخبيث الذي يقوم به الشيطان والقوى التي تعمل بإمرته: كثرة من الأرواح الخبيثة والعفاريت، الذين يسكنون الإنسان. ومن المعروف أن أناجيل العهد الجديد قد أشارت إلى المسكونين بالأرواح الشريرة، الذين شفاهم يسوع منها: يذكر إنجيل متى «المسكونين» في سياق واحد مع المرضى، والبرص، والمصروعين. ولا يظهر هؤلاء الناس بصفتهم أفراداً شريرين، بل مرضى ومسلوبي العقل. أما الشياطين التي يجري طردها من المرضى، فإنها لا تجرؤ على مقاومة يسوع، بل تتوسل إليه أن يسكنها قطيعاً من الخنازير (متى): يبدو أن هؤلاء كانوا من صغار العفاريت، وليسوا من أدوات الشيطان، وعليه فقد رأوا في طردهم مجرد إبراء من مرض.

ولكن التصورات التي ظهرت بعد ذلك تحت تأثير المعتقدات الوثنية بوجود كثرة من الأرواح الشريرة الجبارة، وتأثير ديانات الشرق الثنوية، وإلى حد ما تحت تأثير التصورات المسيحية نفسها عن الشر، والإثم، والعقاب، هذا كله أفضى إلى ضرب من المبالغة في دور الشيطان وخدمه العفاريت الذين يسكنون الإنسان لكي يدفعوا به إلى الإتيان بأعمال حمقاء. وتبدو الثنوية بجلاء في رسالة برنابا المنحولة (وبرنابا، هو حسب أعمال الرسل، رفيق بولس الرسول)، التي كتبت في أوائل القرن ٢م: يتحدث كاتب الرسالة عن طريقين أمام الإنسان لا ثالث لهما، هما طريق الإله وطريق الشيطان (Barn. ١٨). وتتلقى صورة الشيطان نفسها هنا تلويناً، فطريقه طريق «سوداء».

وفي القرنين ٢-٣م عالج اللاهوتيون المسيحيون بدورهم مسألة الشيطان ودوره، ولكن تشكل التصورات الشعبية انعكس أول ما انعكس في الكتابات المنحولة التي كانت موجهة إلى الكتلة الأساسية من جماهير المؤمنين، ومع أن هذه الكتابات لن يعترف بها فيما

بعد، سوف تحظرها الكنيسة، إلا أنها سوف تؤدي دورها في المعتقدات التي ترسخت عميقاً لدى سكان الإمبراطورية. فهذه الكتابات لم تنقل فقط أكثر الخرافات خيالية، إنما تضمنت أيضاً مواعظ للمؤمنين، بما فيها تلك التي ترشدهم إلى تفادي مقاصد الشيطان. ويمثل أهمية في هذا السياق كتاب هيرما: «الراعي» (الذي يرجح أنه كتب في حوالي العام ١٠٢م). وخلافاً للبنية التعبيرية المعقدة التي جاءت فيها رؤيا يوحنا اللاهوتي، فإن صور كتاب «الراعي» وأمثاله جاءت موجهة إلى أناس ليسوا على درجة عالية من الثقافة، متعطشين إلى تلقي إجابات واضحة على الأسئلة التي تمضهم. ومن أهم المسائل التي طرحها «الراعي»، المسألة الأخلاقية، ومعايير السلوك المسيحي. وفي سياق هذه المسألة تبرز مسألة دور الشيطان، والأرواح الشريرة، وقدرة الإنسان الفرد على مواجهتهم.

وحسب الاستدلالات العقلية الواردة في الجزء الذي يدعى «الوصايا» من هذا المؤلف، أنه ثمة إلى جانب كل إنسان ملاكان، ملاك صالح، وملاك شرير. ويدخل هذا الأخير قلب الإنسان، فيملؤه بالحقد، والكمد، والطمع، والغطرسة، والشهوة و.. وفي غضون ذلك فإن الإيمان لا ينقذ من الملاك الشرير، لأنه يستطيع أن يدخل قلب المؤمن أيضاً، وعندئذٍ لا بد لهذا من أن يأثم. وعلى هذا النحو فإن كل هذه الأحاسيس الخبيثة والدوافع الرديئة تبدو كأنها ذات منشأ خارجي، أي على الضد مما كتبه مؤلف رسالة يعقوب. والحقيقة أنه يجب على المؤمنين أن يأخذوا بالحسبان مصدر مثل هذه المقاصد ويقاوموها. ويبدو أن إدراك كون الشيطان هو الذي يفرض السلوك الخبيث على الإنسان قد ساعد الناس على ألا يشعروا أنهم ملكؤون بالإثم حتى النهاية، وهذا ما خفف من وطأة الإحساس بالإثم وجعله مجرد حالة ضعف عجز الإنسان خلالها عن مقاومة الشيطان.

وفي مكان آخر من «الوصايا»، يناقش المؤلف بالتفصيل فكرة جبروت الشيطان. فقد حدّث هيرما المرشد الذي ظهر له (وقد دعا هذا نفسه «ملاك التوبة»)، عن أن الشيطان عنيد ويكرس قوته كلها ليناهض عبيد الإله. وتأتيه الإجابة: ليس الشيطان قوياً إلا أمام ضعيفي الإيمان، فهو يغوي المؤمنين، لكنه لا يستقر إلا فيمن إيمانه ناقص، فيتحول هؤلاء إلى عبيد له. ومن لا يلتزم بالوصايا يهلك نفسه بنفسه: يبدو كأنه تجري هنا محاولة للجمع بين فكرة التحريض الشيطاني والمسؤولية الشخصية للفرد عن سلوكه.

وحسب هذا المؤلف أن الشيطان هو المسؤول أيضاً عما يفعله الأنبياء الدجالون (في القرن ٢م كانت هذه المسألة من أكثر المسائل حدة في الأوساط المسيحية، إذ دار صراع مرير بين مختلف المجموعات المسيحية، وكان كل داعية من الدعاة الذين لا عد لهم. يتهم خصمه

بتحريف تعاليم المسيح الحقة): روحه تستقر فيهم. وفي غضون ذلك، علاوة إلى تنبؤاته الجوفاء يستطيع النبي الدجال أن يقول شيئاً ما صحيحاً، بعون من الشيطان، لكي يستميل المؤمنين إلى جانبه (الوصايا)، وبذا يعترف اعترافاً غير مباشر بغدر الروح الشرير وقوته.

أما باعث كل الاستدلالات العقلية في فكرة الشيطان، فهو إقناع الناس بألا يخافوا الشيطان، وقد ألح «الراعي» على هذا السعي إلحاحاً كبيراً («لا يستطيع الشيطان أن يستقر في عبيد الإله الذين يؤمنون بالرب من كل قلوبهم»). وجاءت هذه المحاكمات بمثابة رد خاص على الإيمان الناشئ بالشيطان عدواً رئيساً للإنسان يدفعه إلى الارتداد عن دين المسيح، واستجابة ضد الخوف المتصاعد تجاه رأس أرواح الشر هذا.

ففي القرن الميلادي الثاني ظهر الشيطان بصفته الصورة الوحيدة للجبار الذي يرئس أرواح الشر كلها، فعلى هذا النحو بالذات كتب يوستين (المنافحة). لقد حاول المدافعون عن المسيحية لدى مواجهتهم مثل هذه العقائد، أن يوافقوا بين وجود الشيطان بصفته تجسيداً للشر، وبين وجود الإله بصفته الخالق الوحيد للعالم. ففي بحثه «ضد سيلس» كتب اوريجينوس يقول، إن العفاريت مخلوقات الإله أيضاً، لكن الإله لم يخلقهم عفاريت، بيد أنهم بصفتهم كائنات عاقلة، ابتعدوا عن الصلاح بإرادتهم. ورأى ترتوليان بدوره، أن الشيطان الذي خلق منذ الأزل صالحاً، لم يبق على ما كان عليه من صلاح، فاستهتر بإرادته، وزرع الآثام، وصار إلى المذنب في الشرور كلها.

لقد أخذ الإيمان بالعفاريت يتنامى في أوساط الجماهير المسيحية وحاول مختلف المؤلفين أن يشرح دوافع عدوانية العفاريت تجاه الناس. وجاء التفسير الأقرب إلى مستوى الوعي العادي البسيط، لدى مينوسيوس فيليكس في حواره: «اوكتافيوس»، حيث ساق المؤلف في حواره هذا تعليلاً لسعي العفاريت إلى رد الناس عن الإيمان الحق. وحسب المؤلف أنه ثمة أرواح خبيثة كاذبة سقطت من النقاء السماوي. لكنها فقدت هذا النقاء ودنست نفسها بالعيوب، ولكي تخفف من وطأة التعاسة التي تعاني منها، لا تنفك تدفع الآخرين إلى الهلاك، ويدفعها ابتعادها عن الإله إلى دفع الآخرين إلى الابتعاد عنه. وهكذا يرى فيليكس أن ما يدفع العفاريت إلى سلوكها العدواني، هو دافع ما يشبه الحسد، فالسلوك البشري الأحمق الصرف يعزّيها، لأنها لا تريد أن ترى أنها وحدها الخاسرة. من الواضح تماماً أن هذا التفسير يعكس التصورات «الدنيا» عن الدوافع التي تكمن وراء كثير من التصرفات السيئة: فلا يظهر العفاريت هنا بصفتهم «ولاة الظلام» بقدر كونهم كائنات شريرة صغيرة. ووفق حوار «أوكتافيوس» هذا، أن العفاريت تساعد السحرة على صنع «ما يشبه المعجزات» وتشهد هذه

الكلمات الأخيرة على أن العفاريت لا تكتفي بإغواء المؤمنين، إنما تمد يد العون إلى مختلف ضروب المشعوذين والسحرة أيضاً.

وفي أواخر العصر القديم أخذ الشيطان والعفاريت يؤدون دوراً متزايداً. فهم المحرضون على كل عمل شرير يأتيه مسيحي، أو وثني، أو يهودي. وقد زعم الشيطان في إنجيل نيقوديموس الذي لم يوضع قبل القرن الميلادي الثالث، أنه هو الذي وسوس لليهود لكي يصلبوا يسوع، مع أن هذا الزعم لم يكن يتوافق مع رواية الأناجيل القديمة، ولا مع النظرية اللاهوتية التي حملتها. ففي أعمال الرسل أن الذين كانوا يضطهدون هؤلاء هم أشخاص تحركهم دوافع واقعية واضحة تمام الوضوح: اليهود الغايورون وحرفيو مدينة أفَسُس الذين أثارت سخطهم مواعظ بولس التي هاجم فيها آلهة الوثنية (بخاصة الإلهة أرطميس)، ولم تكن الدواعي الدينية هي التي تحرك هؤلاء، إنما خشيتهم من أن تتقلص أعداد الزبائن الذين يشترون المجسمات الفضية التي كان يصنعها هؤلاء لمعبد الإلهة. ولذلك تقدم هؤلاء بشكوى إلى السلطات المحلية التي اختلفت مواقفها كما أشرنا سابقاً: في مدينة فيليبوس أمروا بجلد بولس ومرافقيه بالعصي (أعمال الرسل)، أما نائب القنصل غاليون، فقد رفض محاكمة بولس معلناً أنه لا يريد أن يكون حكماً بين المسيحيين واليهود (المصدر نفسه)، وفي أفَسُس لم تكن مواعظ المسيحيين هي التي أقلقت السلطات، بل الحشود الضخمة التي تجمعت في المسرح لتعبر عن رفضها لتلك المواعظ (المصدر نفسه). وليس للعفاريت أو الملائكة أي حضور في هذه القصص التي من المؤكد أنها وقعت فعلاً. بيد أن صحة وقوع الحدث وحدها لم تكن كافية بالنسبة لمخيلة مسيحيي الحقبة المعنية. وحسب س. س أفيرينتسيف أن مثل هذه المنحولات حملت قدراً كبيراً من استقلالية الخيال الروائي، ومهدت سبيل أكثر المشاهد شذوذاً، ولا أخلاقية، وهو ما يناقض أسلوب المسيحية. فعندما كان الحديث يجري عن العفاريت، لم يقتصر الأمر على خيال مؤلفي تلك القصص: لقد كان المسيحيون الذين عايشوا حملات الاضطهاد في القرن ٣م، وعانوا أزمة حادة عاشتها الإمبراطورية كلها وقتئذٍ، كانوا يريدون أن يصدقوا أن أتباع الشيطان وشركائه، هم المذنبون في كل تلك الشرور، وأن التغلب عليهم بالمعجزات التي تصنع باسم يسوع، أمر ممكن. وكان سيلس خصم المسيحية، قد تحدث عن كثرة من أسماء العفاريت التي وردت في كتابات المسيحيين، وعن شتى ضروب التعاويذ التي كانت تستخدم ضدها، وطقوس التطهر منها، والحجب وما شابه (أوريجينوس، ضد سيلس). والعفاريت تحديداً، هي التي ظهرت بكثرة في التعاويذ السحرية عند الغنوصيين، لكن كلمات سيلس تنسحب على المجموعات المسيحية كلها تقريباً، وفي

سياق الإيمان بالعفاريت كانت المواقف تتبدل تجاه صور آلهة الوثنية، أصنامهم: كان يبعث من جديد تصور قديم[1] بات شبه مستأصل في العصر الإغريقي - الروماني، مؤدّاه أن الأصنام هي مسكن الآلهة. وثمة في كتاب العهد القديم موقف حاد معاد لأصنام آلهة الوثنية: دعيت هذه الأصنام في سفر أرميا بالأعمدة المصقولة العاجزة عن الكلام والحركة، ولذلك تحمل حملاً (أرميا). كما دعا النبي اشعياء الأصنام بالأشياء التي لا نفع منها، فهي مصنوعة من بقايا الأشجار التي كانوا يحرقونها ليتدفؤوا بنارها. وفي النص التوراتي أمثلة أخرى كثيرة على هذا. ولم يكن موقف المسيحيين الأوائل من الأصنام مختلفاً عن موقف اليهود منها. فقد أكد بولس على أن الأصنام التي كان يتوسلها المسيحيون الجدد من قبل، هي أشياء صامتة لا حياة فيها (رسالة بولس الأولى إلى كورينثوس)؛ ويقول مؤلف الرسالة عينها في مكان آخر، إن الصنم لا يمثل في الكون أي شيء. وحسب أعمال الرسل أن بولس حاول في خطبه أن يقنع الأثينيين بأنه ينبغي على الإنسان ألا يظن أن الآلهة كالذهب، أو الفضة، أو الحجر الذي يمنحه الفن والإبداع البشري صورة بشرية (أعمال الرسل). وفي القرون الميلادية الأولى تبدل بدوره موقف سكان الإمبراطورية الرومانية غير المسيحيين، من التماثيل (في أقل تقدير، موقف الشريحة المثقفة): في رده على اتهام المسيحيين له بعبادة الأصنام، كتب سيلس يقول، إن الأغبياء وحدهم يمكن أن يروا في التماثيل آلهة، فهذه ليست سوى تصاويرهم (أوريجينوس، ضد سيلس).

ولكن المنحولات التي وضعت ابتداءً من القرن ٢م تفيد بأن المسيحيين أخذوا يرون في الآلهة الوثنية عفاريت، وفي الأصنام أمكنة إقامتها، وبفضل ذلك يمكن لتصاوير الآلهة أن تصنع المعجزات، وتنطق بالنبوءات، وتشفي المرضى (ولكن لغاية شريرة، هي إخضاع الناس لإرادتها): إن ما يحدث إذن، هو إحياء الإيمان بالقوة السحرية للتصاوير. وقد انعكست هذه التصورات عن الأصنام - العفاريت بجلاء ووضوح، في «آلام الرسول برثولماوس». فحسب هذا المنحول أن برثولماوس توجه إلى الهند لكي يعظ بالمسيحية، وكانت هذه البلاد تقع وفق تصوراتهم على أطراف الكون (لقد كانت هذه بلاداً أخرى غير تلك التي عمل فيها الرسول توما[2]، وربما كان المقصود بهذه الهند، شبه جزيرة العرب). وهنا دخل برثولماوس إلى معبد فيه صنم عشتروت، وقد كان يقيم هنا إقامة دائمة عفريت يشفي الناس من الأمراض،

١- بعد أن أخمد الفرس في العام ٥٠٠ق.م انتفاضة إغريق آسيا الصغرى، قرروا معاقبة ميلتوس زعيمة الانتفاضة بحرمانها من حماية الآلهة، فنقلوا تمثال إلهها الحارس أبوللون ومعبده إلى مكان آخر.

٢- لقد جاء في أول المنحول، إنه ثمة ثلاثة بلدان تدعى الهند: تلك التي تفضي إلى أثيوبيا، وتلك التي تفضي إلى ميديا، وتلك التي تقع بلاد الظلام على أحد جانبيها والمحيط على الجانب الآخر. وإلى هذه الأخيرة جاء برثولماوس.

ولكن من الأمراض التي يتسبب هو بها فقط. ولم يستطع العفريت أن يفعل أي شيء بحضور برثولماوس، وعندئذٍ سأل القائمون على الصنم الآخر بيريت عما حصل لمعبودهم. فأجابهم هذا قائلاً، إنه منذ دخول برثولماوس إلى المعبد، لم يعد بمقدور عشتروت أن ينطق بأي كلمة.

ومن الطريف أن الأصنام في هذه القصة، هي التي تتحدث (خلافاً للأصنام القديمة، إذ كان الكهنة أو المتنبئون هم الذين ينطقون باسمها): لم تعد بكماء. ومن ثم، بعد وصف عدد من المعجزات التي صنعها برثولماوس، يورد المنحول الحديث الذي دار بينه وبين العفريت الذي قيّده الرسول: لقد اعترف العفريت أن يعمل بإرادة ربه الشيطان، فهذا يرسل العفاريت التي تخدمه طائعة، إلى الناس لكي تهلك الجسد أولاً، ثم الروح بعد ذلك. فأمر برثولماوس العفريت بأن يخرج من الصنم ويدمره بنفسه، فامتثل هذا للأمر وأطاح بباقي التصاوير التي كانت تزين المعبد. ويصف المنحول المظهر الخارجي للعفريت الذي خرج من الصنم وصفاً دقيقاً: لم يعد هذا مجرد روح مجرد، لقد تحولت التصورات عنه إلى «أشكال مادية»، فهو أكثر سواداً من السخام، له لحية طويلة، وجدائل شعره تصل حتى قدميه، عيناه تقدحان شرراً، ويطلق أنفه لهباً كبريتياً، وله علاوة إلى هذا كله جناحان شوكيان: لم تكن مخيلة الذين يؤمنون بوجود الأرواح الخبيثة تبخل بأي زخارف لصنع صورة مرعبة. ويعد هذا الوصف من أقدم المحاولات التي أعطت صورة الروح الخبيث وصفاً محدداً، ثم أخذت هذه الصورة تتأرجح حول ذاتها في الخرافات التي ظهرت فيما بعد. وانتهت الحكاية مع العفريت بظهور ملاك رمى به إلى الصحراء الخالية من البشر، وسوف يبقى هناك إلى يوم القيامة.

وتقف العفاريت في كل القصص المشابهة عاجزة تماماً أمام الرسل والملائكة، وبمعنى آخر، إن أحداً سوى الكائنات السماوية والذين يمتلكون قوة خاصة من البشر، لا يستطيع أن يواجه هؤلاء. أما الدوافع الذاتية لدى المؤمن العادي، أي ما تحدث عنه «راعي» هيرما في حينه، فلم تعد كافية في نظر مسيحيي الزمن المتأخر، لمواجهة قوى الشر: لقد غدا الخوف من الشيطان عظيماً جداً، وبات الإحساس بضعف الإمكانات الذاتية للإنسان أعظم.

وإذا كان الرسل هم، حسب المنحولات، الذين يواجهون العفاريت ففي القرن الميلادي الثاني أخذت الكنيسة على عاتقها مهمة طرد الأرواح الخبيثة. وقد أنشئت فيها وظيفة خاصة، هي «طارد»العفاريت: الإيغزورسيت. ويقول ترتوليان، إن طرد الأرواح الخبيثة كان يجري باسم المسيح: لدى النطق باسمه كانت العفاريت تصاب بحالة رعب وتفر هاربة من أجساد المرضى المسكونين (المنافحة)، ورأى ترتوليان في غضون ذلك أن رجال الاكليروس وحدهم القادرون على طرد الشيطان. وأدخلت إلى القواعد الطقوسية التي جاءت في وثيقة

«القواعد المصرية» التي نشرت في العام ١٩١٦م، صيغة نبذ الشيطان أثناء تأدية طقس المعمودية (لقد رأوا في كل وثني وليد الشيطان). لكن وظيفة الإيغزورسيت اختفت فيما بعد، إلا أن وعي المسيحيين حافظ على حالة الخوف من العفاريت وضرورة السعي إلى طردهم.

وبالتزامن مع مسألة مصدر الآثام، ظهرت أمام المؤمنين مسألة عقاب الآثمين. ففي «راعي» هيرما، ليس الشيطان هو الذي ينفّذ العقاب، إنما الملاك الذي يرسله الإله: الأضرار، والعوز، والأمراض. ولكن إذا ما ندم هؤلاء وتابوا توبة حقيقية، وصاروا إلى خدم يخدمون الإله بكل قلوبهم، فإنه لن ينالهم أي حيف بعد ذلك. أما أولئك الذين أغواهم الملاك الشرير، وراحوا يعيّبون الرب، فإن ندمهم لن ينفعهم: مصيرهم هو الهلاك الأبدي، خسارة ملكوت السموات.

ولكن تشبيه الهلاك النهائي بخسارة ملكوت السموات لم يكن تشبيهاً عيانياً واضحاً: ابتداءً من القرن الميلادي الثاني أخذت تتشكل في أوساط المسيحيين تصورات عن المكان المخصص لمعاقبة الآثمين، وشتى وسائل الجزاء على الأعمال. ولم يعط كتاب العهد الجديد تحديداً واضحاً لمكان عقاب الأشرار، إلا أن أهم علامات هذا المكان حسب الكتاب المذكور، هي النار: سعير الجحيم، أتون النار «حيث البكاء وصريف الأسنان» (متى)، و «الظلمة الأزلية» كنقيض للنور، أي ملكوت السموات (متى). غير أن الوعي الجماهيري لدى من كانوا وثنيين منذ برهة ولا يدركون العالم إلا عبر صور حسية محددة، رأى في المناقضة الصوفية لطرفي معادلة عتمة - نور، مناقضة شديدة التجريد. وفي القرن ٢م أعطى كتاب رؤيا بطرس المنحول الذي عثر عليه مع مقاطع من إنجيل بطرس، وصفاً ما لجهنم: مكان مكفهر كئيب، يلقى الأشرار فيه شتى صنوف العقاب. وتعطي رؤيا بطرس لهذا المكان صورة تبعث الرعب في النفس: نار مستعرة، وبحيرة يعوم فيها مختلف أنواع القاذورات. هنا ينال عقابه الأبدي كلّ من كفر وترك طريق الحق؛ ولكن أقسى أنواع العقاب تنزل بأولئك الذين تركوا «الطريق القويم» (أي المسيحيين الذين ارتدوا عن تعاليم المسيح). وثمة في جهنم أيضاً الزانيات اللواتي أجهضن، والأثرياء الذين لم يمدوا يد العون لليتامى والأرامل، والمرابون، والقتلة الملقى بهم في حلكة مليئة بشتى أنواع الزواحف والقوارض السامة. ويشرف على إنزال العقاب ملائكة في ثياب حالكة السواد، ولكن ليس لأنهم قوى شريرة، إنما لكي تتلاءم أزياؤهم مع ظلام المكان. ويثير الانتباه في هذا المنحول تفصيل صغير يعكس وعي الجمهور المتعطش للانتقام: تشاهد صنوف التعذيب الرهيبة التي تنزل بالقتلة، أرواح القتلى الذين كانوا قد قتلوهم: ويمجد هؤلاء في أثناء ذلك العدالة الإلهية

(من الواضح أن العقاب الذي يناله المجرمون هنا والآلام التي تنزل بهم، تصدر عن الإله، حسب تصور المنحول، وليس ثمة وجود للشيطان في وصفه هذا).

ولجهنم وصف آخر يرقى إلى زمن متأخر بعض الشيء (القرن ٣م)، ورد في أعمال توما الرسول التي وصلت إلينا في روايتين: سورية وإغريقية، ومن الواضح أن هذه الأخيرة هي عبارة عن ترجمة معدّلة للنص السوري[1]. وتعد أعمال توما أثراً مسيحياً معقداً يحمل تأثيراً غنوصياً قوياً، إلا أنه يتضمن علاوة على التأملات اللاهوتية، قصصاً يرجع مصدر إنشائها إلى المعتقدات والتصورات الشعبية، ومنها وصف قصص بعد الموت. وقد جاء هذا الوصف أكثر تفصيلاً في النص الإغريقي منه في النص السوري، وهو يردد أصداء رؤيا بطرس، ولذلك سوف نتوقف عنده. فالوضع الذي يسبق وصف جهنم، على الوجه الآتي: شاب مسيحي يقتل الفتاة التي كان يعشقها لأنها رفضت أن تتخلى عن لهو العشق وتغدو مسيحية، فهو لم يكن يريدها أن تنتقل من رجل لآخر. ووصلت أخبار الجريمة إلى الرسول توما، فمضى هذا مع الفتى النادم التائب إلى الفتاة المقتولة وأحياها، وما كان من هذه بدورها إلا أن روت ما حصل لها بعد أن ماتت: «لقد أخذني رجل منظره مخيف، كله أسود، ثيابه ملطخة (صورة أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة ملاك القصاص - ي. س)، وقادني إلى مكان فيه مهاو كثيرة يتصاعد منها بخار قاتل». لقد كان بعض المهاوي يجأر بنيران مستعرة، وكان الباقي منها يعج بشتى أنواع القاذورات والديدان، كما رأت الفتاة كهوفاً تنبعث منها روائح نتنة. وفي أثناء ذلك كان المرافق الأسود يروي لها بالتفصيل عن الآثام التي يلقى الأشرار قصاصهم عليها: هنا الزناة (من الرجال والنساء)، والزوجات اللواتي تخلين عن أزواجهن وعاشرن رجالاً آخرين، والنساء اللواتي أجهضن أحمالهن. وهنا المفترون، والنمامون، والكذابون، والناطقون بالسوء دون أن يخجلوا من ذلك: كل من هؤلاء معلق من لسانه. أما المستهترون، والمتسيّبون، والحمقى فكل منهم معلق من شعره، وعلق اللصوص من أيديهم، وكذلك كل من لم يمد يد العون للمحتاجين؛ وعلق من قدميه كل من مشى في طريق الباطل طائعاً.. (أعمال توما). ونلفت الانتباه إلى أنه لا وجود في هذا الوصف للصالحين الذين يشاهدون آلام الأشرار، فقد باتت جهنم الآن مكاناً معزولاً تماماً عن مثوى النعيم. إن كلاً من رؤيا بطرس وأعمال توما: يعكس التصورات الشعبية عن القصاص المخصص لكل نوع من أنواع الجرائم: فلم يعد هذا

١- في كتابها: أعمال توما الرسول الذي صدر في موسكو في العام ١٩٩٠م، قدمت ي. ن ميشبرسكايا دراسة مسهبة للرواية السورية ولترجمة «الأعمال» عن النص السوري انظر كذلك: ي. ن ميشبرسكايا أعمال الرسل المنحولة. موسكو، ١٩٩٧.

«الظلمة الأزلية» أو «الجحيم المستعرة» اللتين تحدث عنهما المسيحيون الأوائل، الذين رأوا في فقدان نور الملكوت الإلهي أقسى أنواع القصاص. وما تجدر الإشارة إليه أنه ثمة ما يفيد في «أعمال توما» بأن هناك آلاماً لا تسمر أبداً: يقول الشخص الأسود، إن بعض الأرواح ينتهي عقابها، والأخرى يتواصل.

لكن مرافق المرأة ليس هو سيّد مكان القصاص، بل هو تابع من أتباع القوى العليا: عندما طلب منه حراس الكهوف روح المرأة، أجاب بقوله: «لا يمكنني أن أفعل ذلك، لأني أخشى ذلك الذي عهد بها إلي، فهو لم يأمر بإبقائها هنا. وأنا أتجول معها إلى أن يأتيني بها أمر». وبعد هذا قاد المرافق المرأة إلى مكان آخر، ثم عهد بها يسوع إلى توما الذي أعادها إلى الحياة بعد مقتلها. وعلى هذا النحو ليس مرافق المرأة تجسيداً للشر، بقدر كونه تجسيداً لكابوس القصاص؛ وقد آمن المسيحيون في غضون ذلك أن المعجزة قادرة على تجنيب المرء الآلام: كائناً من كان مرافق المرأة الأسود، إلا أنه لم يجرؤ على عصيان أمر يسوع.

ولكن التصورات المحددة عن آلام جهنم لم تعط إجابات على عدد من الأسئلة المهمة بالنسبة لدعاة التعاليم الدينية، كما بالنسبة للمسيحيين العاديين: ماذا كان يحصل لأرواح الموتى قبل ظهور المسيح، وأين مستقر الأسلاف الأوائل والأنبياء الذين كانوا قد بشروا بقدومه، وهل الجنة وجهنم كانتا موجودتين منذ الأزل؟ وقد تصدى للإجابة على هذه الأسئلة وسواها إنجيل نيقوديموس المنحول، الذي تضمن وصفاً لرحلة يسوع المسيح إلى جهنم[1]. ويبدأ هذا الإنجيل بروايات لأناس بعثوا من الموت بالجسد عائدين من جهنم، وأخذوا يروون ما كانوا قد شاهدوه هناك: تقع جهنم تحت الأرض (وجاء في هذا المنحول أن الحياة الدنيا تجري في «العالم العلوي»)، بيد أنها لا تظهر كمكان مخيف يجري فيه قصاص الآثمين، فقد أقام هناك قبل نزول المسيح إليها، آدم وأبناؤه، والأحبار والأنبياء التوراتيون، ويوحنا المعمدان. وثمة إشارة عابرة وردت في سياق كلام المعمدان، توحي بوجود الوثنيين هناك كذلك. ففي موعظة خاطب فيها هذا سكان جهنم، دعا الذين كانوا يعبدون الأوثان إلى التوبة، ثم لم يرد أي ذكر لهؤلاء بعد ذلك. وإلى جهنم يأتي الشيطان أيضاً، ويدور حديث بينه وبين جهنم التي تشخصت الآن تبعاً لتصورات العصر الإغريقي - الروماني عن سيد العالم

١- يتألف هذا الإنجيل من جزأين كل منهما موضوع مختلف: وصف التحقيق مع يسوع ومحاكمته، وقد وضع استناداً إلى وثيقة مزيفة نسبت إلى بيلاطس (لا سيما التقرير المزيف الذي زعم أن بيلاطس قد بعث به إلى الإمبراطور كلاوديوس، بينما حقيقة الأمر أن التقرير المذكور قد وضع فيما بعد بهدف تبرئة السلطات الرومانية من إعدام يسوع)؛ ووصف نزول يسوع إلى جهنم. وكان نص هذا المنحول قد وصل إلينا في نصه الإغريقي، ونصه اللاتيني الأكثر كمالاً، ثم في نصه السلافي.

السفلي هاديس، وغدت حارسة ذلك العالم. ومع أن جهنم كانت ترتبط بطريقة ما بالشيطان، إلا أنها لم تخضع له بعد، ولذلك فهي تجادله. وفي الحديث المعني ينذر الشيطان جهنّم بمجيء يسوع إليها، ويطلب منها ألا تتركه يعود. ويقول: إن يسوع يدعو نفسه ابن الإله، «لكنني أعرف أنه إنسان، وسمعته كيف كان يقول: تجزع نفسي حتى الموت». لكن جهنم تعترض وتؤوّل كلماته هذه هكذا: «لقد قال هذا لكي يسخر منك، ويقيدك بيد قوية». ومن الواضح أنه ينعكس هنا إدراكهم ليسوع (وهو الإدراك الذي أخذ يتكون من القرن ٢)، بصفته إلهاً كلي القدرة لا يمكن أن يعاني آلاماً. ففي حديثه مع جهنم تحديداً، يقول الشيطان إنه هو الذي حرض اليهود على قتل يسوع. وبعد ذلك يصف المنحول ظهور المسيح. فقد حاولت جهنم أن تمنعه من الدخول: أغلق العفاريت الخاضعون لها البوابات بالأقفال، لكن هذه تساقطت ودخل «ملك المجد» العالم السفلي بصفته إنساناً. فأقرت جهنم بالهزيمة، ودعت يسوع بالصغير الجبار، الوديع، المتسامي الذي يسود على الأموات والأحياء.. وما أن وطأت قدما يسوع أرض جهنم حتى أمر ملائكته بالقبض على الشيطان وتقييده وتسليمه إلى جهنم لكي تحتجزه عندها حتى المجيء الثاني ليسوع. وهكذا توحدت جهنم والشيطان وباتت هذه مستقرة. أما الصديقون التوراتيون فقد قادهم يسوع مع يوحنا المعمدان إلى الجنة، وبذا تكون شجرة الصليب قد حققت خلاص من أهلكتهم شجرة المعرفة[1]، ورسم يسوع فوق رؤوسهم علامة الصليب فمجدوه رباً. ولم يكن في الجنة قبل مجيء المسيح سوى حنوك وإيليا؛ ثم مضى إلى هناك أيضاً قاطع الطريق التائب الذي صلب مع يسوع، وقد جاء هذا حاملاً معه صليبه، لكنهم منعوه من الدخول لحين وصول الصديقين التوراتيين الخارجين من جهنم.

وتتمثل الفكرة اللاهوتية الرئيسة لهذا الجزء من إنجيل نيقوديموس في أن ظهور يسوع المسيح قد غير النظام الكوني كله: السماء، والأرض، والعالم السفلي، ومستقبل الجنس البشري، بل ماضيه كذلك. فيسوع القائم من الموت وحده الذي جعل الجنة مستقراً للأبرار، ونزوله إلى جهنم، هو الذي جعلها مستقراً للشيطان. وقد بدت هذه الفرضية التي عبر عنها في شكل تعبيري محدد، قريبة جداً من جمهرة المؤمنين، ومع الوقت كفت جهنم عن أن تكون تشخيصاً لهاديس، وصارت إلى مكان مظلم مخيف لا يشرف الملائكة فيه على قصاص

١- يبدو كأن هذا الحدث قد ضم الأحبار والأنبياء الأوائل الى المسيحيين وفصلهم عن اليهودية. وبهذا تندرج الرواية التوراتية في اللاهوت المسيحي، وفي آخر القصة جاء اليهود العائدون من الموت وقبلوا سر المعمودية في نهر الأردن، ويروى أنهم أعيدوا الى الأرض لكي يخبروا بالمعجزات التي تحققت

الأشرار، إنما العفاريت التي تأتمر بأمر الشيطان. بيد أنه من الصعب أن نجزم بمدى سرعة انتشار هذا التصور الجديد. فهناك في إنجيل بطرس المنحول تنويهاً عاجلاً بنزول يسوع إلى جهنم، إلا أنه ليس ثمة أي تفاصيل. ونحن يمكننا أن نعتقد بأن تصوراتهم عن قصاص محدد يجري في مكان مظلم (هذا المكان لا يدعى جهنم في «رؤيا بطرس» ولا في أعمال توما)، وعن تحول مملكة هاديس السفلى إلى جهنم المسيحية، كانت قد تشكلت شيئاً فشيئاً لدى مختلف الجماعات المسيحية، إلى أن أخذت في نهاية المطاف صيغتها وباتت مشتركة لدى جميعهم.

ولكن المسيحيين لم يخافوا القصاص في جهنم فقط، إنما أملوا نيل الحياة الأبدية في الجنة أيضاً. ففي وقت متزامن مع ظهور التصورات عن أنواع القصاص، ظهرت أولى أشكال وصف الجنة. ومن المعروف أن إنجيل العهد الجديد لم يعالج نظرية الجنة، فمثال أليعازر في إنجيل لوقا، يتحدث عن الثري الذي كان يتنعم، وأليعازر المعدم الذي كان يستلقي عند بواباته وجراحه متقرحة. وبعد الموت احترق الثري بنار جهنم، بينما حمل الملاك أليعازر إلى «حضن إبراهيم»، وهو المكان الذي جمع فيه إبراهيم أبناءه الأبرار. وليس واضحاً ما الذي كان يمثله هذا المكان. فهو مكان تفصله عن جهنم هوة لا قرار لها، ومع ذلك فإن بطلي هذا المثل يرى واحدهما الآخر، ومعنى ذلك أن «حضن إبراهيم» ليس في السماء، إنما في مكان ما خاص. ونحن نجد كلمة «جنة» (فردوس، بستان، بالإغريقية)، في إنجيل لوقا في قصة اللصين اللذين صلبا مع يسوع: أحدهما شتمه، والآخر وعظ الشاتم، وتوسل يسوع قائلاً: «.. اذكرني يا رب متى أتيت في ملكوتك»، فأجابه يسوع: «اليوم تكون معي في الجنة». أما في إنجيل متّى فقد شتم اللصان معاً يسوع؛ ولا يتحدث إنجيل لوقا إلا عن صلب لصين مع يسوع، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وربما كانت هذه الإشارة بالذات هي التي أوحت بمعاكسة الأحمق اليساري، بالصالح اليميني، وأعطت أساساً للوقا وحده دون الإنجيليين الآخرين لأن يكثف هذا المشهد.

ويصف إنجيل العهد الجديد مصير الأبرار بعد الموت، وصفاً مجازياً: مخدع الزوجية في مثال متّى عن الوليمة، «فرح ربّك» في مثال المواهب (متى) وجاء في رسالة بولس الأولى إلى الكورونثيين، إنه «لم تر ذلك عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب إنسان ما أعده الإله لمحبّيه»[1]. وثمة في رؤيا يوحنا وصف «لأورشليم المدينة العظيمة التي هبطت من السماء من

١ـ هذه الكلمات هي إعادة صياغة لما ورد في سفر اشعياء التوراتي «لأنه منذ الأزل لم تسمع اذن، ولم تر عين إلهاً آخر أعد كل هذا للذين اعتمدوا عليه». وتبعاً للإيمان بملكوت الإله الوشيك نقل بولس الثواب إلى الزمن الآتي.

لـدن الإلـه»: أورشـليم سماويـة هبطـت علـى الأرض حيـث سـوف تتحقـق مملكـة الإلـه. لهـذه الأورشليم اثنتا عشرة بوابة (أسباط إسرائيل، وتلاميذ يسوع)، كما وصف يوحنا الحجارة الكريمة واللآلئ التي تزين أسوارها وأبوابها، وما يلفت الانتباه أنه ليس في المدينة معبد، لأن الرب الإله هو معبدها، وليس هناك شمس ولا قمر، لأن قنديله هو الحَمَلُ (كناية عن يسوع). وسوف تغدو هناك وتروح الشعوب التي نالت الخلاص، لكن أياً من غير الطاهرين لن يدخل المدينة (رؤيا). ولكن هذا الوصف التعبيري الرمزي ليس وصف الجنة، إنما هو تصور اليهود - المسيحيين عن أورشليم المنبعثة من جديد، لتضم شعوباً شتى بعد يوم القيامة. بيد أن يوم القيامة هذا قد تأجل إلى زمن قادم غير محدد، وكان من الضروري بالنسبة لجماهير المسيحيين أن يحدد التصور عما ينتظرها إذا هي اتبعت طريق البر ونالت الجنة. فظهر في القرن ٢م أكثر من وصف للجنة وجهنم، حملهم إلينا كتاب رؤيا بطرس الذي يروي لنا عن أمكنة يقيم فيها «الأخوة الأبرار»: لقد أرى السيد تلاميذه مدى مترامياً يمتد خارج هذا العالم ينبعث منه ضياء خارق، ويبرق هواؤه بأشعة الشمس، وتزهو أرضه بزهور لا مثيل لروعتها ونباتات مزهرة يضوع عطرها، وتطرح ثمراً لم ير أحد مثله قط. وكان ساكنو تلك الأرض يرتدون ثياب الملائكة، وكان هؤلاء يرفرفون بينهم. وعلى المنوال نفسه كان جمال البشر الذين يعيشون هناك. ولم يفت المؤلف أن يصف صورة القديسين الذين كانوا تلاميذ: أجسادهم أكثر بياضاً من أي ثلج وأكثر احمراراً من كل زهر، وقد اختلط فيها اللونان، شعرهم مسترسل لامع.. وكان الأبرار يسبحون الرب الإله بصوت واحد. ومن الواضح أن الجنة في هذا المنحول، ليست أورشليم السماوية، إنما بستان تداخلت في وصفه القصص التوراتية عن عدن، وفكرة النور الإلهي، والخرافات الوثنية عن جزائر النعيم التي يقيم فيها الأبطال والحكماء. وفي مؤلفه «التاريخ الحق» يحاكي لوقيانوس هاجياً هذه المعتقدات كأنما يصفها على لسان شاهد عيان رأى الجزيرة بأم عينه، فالأرض ملكوءة بشتى أنواع الزهور، والأشجار المثمرة، والأعناب، وتتجول فيها أطياف لا أجساد لها. ولكن هذه الأطياف تقع خلافاً للجنة المسيحية، في فضاء شبه معتم. وفيما بعد دخلت التصورات التي أنشأتها المسيحية الشعبية عن الجنة وجهنم، في تعاليم الكنيسة، مع أن هذه الأخيرة لم تعترف بالمنحولات التي حملت وصفهما. ولكن لم يكن وصف الجنة وجهنم وحده الذي شغل عقول المؤمنين.

فابتداءً من القرن ٢م، وبخاصة في القرنين ٣-٤م، شاع في الإمبراطورية الرومانية جنس أدبي مسيحي خاص، تمثل في الحكايات الخرافية التي كرّست لشخصيات التاريخ الإنجيلي، وقد كملت هذه الحكايات المعلومات التي تضمنتها أناجيل العهد الجديد عنهم،

وعرضتها بطريقة مختلفة. ففي الأناجيل المبكرة، سواء التي دخلت الناموس أو الأناجيل اليهودية - المسيحية، كان الأساس الذي قامت عليه التعاليم، هو سر معجزة قيامة المسيح، هذه القيامة التي وعدت بمغفرة الخطايا والخلاص لدى حلول النهاية الوشيكة لهذا العالم الدنيوي. حتى المعجزات التي صنعها يسوع وفق ما ورد في الأناجيل، لم تكن شيئاً يذكر بالقياس إلى معجزة القيامة. فمعجزات يسوع كانت بالنسبة لمؤمني القرن ١م، معجزات شفاء من الأمراض قبل كل شيء. وساقت أعمال الرسل على لسان بطرس كلمات عن يسوع: «لقد مضى يبارك الجميع ويشفي من سكنهم الشيطان، لأن الإله كان معه». ثم أعطى يسوع تعليمات شفاء المرضى لرسله: وفق إنجيل توما الذي عثر عليه في نجع حمادي: «اشفوا المرضى بينهم». ولكن الذين اعتنقوا المسيحية لتوهم آتين من مختلف الجنسيات والتقاليد، كانوا بحاجة، كما يتضح من إنجيل الطفولة، إلى الإيمان بمسيحية كلية القدرة، ظافرة في كل شيء وفي كل مكان، وبإمكانية تحقيق معجزات ليس أقل من تلك التي وصفها الأدب الوثني. وكان قد وصف في هذا الأدب مختلف ضروب المعجزات المستحيلة التي حققتها شخصيات تاريخية حقيقية أو أبطال خلقتهم المخيلة، وقد جاء وصف ذلك كله لمساعدة الناس على سلوان أعباء الحياة وصعوباتها في الإمبراطورية البيروقراطية المترامية الأطراف. وهكذا شاعت حكاية الإسكندر المقدوني التي أنشأها المصريون، الذين رأوا في الإسكندر ابن الفرعون الأخير نيكتانيب. وتزعم القصة أن الإسكندر وجد نفسه في أثناء حملته الشرقية وقد دخل أرض العمالقة، وآكلي البشر، والأقزام، كما زار أيضاً المكان الذي يعيش فيه «المغبوطون». لقد كان لهذه القصة حضور شعبي جعلهم يترجمونها إلى لغات مختلفة منها، اللغة اللاتينية واللغة السورية. وكتب فليغونت في القرن ٢م «قصصاً مدهشة» يظهر فيها الأقزام، والعمالقة، والأشباح، والفيلسوف الشهير الذي عاش في القرن الميلادي الأول وعدّ من صانعي المعجزات. ونحن لا نستبعد أن يكون هذا العمل قد كتب تحت تأثير الأدب المسيحي ومناهضاً له في الآن عينه، ومع ذلك فإنه لا يمكن النظر إلى فيلوستراتوس في سياق هذا الأدب، وفق مصطلحي الاقتباس والتبعية.

وليس مستغرباً أنه على هذه الخلفية ذاتها نشأت قصص لا عن يسوع ووالدته فقط، إنما عن بيلاطس كذلك، وعن أعمال بعض الرسل. والسمة التي تميزت بها هذه الكتابات غير المعترف بها من قبل الكنيسة، هي الجمع بين وصف المعجزات الأكثر خرافية (المرتبطة غالباً بالتقاليد الفولكلورية) من تلك التي وصفها العهد الجديد، وبين الإرشادات التي سيقت على لسان الرسل وأولئك الذين يدعون شهود المسيح. بيد أننا إذا ما تمعنا في محتوى

المنحولات، فإننا نستطيع أن نرى أن وصف المعجزات فيها، خلافاً لأكثر المؤلفات الوثنية في الجنس عينه، قد أدى مع مواقف أبطال الخرافات الوظيفة عينها من حيث الجوهر: إظهار انتصار الإيمان المسيحي لا في المقبل البعيد، بل ابتداءً من لحظة بدء بشارة يسوع والرسل. وعلى هذه الخلفية باتت المعجزة لا تشكل سراً عظيماً بالنسبة لقاعدة المؤمنين المسيحيين. فهي يمكن أن تتحقق في أي وقت ومع أي كان. لقد تجلى في مثل هذه المؤلفات ما يمكن أن ندعوه الإبداع الميثولوجي التعويضي أو الموازن: عندما يتجسد المأمول المرتجى في إعادة فهم (أو حتى تزوير) التاريخ المقدس والزمني.

ويمكننا أن نتتبع حركة صيرورة مثل هذا الإبداع الميثولوجي أولاً وقبل كل شيء على مثال وصف أعمال بعض الرسل. فهنا يجري تحديد دقيق لمكان الحدث، وهو على وجه العموم مكان يعرفه سكان الإمبراطورية جيداً؛ ويجري كذلك إبراز شخصيات الحدث الحقيقة والمختلفة، بمن فيهم أباطرة روما وكبار موظفي الدولة الذين كانت تصرفاتهم مشروطة بموقف كل منهم تجاه المسيحية: إما أن يؤمنوا مباشرة بعد أن تصلهم البشارة ويرون المعجزات، أو ينزل العقاب بهم مباشرة بسبب تنكيلهم بالمسيحيين.

لقد وصلت إلينا أعمال الرسل المنحولة في روايات شتى وبلغات مختلفة (الإغريقية، والسورية، واللاتينية)، وهو ما يدل على شيوعها وشعبيتها الواسعة، على الرغم من عدم اعتراف الكنيسة بها. وكان السرد القصصي المتبع في محاور مثل هذه الأعمال على النحو الآتي: يصل الرسول إلى مدينة ما ليبشر بتعاليم المسيح، ويأتي مختلف المعجزات، فيدهش الشعب لدعوة الغريب وتتبعه الحشود. ومن الجدير قوله، أن المنشأ الأجنبي للداعية قد حفز من قوة تأثير دعوة الرسل على الشعب: من جهة كان الناس يخشون الغرباء، ومن جهة أخرى كانوا يؤمنون بجبروتهم. وقد أكد الباحث المعاصر في تاريخ العصر القديم بيتر براون، أن شعوب المقاطعات الشرقية تحديداً كانت وقتئذ ترى في الغريب كائناً خارقاً، وبجلوه بصفته صانع معجزات وقديس، لأنه لم يكن معروفاً في المكان وليس له فيه أي صلات عائلية أو مشاعية.

وفي أكثر الأعمال يدفع الرسول الحشد إلى تدمير معابد الوثنيين وأوثانهم، أو يفعل هو ذلك بكلمة منه. ثم تلي ذلك مواجهة مع السلطات. وعادة ما يجعلون أحداً ما من بيت الحاكم أو المقربين منه يعتنق المسيحية، وغالباً ما يكون الشخص المعني من النساء (وهذا ما يعكس الدور الحقيقي الذي أدته المرأة في مسيحية القرون الأولى). وفي هذه الحال كان الحاكم يعتنق الدين الجديد، أو يأمر بقتل الرسول، فيجر بذلك على نفسه عقاباً رهيباً. وقد

يحضر في الأعمال على التوالي، الحاكم الصالح والحاكم الشرير، كما على سبيل المثال في «آلام الرسول أندراوس»، وهو النص الذي يرتبط بمؤلف: أعمال اندراوس؛ وكان هذا المؤلف قد وضع في وقت مبكر بعض الشيء: ربما عند نهاية القرن ٢ وبداية القرن ٣م. وتدور أحداث القصة في مدينة تدعى باترا، مقر حاكم مقاطعة آخايا. فقد آمن الحاكم ليسبس ومعه الشعب كله بالمسيحية، واندفع جميعهم يدمر المعابد الوثنية ويحطم أوثانها، واحتفل ليسبس معهم بذلك المهرجان. ولكن الإمبراطور عزل ليسبس وعين إيجيات الذي حكم على اندراوس بالإعدام صلباً. ولكن زوجة إيجيات اعتنقت المسيحية، ثم تركته، «فاكتأبت روحه» ورمى بنفسه من مكان شاهق ومات. إن هذه القصة كلها، قصة تدمير المعابد وتحطيم الأوثان في القرن ١م، واعتناق الحاكم الديانة المسيحية، قصة مختلقة ولا أساس لها من الصحة. فاسما الحاكمين مختلفان، وقد اشتقّا من اسمي منطقتين. كما لم يكن من الممكن أن يحملهما سوى معتوقين، ووجود مثل هؤلاء حكام مقاطعات في تلك الحقبة، أمر غير معقول أبداً، ضف إلى هذا كله أن أسماء الولاة والشخصيات السياسية، كما هي حال تاريخ القرن ١م كله، معروفة جيداً وكان يمكن لمؤلف هذا المنحول أن يطلع عليها. بيد أن الواقع التاريخي لم يكن يعني شيئاً بالنسبة لمؤلفي مثل هذه الأعمال؛ ولم يكن مكان الحدث، والاسم الحقيقي للمنصب أكثر من إطار للأحداث التي لم تحدث قط، بيد أنه كان ينبغي عليها أن تحدث. وإلى القرن ٢م ينتمي مؤلف أعمال بولس وتقلا، وقد كتبت هذه الأعمال وفق نموذج ما عرف بالرواية الهلنستية التي عادة ما توصف فيها المصائب التي تقع لعاشقين فرقتهما الظروف. ولكن حديث الحب الذي يجري في «أعمال بولس وتقلا» يتناول الحب الروحي، الحب المسيحي، الذي له القوة العاطفية عينها، حب التلميذة لمرشدها. فتقلا فتاة رائعة تركت عائلتها وخطيبها بعد أن أخذت تماماً بدعوة بولس واعتنقت المسيحية، فكرست كل قواها للحفاظ على عذريتها، وعانت جراء ذلك شتى أشكال المضايقات والملاحقات، ثم حكموا عليها بالموت، ولكن معجزة أنقذتها منه. ويزعم ترتوليانوس أن راعي إحدى كنائس آسيا الصغرى، هو الذي كتب «أعمال بولس وتقلا»، وعزل بسبب ذلك من وظيفته (الجدال)، لأن القصة التي سيقت في العمل كانت مليئة بالمعجزات التي لم يكن بمقدور قادة المؤمنين وقتذاك أن يقبلوا بها: يكفي أن نشير على سبيل المثال، إلى أن يسوع تقمص صورة بولس لكي ينقذ تقلا من الموت الذي كان محدقاً بها. وعلى أي حال لم يشكل قرار قادة المسيحيين المحليين ضد مؤلف «أعمال بولس وتقلا» عائقاً أمام انتشار هذا المنحول.

وأثناء نسخ المنحولات وإعادة نسخها وتحريرها، تعرضت نصوصها للتغيير، فباتت النسخ الأحدث عهداً أكثر تعقيداً. وكان بعض المنحولات قد وضع مرة واحدة بصفته مؤلفاً مكتوباً: تقارير بيلاطس إلى كلاوديوس التي جاءت محاكية للتقارير الإلزامية التي كان ينبغي على الولاة أن يرفعوها دورياً للأباطرة. وأدى انتشار معرفة القراءة والكتابة في الإمبراطورية، وشيوع التخاطب كتابة، إلى نشوء جنس خاص من الكتابات كان له تأثيره على المسيحيين أيضاً. ففي الرواية السورية لأعمال أدّاي (واحد من الرسل) سيق نص الرسالة التي بعث بها الأبجر حاكم منقطة أوسروين إلى يسوع، وقد رد يسوع عليها برسالة جوابية شفهية، ولكن يوسفوس القيصري يورد في «التاريخ الكنسي»، رسالة يسوع نفسه إلى الأبجر.

وليس بين الباحثين وحدة رأي حول مصادر هذا الأدب. فتأثير الفولكلور واضح بجلاء في وصف المعجزات، وقد يكون لوصف المعجزات الوثنية تأثير في هذا المجال أيضاً. ولكن إذا كان الحديث ممكناً عن وجود تشابه معلوم بين الأدب الإغريقي - الروماني، والأدب المسيحي في القرون ٢-٤م، فإن هذا ينسحب أساساً على بعض الخطوط المحورية. ولا يجوز لنا أن نتجاهل أن السمة الجوهرية التي تميز الكتابات المسيحية عن الأدب الإغريقي - الروماني، هي الوظيفة التبشيرية الدفاعية، وكذلك السعي إلى إدراج الإرشادات اللاهوتية والتعاليم الأخلاقية في المحور التشويقي.

ويمكننا أن نلحظ في استخدام الأعمال للخلفية التاريخية ووقائع الحياة اليومية، حضوراً ما للتقاليد التوراتية. وكما أشار إ. فينبرغ، فإن كتاب العهد القديم عرف جنس الحكاية السحرية التي تروي حدثاً مختلقاً لا أساس له، ولكنها تفعل ذلك في قالب يهدف إلى خلق انطباع لدى القارئ - المستمع، بأنه أمام حدث حقيقي، ولذلك كانت تدرج في الحكاية تفاصيل معينة لم يكن نادراً أن تكون حقيقية. ولبعض الروايات «التاريخية» التوراتية التي أبطالها مختلقون، توجه إيديولوجي محدد: قصة استير وموردخاي على سبيل المثال، اللذين أنقذا الشعب اليهودي من الإبادة التي كان يعد لها هامان الغدار، الذي كان مقرباً من الإمبراطور الفارسي ارتاكسيراكس. فهذا الموضوع نفسه موضوع مختلق وكذلك شخصياته، حتى أسماء هؤلاء ليست أسماء يهودية، بل فارسية أو ربما بابلية. لقد أنشئت هذه الراوية أساساً لتبرير نشاط اليهود في القصر الفارسي، وهي ترتبط بالحالة السياسية التي كان يعيشها اليهود في المملكة الفارسية قبل فتوحات الإسكندر المقدوني، وعكست مطالب مؤلفيها ومتلقيها، كما انطلقت من القيمة الرئيسة التي كانت تدعو إليها: التفاني

في خدمة شعبك ضمن أي ظروف كانت. وقد كان يمكن لهذين الجنسين الأدبيين، التوراتي والوثني، أن يتركا تأثيراً على صيغة الكتابات المسيحية، إلا أن مهمة هذه الأخيرة وتعاملها مع التاريخ كانا مختلفين، لأن أبطالها: الرسل، كانوا شخصيات حقيقية معروفة، لكنهم كانوا يعملون في حالات مختلفة غير واقعية، ولأن مهمة الأعمال لم تتمثل في إضفاء الواقعية على الحكاية، إنما في إعادة إنشاء الحدث التاريخي بطريقة متحيزة. فما ورد في سفر استير لم يقع في أي زمان ومكان، إلا أنه نظرياً كان يمكن أن يحدث: لقد كان ثمة يهود يخدمون فعلاً لدى الإمبراطور الفارسي، ومن المعروف أنه كان للإمبراطورة دور كبير في القصر. أما ما وصفته المنحولات المسيحية فهو لم يحدث وكان من المستحيل أن يحدث.

لقد قامت في أساس أكثر الأعمال المنحولة، الروايات الشفهية التي ظهرت بعد إقرار الناموس المسيحي، وكانت هذه مدعوة لملء الفراغ في كتب العهد الجديد، وتمجيد الرسل الذين كانوا يحظون بتبجيل خاص في المنطقة المعنية، وما يلفت الانتباه أن قصص العهد الجديد قد خضعت في الأعمال المنحولة إلى معالجة فريدة من نوعها: يتضح هذا لنا عندما نجري مقارنة بين قصة مجيء بولس ومرافقيه إلى أفَسُس كما وردت في كتاب العهد الجديد، والقصة نفسها كما وردت في أعمال بولس الرسول المنحولة. فالأعمال في العهد الجديد التي كتبها حسب ما يرى أكثر الباحثين، مؤلف الإنجيل الثالث، تتضمن دون شك مبالغات واضحة في النتائج التي حققتها مواعظ الرسل، وفي حالات الشفاء التي حققوها. ولكن أكثرها نقل إلينا الوضع الذي كان يحيط بعمل الدعاة المسيحيين، بكثير من الواقعية: لقد كتب المؤلف الذي كان مرافقاً لبولس، كتب لأناس رأوا الكثير بأم أعينهم. وبالنسبة لهؤلاء كانت معجزة القيامة، قيامة يسوع، المعجزة الوحيد التي لا يمكن أن يكون لها مثيل أو نظير تقارن به. لقد آمنوا بقرب المجيء الثاني ليسوع الذي سوف يحقق لهم الخلاص، آمنوا بهذا إيماناً مطلقاً، حتى من غير أي قصص خيالية عن معابد تتهاوى بأوثانها في غمضة عين، أو اعتناق حكام وولاة للدين المسيحي. ويكفي أن نسترجع هنا وصف رد فعل الاثينيين على موعظة بولس في أثينا (أعمال الرسل)، حيث لم يتبع بولس عندئذٍ سوى شخصين؛ أو الصدام الذي وقع له مع حرفيي أفَسُس الذين تجمعوا في المسرح وفرق جمعهم أحد الحكام المحليين خوفاً من رد فعل السلطات الرومانية. فليست مثل هذه الحالة حالة حقيقية مطابقة لواقع الأشياء وحسب، بل هي حالة نموذجية لما كان يمكن أن يجري فعلاً: لقد كان سكان دول المدن الإغريقية لا يزالون يحسون أنفسهم شعباً له الحق في أن يقول رأيه في أي مسألة كانت، أما الرومان فقد كانوا يبذلون كل جهد لإخضاع هذا الشعب

الذي كان قد تحول من حيث الجوهر إلى مجرد حشود غوغائية، ووضعه ضمن نظام صارم. وتقول أعمال الرسل فيما يتعلق ببولس، إنه لم يكن موجوداً في الاجتماع، مع أنه رغب في أن يمضي إلى هناك، إلا أن تلاميذه وأصدقاءه منعوه.

ولكن هذه القصة لم تكن بالنسبة لمسيحيي الطور الأخير من الزمن القديم، ذات تأثير ملهم. وهاك وصف أعمال بولس المنحولة لحادثة مكوثه في أفَسُس: لقد انضم إليه حشد كبير من الناس، لكن ذلك كان السبب الذي أدى إلى التذمر: «إن هذا الشخص يحطم الآلهة، ويقول: سوف ترون أنتم كيف يحترقون في النار». فاختطف الحشد بولس وجاء به إلى المسرح، وهنا يأتي إليهم حاكم الولاية بنفسه، وليس مجرد أحد كبار الموظفين فقط. وكما في كل المؤلفات المماثلة، فقد ألقى بولس موعظة، وبعد ذلك اقترح الحاكم على الحشود أن تبت في أمره (كما اقترح بيلاطس في حينه على الحشود اليهودية أن تقرر مصير يسوع). فاقترح الحشد أن يرمى بولس للكواسر، فأمر الحاكم أن يجلد بولس ويرمى به للكواسر تمزقه. ولكن بما أننا نعرف أن بولس بقي على قيد الحياة بعد حادثة أفَسُس (يؤكد التقليد أنه ذهب ضحية تنكيل نيرون بالمسيحيين في روما)، إذن يجب أن يكون قد وقع أمر ما خيالي في مسرح أفَسُس. وحسب رواية المنحول عن الأحداث التي سبقت وصول بولس إلى أفَسُس، أن بولس قابل في طريقه إلى هناك أسداً مهولاً ركع عند قدمي الرسول وتوسل إليه بلسان بشري أن يمنحه المعمودية المسيحية، وقد لبى بولس طلب الوحش. وبعد أن تلقى هذا سر المعمودية مضى إلى البرية، وهذا الأسد بالذات، هو الذي أطلقوه في المسرح على بولس، فتحدث إليه ثانية ولم يمسه بسوء.

ومن الواضح أنه ليس ثمة ما هو مشترك بين هذه القصة والقصة التي وردت في العهد الجديد، سوى مكان الحدث: أفَسُس والحشد الذي اجتمع في مسرحها. ولكن إنشاء القصة المنحولة كان له منطقه الداخلي: لقد أدى استبدال حاكم الولاية بواحد من كبار الموظفين إلى إعطاء الحدث مزيداً من الأهمية، وقدم للمعاصرين عنصراً لصدقيه القصة، لأنه لم يكن من حق الحاكم المحلي قانوناً، أن يصدر حكماً بالإعدام. وفي الأحوال كلها، من المشكوك فيه أنه كان بمقدور الوالي نفسه أن يفعل ذلك في القرن ١م. إذا ما تعلق الأمر بمواطن روماني، وقد كان بولس مواطناً رومانياً. ولكن سكان الإمبراطورية الأحرار كلهم نالوا حقوق المواطنية الرومانية في العام ٢١٢م، وعندما وضع مؤلف أعمال بولس، يبدو أنهم كانوا قد نسوا كل شيء عن المعايير القانونية التي كان معمولاً بها في بداية القرن الميلادي الأول. ولذلك سحبوا معايير زمنهم على الماضي، وكان هذا واحداً من الأساليب النموذجية لما

يدعى بحركة «التحديث»، وقد تكون هذه جرت بغير وعي منهم. وتساعد هذه الطريقة على إنشاء ما زعموا أنه التاريخ الحقيقي.

وتجدر الإشارة إلى أن لقصة خروج بولس إلى المسرح تعليل مبتكر في كتاب العهد الجديد. ففي رسالته الأولى إلى الكورونثيين ينوه بولس إلى أنه قاتل الضواري في أفَسُس. وكانت كلمة «ضواري»، أو «وحوش» تستخدم وقتئذٍ في المناظرات التقليدية كدلالة بلاغية على الخصم. وبما أن أغناطيوس استخدم في رسالته التي كتبها إلى الرومان في القرن الميلادي الأول، تعبيراً مماثلاً لدى حديثه عن حراسه، فإننا لا نستبعد أن يكون بولس قد اعتقل أيضاً، وأنه دعا الذين ألقوا عليه القبض وحوشاً، بيد أنه ليس بين يدينا معطيات مباشرة تفيد باعتقاله في أفَسُس. وحسب أعمال الرسل، ورسائل بولس نفسه، أنه ترك أفَسُس بسلام قاصداً مقدونيا. ولكن التعبير الذي استخدمه أيقظ المخيلة الشعبية، لا سيما أن الرومان في أثناء تنكيلهم بالمسيحيين في القرن ٣م، كانوا يرمون بهم إلى الأسود لتمزقهم، إلا أن معطيات القرن ١م لا تفيد بلجوئهم إلى مثل هذه الأساليب في المقاطعات، فما بالك إذا كان بولس مواطناً رومانياً. فالمواطنون الرومان كانوا وقتئذٍ في المقاطعات قلة، ولم تكن حقوق المواطنية تمنح لسكانها إلا لأفراد، وبموجب مرسوم خاص (من المعروف أن بولس بالأصل من سكان مدينة طرسوس في آسيا الصغرى، وربما كان قد منح حقوق المواطنية مع باقي أفراد عائلته لأنهم كانوا يصنعون الخيم للجيش الروماني). والتزاماً منهم بمهمة إملاء الفراغات، أضاف كتاب الأعمال المنحولة مشهداً جديداً، درامياً وإعجازياً، ولكنه في الآن عينه كأنه حقيقي يستند إلى كلمات بولس نفسه. ومن سمات أعمال الرسل المنحولة هذه، حضور الأسد الناطق الذي اعتنق المسيحية. وقد كان يجب أن يعظم هذا المشهد من شأن بولس ويزيد من تأثير الحكاية على المسيحيين الذين جاؤوا المسيحية لتوهم من الوثنية إذ نشؤوا هناك على الحكايات والخرافات.

ويحقق الرسل في الأعمال المنحولة انتصارات خرافية لا على اليهود فقط، إنما على الوثنيين وسواهم من حاملي التعاليم الباطلة الآخرين. ففي الحكايات المنحولة التي رويت عن بطرس، زرعت بمحتوى خرافي قصة مقارعة المسيحيين الأرثوذكس لسمعان الساحر. ولم يكن الجدال اللاهوتي كافياً لتحقيق النصر بالنسبة لجماهير المسيحيين، وربما لم يكن مثل هذا الجدال مفهوماً بالنسبة لهؤلاء أصلاً. ويروي مختلف الخرافات التي ترقى إلى القرن ٢م، والتي انعكست في الأعمال التي تنسب إلى كليمينت، عن المواجهات التي وقعت بين بطرس وسمعان في قيصرية فلسطين وروما. ففي العاصمة هزم بطرس سمعان بمعجزاته: أقام

عضو السينات من الموت، وهو ما عجز سمعان عن فعله، وعندما رفعت العفاريت الساحر في الهواء، جعلهم بطرس يهوون معاً إلى الأرض بكلمة واحدة. لقد كانت مثل هذه الحكايات شائعة جداً منذ القرن ٢م، ثم زيد عليها المشهد إثر المشهد، ولم يكن لمثل هذه المشاهد أي صلة حتى بما زعم أنه تاريخ. فثمة أدوار في مثل هذه المشاهد تؤديها حيوانات ناطقة: الكلب الضاري الذي فضح سمعان بدلاً من أن يهاجم بطرس. إن الحيوانات الناطقة تحقق هنا الإرادة الإلهية، وهي لا تعكس فقط التقليد السحري، بل يجري ربطها في سياق تصورهم عن ذلك العالم المتحول الذي كان قد وصفه بابيوس على أساس القصص الشفهية: كل ما هو حي يذعن للإرادة الإلهية، حتى الحيوانات، بل والضارية منها كذلك سوف تخدم الصالحين.

ومن الملاحظ في خرافات الرسل المبكرة نسبياً، مثل آلام أندراوس، وأعمال بولس وتقلا، وأعمال برنابا (وربما كان هذا المؤلف الأخير هو الأكثر واقعية بين الأعمال الأخرى المشابهة)، أن الرسل يواجهون فيها السلطات المحلية، ففي قصة أندراوس أن الإمبراطور عزل الوالي الذي آمن به، لسبب رئيس، هو أن هذا الأخير وقف إلى جانب المسيحيين وساهم في تدمير المعابد الوثنية. ولكن الأعمال والحكايات التي وضعت في القرن ٣م، وتلك التي كتبت وأعيدت كتابتها بعد أن اعترف قسطنطين بالمسيحية، فإن مشاهدها التي دعيت بالمشاهد التاريخية، ترتبط قبل كل شيء بعلاقة أبطالها الرئيسين مع الأباطرة طيباريوس، وكلاوديوس، ونيرون، الذين كانوا معاصرين ليسوع والرسل. فهؤلاء الأباطرة وكذلك الشخصيات المقربة منهم قد أصغوا على وجه العموم للمواعظ المسيحية وانتصحوا بها. وما له دلالته، أن إنشاء المشاهد التاريخية المزعومة، كان له بعض من أساس تاريخي يمكن أن يتذكره المؤمنون أم يقرؤون عنه أو يسمعون به في خطب الوثنيين التي كانت شائعة جداً وقتئذٍ. ونحن يمكننا أن نتتبّع في بعض الأمثلة كيف كانت تجري إعادة بناء الأحداث الحقيقية وتزييفها في المنحولات.

يروي سفيتونيوس في سيرة حياة طيباريوس (طيباريوس)، أن الإمبراطور حظر الأعمال المقدسة الأجنبية، بخاصة اليهودية منها والمصرية؛ وبحجة الخدمة العسكرية وزع اليهود الشباب على المقاطعات ذات المناخ القاسي (لكن هذا الإجراء لم يعط ثماره المرجوة، ففي ظل الأباطرة الذين جاؤوا بعد طيباريوس شاعت العبادتان المذكورتان في روما من جديد). وفي واحدة من الخرافات التي كرست لنهاية بيلاطس، وكتبت في القرن ٣م باللغة الإغريقية، أن بيلاطس مثل بين يدي الإمبراطور طيباريوس الذي اتهمه بموت يسوع، لكن بيلاطس ألقى بالذنب كله على اليهود (قال بيلاطس: «لقد فعلت ذلك بسبب عصيان اليهود وشدة

سخطهم»). عندئذٍ أصدر طيباريوس أمراً إلى والي المقاطعات الشرقية بمعاقبة سكان أورشليم والمدن المجاورة على الجريمة التي ارتكبوها، وطرد اليهود من فلسطين و «تشتيتهم ليصبحوا عبيداً عند مختلف الشعوب». ومن الواضح أن المشهد يعكس موقفاً عدائياً صريحاً من اليهود، وهو ما يمكن أن نقف عليه أيضاً في طائفة من المؤلفات المسيحية التي ظهرت في الزمن المعني؛ فقد جعلوا من طرد اليهود في عهد طيباريوس من روما، فعلاً على مستوى الإمبراطورية كلها. كما لجأ المؤلف هنا إلى محاكاة مبتكرة إذ أسقط أحداثاً متأخرة على زمن مبكر: ما وقع بعد سقوط انتفاضة فلسطين في الأعوام ٦٦- ٧٠م إذ بعد أن استولى تيطوس على أورشليم في العام ٧٠م، استعبد الأسرى اليهود كلهم. أما الإجراءات الصارمة التي اتخذها الإمبراطور هادريان بعد إخماد انتفاضة باركوبا، فقد نسبها المنحول إلى الإمبراطور طيباريوس الذي كان قد حكم قبل ذلك بزمن. بيد أنه لا تيطوس ولا هادريان يمكن أن يكونا معاصرين لزمن يسوع وبيلاطس، وعليه فإن توق الجماهير المسيحية المؤمنة للإيمان بانتصار المسيحية في التو واللحظة، على الرغم من الحقيقة التاريخية، هو الذي استدعى مثل هذه التباينات الزمنية إلى الحياة.

وغني عن البيان أن ظهور بيلاطس في قصر طيباريوس، ثم إعدامه وإعلانه ندمه وتوبته قبيل موته، كما جاء في هذا المنحول، ليس سوى اختلاف صرف. ضف إلى هذا أن الأمر لا يقتصر هنا على التناقض مع الوقائع التاريخية (في العام ٣٧م أقصى الإمبراطور كاليغولا بيلاطس عن منصبه بسبب كثرة شكاوى اليهود الذين اتهموه بالقسوة والبطش)، إنما يمتد ليطال التقليد المسيحي الشائع نفسه، فالمسيحيون أنفسهم تداولوا تقرير بيلاطس المزيف إلى الإمبراطور كلاوديوس حول إعدام يسوع. ويبدو أن من وضع منحول بيلاطس وطيباريوس لم يكن على علم بهذه الرواية أو أنه تجاهلها، فالرواية تقول، إن بيلاطس كان لا يزال على قيد الحياة في عهد كلاوديوس الذي اعتلى العرش بعد طيباريوس وكاليغولا. بيد أن كثيراً من المسيحيين كان يرى أن الأمر الأهم، هو أن العقاب الصارم قد طال بيلاطس بعيد صلب يسوع مباشرة[1].

وهناك موقف مشابه حيال الوقائع التاريخية يمكن أن نتعرف عليه في موقف تعاليم الرسول آدّاي (= فادييوس) السورية، تجاه الإمبراطور كلاوديوس. فعلى امتداد القرون كان هذا المنحول يحمل إضافات وتغييرات. وكان العمل نفسه قد كتب في أواخر القرن ٤م وأوائل

١ـ هناك رواية أخرى عن نهاية بيلاطس (كتبت باللغة اللاتينية)، تقول: لما علم هذا أن الإمبراطور حكم عليه بالموت، قتل نفسه بيده (الحكايات المنحولة. ص ١٢١ـ١٢٤).

القرن ٥م، ولكن الروايات التي حملها عن شيوع المسيحية في إقليم اوسروين السوري (=إقليم الرها - م). ترقى إلى زمن مبكر أكثر. لقد دعي كلاوديوس في هذا المؤلف بلقب قيصر طيباروس، أي مساعد الإمبراطور طيباريوس، علماً أن عهد كاليغولا يفصل بين عهده وعهد طيباريوس. ولكي يُفعّل مؤلف المنحول كلاوديوس بصفته الحاكم الأعلى، أرسل طيباريوس إلى أسبانيا ليخمد الانتفاضة التي اشتعلت هناك. والحقيقة أنه كان ثمة انتفاضة جبارة هناك، بيد أنه لا يتوفر لنا أي معطيات توحي بأن الإمبراطور قد قاد القوات بنفسه لإخمادها (من المعروف أن تاسيت وسفيتونيوس قد دونا أعمال طيباريوس بالتفصيل): إنه لأمر غريب تماماً عن زمن سلالة يوليوس - كلاوديوس. وغني عن البيان أن مثل هذا الخلط بين إمبراطورين في إطار زمني واحد، ليس مجرد طريقة أدبية، أو اصطلاح أدبي كما ترى ي. ن ميشير سكايا. فقد سمح هذا الخلط بجعل كلاوديوس معاصراً لبطل رواية الرسول أدّاي الذي كان ينشط في إقليم أوسروين باسم يسوع. لقد اعتنقت بروتونيكا، زوجة كلاوديوس، الديانة المسيحية، وقامت برحلة حج إلى المقدسات المسيحية في فلسطين، وكأنها بذلك تقدمت على كل ما ارتبط في القصص المسيحية بما فعلته يلينا والدة قسطنطين: إننا أمام محاكاة للأحداث بل وللخرافات وإسقاطها على أزمنة أقدم. عداك عن هذا كله أن زوجة كلاوديوس الوارد اسمها في هذا المنحول، لا وجود لها أصلاً، وعلى أغلب الظن أن الاسم مجرد رمز، فهو يعني «الانتصار الأول»، أي الانتصار الأول الذي حققته المسيحية في العائلة الإمبراطورية. لقد شهدت بروتونيكا المعجزات، ولما عادت إلى روما روت لكلاوديوس كل شيء، بما في ذلك عن عدم إيمان اليهود. عندئذٍ أمر كلاوديوس بطرد اليهود من إيطاليا. وعلى هذا النحو يظهر كلاوديوس نصيراً للمسيحيين ضد اليهود.

والحقيقة أن اليهود طردوا من روما، وهذا ما أفاد به سفيتونيوس في سيرة كلاوديوس: «لقد طرد اليهود المهتمين دوماً بالمسيح، من روما». وربما كانت الصدامات بين اليهود والمسيحيين المقيمين في روما، هي السبب الذي دفع كلاوديوس إلى طردهم من روما. كما أشارت أعمال الرسل بدورها إلى واقعة طرد كلاوديوس لليهود، فقد كان منهم المسيحيان أكيلا وبريسكيلا اللذان جاءا إلى كورينثوس وساعدا هنا بولس، بل وثمة من اعتنق المسيحية على أيديهما (أعمال الرسل). إذن لم يتضمن الأمر الذي أصدره كلاوديوس أي رغبة للدفاع عن المسيحيين، بل من الواضح أن أذاه انسحب على اليهود كما على اليهود - المسيحيين على حد سواء. والحقيقة أن كلاوديوس أصدر إرادة حمى بها حقوق اليهود الذين كانوا يعيشون في الإسكندرية، عندما اشتعلت هنا حركة شعبية مناهضة لهم. وما جرى في

الحالة التي بين يدينا، هو أن المنحول المسيحي قلب الواقع رأساً على عقب، فبدل دوافع قرارات كلاوديوس جاعلاً منه حامياً للمسيحيين، وسحب فاعلية تعليماته على إيطاليا كلها.

ولكن الشخصية الأكثر إشكالية لدى تقويم دوافع تصرفات أباطرة روما، كانت شخصية نيرون، الذي بقيت ذكريات تنكيله بالمسيحيين حاضرة في ذاكرتهم لزمن طويل، وبتلك الملاحقات عينها ارتبطت الخرافات التي شاعت عن هلاك بطرس وبولس. ولم تر الأجيال المسيحية المتأخرة في هلاك هذين الحبرين أي شكل من أشكال الهزيمة، حتى المؤقتة للمسيحية. فأعمال بولس اللاتينية ومثلها آلام بولس (كتب هذان العملان في القرن ٣م)، تقول إن مواعظه جعلت مقربين من نيرون يؤمنون بالمسيح، ثم آمن أيضاً الحراس الذين قادوا بولس إلى مكان الإعدام. وقبيل إعدامه التقى بولس نيرون وألقى على مسامعه موعظة. لكنّ الشيطان حرّض نيرون فأمر بإعدام بولس وكثرة كثيرة من المسيحيين. ويلفت الانتباه هنا إدخال «عدو خارجي» إلى الموضوع، هو الشيطان، الذي أخذ تدرجاً يغدو في تصور المسيحيين مصدراً للشر الذي يؤثر في أفعال الحكام المعادية للمسيحيين (يلفت الانتباه في هذا السياق أن مؤلف «آلام الرسول اندراوس»، الذي يرقى إلى زمن مبكر أكثر، يحمّل الوالي إيجيات نفسه مسؤولية مناهضته للرسول، ويلقى إيجيات العقاب على ذلك). ولكن إذا كان نيرون قد لاحق المسيحيين ونكل بهم، فإن شعب روما بدا كأنه يناهض الإمبراطور بحمية، إذ اقتحم القصر وطالبه بالكف عن ذلك فوراً. وغني عن البيان القول، أنه يصعب علينا كثيراً أن نصدق في واقع الحال، أن يسمح الحرس الإمبراطوري الذي كان لا يزال مخلصاً للإمبراطور، للحشود بمجرد الاقتراب من قصر نيرون، فما بالك باقتحامه. بيد أن المسيحيين أرادوا أن يؤمنوا بانتصار الدين الجديد حتى في زمن حكم فيه واحد من أكثر أباطرة روما بطشاً. وعلى أي حال، أعدم بولس، وآمن بالمسيح الحراس الذين نفذوا الإعدام. ولكن الرسول ما لبث أن بعث وجاء إلى قصر نيرون. فدب الذعر في قلب الإمبراطور وأمر بإطلاق سراح المقربين منه الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية، واصدر إرادة إمبراطورية بوقف ملاحقة المسيحيين، بمعنى آخر، لقد أقر نيرون نفسه بقوة هذه الديانة.

فمن البدهي أنه بعد الاعتراف الرسمي الذي نالته المسيحية في عهد قسطنطين، كان من المهم بالنسبة للمسيحيين وقادتهم ومنظريهم أن يبينوا أنه لا تناقض بين الإمبراطورية والمسيحية، وأن الأباطرة ساندوا المؤمنين منذ البداية وعاقبوا أعداءهم. ولكن الدوافع السياسية بدت غير كافية وحدها لشرح تعاطف أباطرة القرن ١م مع المسيحية، بخاصة أن طائفة من الروايات المنحولة كانت قد أنشئت قبل أن ترسخ المسيحية وجودها رسمياً في

الإمبراطورية. بل حتى الجو الخيالي الذي كان يحيط «باعتناق» الأباطرة للدين الجديد، يشير إلى أن ذلك الجو نفسه إنما نشأ في أوساط الشرائح السكانية المسيحية الدنيا تحت تأثير الحكايات السحرية الشفهية والفولكلور. وقد غدت هذه الخرافات كلها جزءاً لا يتجزأ من «التاريخ» المقدس للمسيحية الظافرة منذ اللحظة التي ولدت فيها، ومنذ ولادتها تلك كانت المسيحية مليئة بمعجزات يبدو أنه كان من الصعب على مؤلفي أسفار العهد الجديد تخيّلها.

ويعد التعامل بتصرف مع الشخصيات التاريخية الثانوية وإدخالها بحرية إلى أحداث مختلقة لا تتزامن مع الوجود الفعلي للشخصيات المعنية، يعد من السمات التي لا تتميز بها قصص الأباطرة فقط، بل يطبع بطابعه الجنس الأدبي المعني كله أيضاً. ففي فاتحة تعاليم أدّاي الرسول، يرد اسم سابين ابن يستراجي والي سوريا، وفينيقيا، وفلسطين (وتعد هذه الحالة حالة فريدة اقترن فيها اسم الوالي الروماني باسم والده). والحقيقة أنه ليس ثمة وجود لهذا الوالي في أي مصدر معروف لنا حتى الآن، إلا أن يوسف فلافيوس يذكر اسم سابين اليهودية في العام ٤ق.م. وربما استخدم مؤلفو المنحول اسم سابين هذا لأن حفظه في الشرق كان ممكناً. ففي عهده اشتعلت في اليهودية انتفاضة قوية نجحت في محاصرة سابين وقواته لزمن طويل، لكن والي سوريا فار سحق الانتفاضة بقسوة بالغة (العاديات اليهودية). لقد جعل استخدام اسم سابين للخرافة خلفية تاريخية معينة، مع أنه تحول فيها من قاض إلى وال. ودخلت المنحولات شخصيات أصولها أناس حقيقيون، وقد وضع هؤلاء كما الرسل، في ظروف من نسيج الخيال الصرف. ففي «آلام بولس الرسول» ثمة مسيحية تنتمي إلى «أرقى العائلات الارستقراطية»، تدعى بلافتيلا، التي حضرت لحظة إعدام الرسول وناولته منديلها، وبعد أن تم الإعدام عاد إليها المنديل بطريقة إعجازية. والحقيقة أن المرأة هي بومبونيا غريتسينا، زوجة آلّ بلافتيوس (ومن هنا اسم بلافتيلا، وهو اشتقاق معروف لأسماء النساء من اسم الأب أو الزوج في العهد الإمبراطوري). وكتب تاسيت في مدوناته التاريخية، يقول: إنهم اتهموها بممالأة العبادات الأجنبية، وكان العرف يقضي في مثل هذه الأحوال أن تحاكم المرأة أمام زوجها، فحاكمها وبرأ ساحتها. ولم يكن الدين الغريب في هذه الحالة، هو الدين المسيحي بالضرورة (لقد كان تاسيت على علم بوجود هذا الدين منذ ملاحقات نيرون)، ولكن الحكاية جعلت بلافتيلا مسيحية منذ البداية (وهذا أمر ممكن)، ثم نقلتها الخرافات الشعبية لتجعل منها نصيرة بولس وشاهدة على المعجزات التي ارتبطت به.

إذن حتى الأمثلة التي سقناها هنا ترسم لنا الاتجاه الذي سارت فيه في الوسط المسيحي، إعادة تقويم التاريخ السياسي، بل والتاريخ المقدس ومثلجتهما. فالرواية الشفهية

الأولى ملأت بالتدرج فراغات هذا التاريخ، مضيفة إليه تفاصيل جديدة تلبي مطالب المؤمنين. وربما كان الرواة قد آمنوا حقاً بما كانوا يروونه، فيتذكرون أحداثاً ويحرفون أخرى، ويضيفون بنات مخيلتهم إلى الرواية. وهكذا كانت الخرافات تكتسي تفاصيل مشوقة جميلة وتنتقل من راو إلى مستمع، ثم إلى كاتب.

ثم جرت معالجة مادة الروايات بعد ذلك في أثناء نسخها وإعادة نسخها المرة تلو المرة، وفي أثناء إنشاء حكايات جديدة، عندما كان المحرر أو المؤلف يبرز ما يتوافق ومقصده ونزوعه. وقد حظيت هذه الحكايات بشهرة عظيمة جعلتها تتخطى حدود «الأدب الشعبي». ففي القرن ٣م كتب الشاعر كومودیان عن سمعان الساحر والكلب الناطق، وفي المؤلف الذي كتبه الكاتب المسيحي أرنوبيوس، أضاف إلى قصة صراع بطرس ضد سمعان الساحر جزئية خيالية جديدة: يصعد سمعان إلى فوق في مركبة نارية، لكن كلمة واحدة نطق بها بطرس جعلت الساحر يهوي مع مركبته من السماء إلى الأرض (Didascalia apsotolorum, 24). ونحن أشرنا سابقاً إلى أن يوسفوس آقر بصحة رسالة يسوع التي كتبها في أورشليم، على الضد من الحقيقة التاريخية الثابتة، وقصص العهد الجديد المسهبة عن الأحداث التي ارتبطت بإقامة يسوع في هذه المدينة. ومن الطريف أن يوسفوس ترجم الرسالة المعنية، كما ترجم رسالة الأبجر إلى يسوع من اللغة السورية، مدعياً أنه عثر على الرسالتين في الأرشيفات. وبصرف النظر عن أن منحول تعاليم أدّاي يؤكد أن يسوع أعطى رداً شفهياً، وهو الأمر الأكثر توافقاً مع التقليد، إلا أن رسالة أنشئت ووضعت في أرشيف ما. وعلى هذا النحو لم تعد الإضافات إلى الناموس مجرد منحولات، إنما أخذت تدرج في «الكتاب المقدس»: إذا لم يكن من أجل المجامع الكنسية، فمن أجل جماهير المؤمنين. ولكن يوسفوس الذي دعى مؤلفه «تاريخاً»، وجد نفسه أمام حالة أكثر تعقيداً عندما كان عليه أن يكتب عن الأباطرة الذين حموا المسيحية. ففي قصة تقرير بيلاطس إلى طيباريوس، ورد فعل الإمبراطور عليه، كان على يوسفوس المؤرخ الكنسي المعاصر أن يفسر: لماذا لم يعتنق طيباريوس نفسه المسيحية وينشر الدين الجديد في أرجاء الإمبراطورية. لقد وثق يوسفوس بالحكاية الشائعة، إلا أنه كان على معرفة كافية بتقاليد المنطق القديم تمكنه من إدراك مثل هذا التناقض. فعرض روايته (التاريخ الكنسي): نقل طيباريوس تقرير بيلاطس إلى السينات، واقترح على أعضائه الاعتراف بالإله الجديد يسوع. ولكن السينات رفض الاقتراح بذريعة أنه لم يتسنّ له مناقشة الأمر قبل عرضه، لأنه حسب «القانون الذي اعتمد منذ القدم وتجذر، كان يحظر الاعتراف بأي إله للرومان إلا بموافقة السينات وبمرسوم صادر عنه». والحقيقة أننا لا نستطيع

أن نتصور أن السينات كان قادراً في عهد طيباريوس أن يقر أي شيء لا يريده الإمبراطور، الذي أدار في روما ملاحقات جماعية مستنداً إلى قانون تحريم «إهانة العظمة»، وفرض على الإمبراطورية كلها عبادة أغسطس. ولكن هذا كله لم يكن له أي أهمية، بل لم يعن شيئاً بالنسبة للمؤرخين المسيحيين، مع أن الأرشيفات السورية والرومانية كانت تحت تصرفهم في القرن ٤م، فما بالك بمؤلفات المؤرخين الوثنيين. ولتجاهل يوسفوس الوقائع الحقيقية دلالة قوية على أن التعليل الذي ساقه له بعض من أساس في التقاليد الرومانية القديمة: منذ العصر الجمهوري عرفت روما هيئة العشرة التي كانت تشرف على الشؤون الدينية في البلاد. وكان يمكن للسينات أن يحظر أي عبادة كانت (في زمن الجمهورية أيضاً)، بيد أن هذا الأمر تحول في العصر الإمبراطوري إلى الإمبراطور، إلا أن هذا لم ينجح في فرض سياسته الدينية: في العصر الإمبراطوري كان في روما من يعبد الإلهة إيزيس، كما بقي فيها اليهود حتى بعد صدور قرار طردهم منها. فقد كان سكان العاصمة، فما بالك بالإمبراطورية كلها، متنوعين تنوعاً إثنياً كبيراً، الأمر الذي جعل رصد العبادات الدينية أمراً مستحيلاً. لقد كان إدخال عبادات جديدة شأناً من شؤون الإمبراطور، إلا أن هذا الأخير لم يدخل العبادات الجديدة إلا نادراً: أمر هارديان على سبيل المثال، بتأليه انتينوي بعد مقتله، وكان هذا أثيراً لديه؛ ولكن هذه العبادة لم تلق انتشاراً يذكر. أما العبادة الوحيدة التي كانت على مستوى الدولة كلها، فهي عبادة الإمبراطور، التي بقيت قائمة حتى في عهد قسطنطين.

ويبيّن التفسير الذي ساقه يوسفوس عملية مراجعة الأحداث التاريخية التي بدأت في الأوساط المسيحية الدنيا، ثم انتقلت إلى مؤلفات المسيحيين المثقفين. ومن المعروف أن إنشاء الأحداث التاريخية استناداً إلى الحكايات والخرافات، كان من سمات كتابه التاريخ في العصر الإغريقي - الروماني، بيد أن ذلك انسحب أساساً على كتاب تاريخ عصور أزمنة ما قبل الكتابة، كما عند ليفيوس في قصص حكم الملوك الأوائل. ولكن عشية بدء الزمن الميلادي كانت قد نشأت في روما طريقة عقلانية لكتابة التاريخ (وفي اليونان قبل ذلك) اعتمدت على مؤلفات كثير من الكتّاب، والوثائق المكتوبة الأرشيفية منها أو المحفورة على لوحات حجرية في الأماكن العامة. وفي غالب الأحيان كان المؤرخون متحيزين في تأويل المصادر، ونادراً ما أدركوا كنهها. وهناك من المؤرخين الرومان من نقرأ عنده خرافات، وقصصاً عن معجزات وتنبؤات. ولكن هذه الخرافات كانت ترتبط عادة بالحالة السياسية ولا تغير من الأحداث الحقيقية، إنما تبدو كأنها تضفي عليها مزيداً من الوقار. ففي سيرة أغسطس على سبيل المثال، يروي لنا سفيتونيوس استناداً إلى مؤلف الكاتب المصري

اسكليبيدس «تأملات في الآلهة»، خرافة تقول، إن والدة أغسطس أمضت ليلة في معبد أبوللون، فحملت بابنها من الإله الذي جاءها في هيئة ثعبان. بيد أن هذه الخرافة لم تؤثر بأي حال على عرض سفيتونيوس للمشاهد الرئيسة في نشاط الإمبراطور، وهو ما تؤكد صحته مصادر موازية.

وتتمايز المنحولات ومعها ما زعمه على أساسها كتّاب مسيحيون مثل يوسيفوس، تمايزاً مبدئياً عن مؤلفات تاسيت أو سفيتونيوس. فهم لم يسهموا في ترسيخ الحالة السياسية، لأنهم لم يهتموا بالحقيقة التاريخية، لقد أنشأ هؤلاء «تاريخاً مقدساً» خاصاً بهم، وشيئاً فشيئاً تحولت قصصهم إلى واقعات راسخة: في أواخر القرن ٤م نقل يوحنا فم الذهب في «محادثة عن رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس»، لقاء بولس ونيرون على أنه حدث وقع فعلاً، وكذا الأمر بالنسبة لقصة اعتناق ساقي الإمبراطور المسيحية على يدي بولس.

وما يثير الاهتمام، هو أن الحكام الذين اعتنقوا المسيحية يظهرون حتى في المنحولات غير مرتبطين بموضوع أباطرة روما. ومن أقدم الروايات المماثلة (القرنان ٢-٣)، رواية ترتبط بشخصية تاريخية حقيقية، هو الأبجر حاكم أوسروين، الذي له حضور في تعاليم أدّاي، وكان الأبجر قد اعتنق المسيحية فور تلقيه كلمات (رسالة) يسوع. وفي قصص أخرى يعتنق الحكام المسيحية بعد أن يصدروا أوامر بإعدام الرسل: لا يتحمل هؤلاء تداعيات العقاب، وهاذ ما وقع لإيجيات في آلام الرسول أندراوس، وتحت تأثير المعجزة: ظهور الضحية عائداً من بين الأموات، يتوب هؤلاء ويندمون ثم يتوسلون المعمودية. وحسب أعمال توما الرسول، أن الملك الهندي ماسداي (اسم مختلق) اعتنق المسيحية بعد مقتل توما، إذ صنع الرماد الذي أخذ من قبر الرسول معجزة: شفى ابنه من العفريت الذي سكنه. أما في النص الإغريقي لأعمال متى الرسول، فإن ملك بلاد آكلي البشر (!)، الذي كان يطارد الرسول بتحريض من العفريت، رأى بأم عينه متّى القتيل واقفاً على المياه يسنده من الجانبين شابان مشرقان، والبحر صار صافياً شفافاً وانبثق منه صليب. عندئذٍ اندفع الملك لاهثاً إلى الأساقفة بطلب الصفح وقبوله مسيحياً. ثم ظهر متّى نفسه للملك وأمره أن يتخذ اسمه اسماً له. وبعد ذلك أصدر الملك أمراً بتحطيم الأوثان كلها، وتحول في آخر حياته إلى أسقف. ومن الواضح من غير شك أن هذا المنحول قد تجاوز أطر التاريخ، بل أطر التاريخ المزعوم أيضاً، لأنه إذا كان ثمة تقليد مسيحي راسخ عن وصول توما إلى الهند، فإن أي تقليد آخر سوى هذا المنحول لم يشر إلى وصول متى إلى هناك. ولذلك أرسلته المخيلة الشعبية إلى تلك البلاد السحرية، بعد أن اقتبست معجزات الحكايات الأخرى ولونتها وزخرفتها. وما رأى المسيحيون فيه إفراطاً في أعمال بولس وتقلا، صار مع الزمن إلى معيار.

لقد وضعت مثل هذه الحكايات على امتداد الطور الأخير من العصر القديم، ولم تعز في أثناء ذلك ملاحقات الملوك للمسيحيين إلى دوافع ذاتية لدى هؤلاء، إنما إلى تأثير قوى الشر عليهم. وفي المنحولات بات من المستحيل على أي قوة أن تواجه دعاة المسيحية. ضف إلى هذا أن مثل هذه الحتمية في اعتناق الحكام المسيحية أو حمايتها، خاصة عندما يجري الحديث عن أباطرة القرن الميلادي الأول، يعد مؤشراً على أن ما يشبه الإيديولوجيا «القيصرية» كانت قد نشأت في الأوساط الشعبية التي كانت قد تحولت منذ زمن، من مواطنين إلى رعايا: حسب تصورهم أنه كان ينبغي على كل إمبراطور أن يتحول في نهاية الأمر إلى مسيحي غيور يدافع عن الدين بحميّة.

لقد عبرت إعادة النظر في التاريخ و «تغييره» في الأدب الشعبي المنحول طريقاً طويلة على امتداد القرون الأولى لوجود الدين الجديد. فالروايات المتأخرة استغنت تماماً عن الاعتماد على أحداث حقيقية أو ممكنة، بما في ذلك الأحداث التي وصفتها الأسفار المقدسة في كتاب العهد الجديد. فقد تحايث فيها الإيمان بتعاليم يسوع المسيح والإيمان بوجود الحيوانات الناطقة من غير أن يتقاطعا في وعي جماهير المؤمنين. وعليه ليس عبثاً أن نبذ قادة الكنيسة مثل هذه الكتابات، بل هناك بعض من «التاريخ الكنسي» الذي كتبه يوسفوس القيصري رفض أيضاً. ولكن شهرة الأعمال المنحولة لم تتراجع مع انقضاء القرون، وهذا ما تؤكده كثرة المخطوطات القرسطوية. ومع أن الأعمال المنحولة قد نبذت على وجه العموم بصفتها مصادر إيمان ديني، إلا أن مشاهد معينة منها دخلت مؤلفات الكتاب والدعاة المسيحيين. فصار التاريخ عملياً، أسطورة تحكي اعتناق الشعوب والحكام للمسيحية بغمضة عين، وظهور المعجزات المستحيلة من غير انقطاع: وبقدر ما تكون هذه مغرقة في الخيال، بقدر ما يكون تأثيرها فاعلاً في أوهام المؤمنين.

الفصل الحادي عشر

نشــــوء الثقافـــة
الفنيـــــة المسيحيـــة

لقد اتخذ المسيحيون الأوائل موقفاً شديد العداء من الثقافة القديمة برمتها، وبخاصة المعتقدات القديمة والفن التعبيري. وحسب رؤيا يوحنا أن مصيراً رهيباً ينتظر عبدة الأصنام: «..من يسجد للوحش وصورته.. سوف يسقى خمرة الغضب الإلهي، الخمرة الكاملة التي صنعت في كأس غضبه، وسوف يتعذب في النار والكبريت. في حضرة الملائكة المقدسين وحضرة الحمل».

وسار نقد الفهم القديم للعالم بموازاة ترسيخ الثقافة المسيحية نفسها: ثقافة الكلمة أولاً. ويمكننا أن نبرز في هذا السياق ثقافة القاعدة الشعبية التي تعرفنا إليها عبر أعمال الرسل المنحولة، وثقافة الصفوة التي أنشأها المثقفون المسيحيون. فقد أنشأ الكتّاب المسيحيون في القرنين ٢-٣م جنس الكتابات الدفاعية، التي لم يكن الهدف منها الدفاع عن تعاليم الدين الجديد وحسب، إنما تنوير الوثنيين أيضاً. وكان هذا الفن من الكتابة قد نشأ متأثراً بالخطب والحوارات القديمة، فمن حيث محتواها شكلت الكتابات الدفاعية (= الأبولوجية - م) أبحاثاً دينية - فلسفية. وكان أكثر الأبولوجيين (= المدافعين - م) قد خرج من المدارس الفلسفية القديمة. فجوستين اهتم بفلسفة أفلاطون، وكليمينت الإسكندري تلقى تعليمه في أحد مراكز الثقافة القديمة، وتخرج ترتوليان من مدرسة البلاغة والبيان في قرطاجة. ومع ذلك ناهض هؤلاء كلهم العقلانية، ورفضوا إمكانية المعرفة المنطقية. فترتوليان رأى في الإيمان أسمى مستويات المعرفة. ورأى الأبولوجيون عن وجه العموم أنه لا يمكن إدراك الحقيقة عن طريق التأمل الفكري أو المناظرات الفكرية (ولكن في واقع الأمر أن مناظرات فكرية حادة دارت بين مختلف الجماعات المسيحية

نفسها). وقد أفضت هذه الطريقة، كما هي حال إيمان الجمهور الرئيس من المسيحيين في واقعية المعجزة، إلى عبثية انتقاد خصوم المسيحية من الوثنيين لها، إذ لم يعط ذلك النقد أي نتائج، لأنه كان مؤسساً على التحليل المنطقي الذي واجهه المسيحيون بالإيمان والوحي. لقد ناهض الأبولوجيون أخلاق العالم القديم، وصاغوا المفهوم المسيحي للموقف الإنساني والتعاطف مع البشر كلهم، وليس مع الأقارب فقط. وكانت فكرة الرحمة المسيحية تعني مساعدة كل المعذبين بصرف النظر عن أسباب آلامهم. لقد كانت هذه الرحمة موجهة نحو الإنسان الفرد بعينه، وفي هذا تميز الإحسان المسيحي عن العطاءات الجماعية التي كانت توزعها السلطات المحلية أو العليا، وعن الولائم الاجتماعية وعروض الترفيه العامة التي كانت حشود روما الشعبية تطالب بها. ومن البدهي أنه كان من الصعب جداً تطبيق المعايير الأخلاقية التي حددتها موعظة يسوع على الجبل، ومقابلة الشر بالخير. وهذا ما أظهرته مؤلفات أدب القاعدة الشعبية، حتى المسيحيون العاديون كانوا يؤمنون بأن العقاب عمل إلهي. وكان الطابع الشديد التطرف للمطالب الأخلاقية المسيحية قد جعل تعاليمها متميزة تميزاً كبيراً عن كل النظم الفلسفية والأخلاقية الوثنية، وجعل المسيحيين في أعين المحيطين، بهم، مبشرين بعالم جديد حقاً.

لقد كانت الأخلاق نقيض الجمال في المسيحية المبكرة، لكنها نقيض الجمال الخارجي لا الروحي. ومن المعروف أن الإنسان القديم كان قاسياً في غالب الأحيان في موقفه من التشوه والدمامة، لأن مثله الأعلى هو التوافق بين المظهر والجوهر، أما المسيحية فقد وجهت دعوتها إلى كل المعذبين، بما فيهم الكسيح والمشوه. وكان يوستين قد كتب يقول، إن يسوع لم يكن جميل الصورة، ولم تكن تبدو عليه مظاهر المجد والعزة، وأكد كليمينت الإسكندري أن يسوع لم يتألق بجمال جسده، إنما بالجمال الحقيقي لروحه وجسده: تجلى جمال الأولى في أعماله الصالحة، وجمال الثاني في خلود جسده. وكان ترتوليان بدوره من ألد خصوم التصاوير. لقد وقف أبولوجييو المسيحية ضد جماليات العصر القديم: المزج بين تصوير طبيعية الموضوع المصور والسعي إلى تحقيق جمالية المظهر الخارجي. أما المسيحيون الأوائل فما كان يمكن أن يخطر لهم مجرد تصوير الإله: كان هذا محرماً في اليهودية، وكان يمكن أن يؤخذ على أنه عبادة أصنام. ثم علل الفلاسفة اللاهوتيون المسيحيون تحريم التصاوير، في إطار الفهم المسيحي للعالم. فقد علم كليمينت الإسكندري أن السجود ينبغي أن يكون لكائن لا جسدي (يقصد الإله) تدركه البصيرة الروحية فقط، وإذا ما صور في أشكال

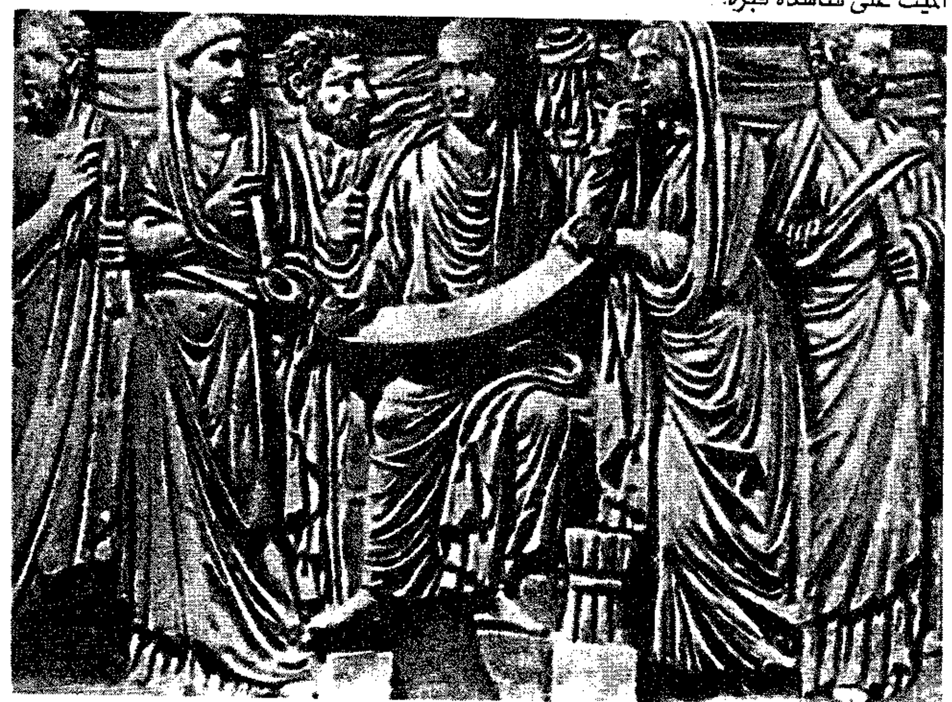
جسدية فإن ذلك يحط من قدره؛ والتصاوير بالنسبة لكليمينت، هي مجرد تراب وحسب. كما أدان بعض الأعمال المنحولة بدوره، تصاوير الآلهة، أو القديسين على حد سواء. فثمة في أعمال يوحنا المنحولة وصف لمشهد أراد فيه المدعو ليكوميدس الأفَسُسي أن يعبر عن شكره ليوحنا الذي هداه إلى المسيحية، فطلب إلى أحد الرسامين أن يرسم له صورة للرسول: أخفى ليكوميدس الرسام في حجرة يستطيع أن يرى الرسول منها دون أن يراه هذا الأخير أو يعلم به. وعندما باتت الصورة جاهزة حملها ليكوميدس وأراها ليوحنا. لكن يوحنا لم يعرف للوهلة الأولى أنها صورته، كما يقول المنحول، فهو لم ير نفسه يوماً (إشارة إلى أن الرسول لم يكن يهتم لمظهره الخارجي)، ولما جاؤوا به إلى المرآة وعرف أن الصورة المرسومة صورته، اغتمّ كثيراً وألقى موعظة ألحّ فيها على أن الرسام لم يظهر سوى الصورة الخارجية التي يمكن لأيّ كان أن يراها. وقال: «الأفضل أن تكون أنت رسامي يا ليكوميدس: فأنت بين يديك الألوان التي أعطاك إياها يسوع عبري، يسوع الذي رسمنا كلنا.. وهناك ألوان أريدك أن تستعملها: الإيمان بالإله، والمعرفة، والتبجيل، والوداعة، والبساطة، ومحبة الآخر، والنقاء»... وختم يوحنا موعظته بكلمات صارمة: «لقد رسمت صورة ميتة لكائن ميت». إذن، لقد رفض مؤلف هذا العمل إمكانية رسم صور لبشر، لأن الأمر المهم الوحيد بالنسبة إليه، هو جوهر الإنسان، والصلة الروحية التي تربط بين القديس ومبجليه ولكن التأكيد على الرؤية الروحية وحدها لم يكن يرضي جماهير المؤمنين الذين كانوا يعيشون في محيط الصور المرئية الجهورية التي أبدعتها الثقافة القديمة. ففي بادئ الأمر كانت الصلاة بالنسبة إليهم، هي وسيلة التواصل مع الإله (والحقيقة أن الغنوصيين لم يعترفوا بها). وإذا كانت الصلاة الأولى والوحيدة التي وردت في الإنجيل: «أبانا الذي»، صلاة قصيرة وبسيطة، فإن الصلاة المرفوعة إلى الإله صارت مع مرور الزمن إلى إبداع فني من نوع خاص. فقراءة الصلوات بصوت مسموع، وبنية هذه الصلوات نفسها، ثم تأثير التراتيل الدينية، هذا



سمكة وسلة خبز
زخرفة في سراديب رومانية

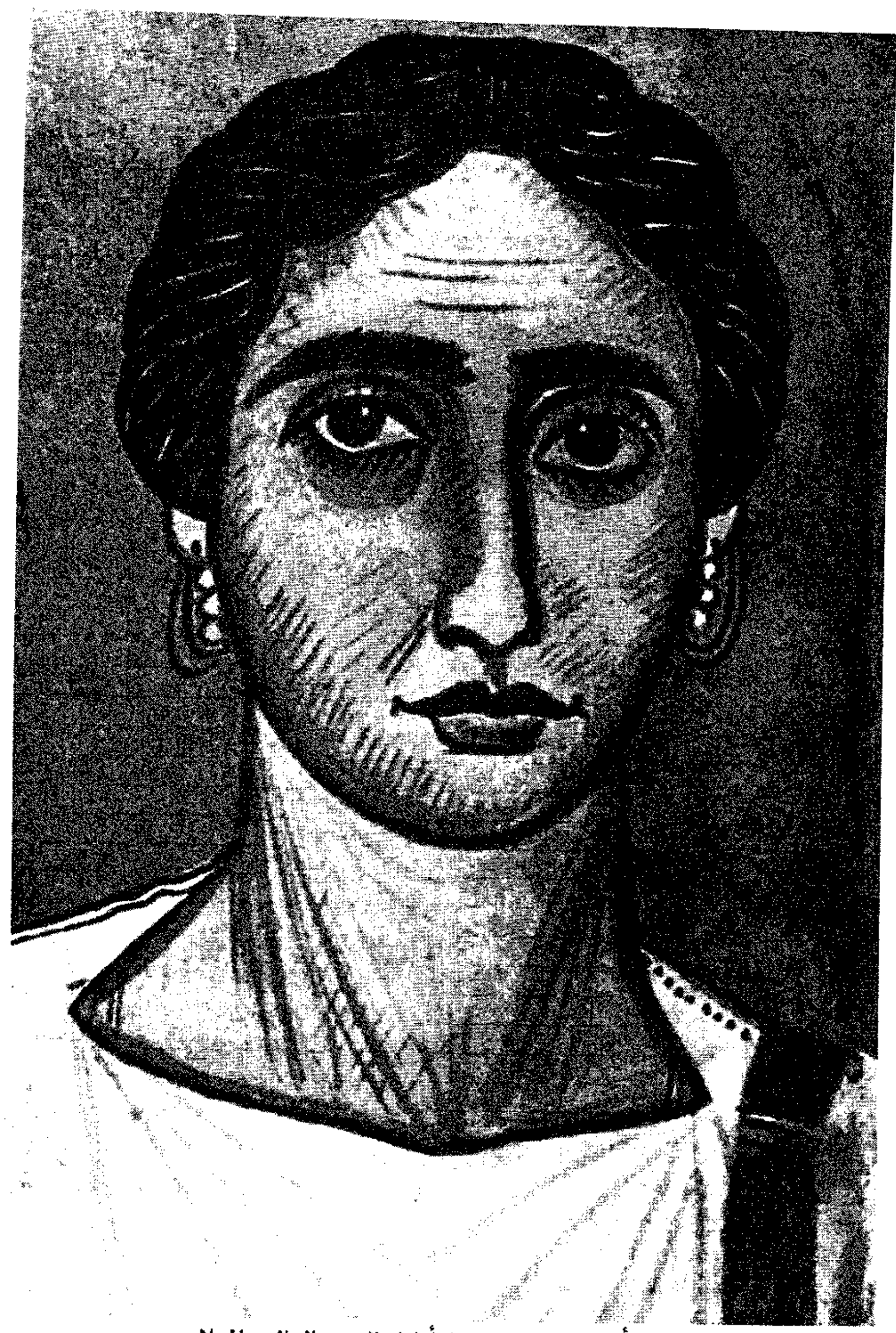
كله شكل قاعدة فنية لخلق حالة دينية في أثناء إقامة الصلوات. ومن غير الانفعال الجمالي كان بلوغ الانفعال العاطفي مع الصلاة أمراً غير ممكن. وعاجلاً أم آجلاً كان ينبغي أن يجد التأثير البصري مكانه في نظام الثقافة المسيحية.

لقد كانت مدن الإمبراطورية الرومانية التي يعيش فيها المسيحيون مزدانة بمختلف الأعمال الفنية: تماثيل الآلهة، والأباطرة، والشخصيات الفذة، وأقواس النصر، واللوحات الجدارية وما إلى ذلك. وعلى امتداد الشوارع كانت تقوم تماثيل مختلف الشخصيات الميثولوجية المقامة عادة على نفقة أشخاص. ولم تكن الأماكن العامة وحدها المليئة بالتحف الفنية، إنما المنازل السكنية الخاصة أيضاً كانت تحتوي كثير منها: كانت جدران منازل مدينة بومبي مثلاً، مزخرفة بلوحات جدارية وموزاييكية شديدة التنوع، بما فيها صور أصحاب المنازل. وحتى سكان الأرياف اعتادوا على رؤية الأعمال الفنية في معابد قراهم، وعلى شواهد القبور والنقوش التذكارية، وكانت التصاوير متنوعة من حيث المحتوى والنوعية: تصاوير الآلهة، أو رموزها (الصقر على سبيل المثال، وهو طير زيوس المقدس، والأسود التي كانت ترتبط بعبادة كيبيلا أمّ الآلهة). وفي بعض الأحيان كانوا يرسمون صورة الميت على شاهدة قبره.



حلقة فلاسفة الأفلاطونيين الجدد

ونحن يمكننا أن نفترض أن أولى التصاوير المسيحية كانت عبارة عن رموز. وكانت الرمزية المسيحية قد نشأت بالتدرج، وغني عن البيان أن المسيحيين قد استقوا الكثير من العالم المحيط بهم، وانسحب هذا على آثارهم الأدبية كذلك. كما على حياتهم اليومية. وإذا ما حاكمنا الأمور وفق شواهد القبور وزخرفات الدياميس، فإنه كان يمكن للمسيحيين أن يستخدموا الرموز الوثنية بعد إعادة تأويلها. فقبل الاعتراف الرسمي بالمسيحية، لم يكن أتباع المسيح يجرؤون على الإعلان دوماً عن مسيحيتهم (لم يشكل استثناء في هذا الميدان سوى المونتانيين الذين كانوا ينتظرون النهاية الوشيكة لهذا العالم، فكتبوا علانية على شواهد قبور إخوتهم في الدين: «مسيحيين»)، ولذلك استخدموا نمط الشواهد الوثنية الذين لم يكن يتعارض مع معتقدهم، وفسروا رموزه على طريقتهم الخاصة. فغالباً ما رسموا دالية العنب وعناقيد العنب، وهي رمزية كانت ترتبط بعبادة الإله أدونيس: لقد كانت للنبيذ رمزية معقدة، إذ جسد دم المسيح، والحياة الأبدية (يروي لنا إنجيل يوحنا معجزة قانا: تحويل الماء إلى نبيذ: رمز دم المسيح)؛ وجسّد السمك الروح التي «صادها المسيح» وكذلك المسيح نفسه: لقد فسروا الأحرف التي تتألف منها كلمة إيختيوس الإغريقية (سمكة) بمعنى «يسوع المسيح ابن الإله المخلّص»؛ ورمزت الحمامة عندهم إلى الروح القدس. أمّا الصليب بصفته الرمز الرئيس فلم يظهر إلاّ في وقت متأخر نسبياً: في القرن ٤م، على شواهد قبور مسيحيي آسيا الصغرى، فلكي يفرقوا أنفسهم عن الوثنيين دون أن يعلنوا عن مسيحيتهم صراحة، كتب هؤلاء في آخر الصيغة التقليدية: «للذكرى»، الحرف X على شكل صليب. وكانت تتداخل في بعض الأحيان الرمزية المسيحية مع الرمزية الوثنية: حملت إحدى شواهد القبور في آسيا الصغرى رسم إكليل الشوك، وهو الرمز المسيحي، لكنهم رسموا بدلاً من الحمامة الصقر، وهو رمز ارتبط تقليدياً بالإله زيوس. وليس واضحاً مغزى مثل هذه المحاولة، التي بقيت فريدة على مرّ العصور. ولكن يمكننا أن نفترض مع ي. س غولوبتسوفا، إنه كان يجري على مستوى القاعدة تفاعل بين الوثنية والمسيحية إبان ما يدعى «العصر الانتقالي». ويبدو إن مواءمة الرمزية الوثنية والصيغ كانت تقرّب بين السكان المسيحيين وغير المسيحيين.



صورة امرأة. الفيوم. تيمبيرا. أوائل القرن الثالث الميلادي.
كمبريدج (الولايات المتحدة الأمريكية). متحف الفنون



صورة امرأة، تيمبيرا، القرن الثاني الميلادي، باريس، اللوفر

ولكن، منذ النصف الثاني من القرن ٢م. أخذ الفن التعبيري المسيحي نفسه ينشأ ويتطور. وبقيت مواعظ آباء الكنيسة ضد التصاوير كأنها قائمة بذاتها ومعزولة عن الذوق الجمالي لجماهير المؤمنين. ولهذا السبب بالذات يمكننا أن نتعرف إلى نماذج هذا الفن المبكرة، في زخرفات النواويس. لقد تطور هذا الفن تحت تأثير السمات الجديدة التي يمكن رصدها في الثقافة الفنية للطور الأخير من العصر القديم، وقد قامت في أساس هذه الأخيرة، مناقضة العالم المادي القاصر بالوجود الآخر الذي تتسم به المعتقدات الطقوسية الباطنية والتعاليم الفلسفية. وفي القرن ٣م نشأت تعاليم الأفلاطونية الجديدة التي كان لها تأثير عظيم على آباء الكنيسة وعلى المسيحية على وجه العموم، لا سيما في تنويعتها الشرقية. وكانت الأفلاطونية الجديدة قد أطلقت فكرة الكلّي المطلق (وهي الفكرة التي كان طرحها الغنوصيون أيضاً)، الذي ليس هو العقل، لكنه في الآن عينه ليس شيئاً ما غير عاقل: إنه فوق العقل. فكثرة النظام الكوني التي لا عدّ لها تظهر عن طريق الانبثاقات: ينبجس العقل من الكلّي. وينبثق الروح الكوني من العقل. والمادة هلامية لا متناهية (لا تحمل مبدأ الرداءة، كما رأى الغنوصيون)، تتلقى أشكالها من فوق. وهي تتوضع في قاع البنية التراتبية للعالم، لكنها لا تتعارض معه.

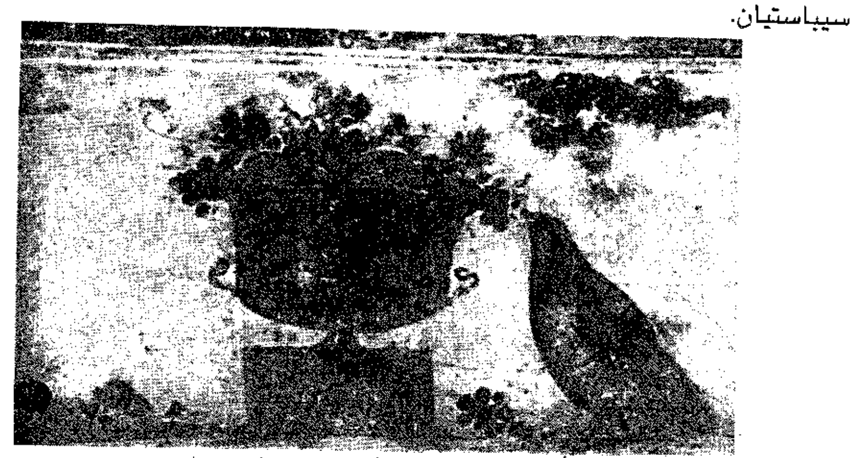


صورة شقيقين رسم بالشمع. القرن الثاني الميلادي. القاهرة. المتحف المصري

وتعدّ روح الإنسان جزءاً من الروح الكوني، وهي تستطيع أن تصعد إلى الكلّي الأوحد عبر كثرة من المجالات، بفضل حالة الوجد. أما الشرّ فهو حسب الأفلاطونيين الجدد مجرد قصور طارئ مؤقت مرتبط ببعد العالم الخارجي عن المطلق. كما تميز أيضاً علم الجمال لدى الأفلاطونيين الجدد، إذ ارتبط في تعاليمهم بكمال الواحد الكلّي. فحسب أفلوطين الذي يعد أبرز ممثلي هذه التعاليم، إن البديع، هو البسيط المطلق الكلي، ولذلك يجب على الفنان ألاّ ينشئ الجمال الفيزيائي، بل ينبغي عليه أن يبين فكرته. ولم يؤثر علم الجمال الفلسفي هذا في أعمال فنية بعينها، مع أنه كان لمثل هذا التأثير حضوره أيضاً، بقدر ما عكس انفعالات ناس ذلك العصر وبحثهم عن أشكال جديدة ليست مرتبطة بإعادة إنشاء ما تراه العين المجرّدة مباشرة. فأتباع العبادات الطقوسية المأخوذين بالصوفية والسحر، كما لو أنهم كانوا يتطلعون إلى ما وراء الجانب الظاهري للواقع، ويسعون إلى اكتشاف الجوهر الداخلي للأشياء ولأنفسهم هم. وفي فن الطور الأخير من العصر القديم، فقدت صورة الإنسان سمات الصورة المرسومة، وغدا التصوير مسطحاً وبات الكشف عن الجانب الروحي، هو الهدف الأساس للرسام. ونحن يمكننا أن نتابع هذه السمات على مثال الصور المصرية المرسومة (صور الفيّوم، نسبة إلى مكان اكتشافها)، المعروضة في كثير من متاحف العالم. لقد كانت الصور المصرية المرسومة تستخدم لإقامة طقوس الدفن: توضع الألواح الخشبية التي تحمل الصور، مع المومياء، أو كانت الصور ترسم على الكفن مباشرة؛ كما كان بعض الصور يعلق على جدران قاعات الاستقبال في المنازل. وتذكر صور القرنين ١-٢م من حيث أسلوبها، بتلك التي اكتشفت في مدينة بومبي. فقد تميّزت بسعي الرسام إلى إظهار الشبه، ولذلك جاءت حجمية مزخرفة. ومثلت الصور أناساً ينتمون إلى أعراق شتى: رومان، وإغريق، وجزيريين، ومصريين، وكان من اليسير أن تنتشر المسيحية في أوساط هؤلاء بسرعة. ولكن أسلوب التصوير أخذ يتغير مع حلول نهاية القرن ٢م: أخذت الصور المرسومة تتحول إلى صور تخطيطية، جبهية، وزاد فيها حجم العينين بصفتهما انعكاساً لروح الإنسان. وأخذت تختفي ملامح الشبه مع الإنسان الحقيقي، من الصور المرسومة كما من صور الأباطرة المنقوشة على النقد: صارت الصورة إلى مجرد رمز. وظهر أن هذه التبدلات كلّها كانت تلائم المسيحيين، وقد أثّرت في إدراكهم الجمالي.

ويمكننا على أساس زخرفات النواويس الرومانية أن نتتبع رحلة ارتقاء الفن المسيحي المبكر. وينتمي أقدم هذه الزخرفات إلى القرن الميلادي الثاني، إذ عثر عليها على جدران نواويس القديس كاليكست الذي كان ناظر المقبرة (ثم صار قائد

مسيحيي روما). وابتداء من القرن ٣م باتت الجدران تزخرف بمشاهد رمزية وأخرى ذات محتوى ما. ومن المشاهد الرمزية المتميزة مشهد إصّ عناقيد العنب التي ينقر منها طير، وهو مشهد نفّذ بأسلوب العصر القديم، وكان قد عثر عليه في نواويس القديس سيباستيان.



كأس عنب وطير (حمامة؟) زخرفة في سراديب رومانية

وللمحاور التوراتية مكانة بارزة في زخرفات النواويس، فقد باتت هذه المحاور تدرج الآن علناً في منظومة المعتقدات المسيحية: لقد صارت التقاليد اليهودية إلى جزء لا يتجزّأ من البنية الثقافية المسيحية. وارتبط انتقاء هذه المحاور بفكرة التبشير بظهور المسيح. فبلعام على أتانه والملاك الذي يقطع طريقة، مشهد أنبأ بدخول يسوع إلى أورشليم راكباً على جحشه.



بلعام على الأتان والملاك. زخرفة في سراديب رومانية

ومن الطريف أن يشار في هذا السياق إلى ما ورد في أعمال توما، إذ بينما هذا الأخير يبشر بالمسيحية في الهند، ظهر له هناك حمار صغير ناطق عرّف عن نفسه إنه واحد من أحفاد تلك الجحشة، وحمله إلى المدينة. وعلى هذا النحو يبدو كأنّ خيطاً يمتد ليصل بين المشهد التوراتي والقصة الإنجيلية وقصة الرسول: ينشأ تاريخ مقدس واحد للمسيحية. كما رسموا في زخرفات النواويس صورة موسى وهو يخرج المياه من الصخرة، مبشراً بذلك بالمعمودية؛ وأوّلوا وقوع يونان في جوف الحوت ومكوثه ثلاثة أيام هناك ثم خروجه بإرادة الإله، رمزاً للملكوت في الظلمة ثم الخروج منها إلى نور الإيمان الحقيقي. وعثروا على زخرفة من مثل زخرفات القرن ٢م هذه، في نواويس تدعى نواويس بريسيلاّ (نسبة إلى النقوش الإغريقية التي عثر عليها هناك)، وكانت تلك الزخرفة عبارة عن مشهد من سفر دانيال التوراتي: صنع الملك البابلي نبوخذنصر (وهو نفسه الملك الذي استولى على أورشليم في القرن ٦ق.م، وهدم المعبد الأول) صنماً من ذهب وحاول تحت التهديد بالحرق أن يرغم ثلاثة يهود على أن يسجدوا للصنم. لكنهم أبوا، فأمر أن يرمى بهم في أتون مستعر. وهنا تحققت المعجزة: لم تمسّ النار اليهود الثلاثة، بينما أحرقت الآخرين (دانيال). وقد رمز هذا المشهد وتصويره رسماً، إلى الإيمان والمعجزة التي يمكن أن يصنعها هذا الإيمان. وترقى إلى الزمن نفسه والنواويس عينها زخرفة مستوحاة من قصة سوسانّا (في الترجمة السبعونية وردت هذه القصة قبل سفر دانيال مباشرة). وسوسانّا هذه امرأة عفيفة حاول الشيوخ إغواءها، ولما فشلوا أخذوا يعملون على اضطهادها: جسّدت هذه القصة الثبات في الإيمان على الرغم من ضراوة الاختبار.



اليهود الثلاثة في أتون النار، زخرفة في سراديب رومانية

وثمة أيضاً رسم جداري يظهر فيه لوط ممسكاً بابنتيه خارجاً بهما من سدوم المحكومة بالهلاك: يعبّر الرسم عن سلوك طريق الدين الحقّ. وهكذا صارت المحاور التوراتية إلى جزء لا يتجزّأ من الزخرفات المسيحية؛ فلم يلق الرسامون المسيحيون بالاً إلى تحريم رسمها.



لوط وابنتاه خارجاً من سدوم. زخرفة في سراديب رومانية

وما يثير الاهتمام أنهم حاولوا أن يستخدموا في الزخرفات محاور الفنّ القديم وإعطاءها تأويلاً رمزياً: لقد أوغلت المثيولوجيا القديمة عميقاً في وعي (الوعي الباطني؟) المؤمنين الجدد. فنقف في الزخرفات على حضور واضح لبطل الأساطير الإغريقية المحبب: هرقل، إذ تزخرف جدران نواويس الشارع اللاتيني بزخرفات متنوّعة من مشاهد أساطير هرقل: لقد أوّلت هذه الموضوعات الوثنية الصرف بروح مسيحية، فجاءت ترمز إلى انتصار الإيمان على الموت وقوى الظلام. واستخدمت هنا القصة التي شكلت محور تراجيديا يوريبيدس: «ألكيستا»؛ وفيها ينتزع هرقل ألكيستا العفيفة من قبضة عفريت الموت، بعد أن كانت قد وافقت هي نفسها على أن تموت بدلاً عن زوجها. وكان هذا الأخير في حالة يأس تام عندما أعاد له صديقه هرقل زوجته ألكيستا. وقد ربط المسيحيون هذا المحور بفكرة القيامة إلى الحياة الأبدية. ونقف على زخرفة أخرى تصوّر هرقل يقتل الهيدرا، رمز الشرّ والتعسف؛ كما لقيت تأويلاً فريداً لدى المسيحيين

قصة هرقل وتفاحات بستان الهسبيريدس: يقف هرقل حاملاً الهراوة عند الشجرة التي يحرسها الثعبان (خلافاً للأسطورة التي يؤدي فيها التنين مهمة حراسة الشجرة، ونجح أطلس في الحصول على التفاحات). ومن الواضح أن الثعبان يرمز هنا إلى الحية التي أغوت حواء، بينما تشبه الشجرة، الشجرة التي كانت قائمة في بستان الجنة، أما هرقل فهو مقاتل الشرير والمغوي. ولكن إذا كانت الموضوعات التوراتية قد دخلت التقليد المسيحي بصفتها جزءاً مكوّناً له، فإن تأويل الأساطير القديمة، ومحاولة إدخالها بنية الرمزية المسيحية قد جريا على أيدي مثقفين كانوا على معرفة دقيقة بالأساطير والتراجيديات، فسعوا إلى مزج الإرث الثقافي الذي اعتادوا عليه، مع نظام المعتقدات والتعاليم الدينية الجديدة. ولكن هذا التأويل لم يلق كثيراً من الانتشار، لأن التداعيات الفكرية الوثنية كانت قوية جداً وغير ملائمة للعقلية المسيحية الجديدة.





من اليسار: هرقل عند شجرة التفاح. من اليمين: هرقل يقتل الهيدرا
زخرفة في سراديب رومانية

وابتداءً من القرن الميلادي الثاني أخذت تظهر الموضوعات المسيحية نفسها: تصاوير الأفخارستيا: أناس يجلسون حول مائدة ويكسرون الخبز، وتظهر في زخارف نواويس القديس كاليلكست سلتان موضوعتان على جانبي المائدة مملوءتان خبزاً، لتذكرا بمعجزة يسوع الذي أطعم الجموع الجائعة في البرّية.

لقد شكل البحث عن طرائق لمقاربة الصورة المرئية، أي المظهر الخارجي ليسوع، مرحلة مهمّة في صيرورة الفن التعبيري المسيحي. وبما أن الرسامين لم يجرؤوا على تخيل الصورة البشرية

ليسوع نفسه، لذلك استخدموا في زخرفات النواويس صورة الراعي الصالح، وهي صورة فتى يحمل حملاً على كتفيه (رمز الروح التي أنقذت)، أو تحيط به الغنم: المؤمنون. لقد كانت نوعية الزخرفات متباينة، فبعضها جرى تنفيذه حسب تقاليد فنّ العصر القديم (= الإغريقي الروماني-م) (كان الاهتمام بالرعاة، والآلهة الفافان الذين ينقذون الأغنام من السمات التي تميز بها فن العصر الهلنستي وأدبه)؛ وبعضها الآخر نفذه رسامون من الواضح أنهم غير محترفين، إذ انتهكوا أبسط معايير التناسب، حتى جاءت الغنم لا تشبه نفسها في رسوماتهم.



يسوع في صورة الراعي الصالح زخرفة في سراديب رومانية



الراعي الصالح
تمثال من أوائل القرن الرابع الميلادي

وفي القرن ٣م باتت شخصية الراعي تستخدم في فنّ النحت (الفتى البديع: الراعي الصالح). وسار البحث عن أيقونة ليسوع رويداً رويداً. وحافظ لنا يوسفوس القيصري على خرافة منحولة تقول، إن يسوع مسح وجهه يوماً بمنديل انطبعت عليه صورته، فأرسله إلى الأبجر ملك أوسروين، وهذا يعني في الوقت نفسه أن يسوع قد بارك تصوير صورته. ونشأت خرافة أخرى تزعم أن لوقا الإنجيلي رسم صورة أمّ الإله بنفسه.

لقد جاءت صورة يسوع في زخرفات النواويس شاباً من غير لحية، يرتدي زياً رومانياً أو عارياً تماماً، كما في مشاهد المعمودية. وكان البحث جارياً عن صورة ليسوع خارج فن زخرفة النواويس أيضاً: عثر في ضريح لواحد من أغنياء المعتوقين على فسيفساء يرقى تاريخها إلى الحقب التي سبقت اعتراف قسطنطين بالمسيحية، ويظهر يسوع فيها في صورة إله شمسي، لكنه محاط برموز مسيحية. أما أقدم صور يسوع الملتحي، فلم تظهر إلاّ في آخر القرن ٤م، في النواويس الرومانية. وكانت تلك صورة رجل منهك مضنى عيناه مرفوعتان نحو السماء. وقد انعكس ذلك البحث في نزعات شتّى لفهم يسوع: ارتبطت إحداها بتصور يسوع شخصاً ليس ذا صورة جميلة، وهذا ما يتعارض مع المثل الجمالي للعصر الإغريقي- الروماني؛ بينما انطلقت النزعة الأخرى من التعاليم التي ترى أن الجمال الروحي ينبغي أن ينعكس في المظهر الخارجي؛ وسرعان ما ظهرت هذه في فن رسم الأيقونات البيزنطي الذي استند إلى أن الصورة الخارجية ليسوع قد تغيرت بعد قيامته إذ شع منه نور غير زمني.



يسوع على الكرة الأرضية ومعه الرسول بطرس (على اليسار) والرسول بولس (على اليمين). زخرفة في سراديب رومانية



المسيح يشفي امرأة. زخرفة في سراديب رومانية



يسوع في صورة إله شمسي، موزاييك من قبر مسيحي في روما



صورة يسوع الملتحي، زخرفة في سراديب رومانية

وبالتزامن مع تصاوير يسوع، أخذت تتطور أيقونات والدة الإله. وقد رسموا صورتها عادة وهي تحمل يسوع الطفل على يديها: واقفة أو جالسة. وكانت التصاوير الأولى قد حافظت على قدر كبير من الحجمية، لكن الأشكال ما لبثت أن تحولت بعد ذلك إلى أشكال مسطحة: حركات طقوسية، وعينان اتساعهما مبالغ فيه. ومنذ البداية جاهدوا في رسم صورة والدة الإله امرأة جميلة. ولكن صورة غير عادية لوالدة الإله جاءتنا من القرن ٣م: تظهر العذراء في هذه الصورة سافرة رأسها مكشوف، ويداها مرفوعتان في وضعية الصلاة، والطفل على صدرها، وفي عنقها عقد. لكن الطفل يبدو في هذه الصورة كأنه إنسان صغير ناضج، وقد صار هذا التقليد إلى تقليد قانوني في فن رسم الأيقونات البيزنطي. ثم أخذت تظهر في بعض اللوحات الجدارية تصاوير الرسل، خاصة صورتي بولس وبطرس اللذين قدما في فن الرسم المسيحي اللاحق كلّه رجلين أصلعين ابتعدا عن سنّ الشباب. ويرافق بطرس رمزه الدائم: مفاتيح يسلمها له يسوع، كما كانت اللفافة الورقية (الناموس؟)، رمز بولس. وليس بين يدينا ما يشهد على أن هذه التصاوير كانت موضع تعبّد وسجود.



والدة الإله والطفل على ركبتيها. زخرفة في سراديب رومانية

ولا تحمل جدران النواويس زخارف ترتبط بالكتاب المقدس وحسب، إنما يمكننا أن نشاهد هناك تصاوير ناس عاديين أيضاً، من الواضح أنهم دفنوا هناك، لقد كانت التصاوير من أكثر أجناس فن الرسم انتشاراً وقتذاك، وكانت قد اتصلت بادئ ذي بدء

بعبادة الأسلاف في الثقافة الرومانية، ثم صارت إلى جزء من الثقافة الزمنية. وتتوزّع الآن في مختلف متاحف العالم كثرة كثيرة من التماثيل الرومانية، وهي لا تمثل الحكام فقط، إنما تمثل أناساً آخرين كذلك. وتشهد كثرة هذه الأعمال الفنية على أنها لم تكن تزيّن منازل الأهل والأقارب فقط، بل كانت جزءاً من مجموعات فنية منتشرة في مختلف أرجاء الإمبراطورية. وفي المقاطعات الشرقية كان رسم صورة المتوفى على شاهدة القبر أمراً تقليدياً. وغنيّ عن البيان القول، إن المسيحيين بعد أن انتهكوا تحريم رسم صورة الإله والقديسين، كانوا سيتحوّلون عاجلاً أم أجلاً إلى رسم صور أقاربهم المدفونين في مقابر تحت الأرض.

لقد كانت العائلات الفقيرة التي لا تتوفر على إمكانات لإقامة نقوش مكلفة تشير إلى قبور أقاربهم، تكتفي برسم تصاوير صغيرة لأشكال بشرية غير مرفقة بأي علامات خاصة. ثم أخذت تظهر تصاوير أشكال في وضعية الصلاة، ويشير الدارسون للنواويس إلى أن الأشكال الأنثوية التي في وضعية الصلاة، قد رسمت في بعض الأحيان إلى جانب قبور الرجال، والأشكال الرجالية الماثلة إلى جانب قبور النساء. وقد تكون هذه التصاوير تصاوير مصلين يندبون أعزاءهم الراحلين.

وكان القرنان ٣ و٤م قرنيّ البحث عن مبادئ رسم لوحات الصور. وقد عثر على واحدة من مثل هذه اللوحات في حجرة من القرن ٣م، وهي لوحة نصفية لامرأة ترتدي ثياباً فاخرة، رافعة نحو السماء عينين حزينتين، وتبدو ملامح وجهها واضحة. ولكن أكثر التصاوير المشابهة التي عثر عليها كانت مسطحة وجبهية. وثمة لوحة جدارية في النواويس تظهر فيها امرأة تصلي واقفة، وترتدي ثوباً يصل إلى الأرض ليغطي كامل جسدها. وما يميز هذه اللوحة أن اسم صاحبتها مدّون في أعلاها: غريتا. ومن الواضح أن الذي رسم هذه اللوحة لم يتقيد بالمعيار التشريحي الدقيق، فاليدان والأصابع مقاييسها متباينة، كما تبدو تقنيّة الرسم بدائية إلى حدّ كبير، إلا أنه يصعب القول ما إذا كان هذا نتيجة ضعف حرفية الرسام المسيحي، أم أنه تجاهل مبدئي للواقع المعطى. ومن البدهي أن نظن أن مختلف المسيحيين كان يدعو مختلف الرسامين ليرسم له صورة، وليس بالضرورة إنه كان يدعو الرسام الأفضل. وينبغي أن ننوه في غضون ذلك إلى أن اللوحات المزخرفة كانت ظاهرة معتادة في نواويس المقاطعات، خلافاً لنواويس روما حيث تأثير قادة الكنيسة أقوى.



رسم امرأة تدعى غريتا، زخرفة في سراديب رومانية

ومع انتصار المسيحية في الإمبراطورية، توقف فنّ النواويس، وظهرت المدافن المسيحية فوق سطح الأرض، وصار الفن التعبيري المسيحي يوشيّ المعابد والكنائس. كما ظهرت أيضاً تصاوير بعض القديسين مرسومة على ألواح خشبية (عثر على مثلها في مصر)، وكانت هذه اللوحات مقدمة لفن رسم الأيقونات، لا سيما لدى مسيحيي الشرق. وفي آخر المطاف قبل اللاهوتيون المسيحيون، بل كرسوا أيضاً تصاوير يسوع، ووالدة الإله، والقدّيسين. ونشأ فيما يلي من تاريخ المسيحية، تبجيل الأيقونات وتكريمها بصفتها صور تملك الغبطة وتستطيع أن تحمل إلى من تمثله، الأفكار والأحاسيس. ففي الغرب باتت الأيقونات جزءاً لا يتجزأ من زخرفة المعابد، ولكن خلافاً لعبادة التي نشأت إبان القرون الوسطى في بيزنطة، لم تكن الأيقونات بالنسبة للاكليروس الغربي موضع تقديس، بل مجرد زينة، ووسيلة إيضاح للكتاب المقدس.

وبعد أن اعترف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية في أوائل القرن ٤م، بدأ نشوء فن العمارة الكنسي: أخذت الكنائس والمعابد تبنى تحت حماية الإمبراطور. والواقع أن مثل هذه المحاولات كانت قد جرت من قبل، لكنها اقتصرت على المقاطعات النائية؛ فقد وصلت إلينا آثار كنيسة صغيرة اكتشفها المنقبون الآثاريون في شمال شرقي سوريا في قرية دورا- يوروبوس (= الرصافة الآن- م). ولم يستخدموا مخطط بناء المعبد الوثني لبناء الكنائس، بل مخطط بناء البناء العادي الممتدّ المتطاول المخصص لانعقاد جلسات المحكمة: البازيليكا. ومن المعروف أن معبد العصر الإغريقي- الروماني كان يتصف بفخامة ملفتة إن من الداخل أو من الخارج، فهو كان حسب معتقدهم مسكن الإله المعني نفسه، كما كانت الطقوس الجماعية تؤدّى في فنائه الخارجي. وبدورها كانت الكنيسة المسيحية بيت الصلاة الذي يجتمع فيه المؤمنون، ولذلك جهد بناة الكنائس إلى تحقيق تأثير جمالي على كلّ من يدخل إلى الكنيسة من خلال الاهتمام الكبير بفخامة داخل المكان. ففي الكنائس المسيحية الأولى التي بنيت في روما، ثم في القسطنطينية حيث أخذوا يستخدمون مع الزمن مخطط المبنى المقبب، يبرز تعارض واضح بين المظهر الخارجي المتواضع إلى حد ما، والفخامة الملفتة لداخل الكنيسة. لقد كانت الجدران الداخلية للكنيسة أو الدير تزدان بالفسيفساء والزخارف. وعندما كان المؤمن يدخل إلى الكنيسة، كان يشعر كأنه دخل إلى عالم كلّ شيء فيه مختلف: الهيكل، والمذبح، والأيقونات، والشموع المشتعلة، ورائحة البخور، هذا كله معدّ لخلق جوّ يفرض حالة نفسية انفعالية ملائمة إلى أقصى حدّ من أجل تحقيق التواصل مع الإله.

ولكن الثقافة المسيحية في الشرق والغرب، أخذت تتطور في الزمن اللاحق في طرق مختلفة، إلا أن أسس هذه الثقافة الكتابية والتعبيرية كانت قد وضعت إبان القرون الأولى لحياة المسيحية.

سرجيوس وباخوس. أيقونة على الخشب. مصر. رسم بالشمع. القرن الرابع الميلادي. كييف. متحف الفنون الغربية والشرقية

خاتمـــــة

نحـو نَيْـل الاعـتراف

لقد عاشت الإمبراطورية الرومانية في القرن الميلادي الثالث أزمة كانت من أصعب الأزمات التي عرفتها في تاريخها كله، وكان من البدهي أن تنعكس تلك الأزمة على أوضاع المسيحيين أيضاً. فالقبائل الجرمانية البربرية كانت قد أخذت تجتاح حدود الإمبراطورية منذ أواخر القرن ٢م. ونزعت المقاطعات نحو الاستقلال عن روما. واشتعل من جديد صراع مرير على السلطة. فقتل خليفة الإمبراطور كومّود بعد مرور سبعة وثمانين يوماً على اعتلائه العرش. وأعلن الحرس الإمبراطوري الذي قتله إنه سوف يمنح العرش لمن يدفع لهم أكثر. ولكن الذي اشترى التاج لم يعمر على العرش طويلاً. وبات مصير الصراع على العرش يتقرر الآن على أيدي الجيوش الرومانية المعسكرة في المقاطعات، وقد سعى كلّ منها إلى تتويج صنيعته. ولكن «أباطرة الجنود» كان يعقب واحدهم الآخر مباشرة، وثمة مقاطعات توّجت أباطرة لها: غاليا على سبيل المثال. وعلى صعيد آخر رفض كبار مالكي الأرض الخضوع للسلطة المركزية، وشرع الموظفون ينهبون السكان. وفي القرن ٣م اشتعلت في بعض أجزاء الإمبراطورية انتفاضات العبيد والكولونات. وغني عن البيان القول، إن هذه الأحداث كلّها أفضت إلى حصول تبدل كبير في السيكولوجيا الاجتماعية للسكان، وفقدان الثقة نهائياً في عقلانية النظام العالمي القائم. فتقاطر كثيرون إلى اعتناق المسيحية. بيد أن حالة هذه الديانة كانت معقّدة بدورها: لقد كان اللاهوتيون المسيحيون بصدد صياغة عقيدة أرثوذكسية، فاشتد الخلاف بينهم

حول قوانينها الأساسية. ضف إلى هذا، أن علاقات شديدة التعقيد كانت نشأت بين المسيحيين والسلطة الإمبراطورية التي كانت قد بدأت حملة ملاحقات عامة ضدهم في القرن ٣م.

لقد شهدت الحقبة الزمنية التي نحن بصددها، ظهور أعظم اللاهوتيين المسيحيين، وكان هؤلاء يمتلكون ناصية الفلسفة القديمة ونجاحاتها (مع أنهم رفضوا عقلانيتها)، لا سيما الأفلاطونية الجديدة. فقد قال كليمينت الإسكندري، إن الفلسفة القديمة (= فلسفة العصر الإغريقي- الروماني- م)، أعدّت طريق المسيحية؛ ولكن، غني عن البيان أن الفلسفة لم تتطرق إلى العقائد الأساس. فواصل اللاهوتيون، ومن ورائهم جماهير المؤمنين، انشغالهم بالمسألة المتصلة بجوهر يسوع والثالوث: العلاقة بين الآب والابن، والروح القدس. ورأى أوريجينوس أن يسوع «اللوغوس»، هو ابن الإله، وهو نفسه إله؛ وإن الإله الأب قد خلق الروح القدس عبر المسيح؛ ثم دعاهم أوريجينوس بكلمة دخلت بعد ذلك العقيدة: أقانيم. وكان ترتوليان أول من أدخل مفهوم الثالوث اللغة اللاتينية (Trinitas)، ويعني هذا المفهوم وحدة الأقانيم الثلاثة: الآب، والابن والروح القدس المنبثق من الآب عبر المسيح. لقد أعلن الأرثوذكسيون وحدة الإله في ثلاثة وجوه، لكن الجدال حول جوهر المسيح وعلاقته تجاه الآب تواصل على امتداد القرن الثالث الميلادي كلّه. وحسب يوسفوس في «التاريخ الكنسي»، أن بولس السميساطي (سوريا) لم يقرّ إلاّ بالطبيعة البشرية ليسوع، التي وجد فيها اللوغوس المرسل من فوق. ولقصة الصراع بين بولس والأرثوذكسيين مدلولها الخاص: كان بولس يحظى بحماية زنوبيا ملكة تدمر السورية، الأمر الذي أسقط في أيدي قادة الكنيسة الآخرين وجعلهم عاجزين عن فعل أي شيء معه. أمّا بعد أن استولى الإمبراطور أورليان على تدمر وأخضعها لسلطته، فقد طلب هؤلاء مساعدته ضد بولس. ومع أن أورليان لم يكن مسيحياً إلاّ أنه سلب بولس مرتبته الكنهوتية، وأصدر تعليمات تعطي أساقفة روما وإيطاليا فقط، حق تعيين قادة الكنائس المحلية. ومن المشكوك فيه تماماً أن تكون المشاحنات العقيدية أثارت أي اهتمام لدى أورليان، لكنه كان يسعى لاستقطاب رعاة المسيحيين في روما وفي تدمر معاً. بيد أن أفكار بولس السميساطي لم تندثر. ففي القرن ٤م. أعلن الكاهن الإسكندري آريوس عن تعاليمه التي تقول، إن الإله واحد أحد خلق كلّ شيء، وأن المسيح نفسه مخلوق. لكن أساقفة مصر لم يوافقوه الرأي، إلا أن تعاليمه شاعت في بعض المقاطعات (ثم في أوساط عدد من القبائل الجرمانية). وفي هذه الظروف سعى الأساقفة إلى تقوية التنظيم الكنسي، وزرع التربية المسيحية في تربة العائلة: أخذت تنتشر معمودية المواليد، لأنهم من وجهة نظر اللاهوتيين، مولودون بالخطيئة الأصلية. وبات على الراشدين أن يعدوا إعداداً

خاصاً قبل المعمودية ويخضعوا لاختبار. وجرت محاولات جدّية لترسيخ مركزية الإدارة الكنسية وتقويتها، فظهرت الأبرشيات التي امتدت سلطتها على مقاطعات بكاملها، وعقدت المجامع التي ضمت عادة أحبار عدد من المناطق. ولكن، كما تبيّن من قصة بولس السميساطي، فإن أياً من الأرثوذكسيين وخصومهم لم يكن قادراً بمفرده على أن يحقق النصر على الآخر. فلتحقيق وحدة التعاليم المسيحية، وبناء تنظيم كنسي واحد كان لا بدّ من الاستعانة بالمؤسسات السلطوية، وكان هذا الأمر ممكناً وقتئذٍ خاصة، لأن المسيحية لم تكن ضدّ الأباطرة كأباطرة، ولم يقتصر هذا الموقف على اللاهوتيين ورجال الكنيسة فقط، إنما تعدّاهم ليستقرّ في وعي جماهير المؤمنين الذين لم يعد بمقدورهم أن يتخيلوا وجودهم في هذا العالم من غير وجود سلطة الأباطرة، فنسجوا صوراً لأباطرة حكموا يوماً ما وكانوا حماة للمسيحيين. ولكنّ عقد تحالف مع السلطة كان يتطلب بالضرورة أن تدرك هذه السلطة مدى أهمية الدين الجديد وضرورة الاعتراف به. بيد أن حالة عدم الاستقرار التي كانت تعاني السلطة الإمبراطورية منها في القرن ٣م، أنتجت مواقف سياسية متقلبة اعتمدها الأباطرة الذين يجدّون في البحث عن سند إيديولوجي، في إحياء التقاليد القديمة حيناً، وفي فرض الديانات الشرقية حيناً آخر (لقد حاول أورليان أن يجعل عبادة «إله الشمس الذي لا يقهر»، عبادة رسمية). لقد تراوحت سياسة الأباطرة تجاه المسيحيين بين الاهتمام الحذر، والتعاطف وصولاً إلى الملاحقات والتنكيل.

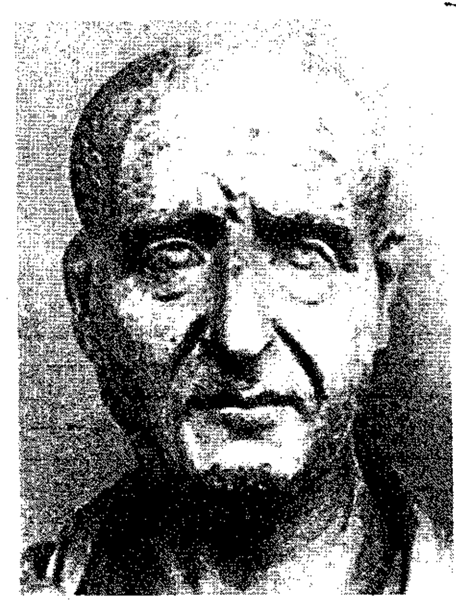


بازيليكا سانتا – ماريا ماجوري في روما. منظر داخلي



عمادة يسوع. من اليمين يوحنا المعمدان، من اليسار إله مائي. رمز نهر الأردن. موزاييك من كنيسة آريوسية في رافينا

وقد أدى تعقيد الوضع داخل المسيحية وخارجها إلى انتشار حركة التنسك: انعزال بعض الدعاة في أماكن معينة، وبراري، وكهوف حيث عاشوا فيها حياة زهد وتقشّف، سعياً منهم لإنقاذ أنفسهم بالصلاة. ورأى المسيحيون في مثل هؤلاء النسّاك (= الرهبان) قدّيسين. وفي القرن ٣م ظهرت أماكن العيش المشترك التي أقام هؤلاء فيها، وكان ذلك في مصر أولاً. ودعيت تلك الأماكن في بادئ الأمر كينوبيا (السكن المشترك)، وهي كلمة إغريقية، أما في الأماكن التي كانت تتحدث اللاتينية فدعيت الأماكن عينها مونا ستيريوس (= دير). وما لبثت الأديرة التي عبرت عن سعي كثير من المسيحيين إلى الابتعاد عن شؤون العالم ومآسيه، أن ظهرت في أرجاء أخرى من الإمبراطورية.



الإمبراطور ديسيوس

وعند منتصف القرن ٣م بدأت ضد المسيحيين حملة واسعة أخرى من الملاحقات والتنكيل. ففي العام ٢٤٩م أعلن الجنود القائد العسكري ديسيوس إمبراطوراً. وقد حاول هذا أن يعيد فرض النظام في الإمبراطورية، فشجع على عبادة الآلهة القدماء؛ إذ رأى في المسيحيين خطراً يهدد وحدة الدولة التي كان أكثر سكانها لا يزال متمسكاً بالوثنية، وما زاد الأمر خطورة بالنسبة لديسيوس أن المبشرين المسيحيين انطلقوا يبشرون بتعاليمهم في المقاطعات كلها، حتى في أوساط القبائل البربرية. فأصدر أمراً ألزم به سكان الإمبراطورية الأحرار كلهم بالإعلان جهاراً عن تمسكهم بالمعتقدات القديمة وعبادة الإمبراطور وتقديم القرابين بحضور شخصيات رسمية. وكانت تعطى لمن ينفذ الأمر الإمبراطوري وثيقة تثبت ذلك. وقد اكتشف علماء الآثار عدداً من مثل هذه الوثائق في مصر. ولكن كثرة كثيرة من المسيحيين رفضت أن تؤدي تلك الطقوس عادّة إياها تجديفاً، وكان عقاب هؤلاء السجن أو الموت. لقد فرّ المسيحيون من المدن، ولجؤوا إلى مختلف المخابئ، وحاولوا شراء الموظفين. وكان بين من تخفوا أسقف قرطاجة الشهير كيبريانوس. بيد أنه ثمة من المسيحيين من أدى الطقوس المطلوبة خوفاً من القتل (أطلق المسيحيون على هؤلاء صفة «هالكين»). ولم تستمر

ملاحقات ديسيوس هذه طويلاً، إذ لم يبق على العرش سوى عامين، فقد سقط قتيلاً في إحدى المعارك مع الجرمان. وبعد ذلك انشغل الحكام الجدد عن المسيحيين بالصراع على السلطة. لكن الإمبراطور الجديد فالريان ما لبث أن أطلق حملة جديدة ضدهم. فقد أصدر في العام ٢٥٧م أمراً منع بموجبه إقامة طقوس العبادة المسيحية؛ وفرض على رجال الدين المسيحي تقديم القرابين للآلهة الرومان؛ ومنع انعقاد الاجتماعات. ثمّ سلب أعضاء السينات المسيحيين ألقابهم ومناصبهم، وصادر أملاكهم، وأرسل من كان منهم يشغل منصباً حكومياً إلى الأشغال الشاقة في المناجم ومقالع الحجارة؛ كما عوقبت بالنفي أيضاً الارستقراطيات المسيحيات. وهلك في حمّى تلك الملاحقات كيبريانوس الذي كان قد نجا من ملاحقات ديسيوس. وقد كانت لهذا الأسقف شهرة عظيمة حقاً، إذ اجتمع في مكان إعدامه حشد كبير من المسيحيين العاديين وأخذوا يهتفون: «اقطعوا رؤوسنا مع رأسه».

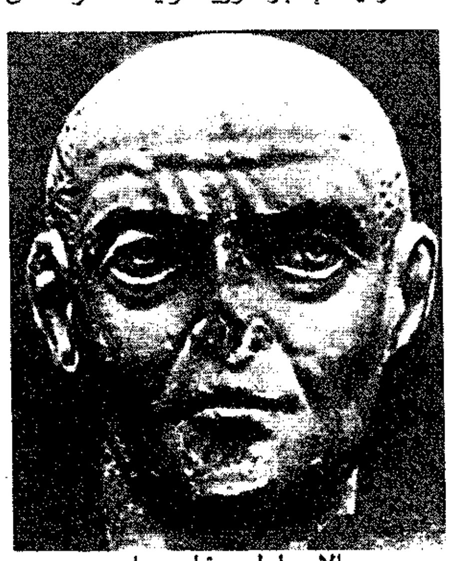


شهادة إثبات على بردية. معطاة لامرأة تدعى أفيريليا ديموس. تؤكّد أنها بحضور زوجها وأحد الموظفين قدمت طواعية ذبيحة للآلهة

وكانت قد وصلت إلينا مصادر مسيحية تحمل وصفاً لمسار التحقيق مع المسيحيين. ففي رسالة ديونيسيوس، أسقف الإسكندرية، التي ساقها لنا يوسسفيوس القيصري (التاريخ

الكنسي)، رواية لقصة التحقيق مع ديونيسيوس هذا عينه، ومع أخوة له في الدين. وكان الوالي نائب القنصل نفسه قد حقق معهم؛ إذ وصل إلينا نصّ الوثيقة الرسمية لذلك التحقيق في وثائق نائب القنصل المعني: لقد سألهم هذا السؤال الآتي: من الذي يمنع المسيحيين أن يعبدوا آلهة آخرين إلى جانب إلههم، إذا كان هذا الإله إلهاً حقاً؟ وعقاباً لهم على رفض عبادة الآلهة الوثنيين حكم على المسيحيين بالنفي. ولكنّ سؤال نائب القنصل يبين أن جوهر معتقدات المسيحيين بحد ذاته لم يكن هو الذي يقلق السلطات، إنما ما كان يقلق هؤلاء، هو سعي المسيحيين إلى الانفصال عن المعايير العامة المعتمدة لعبادة الآلهة المعترف بهم رسمياً، الأمر الذي رأت السلطة فيه عدم ولاء للإمبراطورية: لقد بدا كأن المسيحيين وضعوا أنفسهم خارج البنية الاجتماعية لذلك الزمن، وقد رأت السلطات فيهم أناساً غرباء مبهمين ولذلك خطرين. وأدى عناد المسيحيين إلى تزايد ضراوة البطش بهم، فثمة حالات أحرقوا فيها وهم أحياء. وعدّ المسيحيون قتلاهم شهداء، وجعلوا من مقابرهم مزارات أولياء (وإذا لم تكن قبور هؤلاء معروفة، كانوا يضعون لهم شواهد في مكان ما). ثمّ صار الشهداء إلى شفعاء للأحياء أمام الإله. وبذا تكون قد ظهرت عبادة الشهداء العظام.

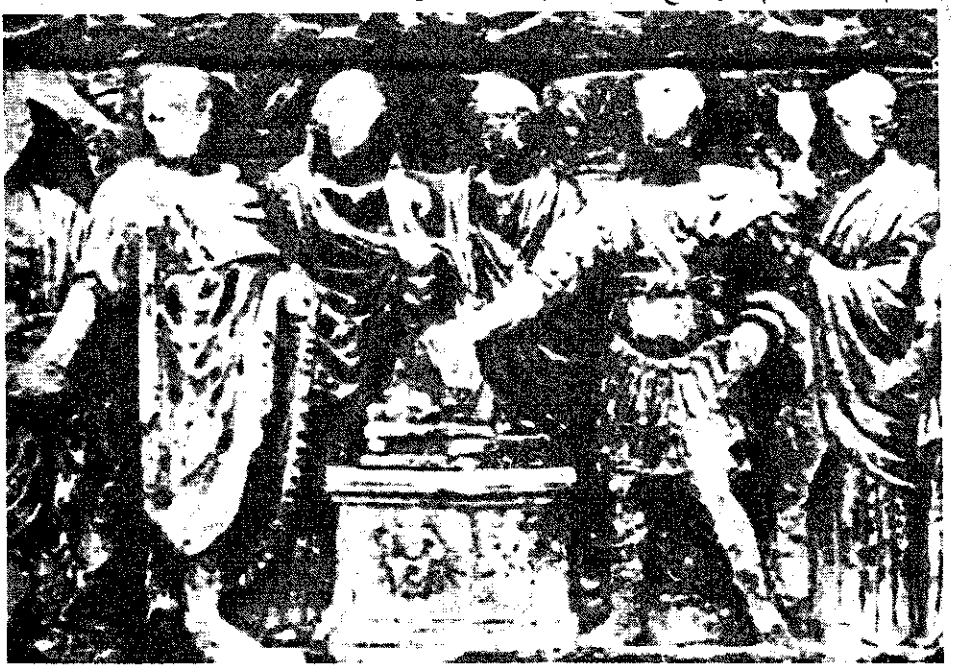
وقد لاقى فاليريان بدوره مصيراً مأساوياً محزناً: وقع أسيراً لدى الفرس[1] الذين كانوا بدؤوا في ذلك الوقت اجتياح المقاطعات الشرقية للإمبراطورية. وفي الأسر كان فاليريان عبداً لدى الملك الفارسي، فعندما كان هذا يأتي ليمتطي جواده، كان على فاليريان أن يقترب ويحني ظهره كي يضع الملك قدمه عليه ويصعد إلى فرسه. وكان قد حلّ على عرش روما غالينوس ابن فاليريان، فأوقف ملاحقة المسيحيين، وأظهر على وجه العموم سياسة- التسامح. بيد أن القرن الثالث هذا كان القرن الذي عانى فيه المسيحيون من حملة ملاحقات وتنكيل كانت من أكثر الحملات ضراوة ووحشية. ففي العام ٢٨٤م اعتلى العرش الإمبراطوري في روما أحد أبناء


الإمبراطور دقليسيان

١- كانت قد قامت على أراضي إيران في ذلك الوقت مملكة فارسية جديدة قامت على رأسها سلالة الساسانيين.

العبيد الدالماسيين المعتوقين: دقليسيان؛ وكان هذا من أبرز القادة العسكريين والسياسيين الذين لا تلين لهم إرادة. لقد أجرى دقليسيان عدداً من الإصلاحات الهادفة إلى تدعيم سلطة الدولة، فغيّر التقسيمات الإدارية، ونجح لبعض الوقت في وضع حدّ للنزعة الانفصالية لدى المقاطعات. وطالب دقليسيان بأن تؤدى له آيات التبجيل الإلهية، وكان يهدف من ذلك إلى رصّ صفوف سكان الإمبراطورية حول عبادة شخصه (وربما يكون قد تجلى في هذا السعي، طموح كان كامناً في الوعي الباطني لشخصية تنتمي إلى فئات المجتمع الدنيا، يدفعه لكي يعلو على الأرستقراطيا الرومانية). فأمر بملاحقة كلّ تعاليم دينية لا تتوافق ورؤاه هو، وبدأ حملته المسعورة تلك بملاحقة أنصار الداعية مانو: المانويين. وكانت تعاليم مانو قد نشأت إبان القرن الثالث في إيران وانتشرت منها إلى مختلف المقاطعات الرومانية الشرقية. وقام في صلب هذه التعاليم تصور اتسمت به الغنوصية أيضاً: وجود قوى الشرّ التي خلقت العالم الزمني، ووجود إله الخير الصالح. وقد حملت المانوية تأثير كلّ من الفلسفة القديمة، والمسيحية. لقد أعلن دقليسيان المانويين خارج القانون، ثمّ ما لبث بعد ذلك أن بدأ حربه ضد المسيحيين. فأصدر في العام ٣٠٣م مرسوماً حرم بموجبه إقامة الطقوس الدينية المسيحية على أراضي الإمبراطورية. ثمّ أمر بهدم كلّ الكنائس المسيحية التي كانت قد بنيت في فترة السكينة، ومصادرة أملاك المسيحيين. وطالب الموظفون بتسليمهم الكتب المقدسة وأحرقوها (لكن المسيحيين استغلوا جهل الجنود بمبادئ القراءة والكتابة، ودفعوا إليهم بكتب أخرى). كما طرد من الجيش وجهاز الدولة كلّ من اشتبه بانتمائه إلى المسيحية، وأعدمت كثرة كثيرة من المسيحيين. ويروى أنه كان ينبغي حتى على زوجة دقليسيان أن تقدم ذبيحة علنية لتظهر ولاءها. ولكن على الرغم من الطابع الجماهيري الذي ارتدته عمليات قمع المسيحيين، إلاّ أنها لم تعط النتائج المرجوة. فقد أثارت وحشية القمع والمعاقبة، وصمود كثير من المعذبين المسيحيين صموداً أسطورياً، تعاطف الرومان العاديين الذين كانوا يعانون بدورهم من تعسف جهاز إدارة الدولة وعبء الضرائب الذي فاق طاقتهم في عهد دقليسيان خاصة. ومن جهة أخرى كانت الكنيسة قد تحولت على الرغم من التناقضات الداخلية، إلى منظمة قوية متماسكة: أخفى المسيحيون كتبهم، وهيّؤوا الأماكن الآمنة للملاحقين، وقدموا العون للعائلات المنكوبة. لقد كانت عبادة دقليسيان عاجزة عن أن تكون البديل الإيديولوجي للدين المسيحي. وفي العام ٣٠٥م، التزاماً بقراراته التي كان قد أصدرها بهدف تفادي نشوب الصراع على السلطة، تنازل

دقليسان عن العرش لنائبه غاليريوس[1] الذي وجد نفسه مرغماً على إيقاف الملاحقات. وقد اتضح فشل تلك الملاحقات، لا سيما بعد أن اشتعل الصراع على السلطة في الإمبراطورية من جديد، على الرغم من نوايا دقليسيان الطيبة لتفادي إمكانية انفراد شخص واحد بالعرش الإمبراطوري. وفي تلك الظروف كان من غير الممكن أن يجري الحديث عن أي ملاحقات ضد المسيحيين، بل طرحت على بساط البحث مسألة التحالف معهم، وفي المقام الأول مع الكنيسة بصفتها تنظيماً.

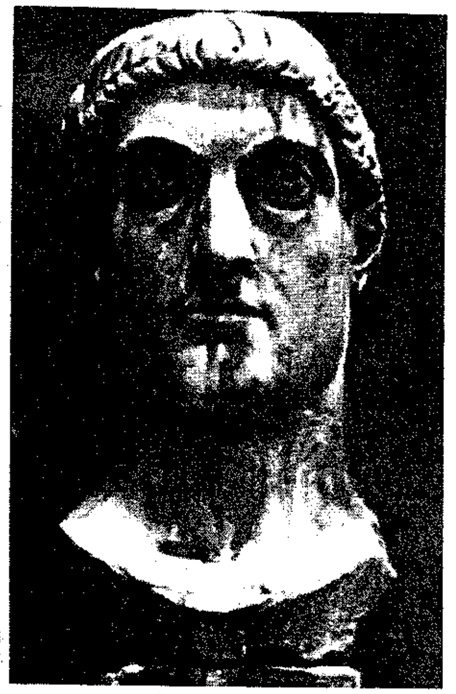


ديوكليتيان يقدم ذبيحة

وفي العام ٣١٣م أصدر قسطنطين وشريكه ثمّ خصمه اللدود في الصراع على السلطة، ليسيوس، قراراً جعل من الكنيسة المسيحية تنظيماً قانونياً علنياً. وقد عرف ذلك القرار باسم: مرسوم ميلانو. لقد منح مرسوم ميلانو المسيحيين حق إقامة طقوسهم الدينية علانية، وأباح للتنظيمات الكنسية أن تمتلك أي ملكية كانت، وأعيدت للمسيحيين

١- لقد قسم دقليسيان الإمبراطورية في حينه إلى أربعة أقسام: حكم هو نفسه قسمها الشرقي بلقب إمبراطور، وحكم قسمها الغربي باللقب عينه صديقه ونصيره وكان لكل من الإمبراطورين مساعد بلقب قيصر سوف تنتقل إليه السلطة بعد عشرين عاماً. وكان دقليسيان هو الشخصية الرئيسة بين هؤلاء الأربعة. وبعد تنازله عن العرش أقنع دقليسيان شريكه الآخر ماكسميان بالتنحّي، لكن سرعان ما تراجع هذا عن الفكرة ودخل في صراع على السلطة.

أملاكهم التي كانت قد صودرت منهم. إذن، من حيث الشكليات الرسمية، غدت المسيحية واحدة من الديانات الأخرى العلنية وحسب. لكن حماية قسطنطين لها، لا سيما وقد خرج هذا من معركة الصراع على العرش منتصراً وبات الحاكم الأوحد في الإمبراطورية، منحها امتيازات حقيقية استثمرتها على أحسن وجه. وحسب الرواية أن قسطنطين قبل سرّ المعمودية قبيل وفاته. وكان هذا الرجل قد نشأ وتربى على عبادة «إله الشمس الذي لا يهزم»، وكانوا يرفعون إليه آيات التبجيل الإلهية، لكنه أدرك أن الكنيسة يمكن أن تقدم له عوناً فعالاً، بخاصة إذا ما وضع حداً للخلافات الداخلية التي تعصف بها. وحسب الرواية أن والدته يلينا كانت مسيحية، وقدمت عوناً جليلاً لأبناء دينها. وفي عهد قسطنطين كان اليوم الأخير من أيام الأسبوع مكرساً للشمس، فأعلنه الإمبراطور يوم عطلة عامة في الإمبراطورية (يوم التسوق)؛ أما بالنسبة للمسيحيين فقد كان هذا اليوم مكرساً للمسيح. ومنذ القرن ٤م. صار اليوم الخامس والعشرون من شهر كانون الأول يوم عيد ميلاد المسيح بعد أن كان عيد ميلاد إله الشمس الذي لا يهزم. واستردّت مدينة إيليا كابيتولينا اسمها السابق أورشليم من جديد.


الإمبراطور قسطنطين. رأس تمثال كبير

لقد حاول قسطنطين أن يتدخل في الخلافات اللاهوتية، لا سيما تلك التي كانت تدور بين آريوس وخصومه، فسعى إلى رأب الصدع بين الطرفين، لكنه فشل. عندئذ بادر في العام ٣٢٥م إلى دعوة المجمع المسكوني الأول في مدينة نيقيا في آسيا الصغرى، فأدان المجتمعون الآريوسية بصفتها هرطقة، واعتمدوا رمز الإيمان المسيحي الذي رسخ عقيدة الثالوث. وأعلنت فيه رسمياً وحدة الكنيسة الأرثوذكسية العالمية الجامعة[1]. وعلى الرغم من أن الجدال في مختلف مسائل التعاليم المسيحية، قد استمر

١ـ لكن المونوفيزية بقيت موجودة، وقد رأى هؤلاء أن طبيعة يسوع الإلهية قد جمّت طبيعته البشرية: كان هذا ولا يزال هو موقف الكنيسة الأرمنية.

لـزمن طويـل آخـر، إلا أن الكنيـسة المتحالفـة مـع الأبـاطرة المـسيحيين، نجحـت في السيطرة على الوضـع العـام في الإمبراطوريـة وفي أواخـر القـرن ٤م منـع الإمبراطـور ثيودوسـيوس الـديانات الوثنيـة كلّهـا علـى أراضـي الإمبراطوريـة. لقـد انتهـى عـصر المسيحية المبكرة التي قطعت طريقاً طويلة من التطور المتواصل: من جماعة صغيرة من أتباع يسوع، إلى كنيسة قوية جبارة.



الإمبراطور ثيودوسيوس
لوحة فضية نافرة

ملحق النصوص

مولد والدة الإله الطاهرة[1]

I- في قصة أسباط إسرائيل الاثني عشر، شخص يدعى يواكيم كان يقدم للإله تقدمات مضاعفة وهو يقول: فليكن خير مما أملك للشعب كله، ولتكن لي مغفرة ربي ورحمته. وحل اليوم العظيم، يوم الرب[2]، الذي يقدم فيه بنو إسرائيل تقدماتهم. فواجهه (واجه يواكيم) روبيم قائلاً: لا يصحّ أن تقدم أنت التقدمات أولاً، لأنك لم تصنع ذرية في إسرائيل. فانكسر قلب يواكيم وحزن حزناً شديداً، وأخذ ينظر في أنساب قبائل الشعب الاثنتي عشرة قائلاً: فلأبحث في أسباط إسرائيل الاثني عشر، ألست أنا وحدي من لم يعط إسرائيل ذرية. وبحث يواكيم فوجد أن كلّ الصالحين بذروا بذورهم في إسرائيل. تذكر إبراهيم الذي وهبه الإله ابنه اسحق في آخر سني عمره. وحزّ في نفس يواكيم كثيراً، فما عاد يظهر حتى لزوجته، إذ هجر إلى البرية، وأقام هناك خيمته وصام طول أربعين نهاراً وأربعين ليلة قائلاً لنفسه: لن أخرج إلى طعام ولا إلى شراب قبل أن ينزل الرب إليّ، ولتكن الصلاة هي قوتي وشرابي.

II- أما زوجته حنّة فبكت بكاء وانتحبت نحيباً قائلة: فلأبكي ترمّلي، ولأبكي عقمي. ولكن ها قد حلّ اليوم العظيم، يوم الرب، فقالت لها خادمتها يهوديت: إلى متى ستضنين روحك؟ فها قد حلّ يوم الرب العظيم ولا يجوز البكاء بعد. هاك منديل الرأس. الذي أعطتني إياه سيدتي لقاء عملي، لأنه لا يليق بي أن أضعه، فأنا خادمة والمنديل يحمل علامة الملكات. فأجابت حنّة: إليك عنّي، فلن أفعل هذا الذي تقولين: لقد أذلني الرب. ألم يدفعك الوسواس لتأتي إلي كي ارتكب أنا الإثم أيضاً؟ فأجابت يهوديت: ولماذا عليّ أن استدرجك؟ لقد أغلق الرب رحمك كي لا تكون لك ذرية في

١- لقد ترجمت هذه النصوص عن كتاب إ. س سفينسيسكايا الذي بين يدي القارئ، وقد ترجمتها هي بدورها عن كتاب: K. Thishendorl, Evangl la Apocrupha. Lipsiae, 1853 المترجم.

٢- من غير الواضح هنا الحديث عن اي عيد ولكن من الممكن أن يكون عيد الفصح اليهودي.

إسـرائيل. فتكـدّرت حنّـة واحـترق قلبهـا حـسرة، لـكنهـا رمـت ثيـاب حزنهـا، وزينـت رأسها، وارتدت ثياب زفافها ومضت في حوالي الساعة التاسعة تتنزه في الحديقة. فرأت شجرة غار، وجلست تحتها وشرعت تصلي إلى الرب قائلة: يا إله آبائي، باركني واقبل صلاتي وتضرّعي، كما باركت سارة ومنحتها ابنها اسحق.

III- وإذا نظرت إلى فوق، رأت على الشجرة عش عصفور الدوري، فأخذت تنوح قائلة: يا ويلتاه، من الذي أنجبني؟ أي رحم أخرجني إلى الدنيا؟ لأنني صرت ملعونة في بني إسرائيل، وطردوني من معبد الرب وهم يهزؤون بي، يا ويلتاه، من أشبه أنا؟ فلا طير السماء أشبه، لأن للطيور ذرية، ربّاه. ولا المخلوقات البكماء أشبه، لأن للمخلوقات البكماء ذرية، رباه. ولا أشبه أنا حتى هذه المياه، لأن المياه تطرح ثماراً لها، رباه. الويل لي، من أشبه أنا؟ فلا أشبه أنا حتى الأرض، لأن الأرض تعطي ثمراً وتباركك، رباه.

IV- وعندئذ ظهر لها ملاك الرب وقال: حنّة، حنّة، لقد سمع الرب صلاتك، وسوف تحملين وتلدين، وسيتحدث العالم كله عن ذريتك. فقالت حنّة: حيّ هو الرب إلهي! إذا ما أنجبت ولداً أو بنتاً، فإني أعطيه إلى الرب إلهي، وسوف يخدمه طوال أيام حياته. ثم جاءها بشيران اثنان وقالا لها: زوجك يواكيم آت مع قطعانه، لأن الملاك ظهر له وبشره: يواكيم، يواكيم، لقد سمع الرب الإله صلاتك. اذهب من هنا، لأن زوجتك حنّة سوف تحمل في رحمها. ومضى يواكيم فأمر رعيانه قائلاً: هاتوا عشرة خراف سليمة لا عيب فيها وغير مبرقعة، وسوف تكون هذه للرب إلهي؛ وهاتوا اثني عشر عجلاً، وليكونوا للكهنة والشيوخ؛ ومئة جدي للشعب كله. وها هو يواكيم يدنو مع قطعانه، فرأته حنّة التي كانت واقفة عند البوابات، وأسرعت إليه تعانقه قائلة: عرفت الآن أن الرب قد باركني، لقد كنت أرملة ولم أعد الآن كذلك، وكنت عاقراً، أما الآن فسوف أحمل! ونال يواكيم السكينة في بيته في ذلك اليوم.

V- وفي الصباح حمل يواكيم تقدماته وانطلق قائلاً: إذا كان الرب قد منحني رحمته، فسوف أرى ذلك في لوح الكاهن[1]. وقدم يواكيم تقدماته ثم نظر بانتباه شديد إلى اللوح وهو يدنو من مذبح الرب، فلم ير في نفسه إثماً. فقال: الآن أعرف أن الرب تحنن عليّ وغفر لي آثامي؛ ثم خرج يواكيم من المعبد بريئاً وذهب إلى بيته. وفي أثناء ذلك كانت تمضي أشهر حنة، وفي شهرها التاسع وضعت، فسألت القابلة المولدة: من

١- لقد ورد الحديث عن اللوح الذهبي الذي يضعه رئيس الكهنة على مقدمة غطاء رأسه، في سفر الخروج، عليه رسم هيكل الرب.

ولدت؟ ولدت بنتاً، أجابتها القابلة، فقالت حنة: لقد سمت روحي في هذا اليوم، ووضعت البنت إلى جانبها. ومع مرور الأيام غادرت حنة فراش الولادة، وأعطت صدرها للطفلة، ودعتها مريم.

VI- وكانت الصغيرة تكبر وتنمو يوماً بعد يوم، ولما أتمت شهرها السادس وضعتها والدتها على الأرض لترى ما إذا كانت تستطيع أن تقف على قدميها أم لا، لكن الصغيرة خطت سبع خطوات وعادة إلى حنة. فحملتها حنّة على يديها وقالت: لن تخطو قدماك على هذه الأرض قبل أن أحملك إلى معبد الرب. وأعدوا لها في حجرة النوم مخدعاً خاصاً، وحرموا إدخال أي شيء دنس إلى هناك، ودعت حنة بنات يهوديات عذراوات طاهرات ليعتنين بالصغيرة مريم. ولمّا أتمت مريم عامها الأول أقام يواكيم وليمة كبيرة دعا إليها الكهنة، فباركوها قائلين: يا إله آبائنا بارك هذه الصغيرة وامنحها اسماً مباركاً في الأسباط كلّها. وقال الشعب: فليكن مثلما تقولون! آمين! وبعد ذلك حملها يواكيم إلى رؤساء الكهنة، فباركوها قائلين: أيها الإله الأعلى، تكرم وبارك هذه الطفلة ببركات سامية تبقى أبد الدهر. وحملت حنة طفلتها إلى المكان المقدس في حجرة نومها وأعطتها صدرها. وترنمت حنة بأغنيات تمجّد الرب وقالت: فلأسبح الرب الإله، لأنه تكرّم عليّ ودرأ عني شماتة أعدائي ووهبني ثمرة عدله، وهي الوحيدة التي لها هذا كله أمام عينيه. أما من يخبر بني روبيم أن حنة ترضع صدرها؟ اسمعوا! اسمعوا! يا أسباط إسرائيل الاثنا عشر: إن حنة ترضع صدرها!

ثم تركت طفلتها في مهدها المقدس وعادت لتخدم ضيوفها. وبعد أن انتهت الوليمة، تفرّق المدعوون مكتفين راضين يسبحون إله إسرائيل ويمجدونه.

VII- وانصرمت أشهر الصغيرة واحداً إثر الآخر إلى أن أتمت عامها الثاني. فقال يواكيم: لنحملها إلى معبد الرب لكي نوفي النذر، ولكي لا يرفضنا الرب الإله وتغدو تقدمتنا غير مرضية له. فقالت حنة: فلننتظر عامها الثالث، حتى تفتقد الطفلة والدها ووالدتها. فقال يواكيم: لننتظر. وها هي الصغيرة تتمّ عامها الثالث، فقال يواكيم: ادعي بنات يهوديات طاهرات عفيفات عذراوات، وليحملن الشمعدانات مشتعلة لكي لا تلتفت الصغيرة إلى الخلف، ولكي تحبّ معبد الرب من كلّ قلبها. وهكذا فعلوا في الطريق إلى معبد الرب. فأخذها الكاهن، وقبّلها، ومنحها البركة قائلاً: فليعظم الرب اسمك في كلّ الأسباط، لأنه سيظهر عبرك الرب في آخر الأيام لبني إسرائيل مغفرة. ثمّ

أجلسها على الدرجة الثالثة عند المذبح، ونزلت عليها غبطة الرب، فأخذت تقفز فرحة مرحة، وأحبها شعب إسرائيل كلّه.

VIII- وعاد والداها متعجبين يمجدان الرب لأن ابنتهما لم تلتفت إلى الخلف. وأقامت مريم في معبد الرب كأنها الحمامة تتلقى القوت يومياً من يدي الملاك. ولمّا أتمت الثانية عشرة من عمرها، أخذ الكهنة يتشاورون فيما بينهم، ماذا نفعل بها لكي لا تدنس المعبد بطريقة ما؟ فقالوا لرئيس الكهنة: أنت الآن واقف أمام مذبح الرب، أدخل وارفع صلاة من أجلها، وما يقوله لك الرب نفعله. وارتدى رئيس الكهنة الدوديكاكودون[1] ودخل إلى قدس الأقداس. ورفع الصلاة من أجلها، فظهر له ملاك الرب وقال: زكريا، زكريا، أمض وادع أرامل الشعب وليأت كلّ منهم بعصاه معه، ومن يظهر له الرب الآية، يأخذ مريم زوجته[2]. وانطلق المنادون ينادون، وضرب بوق الرب في شتى أنحاء اليهودية، وأخذوا يتقاطرون.

IX- فترك يوسف فأسه وجاء إلى المكان الذي تجمع فيه الآخرون. ثم ذهب المجتمعون إلى رئيس الكهنة حاملين عصيّهم. فجمع هذا العصي ودخل إلى المعبد وأخذ يصلي. وبعد أن انتهى من صلاته أخذ العصي وردها إلى أصحابها، لكن أيّ آية لم تظهر عليها. وكانت عصاة يوسف هي الأخيرة، وما أن مدّ هذا يده وأخذها حتى انطلقت منها حمامة وحطت على رأس يوسف. فقال الكاهن ليوسف: أنت المختار لتأخذ فتاة الربّ وتحافظ عليها. لكن يوسف اعترض قائلاً: لدي أولاد، وأنا عجوز وهي شابة، وأنا لا أريد أن أصبح أضحوكة عند بني إسرائيل. فقال الكاهن ليوسف: اخش الرب وتذكر كيف عاقب الرب داثان، وابيرون، وقوريا، وكيف انشقت الأرض وابتلعهم بسبب عصيانهم[3]. والآن احذر يا يوسف من أن يقع الشيء نفسه لبيتك. فخاف يوسف وأخذها ليحافظ عليها ويصونها. وقال يوسف لمريم: لقد أخذتك من معبد الرب، والآن سوف تبقين عندي في بيتي، وأنا خارج لأعمال البناء وسوف أعود إليك فيما بعد. فليحفظك الإله!

X- وكان عندئذٍ اجتماع لدى الكهنة الذين قالوا: لنصنع حجاباً لمعبد الرب. وقال رئيس الكهنة: اجمعوا عذراوات عفيفات من آل داود. فمضى الخدم يبحثون فوجدوا سبع فتيات. وتذكر رئيس الكهنة الشابة مريم التي كانت من سلالة داود، وأنها نقية أمام الإله. وذهب الخدم وجاؤوا بها. وجاؤوا بالفتيات إلى معبد الرب. فقال رئيس الكهنة:

١- زي كهنوتي خاص يرتديه رئيس الكهنة، وهو موشى باثنتي عشرة خرزة (خروج، ٢٨: ٣٣).

٢- تضيف إحدى المخطوطات جملة: «للمحافظة على عذريتها».

٣- انظر سفر العدد، ١- ٣٣.

ارموا قرعة الغزل: الذهب، والأميانت، والكتان، والحرير، والسنبل[1]، والأرجوان، والأرجوان الحقيقي. وكان هذان الأخيران من نصيب مريم حسب القرعة، فحملتهما ورجعت إلى البيت. وفي ذلك الوقت كان زكريا أبكم، فحلّ صموئيل محلّه إلى أن عاد إليه النطق من جديد[2]. وشرعت مريم تغزل الغزل الذي حملته معها.

XI- وحملت الجرّة وذهبت لتأتي بالماء؛ فسمعت صوتاً يقول: افرحي أيتها الممتلئة نعمة! الرب معك؛ مباركة أنت بين النساء[3]. فأخذت تنظر حولها لترى من أين يأتي الصوت. فخافت ورجعت إلى البيت وأنزلت الجرّة وحملت الغزول وأخذت تغزل. وعندئذٍ وقف ملاك الرب أمامها وخاطبها قائلاً: «لا تخافي يا مريم فقد نلت نعمة عند الرب، وسوف تحبلين بكلمته». وإذ سمعت مريم ما قاله الملاك، أطرقت قليلاً تفكر ثم قالت في نفسها: «أيعقل أن أحمل من الإله الحيّ وأنجب مثلما تنجب أي امرأة أخرى؟» وقال الملاك:: ليس هكذا يا مريم، لكن قوّة العلي تظلّلك، ولذلك سيكون المولود منك مقدساً وابن العليّ يدعى. وسوف تسمينه يسوع، لأنه سيخلص شعبه. فقالت مريم: أنا أمة الرب، ليكن لي مثلما تقول.

XII- وأنهت مريم غزل الأرجوان والأرجوان الحقيقي، وحملت النسيج إلى رئيس الكهنة. فباركها رئيس الكهنة وقال: لقد عظّم الإله اسمك، وسوف تكونين مباركة أنت لدى شعوب الأرض كلّها. ففرحت مريم وذهبت إلى قريبتها أليصابات[4]. فطرقت الباب، ولما سمعت أليصابات الطرق وضعت من يديها غزل الأرجوان وخفت إلى الباب تفتحه، وإذ رأت مريم باركتها قائلة: ما هذا الذي أعطي لي حتى تأتي أمّ سيدي إلي. لأن الراقد في أحشائي تحرّك وباركك. أما مريم التي غابت عن ذهنها الأسرار التي كشف لها جبرائيل عنها، فقد رفعت عينيها إلى السماء وقالت: من أنا يا ربي حتى تباركني الشعوب كلّها؟ وأقامت عند اليصابات ثلاثة أشهر، وفي غضون ذلك كان بطنها يكبر يوماً بعد يوم، فدبّ الرعب في قلب مريم وعادت إلى بيتها واختبأت عن أعين بني إسرائيل. لقد كانت لا تزال في السادسة عشرة من عمرها عندما تحققت هذه الأسرار.

١- هذه كلها غزول ذات ألوان مختلفة (لاحظ في سفر الخروج). كان الأرجوان الحقيقي من نصيب مريم وكان غزلها لهما رمزاً لنسجها جسد الرب من لحم ودم

٢- انظر لوقا.

٣- الحاشية السابقة.

٤- الحاشية السابقة.

XIII- وجاء الشهر السادس (من حملها)، وعندئذٍ عاد يوسف بعد أن أنهى أعمال نجارته، وإذا دخل إلى البيت رأى أنها حبلى. فلطم وجهه وسقط على مدّ الأرض وبكى بمرارة وألم وهو يقول: كيف انظر إلى وجهة ربي الآن، كيف سأصلي من أجل هذه الفتاة، لأني أتيت بها من المعبد عذراء وعجزت عن صون عذريتها؟ ألم يحدث لي ما حدث لآدم من قبل؟ فعندما كان آدم يمجّد (الرب)، جاء الثعبان ورأى حواء وحدها فأغواها، وهذا ما وقع لي. ونهض يوسف عن المدّ ونادى مريم وقال: أنت التي كنت في كنف الرب، فما الذي صنعته الآن ونسيت الرب إلهك؟ لماذا دنّست روحك أنت التي ترعرعت في قدس الأقداس وتناولت طعامك من يدي الملاك؟ عندئذٍ بكت مريم بأسى وقالت: إني طاهرة أنا ولم أعرف رجلاً. وقال لها يوسف: من أين إذن جاءت الثمرة إلى بطنك؟ فأجابت مريم: حيّ هو الرب إلهي، لا أعرف من أين.

XIV- فخاف يوسف وابتعد عنها وأخذ يفكر بما يصنعه معها. وقال: إذ ما أخفيت إثمها أصبحت منتهكاً الناموس، وإذا ما أخبرت بني إسرائيل، فأني أسلّم دماً بريئاً للموت. فماذا أفعل بها؟ أأصرفها سرّاً (من البيت). وحل الليل. فظهر له ملاك الرب في الحلم وقال: لا تخف بشأن الفتاة، لأن الذي فيها من الروح القدس، وسوف تلد ولداً تدعوه يسوع. لأنه يخلّص شعبه من عقاب الآثام. واستيقظ يوسف، ومجد إله إسرائيل على النعمة التي أنعم بها عليه، وأبقاها (مريم) في كنفه.

XV- وجاء إليه عندئذٍ الكتبيّ حنانيا وسأله: لماذا لم تكن حاضراً في الاجتماع؟ فأجابه يوسف: لقد كنت تعباً من الطريق وأحببت أن أستريح في اليوم الأول. فالتفت حنانيا ورأى مريم حاملاً. فأسرع إلى رئيس الكهنة وقال له: إن يوسف الذي شهدت له انتهك الناموس. وسأل رئيس الكهنة: ما الذي حصل؟ فقال حنانيا الكتبي دنس الفتاة التي أخذها من معبد الرب، وخالف عقد القران ولم يخبر بني إسرائيل بذلك. فسأل رئيس الكهنة: أهذا ما فعله يوسف؟ وأجاب حنانيا الكتبي: أرسل الخدم وسوف تعلم أنها حامل. وأرسلوا الخدم، ورآها هؤلاء كما قال، فقادوها مع يوسف إلى المحكمة. فقال رئيس الكهنة: مريم، ما الذي صنعته يا مريم؟ لماذا دنست روحك ونسيت الرب إلهك؟ أنت التي عشت في قدس الأقداس، وتلقيت القوت من يدي الملاك، واستمعت إلى الترانيم من فمه، وفرحت أمامه، لماذا فعلت هذا؟ فأجابت وهي تبكي بمرارة: حيّ هو الرب إلهي، إني طاهرة نقية ولم أعرف رجلاً. فقال رئيس الكهنة ليوسف: لما فعلت هذا يا يوسف؟ وأجاب يوسف: حيّ هو الرب إلهي، إني نقي أمامها. فقال رئيس الكهنة: لا تشهد زوراً وقل الحق. أنت انتهكت القران ولم تخبر بني إسرائيل، ولم تحن رأسك تحت يد الرب ليبارك ذريتك. فصمت يوسف.

XVI- وقال رئيس الكهنة: أعد الفتاة التي أخذتها من معبد الربّ. فبكى يوسف. عندئذ قال رئيس الكهنة: سأعطيكما لتشربا ماء إظهار الحقيقة[1] أمام الرب، وسوف يظهر الإله إثمكما أمام أعينكما، ثم أخذ (الماء) وسقى يوسف وأرسله إلى التلال، فعاد سالماً. وسقى مريم وأرسلها إلى التلال، فعادت سالمة. فتعجب الشعب من أنه لم يظهر فيهما إثم. وقال رئيس الكهنة: إذا كان الرب الإله لم يكشف إثمكما، فإني لن احاكمكما. وأطلقهما. فأخذ يوسف مريم وذهب إلى البيت وهو يمجّد الرب فرحاً.

XVII- وصدر عندئذٍ أمر القيصر أغسطس بإجراء الإحصاء في بيت لحم اليهودية. وقال يوسف: فلأسجل أسماء أبنائي. ولكن ماذا أفعل بهذه الفتاة؟ من أسجّلها؟ زوجتي؟ إنني أخجل من ذلك. ابنتي؟ لكن بني إسرائيل كلهم يعرفون أنها ليست ابنتي. فليأت يوم الرب إذن بما يريده الرب. وأجلسها على أتان قادها ابنه، ومشى يوسف خلفهما. وبعد أن قطعوا ثلاثة أميال استدار (هكذا ورد في النص الأصلي) يوسف فرأى أنها حزينة، فظن أن ثمرة بطنها هو الذي يحزنها. ومرة أخرى نظر يوسف فرأى أنها سعيدة، فسألها: ما لي أرى وجهك حزيناً تارة ومتهللاً فرحاً تارة أخرى؟ فأجابته مريم بقولها: لأني أرى بعيني شعبين، أحدهما ينتحب باكياً، والآخر فرحاً مسروراً. وقطعوا نصف الطريق، فقالت له مريم: أنزلني عن الأتان، لأن الذي في يجبرني على المشي. فأنزلها وقال: إلى أين آخذك وأخفي عارك؟ لأن المكان هنا مقفر.

XVIII- ووجد كهفاً هناك، وقادها، وأبقى أبناءه معها، ومضى هو يبحث عن قابلة في ضواحي بيت لحم[2].

وها أنذا يوسف، مشيت ولم أتحرك من مكاني. ونظرت إلى الهواء فرأيت الهواء جامداً لا يتحرك، وتطلعت إلى قبة السماء ورأيت أنها واقفة، وطيور السماء توقفت في طيرانها، والتفتّ إلى الأرض فرأيت قدراً موضوعاً وعمالاً مستلقين على مقربة منه وأيديهم حوله، ومن رفع اللقمة إلى فمه بقيت مرفوعة في مكانها، ومن همّ ليتناول شيئاً لم يتناوله، وكانت وجوه جميعهم تتطلع إلى السماء. ورأيت الأغنام التي سيقت واقفة لا تتحرّك. ورفع الراعي يده لكي يسوقها، فبقيت يده مرفوعة. ونظرت إلى تيار الماء في الأنهار فرأيت الماعز وقد لامست خياشيمها الماء، لكنها لا تشرب. ثم فجأة سار كل شيء سيره المعتاد.

١- كانت تلك عادة قديمة تسقى بموجبها المرأة المتهمة بالزنى ماء مخلوطاً بالقاذورات (انظر سفر العدد ٥: ٢٤: يسقي الكاهن المرأة «ماء مراً يجلب اللعنة»).

٢- في بردية بودمير لا يساق ما تبقى من النص بصيغة المتكلم ولا يتوافق اسلوبه مع ما تبقى من السرد.

XIX- ورأيت امرأة تهبط من فوق الجبل، فسألتني: إلى أين أنت ذاهب أيها الإنسان؟ فأجبت: أبحث عن قابلة يهودية. وأجابتني سائلة: أنت من إسرائيل؟ فقلت لها: نعم. فقالت: ومن تلك التي تلد في الكهف؟ فقلت: إنها مخطوبة لي. فقالت: أليست زوجتك؟ عندئذٍ أجبتها: هذه مريم التي نشأت في معبد الرب، وصارت لي زوجة بالقرعة، لكنها ليست زوجتي، إنما حملت من الروح القدس لوجاء في بردية بودمير: ووجد امرأة نازلة من التلّ، فأخذها معه. وقالت القابلة: ومن هذه، من يلد في كهف؟ فأجابها: إنها مريم مخطوبة لي، لكنها حملت من الروح القدس بعد أن نشأت في المعبد. وذهبت الداية معه]. وقالت له القابلة: وهل هذا حق؟ فقال يوسف: اذهبي وانظري. وسارت القابلة معه. ووقفا عند الكهف، وظهرت في الكهف غيمة مضيئة أنارت جوانبه كلها. فقالت القابلة: تعظمت روحي، ورأت عيناي معجزة، لأن خلاص إسرائيل قد ولد. وعندئذٍ تراجعت الغيمة عن الكهف، فغمر الكهف نور بهر أبصارهم ولم يروا شيئاً، ومضى وقت قليل فتراجع النور وظهر المولود، خرج وأخذ صدر أمّه مريم. فأطلقت القابلة صيحة تعجب وقالت: هذا اليوم يوم عظيم بالنسبة إلي، لأني رأيت رؤية لا مثيل لها. وخرجت من الكهف. فقابلتها سالومي[1]، فقالت لها: سالومي، سالومي، أريد أن أروي لك عن ظهور معجزة: لقد وضعت الفتاة الآن وبقيت عذراء. فقالت سالومي: حيّ هو الرب إلهي، لن أصدق إلاّ إذا أدخلت إصبعي، لا أصدق أن عذراء أنجبت.

XX- ودخلت القابلة وقالت لمريم: استعدي لأن جدلاً غير قليل يدور عنك لي في بردية بودمير أن: سالومي دخلت وأعدتها (أي أعدت مريم)]. وما أن مدت سالومي إصبعها حتى صرخت قائلة: ويل لي لقلّة إيماني، لأني تجرأت على أن امتحن الإله. وها هي يدي شلّت كأنما في النار. وركعت على ركبتيها أمام الرب وقالت: أيها السيد إله آبائي، تذكر أنني من بذرة إبراهيم، واسحق، ويعقوب، فلا تذلني أمام بني إسرائيل، وارحمني إكراماً للفقراء، لأنك تعرف أنني خدمتك باسمك وأردت أن أنال منك الثواب. وعندئذٍ وقف ملاك الرب أمامها وقال لها: سالومي، سالومي، لقد قبلك الرب، فمدّي يدك إلى الطفل وامسكيه، فسوف تنالي الخلاص والغبطة. وتقدمت سالومي وأخذت الطفل بين يديها وقالت: سوف أسجد له، لأنه ولد ملك إسرائيل العظيم. وسرعان ما شفيت سالومي وخرجت من الكهف وقد بلغت الخلاص. ودوى صوت يقول: لا تخبرّي عن المعجزة التي رأيت قبل أن يدخل الطفل أورشليم.

١- يرد اسم سالومي في إنجيل مرقس بين النساء اللواتي تبعن يسوع، ثم جئن بعد ذلك إلى القبر (مرقس)، وهي أيضاً واحدة من مرافقات يسوع، كما جاء في منحول مرقس.

XXI- واستعد يوسف لكي يتابع طريقة إلى اليهودية. وكان في بيت لحم اليهودية في ذلك الوقت شغب كبير، لأن سحرة جاؤوا وسألوا: أين المولود ملك اليهود؟ فقد رأينا نجمه في الشرق وجئنا لكي نسجد له. ولما سمع هيرودوس قلقت روحه وأرسل خدمه خلف السحرة. وبعد ذلك دعا رؤساء الكهنة وسألهم: أين يجب أن يولد المسيح حسب الكتب؟ فأجابوه: في بيت لحم اليهودية، لأنه هكذا مكتوب، فأطلقهم. وسأل من ثم السحرة: أي آية رأيتم عن ميلاد الملك؟ فأجابوه: رأينا نجمة كبيرة تضيء بين النجوم ويطغى ضياؤها على ضياء النجوم الأخرى حتى تكاد لا ترى، وهكذا علمنا أن ملك إسرائيل قد ولد، فجئنا نسجد أمامه. فقال هيرودوس: امضوا وابحثوا، وعندما تجدوه اخبروني لكي اسجد له أنا أيضاً، ومضى السحرة اورأوا النجوم في الشرق، وكانت هذه تتقدم أمامهم، وسار النجم الذي رأوه في الشرق أمامهم إلى أن وصلوا إلى الكهف، فتوقف النجم هناك أمام مدخل الكهف. ورأى السحرة الطفل مع أمه مريم. ففتحوا كنوزهم وقدموا له هداياهم: ذهباً، وبخوراً، ومرّاً وأوحى إليهم الملاك ألاّ يرجعوا إلى اليهودية، فعادوا إلى بلادهم بطريق أخرى.

XXII- وحينئذٍ أدرك هيرودوس أن السحرة خدعوه، فانفجر غيظه، وأرسل الجلادين قائلاً: اقتلوا الأطفال من سن عامين فما دون، وسمعت مريم أنهم يقتلون المواليد، فدبّ في قلبها الذعر، وأخذت الطفل فلفّته بالأقمطة ووضعته في المعلف[1]. ولمّا سمعت أليصابات أنهم يبحثون عن يوحنا (ابنها)، حملته ومضت إلى الجبل. وأخذت تبحث عن مكان تخفيه فيه، لكنها لم تجد. فصرخت بصوت عال قائلة: يا جبل الإله أدخل الأم وابنها، فانشقّ الجبل وأدخلها. وأنار لهما نور، وكان ملاك الرب معهما يحرسهما.

XXII- وفي تلك الأثناء كان هيرودوس يفتش عن يوحنا، وأرسل خدمه إلى زكريا يسال: أين خبأت ابنك؟ فأجاب زكريا: أنا خادم الرب، أقيم في المعبد ولا أعرف أين ابني. فعاد الخدم ونقلوا كلام زكريا إلى هيرودوس. وقال هيرودوس في ثورة غضبه: ابنه سوف يكون ملك

١- هنا تنتهي قصة ماريا. لقد تداخلت في المشهد الأخير خرافات مولد يسوع في كهف مع قصة لوقا عن مولده في معلف الحيوانات وزيد على هذا في المخطوط C- «.. فزعة حملت المولود ومضت إلى مصر»؛ واضيف إلى هذا في المخطوط A: «.. مع يوسف». وجاء في المخطوط F: «وعزم هيرودوس على أن يجد الطفل ليقتله. وجاءت يوسف في الحلم آية، فأخذ الطفل وأمه ونوجه إلى مصر، لكي يتحقق قول النبي: «من مصر أدعو ابني». وقد وضعت هذه الإضافات بهدف موافقة قصة إنجيل يعقوب المنحول مع قصة إنجيل متّى عن فرار العائلة المقدسة إلى مصر. ولكن النص الأصلي لمنحول يعقوب مرتبط أكثر بإنجيل لوقا الذي لم يأت على ذكر قصة الفرار إلى مصر.

إسرائيل[1]. ورد إليه خدمه ثانية فقالوا: قل الحق، أين ابنك. واعلم أن حياتك بين يدي. فأجاب زكريا: إني شاهد الرب، وإذا سفكت دمي فسوف يتقبل الرب روحي، لأنك تسفك دماً بريئاً أمام المعبد. وقبيل الغسق قتل زكريا، ولم يعرف بنو إسرائيل أنهم قتلوه.

XXIV- وفي أثناء (طقس) التقبيل اجتمع الكهنة، لكن زكريا لم يستقبلهم مباركاً كما جرت العادة. ووقف الكهنة ينتظرون زكريا ليؤدي الصلاة ويمجد العلي. وبما أنه لم يظهر فقد أخذ الخوف الحاضرين. وتشجع أحدهم ودخل (إلى المعبد)، فرأى دماء متخثرة عند المذبح، وسمع صوتاً يقول: قتل زكريا، ولن يزال دمه قبل التأثر له. وارتعد الكاهن فزعاً إذ سمع تلك الكلمات، فخرج وروى على الحاضرين ما سمع. فقرروا أن يدخلوا، ورأوا الذي حصل، فتصايحوا، وشق الكهنة ثيابهم، لكنهم لم يجدوا جثته، فقط دماءه المتحجرة. فلفّهم الفزع وخرجوا وأعلنوا للشعب أن زكريا قتل. وسمعت أسباط الشعب كلها بمقتل زكريا، فبكوه وناحوا وندبوا ثلاثة أيام بلياليها. وبعد ثلاثة أيام أخذ الكهنة يتشاورون عمن سيضعون بدلاً منه، فوقعت القرعة على سمعان. وكان الروح القدس قد بشر بذلك، وقيل له إنه لن يموت قبل أن يرى المسيح الحي[2].

XXV- وأنا يعقوب الذي كتب هذه القصة في زمن الشغب، اختبأت في البرية إلى أن مات هيرودوس[3]، وهذا الشغب في أورشليم[4]. أمجّد الرب الإله الذي وهبني الحكمة لأصف هذا فلتعمّ غبطته على جميع الذين يخافون ربنا وإلهنا يسوع المسيح، المجد له في كلّ الدهور. آمين.

١- يبين زعم هيرودوس أن يوحنا سوف يكون ملك إسرائيل، أي موسى، أن مقطع اليصابات وزكريا هذا كله، قد جيء به من قصة أخرى لم تكن ترتبط في الأول بقصة يسوع ومريم، وأنه من صنع أنصار يوحنا المعمدان كما يرتبط إدخال اليصابات وزكريا في منحول يعقوب بإنجيل لوقا أيضاً، حيث يرد ذكرهما معاً لكن من غير أي صلة بمجزرة الأطفال.

٢- إن الهدف من إدخال قصة سمعان الذي انتخب رئيساً للكهنة، هو إقامة صلة بين هذه الرواية وقصة يسوع: لقد تحدث إنجيل لوقا عن العجوز سمعان (لكنه لم يكن هنا رئيس الكهنة)، الذي قالت النبوءة له، إنه لن يموت قبل أن يرى المسيح.

٣- ليس واضحاً لماذا كان يجب على يعقوب أن ينتظر موت هيرودوس، فالرواية المسيحية تقول، إن الملك هيرودوس لاحق الأطفال، وليس الكبار.

٤- ليس واضحاً عن أي شغب يجري الحديث هنا، ربما عن ذكريات الانتفاضة التي اشتعلت في فلسطين ضد الرومان بعد موت هيرودوس، بيد أن المؤلف يتحدث عن شغب في حياة هيرودوس؛ وعلى أي حال يصعب كثيراً البحث عن الحقيقية التاريخية في المنحولات.

قصة توما الإسرائيلي الفيلسوف
عـن طفــولــة الـــرب

(الرواية A)

I- أنا توما الإسرائيلي أروي لكي تعرفوا يا أخوتي الذين بين الوثنيين، كلّ أحداث طفولة ربنا يسوع المسيح وأعماله العظيمة التي صنعها بعد أن ولد في بلادنا. وكانت البداية هكذا.

II- عندما كان يسوع الصغير في الخامسة من عمره، كان يلهو يوماً عند المخاضة وراء الجدول، فجمع الماء الجاري في بركة، وجعله نقياً وسيره بكلمة واحدة منه. وبلّل طيناً وعجن اثني عشر عصفور دوري. وكان السبت عندما فعل هذا. وكان كثير من الصغار يلهون معه هناك. ولكن عندما رأى أحد اليهود ما كان يفعله يسوع من لهو في يوم السبت، ذهب من توّه وأخبر والده يوسف قائلاً: انظر، إن ولدك عند المخاضة، وقد أخذ طيناً وصنع طيوراً، وخالف السبت. وعندما جاء يوسف إلى المكان ورأى، نهره بصوت عال قائلاً: لماذا تفعل في السبت ما لا يجب فعله؟! لكن يسوع ضرب كفاً بكف وصاح بالعصافير الطينية. قائلاً: طيري! فطارت جذلى. وتعجب اليهود إذ رأوا ذلك، ومضوا وأخبروا الشيوخ (أوائلهم) بما رأوه، وكيف فعل يسوع ما قلناه هنا.

III- لكن ابن حنانيا الكتبي كان واقفاً هناك قرب يوسف، فأخذ غصن صفصاف وبدّد الماء الذي كان يسوع جمعه. ولما رأى يسوع ما فعله هذا، غضب وقال له: أنت، أيها الذي لا نفع منه، أيها الغبي الذي لا يعرف الإله، ما الذي فعلته لك البركة والماء؟ انظر، فسوف تجفّ أنت الآن وتيبس كالشجرة، ولن تكون لك أوراق ولا جذور ولا ثمار. وفي اللحظة عينها جفّ الصغير، أما يسوع فقد ذهب ودخل إلى بيت يوسف.

وحمل والدا ذلك الصغير ابنهم ومضيا يندبان شبابه، وجاءا به إلى يوسف يلومانه لأن ابنه يصنع هذا!

IV- وسار بعد ذلك في القرية، فدنا منه صغير ودفعه من كتفه. فغضب يسوع وقال له: لن تخطو بعد الآن خطوة واحدة إلى الأمام، فسقط الولد ميتاً في اللحظة. وقال من رأى ذلك: من الذي أنجب ذلك الولد حتى تتحقق كلّ كلمة يقولها. وجاء والدا الولد الميت إلى يوسف ووبخاه قائلين: طالما عندك هكذا ابن فأنت لا تستطيع أن تعيش معنا، أو عليك أن تعلمه كيف يبارك، بدلاً من أن يلعن، لأن أطفالنا يهلكون.

V- ودعا يوسف الولد ووبخه قائلاً: لماذا تصنع ما يؤلم الناس ويجعلهم يكرهوننا ويلاحقوننا؟ فقال يسوع: أنا أعرف أنك تقول قول الآخرين، ولكنني من أجلك سوف أصمت، لكن عليهم أن ينالوا العقاب. وفي اللحظة عينها فقد الذين كانوا حوله البصر. والذين رأوا ذلك دبّ الذعر في نفوسهم، وارتبكوا وقالوا عنه: كلّ كلمة يقولها، طيبة أو شريرة، هي فعل وتتحول إلى معجزة. ولما رأى يوسف ما فعله يسوع، قام إليه فأمسك بأذنه وشدّه بقوة. فغضب الولد وقال: يكفيك أنت أن تبحث ولا تجد، وأنت تتصرف كالحمقى[1]. أفلا تعرف أني لا أنتمي إليك؟ فلا تسبب لي الألم.

VI- وها هو أحد المعلمين الذين يدعونه زكّا، كان يقف غير بعيد، وسمع كيف قال يسوع هذا لوالده، فتعجب أشد العجب من أن يقول طفل صغير مثل هذا القول. فجاء بعد أيام إلى يوسف وقال له: عندك ابن فطن يعقل. فهاته لي لكي أعلمه الحروف، ومع الحروف سأعلمه المعرفة كلّها، وكيف يسلّم على الكبار ويحترمهم كآباء وأجداد، وكيف يحب أترابه الذين هم من سنه. وأراه كلّ الحروف واضحة من الألفا إلى الأوميغا، وسأله كثيراً من الأسئلة. ونظر (يسوع) إلى المعلم زكّا وسأله: كيف تستطيع أنت الذي لا تعرف ماذا يعني الألفا أن تعلم الآخرين ماذا يعني البيتا. منافق! في الأول علم إذا كنت تعرف، معنى الألفا، وعندئذ سوف نثق بك بخصوص البيتا. ثم

١- وجاء في الرواية السلافية: «يكفيك أن تبحث عني ولا تجدني، لأنك لا تعرف الحقيقة، فهل أنتمي أنا إليك». وفي شتى التنويعات تردد كلمات يسوع أصداء القول الذي ورد في إنجيل توما الذي عثر عليه في مصر مكتوباً باللغة القبطية: «قال يسوع: فليبحث الذي يبحث من غير توقف، إلى أن يجد، وعندما يجد، فسوف يأخذه الذهول» (توما). ويكمن مغزى كلمات إنجيل الطفولة في أن يسوع يتهم يوسف بأنه لا يبحث عن الحقيقة.

أخذ يسأل المعلم عن الحرف الأول، ولم يستطع هذا أن يجيبه. وحينئذٍ قال الصغير لزكّا على مسمع كثير من الحاضرين: اسمع يا معلم، انتبه إلى تركيب الحرف الأول، إلى الخطوط التي يتألف منها والشرطة التي في وسطه تخترق زوجاً من الخطوط، وهما كما ترى يتلاقيان ويتباعدان، يصعدان، ويدوران، ثلاث علامات للصفة عينها مرتبطة وتدعم واحدتها الأخرى، وذات قياس واحد. تلك هي خطوط الألفا[1].

VII- ولما سمع المعلّم زكّا عن كثرة الرموز المنعكسة في كتابة الحرف الأول، أصابه ذهول، وما زاد حالته ذهولاً أن الصغير يملك معرفة عظيمة جداً، فقال لمن كان حاضراً: الويل لي، أنا في حيرة وارتباك، لقد جلبت العار لنفسي عندما دعوت هذا الصغير إلي. خذه اللحظة، أرجوك يا أخي يوسف. فأنا لا أستطيع أن أتحمل صرامة نظرته، وأنا لم أستطع أن أفهم كلامه أبداً. ليس هذا الطفل مولوداً ولادة بشرية، فإن بمقدوره أن يروّض النار. وربما كان مولوداً قبل خلق العالم. وأنا لا أعرف أيّ بطن حملته، وأي صدر أرضعه. الويل لي، لقد دمّرني، ولا أستطيع أن أدرك أفكاره. لقد خُدعت، أنا التاعس ثلاثاً، أردت أن أحصل على تلميذ، فجاءني معلّم. إني أفكر في عاري، يا أصدقائي، لقد تفوّق عليّ أنا العجوز طفل صغير. لم يبق لي سوى اليأس والموت بسبب هذا الصغير، فأنا لا أستطيع أن أنظر في وجهه. وعندما سيقول جميعهم كيف استطاع ولد صغير أن يتغلب عليّ، فما الذي يمكنني أن أقوله؟ وماذا يمكنني أن أقول عن خطوط الحرف الأول، عمّا تحدث هو عنه؟ أنا لا أعرف يا أصدقائي، لأني لا أرى البداية ولا أرى النهاية. ولهذا أرجوك يا أخي يوسف، خذه معك إلى البيت فربما يكون عظيماً من العظماء، إلهاً ملاكاً، أو أحداً لا قِبل بفهمه.

١- من الواضح أن الوصف المعطى هنا هو للحرف الإغريقي A. وابتداء من القرن ٢ م باتت الشرطة الوسطى ترسم منحنية.

وحسب شهادة إيرينيوس، إن الغنوصيين اتباع المدعو مرقس (مرقسيان) هم الذين اشتغلوا في تأويل المغزى المكنون للأحرف والأرقام وثمة قصة لدى إيرينيوس (ضد الهرطقات) عن المدرسة تقول: «ويقبلون في غضون ذلك أيضاً الرواية التي تزعم أن الرب بينما كان يتعلم في صباه مبادئ القراءة والكتابة، قال له المعلم كما جرت العادة: قل ألفا، فقال: ألفا. ثم عندما قال له: قل بيتا، أجابه الرب: قل لي أولاً ماذا تعني ألفا، وأنا سأقول لك بيتا. ويفسرون ذلك بأنه وحده فقط يعرف المكنون الذي أشار إليه في صورة الألفا».

VIII[1]- وإذ هدأ اليهود من روع زكّا، ضحك الصغير ضحكاً عالياً وقال: «والآن فليثمر ما هو لك ثمراً، وليبصر من في قلبه عمى[2]. لقد جئت من فوق لكي ألعنهم وأدعوهم إلى العليّ، كما أمرني الذي أرسلني من أجلكم». ولمّا أنهى الطفل كلامه، اختفى في اللحظة كلّ من آذاه قوله. ولم يجرؤ أحد بعد ذلك على أن يعارضه لكي لا تحلّ عليه اللعنة أو يبتلى ببلية.

IX- وبعد أيام كان يسوع يلهو على سطح البيت، فسقط واحد من الصغار الذين كانوا يلعبون معه من فوق السطح ومات. ولما رأى الصغار الآخرون ما حصل تفرقوا هرباً، فبقي يسوع وحده. وجاء والد الصغير الميت وأخذوا يتهمون يسوع بأنه هو الذي دفع ابنهم من فوق السطح. فأجاب يسوع قائلاً: أنا لم أدفعه. لكنهم لم يكفوا عن اتهامه. عندئذٍ نزل يسوع عن السطح، ووقف قرب جثمان الصغير وصاح بأعلى صوته: زينون (وهو اسم الطفل)، قم واخبرهم ما إذا كنت أنا قد دفعتك أم لا؟ فقام الطفل من توّه وقال: لا يا رب أنت لم ترمني، لكنك أقمتني. وإذ رأوا ذلك أصابهم الذهول. فمجد والد الطفل المعجزة التي حصلت وسجدوا ليسوع.

X- وبعد أيام كان أحد الفتيان يقطع الحطب في الجوار، فسقطت الفأس من بين يديه وقطعت له قدمه، فنزف دمه إلى درجة الموت تماماً. ولما تعالى الصراخ واجتمع الناس، جاء يسوع إلى هناك أيضاً، وفي اللحظة عينها شفى قدم الشاب. وقال له: انهض الآن وواصل القطع، وتذكرني. وحينما رأى الحشد ما حدث سجدوا ليسوع قائلين: حقاً إن روح الإله تسكن هذا الولد.

XI- ولما كان له ست سنوات بعد مولده، أعطته والدته الجِرة وأرسلته ليأتي بالماء. لكنه اصطدم في الزحام وكسر الجرّة. فربط يسوع رداءه وملأه ماء وحمله إلى والدته. وإذ رأت والدته ما فعل قبلته وحفظت في قلبها المعجزة التي رأتها منه.

XI- ومرة في موسم البذار ذهب الصغير مع والده ليبذر الحنطة في الحقل. وبينما الوالد يبذر، زرع يسوع بدوره حبة حنطة واحدة. ولمّا حصدها وذرّاها، أعطت مئة مير[3]، فدعا فقراء

١- بين الفصل السابع والفصل الثامن من المخطوط الباريسي لهذا المنحول، هناك مقطع قصة المصبغة الذي يردد صدى الفصل ٣٨ من إنجيل الطفولة العربي: «بينما يسوع يمشي رأى ورشة وشاباً يصبغ في الدنّ أردية ومنسوجات بألوان مختلفة، كلّ قطعة على حدة وعندما دنا يسوع الصغير (ورأى؟) كيف يفعل الشاب، أخذ هو المنسوجات الموجودة حوله. وتحضر في إنجيل فيليبوس أيضاً صورة يسوع في المصبغة: «دخل الرب مصبغة لاوي وأخذ اثنين وسبعين لونا ورمى بها في الدنّ ثم أخذها من الدن بيضاء كلّها وقال: مثل هذا حقاً جاء ابن الإنسان صباغاً».

٢- لقد جاء في إنجيل الطفولة السلافي: «فليطرح العاقر ثمراً، وليبصر الأعمى، وليسمع الأصمّ بقلبه، لقد اتيت من فوق لكي اخلص اولئك الذين تحت وأدعوهم إلى فوق، كما امرني ذاك الذي ارسلني».

٣- مئة مير، وفي النص الإغريقي «مئة كور»؛ وكان الكور يساوي حوالي ٣١٢ إلى ٥٢٠ ليتراً، وتردد هذه القصة أصداء كلمات يسوع التي جاءت في إنجيل توما الغنوصي: «قال يسوع: ها هو الزارع قد خرج، فملأ يده، ونثر (الحبوب)ـ واخرى سقطت في ارض طيبة. مئة وعشرين ميراً لكلّ منها» (توما)، انظر متى.

القرية كلهم إلى البيدر ووزّع الحنطة عليهم، أما يوسف فقد أخذ بقايا الحبوب. كان له من العمر ثماني سنوات عندما صنع هذه المعجزة.

XIII- لقد كان والده نجاراً، وكان يصنع في ذلك الوقت المحاريث والنيار. وطلب منه غني أن يصنع له سريراً. ولمّا ظهر أن إحدى العارضتين أقصر من الأخرى، ووقف يوسف عاجزاً عن فعل أي شيء، قال يسوع الصغير لوالده يوسف: ضع خشبتين بعضهما إلى جانب بعض وسوّهما من الوسط إلى إحدى النهايتين. وعندما فعل يوسف ما قال له الصبي، وقف يسوع عند النهاية الأخرى وأخذ العارضة القصيرة وشدّها إلى أن ساوت الأخرى. ورأى والده يوسف ذلك وتعجّب، فحضنه وقبّله قائلاً: إني سعيد لأن الإله منحني هكذا ابن.

XIV- ولمّا رأى يوسف رجاحة عقل الصغير، وأنه نما وها هو يصل سن البلوغ بعد قليل، عزم من جديد على ضرورة تعليم الصبي مبادئ القراءة والكتابة. فقاده إلى معلم آخر. وقال المعلم ليوسف: سوف أعلّمه الأبجدية الإغريقية أولاً، وبعد ذلك اليهودية، لأنه كان على علم بفطنة الصبي وكان يخشاه. وكتب المعلم الأبجدية وسأل فيها طويلاً. لكنه لم يعط إجابة. فقال يسوع للمعلم: إذا كنت معلماً حقاً وتعرف الحروف معرفة جيدة، قل لي ماذا يعني الحرف ألفا، وأنا سأقول لك ماذا يعني الحرف بيتا. فغضب المعلّم وضربه على رأسه. فأحس الصغير بالألم ولعنه، فسقط هذا على الأرض من غير نفس، وعاد الولد إلى بيت يوسف. وحزن يوسف وقال لأمه: لا تدعيه يخرج من باب البيت، لأن كلّ من يثير غضبه يموت.

XV- وبعد وقت قال معلم آخر صديق ليوسف، قال له: هات الصبي إليّ في المدرسة. فقد أستطيع إقناعه بأن يتعلم الحروف. فقال له يوسف: إذا كنت قد عزمت أمرك يا أخي فخذه معك. وأخذه هذا بخشية وقلق، لكنّ الصغير سار برغبة أكيدة. ودخل البيت الذي فيه المدرسة بسكينة، فوجد كتاباً فوق المصطبة، فأخذه، لكنه لم يقرأ أحرف الأبجدية فيه. وفتح فمه وشرع يتحدث عن الروح القدس ويعلم الذين كانوا حوله. وتجمع هناك حشد كبير أدهشته غبطة تعاليمه وحكمة كلماته على الرغم من صغر سنّه. وإذ سمع يوسف بما يجري، أخذه الفزع وهرع إلى المدرسة خوفاً من ألاّ يتمكن هذا المعلم أيضاً من السيطرة على الصبي. لكن المعلم قال ليوسف: أتعرف يا أخي، لقد أخذت الصبي كتلميذ، لكنه مليء غبطة وحكمة، والآن أنا أرجوك يا أخي، خذه إلى بيتك. وحين سمع الصغير هذا تعالى ضحكه وقال: لأنك قلت وشهدت بالحق، فلأجلك أنت يبرأ من أصيب. وفي اللحظة عينها شفي المعلّم الآخر. وأخذ يوسف الطفل إلى البيت.

XVI- وحدث يوماً أن أرسل يوسف ابنه يعقوب ليأتيه برزمة من الخشب. فذهب يسوع معه. وبينما كان يعقوب يجمع الحطب اليابس لدغته أفعى بيده. ولمّا سقط مستلقياً على ظهره وكان قريباً من الموت، اقترب يسوع منه ومسّ نفسه مكان اللدغة، توقف الألم في اللحظة، وانفقأ الدمّل، وعاد يعقوب سليماً معافى.

XVII- وبعد ذلك توفي طفل مريض لدى أحد جيران يوسف، فبكته أمّه بمرارة. فسمع يسوع النواح والعويل وخفّ إلى المكان مسرعاً، فرأى الطفل الميت، فلمس صدره وقال: «أنا أقول لك: لا تمت، بل عش وكن مع أمك»[1]. وفي اللحظة عينها فتح الصغير عينه وابتسم. ثم قال للمرأة: خذيه واسقه الحليب وتذكريني. ولما رأى الحاضرون ما حصل قالوا: حقاً إن هذا الصغير إله، أو ملاك إلهي، لأن كل كلمة يقولها تصير إلى فعل. وترك يسوع المكان ومضى يلهو مع أترابه.

XVIII- ومرّة كانوا يبنون بيتاً، فحدث انهيار، وقام يسوع ومضى إلى هناك فرأى أن رجلاً مطروحاً ميتاً، فأمسكه من يده وقال: أقول لك أيها الإنسان انهض واعمل عملك. ونهض هذا فوراً وسجد له. فبهت الحضور وقالوا: إن هذا الطفل من السماء لأنه أنقذ نفوساً كثيرة من الموت وسوف ينقذهم طوال عمره.

XIX- وعندما كان في الثانية عشرة جاء والداه حسب المعتاد إلى أورشليم للمشاركة في عيد الفصح مع آخرين. ولما ساروا بعد انتهاء العيد إلى الديار، عاد يسوع أدراجه إلى أورشليم، أما والداه فقد ظنّا أنه يسير مع الجمع. وبعد أن قطعوا مسير يوم، أخذ والداه يبحثان عنه بين الأقارب والمعارف، ولما لم يجداه عادا إلى أورشليم. وبعد بحث دام ثلاثة أيام وجداه في المعبد جالساً بين المعلمين يستمع إلى الناموس ويسألهم. وكان جميعهم ينصت إليه باهتمام، وتعجبوا كيف استطاع وهو الطفل الصغير أن يرغم الشيوخ ومعلمي الشعب على أن يصمتوا ويستمعوا إليه وهو يشرح الناموس وأقوال الأنبياء. فقالت له أمه: يا بني! ما الذي فعلته بنا؟ ها هو أبوك وأنا بحثنا عنك بفزع وقلق. ولماذا كان عليكما أن تبحثا عني؟ أم أنكما لا تعرفان أنه ينبغي لي أن أكون فيما هو لأبي. أما الكتبيون والفريسيون فقالوا: أأنت والدة هذا الولد.؟ فقالت: نعم. فقالوا: مباركة أنت بين النساء، لأن الرب بارك ثمرة بطنك. فإننا لم نر أبداً ولم نسمع مثل هذا المجد، ومثل هذه الجرأة، ومثل هذه الحكمة. ونهض يسوع وسار مع أمه، وكان مطيعاً لوالديه. وحفظت أمّه كلّ الكلام في قلبها. لقد كان يسوع قد تفوق في الحكمة، والعمر، والغبطة. المجد له في دهر الدهور. آمين.

١- انظر لوقا.

كتاب القديس
توما الرسول عن طفولة الرب

(الرواية B)

I- لقد رأيت أنا، توما الإسرائيلي، إنه من الضروري أن أعلم أخوتي من الوثنيين بالأعمال التي صنعها في طفولته ربنا يسوع المسيح، الذي مكث جسدياً في مدينة الناصرة في سن الخمس سنوات.

II- وخرج يوماً بعد أن توقف المطر، ولم تكن والدته في البيت، كانت تعمل في الحقل، ووصل إلى المياه الجارية، فحفر حفراً وساق الماء إليها حتى ملأها. وقال عندئذ: «أريد أن يصفوا هذا الماء ويغدو رقراقاً». فتحققت رغبته فوراً. وعلى مقربة منه مرّ ابن حنانيا، فضرب الماء بعود الصفصاف وبدده. فالتفت إليه يسوع وقال: «أنت، أيها الكافر المجرم، بماذا آذتك هذه البرك حتى جعلتها خالية؟ لن تكمل طريقك الذي أنت فيه، وستجف كهذا العود الذي في يدك». فسقط الولد ميتاً في مكانه. ولما رأى الأولاد الآخرون الذين كانوا يلهون مع يسوع ذلك، ذهلوا وفروا هاربين من المكان، وأخبروا والد الميت. فخف هذا إلى المكان ورأى ابنه ميتاً فذهب إلى يوسف يشكو.

III- أما يسوع فقد عجن من ذلك الوحل اثني عشر عصفوراً دورياً. وذلك في يوم السبت. فجاء أحد الصغار إلى يوسف وقال له: «لقد رأيت ابنك يلهو عند المسيل، يصنع من الوحل عصافير، وليس هذا مسموحاً». وإذ سمع يوسف هذا ذهب إلى يسوع وقال له: «لماذا تفعل ما يخالف السبت»؟ فلم يجبه يسوع، لكنه حدق في العصافير وصاح: «طيري واذكريني حياً» وفوراً حسب كلمته طارت العصافير في الهواء. ولما رأى يوسف هذا أخذته الدهشة.

IV- وبعد أيام، بينما كان يسوع في المدينة، رماه صبي بحجر أصاب كتفه. فقال له يسوع: «لن تكمل طريقك»، وفي الحال سقط الصغير ميتاً. وقال الذين كانوا هناك فيما بينهم، وقد أصابهم الذهول: ما هذا الولد الذي تصير كلّ كلمة ينطق بها إلى فعل... ومضوا إلى يوسف يلومونه قائلين: «لا يمكنكم أن تعيشوا معنا في المدينة. وإذا أردت (أن تبقى)، فعلم ابنك أن يبارك لا أن يلعن. لأن أطفالنا يهلكون، فكل ما ينطق به يتحقق».

V- فقام يوسف من مقعده، ووضع الصبي وأمسكه من أذنه بقوة. فنظر إليه يسوع نظرة حادة وقال: «كفاك هذا».

وفي اليوم التالي أخذه يوسف من يده وسار به إلى معلم يدعى زكّا وقال له: «خذ هذا الصبي يا معلم، وعلمه القراءة والكتابة». فأجابه المعلم: «أعطني إياه وأنا سأعلمه الكتابة، وسوف أقنعه بأن يبارك لا أن يلعن». فضحك يسوع وقال: «أنتما تتحدّثان عمّا تريانه، أما أنا فأعرف أكثر منكما بكثير. لأني أنا هذا موجود قبل الأزل. وأنا رأيت عندما ولد آباء آبائكما، وأعرف كم عدد سني حياتكما». وإذ سمع المعلم هذا أصابه الارتباك. ثم قال لهما يسوع: «أنتما في عجب من كوني أعرف كم من السنين سوف تعيشان. حقاً إنني أعرف متى خلق العالم. وأرى أنكما الآن لا تصدقان ولكن عندما تريان صليبي[1]، فستصدقان أنني أقول الحق». فدهشا لما سمعا منه.

وبعد أن كتب زكّا الأبجدية اليهودية قال له: «ألفا»[2]. فردد الصغير وراءه قائلاً: ألفا. ومرة أخرى قال المعلم: ألفا، فردد الصغير ثانية الحرف عينه، وفي المرّة الثالثة قال المعلم: ألفا. عندئذٍ التفت يسوع إليه وقال: «أنت لا تعرف ماذا يعني حرف الألفا، فكيف يمكنك إذن أن تعلم البيتا»؟ وبدأ الصغير يقرأ من الألفا حتى أتى على حروف الأبجدية الاثنين والعشرين[3]. ثم قال: «اسمع يا معلم عن بنية الحرف الأول واعلم ما فيه من توافق وخطوط وعلامات تتقارب وتتباعد. وإذ سمع زكّا هذا الكلام عن حرف واحد، أخذته

١- المقصود هنا، هو الصليب لا بصفته رمزاً لصلب يسوع إنما رمز لقيامته، والأصح رمز عودته إلى أبيه (وهذا ما اتسمت به رؤى الغنوصيين. فقد جاء في انجيل الحقيقة الذي عثر عليه في مكتبة الغنوصيين في مصر، إن يسوع سمّر على الخشب وصار ثمرة لمعرفة أبيه).

٢- الألفا وكذلك البيتا من أحرف الأبجدية الإغريقية وليس الأبجدية اليهودية. يبدو أن من وضعوا انجيل الطفولة لم يكونوا على معرفة بما كانوا يعلّمونه في مدن صغيرة كالناصرة

٣- تتألف الأبجدية اليهودية من ٢٢ حرفاً، وتتألف الالفباء الإغريقية من ٢٤ حرفاً. وثمة خلط بين الأبجديتين هنا.

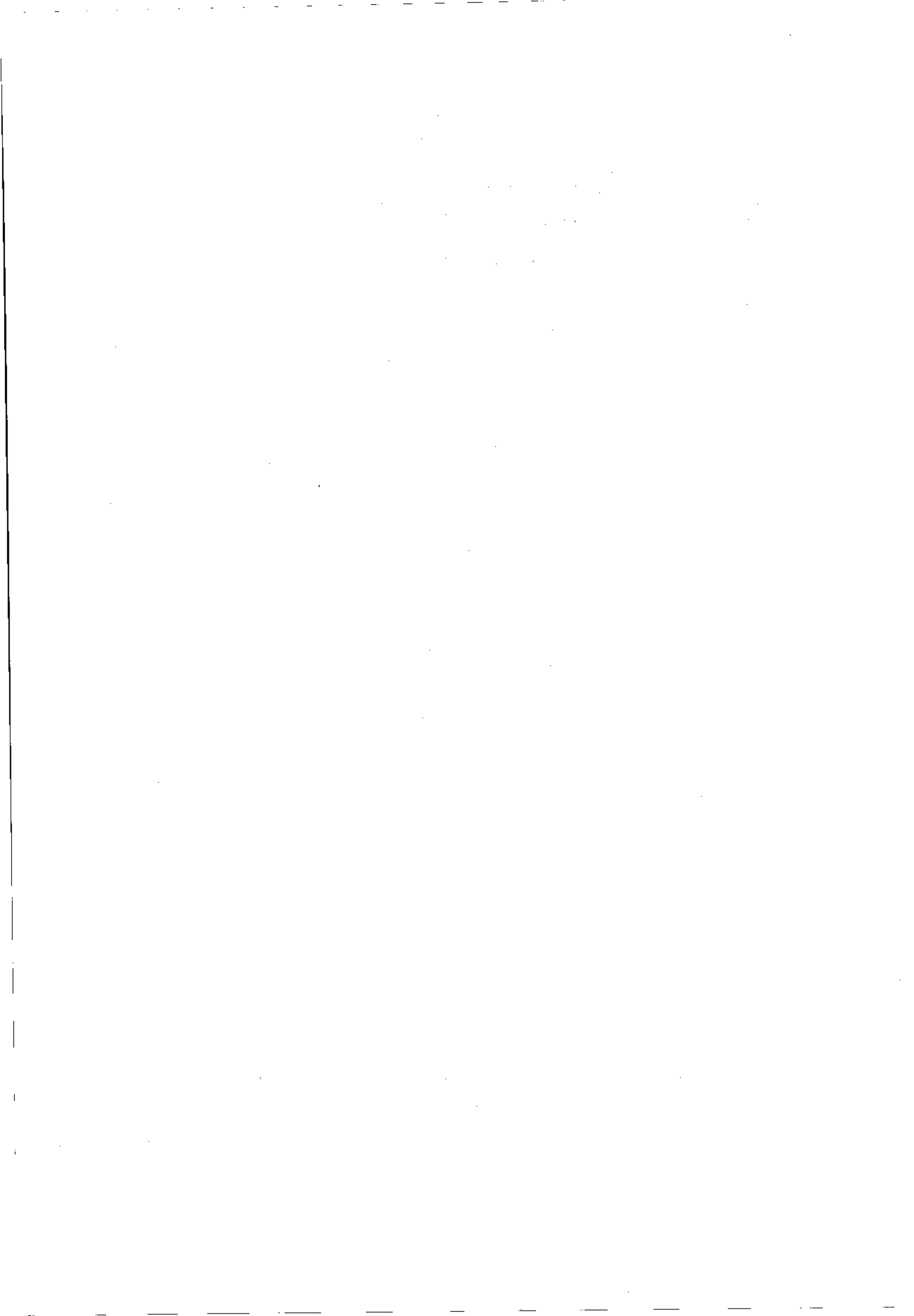
الحيرة وعجز من إجابته. فالتفت إلى يوسف وقال له: «يا أخي، إن هذا الطفل ليس مولوداً، فخذه عني».

وحدث مرة بعد ذلك أن كان يسوع يلهو مع أترابه فوق سطح المنزل. فسقط أحدهم من فوق السطح ومات. ولمّا رأى الأطفال الآخرون ما وقع، فرّوا هاربين وبقي يسوع وحده واقفاً على السطح. وما إن علم والدا الصبي بما وقع له، حتى جاءا يندبان ويولولان. ولما رأيا جثمان ولدهما الملقى على الأرض ويسوع الواقف على السطح، أخذ يتهمانه بأنه هو من دفعه، وشرعا يشتمانه. عندئذٍ نزل يسوع عن السطح، ووقف عند رأس الميت وقال: «زينون أهل حقاً أنا دفعتك؟ قم وقل». فقام الصغير في الحال وسجد ليسوع وقال: «يا رب، أنت لم ترمني، بل أحييتني».

ولم تمرّ أيام قليلة حتى قطع جار لهم قدمه بالفأس بينما كان يقطع الحطب. ونزفت دماؤه حتى كاد أن يموت. فتجمع في المكان حشد كبير، وكان يسوع بين الحضور. فدنا ولمس جرح الشاب فبرأ في الحال، وقال له: «انهض وقطع حطبك». فنهض الشاب وسجد وشكر يسوع وواصل عمله. وشكره الحاضرون والدهشة بادية على وجوههم.

وعندما كان في السادسة من عمره أرسلته أمه مريم ليجلب الماء من النبع. لكن جرته انكسرت في الطريق فوصل إلى النبع، وعقد رداءه وملأه ماء وحمله وعاد إلى مريم. ولمّا رأت ذلك بهتت، فاحتضنته وقبلته.

وكان في الثامنة من عمره عندما تلقى يوسف طلباً من أحد الأثرياء أن يصنع له سريراً. لأن يوسف كان نجاراً. وعندما خرج إلى خارج المدينة ليجمع الخشب اللازم، ذهب يسوع معه. فقطع يوسف عارضتين ووضعهما على الأرض لكي يقيسهما، وتبين له أن واحدة منهما أقصر من الأخرى. فتأفف وأخذ يبحث عن عارضة أخرى مناسبة. وإذ رأى يسوع ذلك قال له: ضع هذين اللوحين واحدهما إلى جانب الآخر ووازهما عند النهاية السفلى». ومع أن يوسف لم يدرك ما كان يريده الصغير، إلا أنه فعل ما قاله له. وعندئذٍ قال له يسوع: «شدّ اللوح الصغير بكل قوتك». فتعجب يوسف وأمسك باللوح. ثم أمسك يسوع بالطرف المقابل من اللوح عينه وشدّه إلى أن ساوى طرف اللوح الآخر. وهكذا تساوى اللوحان طولاً، وقال ليوسف: «لا تقلق بعد الآن وأكمل عملك بسلام». فأخذ الذهول بيوسف كلّ مأخذ وقال: «مغبوط أنا لأن الإله منحني مثل هذا الابن». ولما رجعا إلى المدينة روى يوسف لأم يسوع كل ما جرى. وبعد أن استمعت ورأت أعمال ولدها العظيمة غير العادية فرحت وباركته مع أبيه والروح القدس، الآن وكلّ أوان وإلى دهر الداهرين آمين.



مقاطع من إنجيل
الطفولة السوري الذي كتبه توما

(الإصحاحات VI-VIII)

ولكن المعلّم الذي اسمه زكّا سمع كيف كان يتحدّث مع أبيه، فصاح متعجباً: أوه! أي ولد فاسد! وقال ليوسف: متى ستعطي هذا الصبي لكي يتعلم كيف يحب أقرانه ويحترم الكبار. فأجاب يوسف: ولكن من يستطيع أن يعلم مثل هذا الولد؟ أفلا يظن هو أنه يشبه الصليب الصغير؟ فأجاب يسوع موجهاً كلامه إلى المعلم: إن هذه الكلمات التي نطقت بها وهذه الأسماء غريبة عني. لأني لست فيكم مع أنني أعيش بينكم. لا كرامة لي في ماهيتي الجسدية هذه. فأنت تعيش وفق الناموس، وأنت تخضع للناموس. وقد كنت أنا عندما ولدت أنتَ. أنت تظنّ أنك والدي. وأنت يجب أن تعرف مني تعاليم لا يعرفها أحد آخر ولا يستطيع أن يدركها. حتى الصليب الذي تحدثت عنه، فإنه إنما ينتمي إلى ذاك الذي سوف يحمله. لأنني عندما أصعد فسأرمي ذلك الجزء الذي في من جنسكم[1]. وأنتم لا تعرفون من أين أنتم. فأنا وحدي أعرف الحقيقة عن زمن مولدكم، وكم ينبغي لكم أن تمكثوا هنا. وإذ سمعا هذا بهتا وصاحا: أوه! إنها أقاويل غريبة ورؤية غريبة! لم نسمع يوماً إنساناً يقول مثل هذا القول، لا الكهنة، ولا الكتبيين، ولا الفريسيين. فمن أين مولد هذا حتى يقول مثل هذه الأقوال وهو لا يزال في الخامسة من عمره. لم ير الإنسان ما يشبه هذا من قبل. فأجابهما يسوع قائلاً: يدهشكما ما قلته من أنني أعرف متى خرجتما إلى الدنيا، لكنني أستطيع أن

١- يشير هذا التعبير المجازي المعقد إلى اغتراب المسيح عن الطبيعة البشرية، التي كان يمكن أن تكون مجرّد مظهر وحسب.

أقول لكما أكثر من هذا. ولما سمعا هذا صمتا ولم تكن بهما قوة لقول أيّ شيء. فقال زكا المعلّم ليوسف: سوف أعلمه ما ينبغي له أن يعرفه. ثم قاده إلى المدرسة، وصمت الصغير وهو يسير معه. وشرع زكا الكتبي ينطق له الحروف بدءاً من الألفا، وأعاد عليه قراءة الألفباء كلها مرات. وقال له إن عليه أن يجيب ويردد (وراء زكا) الألفباء كلها. لكنه كان صامتاً. فضربه الكتبي بيده على رأسه. فقال يسوع: إن سندان الحداد يمكن أن يتعلم إذا ضربته، وهو من غير حسّ. وأنا أستطيع أن أقول ما قلته أنت وأعرفه وأفهمه. فقال الكتبي إن هذا (الطفل) عظيم. إنه إما إله، أو ملاك، أو... ينبغي عليّ أن أقول، إنني لا أعرف من هو. وعندئذٍ ابتسم الطفل يسوع وقال: فليثمر من لم يكن يطرح ثمراً، وليبصر من كان أعمى ثمرة حياة القاضي[1].

١- على أغلب الظن أن المقصود بثمرة الحياة هنا، كما في الرواية B، ثمرة شجرة الحياة التي أدغمتها طائفة من التعاليم المسيحية بالصليب والقاضي في هذه الجملة إما يسوع نفسه، أو الإله الذي سوف يقاضي الجنس البشري.

مقطع من الإصحاحين VI و VIa
من إنجيل الطفولة السلافي القديم[1]

VI- ... وغضب يوسف من الصبي غضباً شديداً، وقال للمعلم: ومن يستطيع أن يعلمه؟ ألا تظن أنت يا أخي أنه ربما صليب صغير؟ وإذ سمع الصغير يسوع ما قاله والده، ابتسم وقال لزكّا: كلّ ما قاله أبي صحيح. فأنا هنا سيد، أما أنت، فإنك غريب. فلي وحدي أعطيت القوة، لأني موجود من قبل وموجود الآن. لقد ولدت بينكم وأقيم بينكم. وانتم لا تعرفون من أنا. لكنني أعرف متى جئتم ومن أنتم، متى ولدتم وكم من السنين طول حياتكم. الحق أقول لك أيها المعلم، إنني كنت هناك حينما ولدت أنت، وكنت موجوداً قبل أن تولد. وإذا أردت أن تكون معلماً كاملاً، اسمعني وأنا سأعلمك الحكمة التي لا يعرفها أحد سواي والذي أرسلني لكي أعلّمكم. فإنني في واقع الأمر معلمك، مع أنك ترى نفسك معلمي، فأنا أعرف كم عمرك، وأنا أعرف بالضبط كم ستستمرّ حياتك. وعندما سترى يوماً صليبي الذي قال عنه أبي، عندئذٍ سوف تصدق أن كل ما قلته لك حق. أنا سيّد، وأنت غريب، لأنني أبقى دائماً أنا نفسي. وبهت اليهود الذين كانوا هناك وسمعوا ما قيل، وقالوا: إنها لمعجزة غريبة لم نسمع بمثلها من قبل! فليس لهذا الصغير أكثر من خمس سنوات، وهو يقول ما لم نسمع يوماً من أيّ رئيس كهنة أو أي فريسي. عندئذٍ أجابهم يسوع قائلاً، إنكم ترون معجزة حقاً، بيد أنكم لا تؤمنون بما قلته لكم. ولكنني أعلم علم اليقين متى ولدتم أنتم ومتى ولد آباؤكم. وأعلن لكم عمّا لم يسمع به أي منكم: أنا، كما الذي أرسلني، أعرف متى صنع هذا العالم. ولما سمع اليهود هذا ذعروا ولم يستطع أحد منهم أن ينطق ببنت شفة. أما الصبي فقد تركهم ومضى يلهو، وأخذ يتقافز ويسخر منهم

1- مقاطع هذا الإنجيل قريبة جداً من التنويعة السورية لإنجيل الطفولة، وهي تعكس أفكار الغنوصيين.

قائلاً: أنا أعرف أنكم عاجزون عن الدهشة ولستم جدّ أذكياء، لأني منحت العظمة، عظمة طفل من أجل الخلاص.

VIa- وعندئذٍ قال المعلم لوالده يوسف: قد هذا الولد إليّ في المدرسة وأنا سأعلمه الألفباء. فقاد يوسف يسوع من يده وأخذه إلى المدرسة. وشرع المعلم واثقاً يعلمه كلمات مهيبة مؤثرة، وكتب له أحرف الأبجدية كلّها. وأخذ بعد ذلك ينطقها له ويعيد قراءتها مرّات ومرّات. لكن الصغير كان صامتاً طوال الوقت وبدا أنه لا يعير اهتماماً لما يفعله المعلم. فغضب المعلم وضربه على رأسه. فأجابه التلميذ عندئذٍ قائلاً: أنت لا تتصرف بالعدل؛ هل أنا من يجب أن يعلمك أم أنت الذي يجب أن تعلمني؟ فأنا بتّ قادراً على قراءة الأحرف التي لقنتني إياها. وكثيرون يتهمونك لأنهم في كالنحاس الرنان والصنج الطنّان، لا يصدر أبداً أي صوت عاقل، أو حكمة عظيمة، ولا قوة الروح والإدراك. ثم سكت الصغير بعض الوقت، وقرأ من ثم أحرف الألفباء كلها من A إلى T. وبعد ذلك حدق في المعلم بغضب وقال: لماذا تعلم الآخرين البيتّا، وأنت لا تعرف طبيعة الألفا. أنت مراء! وإذ كنت تعرف فعلمني الألفا أولاً، وعندئذٍ سوف أصدقك بشأن البيتا[1].

١- باقي النص يتوافق من حيث الأساس مع نصّ الرواية A.

مقاطع من أناجيل مجهولة

بردية أوكسيرينكس (PAP. OX. 840)

.... قبل أن تأتوا عملاً شريراً (أحمق) فكروا بضروب المكر كلها. ولكن احذروا لكي لا يقع لكم ما وقع لنا[1]، لأنه ليس الأحياء الذين يفعلون الشر بين الناس وحدهم الذين ينالون الجزاء، بل يجب أن ينالوا العقاب ويتألموا.

وأخذهم معه (تلاميذه) إلى المكان المعدّ للأنقياء، ودخل إلى فناء المعبد. وجاءهم كبير الكهنة، وكان من الفريسيين، واسمه لاوي، وقال للمخلص: من أذن لك أن تدخل إلى هذا المكان الطاهر وتنظر هذه المقدسات من غير أن تغتسل، حتى تلاميذك لم يغسلوا أرجلهم؟ لقد دخلتم المعبد وأنتم دنسون، والمكان الطاهر لا يدخله إلاّ من اغتسل أولاً، وارتدى ملابس نظيفة، لكي يؤذن له برؤية المقدسات. فوقف المخلص مع تلاميذه وسأله: وماذا بشأنك أنت الموجود هنا في فناء المعبد، هل أنت طاهر؟ فقال ذاك له: أنا طاهر لأني اغتسلت في نبع داود ونزلت سلماً وصعدت آخر وارتديت ملابس بيضاء نظيفة. وبعد ذلك فقط دخلت ونظرت المقدسات. عندئذٍ قال له المخلص: أنت اغتسلت في مياه راكدة تتمرغ فيها الكلاب والخنازير ليلاً ونهاراً، وأنت اغتسلت وأزلت قذارة ظاهر جسدك، كما تغتسل البغايا والزمّارات، تغتسلن وتتعطرن وتتبرّجن من أجل أن تثرن الرغبة، وهن من الداخل مليئات بالعقارب والرذائل. ولكني أنا وتلاميذي الذين قلت عنهم إنهم غير نظيفين، اغتسلنا بالماء الحي، الذي ينزل (من السماء؟). ولكن الويل لمن...

١- انظر قصة إنجيل لوقا عن هلاك الجليليين، الذين خلط بيلاطس دماءهم بدماء ذبائحهم، وهلاك الناس في انهيار البرج. ربما كانت هذه الأحداث هي المقصودة هنا.

بردية إدجرتون (Pap, Edgerton)

... إلى الـضليعين في معرفـة النـاموس... كـلّ مـن ينتهـك النـاموس... ولكـن لـيس أنـا... يفعل،ما يفعل. ثم التفت إلى قادة (شيوخ) الشعب وقال لهم هكذا: ابحثوا في الكتب التي تظنون أنكم سوف تنالون الحياة عبرها، فإن ذلك لا يشهد عني[1]. لا تظنوا أنني سوف أتهمكم أمام أبي، فثمة مدّع أنتم تضعون آمالكم فيه: موسى. وحينئذٍ قالوا: نحن نعرف أن الإله قد كلّم موسى، أما أنت فإننا لا نعرف من تكون. فأجابهم يسوع قائلاً: قد صرتم الآن متهمين في عدم إيمانكم... وإذا كنتم تثقون بموسى، فإن عليكم أن تثقوا بي، لأنه [كتبـ] عني لأسلافكم.

... حجارة لرجمه، ووضع الحكام أيديهم عليه لكي يقبضوا عليه ويسلموه للغوغاء. بيد أنهم فشلوا في الإمساك به، لأن ساعة تسليمه لم تكن قد أتت بعد. ولكنه، هو الرب، تملّص من أيديهم وزاغ عنهم. وبعد إذن دنا منه أبرص وقال، يا يسوع، أيها المعلم، لقد عشت مع البرص وأكلت معهم (؟)، وصرت أنا نفسي أبرص. فإذا أردت أنت فإنك تستطيع أن تطهرني. فقال له يسوع فوراً: أريد، فاطهر. وذهب عنه البرص. (وقال له الرب): امض وار نفسك (للكهنة)

... وجاؤوا إليه لكي يجربوه فقالوا: يا معلم يسوع، نحن نعرف أنك جئت من عند الإله، لأنك تفعل كلّ ما جاء عن كل الأنبياء. والآن قل لنا، هل يجوز أن نؤدي للملوك ما توجبه سلطتهم؟ هل يمكن أن نؤدي أم لا[2]؟ لكن يسوع أدرك مقصدهم المليء بالمكر وقال لهم: لماذا تدعونني بأفواهكم «معلماً»، ولا تفعلون ما أقوله؟ لقد صدق أشعياء في نبوءته عنكم: هذا الشعب يجلني بفمه، لكن قلبه بعيد عني، وتبجيله باطل، فهو يبجل وصايا بشر...

...المكان مغلق... يستلقي في عمق سفلي لا مرئي، لا مقيس بشيء... ولمّا أربكهم سؤاله، كان يسوع قد دنا في طريقه من ضفّة نهر الأردن، فمد يده وملأها... ورمى... على... وعندئذٍ... الماء... أمام أعينهم... طارحاً ثمراً.... كثيراً...[3].

١- يبدو أن الكهنة والشيوخ اتهموا يسوع بانتهاك المحظورات الدينية؛ وكانت كلماته الحادة التي وجهها إليهم سبباً لرجمه بالحجارة.

٢- انظر مرقس؛ متى؛ لوقا.

٣- يرى بيل، وهو من نشر هذه البردية، إن المعنى المفترض لهذا المقطع هو التالي: يطرح يسوع سؤالاً: عندما أخفى السيد البذور في مكان سرّي بحيث باتت غير مرئية، فكيف يمكن ان تغدو ثروته لا مثيل لها؟ وإذ أشكل الأمر على التلاميذ، أخذ يسوع الماء بيده ورشه على الأرض (او على شجرة)، فأثمرت الأرض (الشجرة) في الحال ثمراً كثيراً.

مقطع من إنجيل مرقس المنحول

... وجاؤوا إلى بيت عنيا، وكانت هناك امرأة توفى أخوها. فدنت وسجدت أمام يسوع وقالت له: اشفق علي يا ابن داود. فنهرها التلاميذ. لكن يسوع غضب (منهم) ومشى معها إلى البستان حيث كان القبر، وفي اللحظة عينها دوى من القبر صوت قويّ. فتقدم يسوع وأزاح الحجر عن باب القبر ودخل فوراً إلى الداخل حيث كان الشاب مسجّى. فمد يديه وأيقظه إذ لمس يديه. ففتح الشاب عينيه وأحب (يسوع)، وتوسل أن يبقى معه. ثم خرجا من القبر ودخلا البيت، فقد كان الفتى ثرياً. ومضت ستة أيام، فأمر يسوع فجاء الشاب عارياً ملتفاً بملاءة السرير وبقي معه الليل كلّه، إذ علّمه يسوع أسرار مملكة الإله[1]. وجاءا من هناك إلى الضفة الأخرى من الأردن...

وكانت هناك شقيقة الشاب الذي أحبه يسوع، كما كانت هناك أمه وسالومي، ولم يصغ يسوع لهنّ[2]...

إنجيل بطرس

١- ١... أما اليهود فإن أيّاً منهم لم يغسل يديه، لا هيرودوس، ولا القضاة[3]. ولمّا لم يشأ أحد أن يغسل، نهض بيلاطس. ٢. عندئذٍ أمر هيرودوس بأن يؤخذ الربّ، وقال لهم: افعلوا به ما أمرتكم أن تفعلوا.

٢- ٣ وكان هناك يوسف صديق بيلاطس والرب[4]، وإذ رأى أنهم ينوون صلبه، ذهب إلى بيلاطس وطلب منه جثمان الرب لكي يدفنه. ٤. فأرسل بيلاطس إلى هيرودوس يطلب

١ـ ربما يجري الحديث هنا عن إعداد الشاب لتلقي سرّ المعمودية في نهر الأردن ويروي انجيل مرقس القانوني، إنه بعد اعتقال يسوع مشى وراءه شاب ملتفّ بأقمطة (ملاءة). وربما كان المشهدان مرتبطين في النص الأصلي

٢ـ حرفياً= «لم يقبل». قارن: لوقا: «وعندما رجع يسوع قبله الشعب» (أي صار يستمع اليه).

٣ـ يبدو على أغلب الظن أن الحديث جرى في الجملة السابقة عن أن بيلاطس قد غسل يديه (انظر متى). ويعدّ هيرودوس انتيبا القاضي الرئيس في هذا المقطع، لأنه كان حاكم الجليل، وبالتالي كان يسوع من رعاياه، ولذلك استشاره بيلاطس في مسألة تسليم الجثمان.

٤ـ يرد اسمه يوسف الرامي في أناجيل العهد الجديد، ويدعى هناك بأنه أحد أعضاء السيندريون، ومع ذلك لم يشارك في محاكمة يسوع، لكن العهد الجديد لم يتحدث عن صداقته مع بيلاطس.

الجثمان. ٥. وقال هيرودوس: يا أخي بيلاطس، حتى لو لم يطلبه أحد لدفناه نحن، لأن السبت سيحل، ومكتوب في الناموس: يجب ألا تغيب الشمس على من أميت[1]. ثم سلّمه إلى الغوغاء قبيل يوم عيد الفصح.

٣- ٦ ولمّا أخذوه دفعوه وركضوا يدفعون به ويقولون: نسوق ابن الإله، وقد صارت لنا عليه سلطة. ٧. وسربلوه بالرداء الأرجواني وأجلسوه على كرسي القضاة وقالوا: احكم بالعدل يا ملك إسرائيل[2]. ٨. وجاء أحدهم بإكليل من شوك ووضعه على رأس الرب. ٩. أما بعض الواقفين هناك فقد تفلوا في عينه، وصفعه آخرون على وجهه. ولكزه فريق ثالث بعيدان القصب، وثمة من جلده بالسوط. وكان كلّهم يقول: انظروا أي تكريم نكرم به ابن الإله.

٤- ١٠ وجاؤوا بمجرمين وصلبوا الرب بينهما في الوسط. أما هو فقد كان صامتاً كأنه لم يعان أي آلام. ١١. وعندما رفعوا الصليب كتبوا عليه: إنه الملك الإسرائيلي. ١٢ ووضعوا ثيابه أمامه ورموا عليها القرعة ليقتسموها، . ١٣ لكن أحد المجرمين قرعهم قائلاً: نحن نكابد هذا الألم بسبب الشرّ الذي أتيناه، أما هو فقد جاء ليخلص البشر، فما السيئ الذي صنعه لكم؟ ١٤. ونكاية به أمروا بألاّ تكسر ركبتاه لكي يتألم أكثر قبل أن يموت.

٥- ١٥ وكان النهار في منتصفه، لكن الظلام كان يلفّ اليهودية كلّها. وشاع القلق والخوف في قلوبهم، من أن تغيب الشمس وهو بعد على قيد الحياة. لأنه مكتوب عليهم ألا تغيب الشمس على من أميت. ١٦. حينئذٍ قال واحد منهم: اسقوه خمراً ممزوجة مرارة، فمزجوها وسقوه. ١٧. وأتموا كلّ شيء وأكملوا الآثام على رؤوسهم. ١٨. وسار كثيرون وهم يحملون القناديل ظناً منهم أن الليل قد حلّ، ومضوا إلى مستقراتهم. ١٩. وتأوه الربّ: «قوتي، أنت تركتني»!. وإذا قال هذا، اصعد. ٢٠. وفي اليوم عينه انشق حجاب معبد أورشليم إلى نصفين.

٦- ٢١ وعندئذٍ انتزعوا المسامير من يدي الرب ووضعوه على الأرض. فاهتزت الأرض كلها، وانتشر فزع عظيم. ٢٢. وبعد ذلك شعّت الشمس وتبيّن أن الساعة لا تزال التاسعة (أي الثالثة بعد الظهر). ٢٣. ففرح اليهود وأعطوا جثمانه ليوسف لكي يدفنه. لأنه رأى كم من الخير صنع. ٢٤. فأخذ هذا الرب وغسله وكفنه وحمله إلى قبره الخاص الذي يدعى بستان يوسف.

١- انظر سفر التثنية.

٢- ليس واضحاً هنا من الذي يهزأ بيسوع. فحسب العهد الجديد أن الجنود الرومان هم من فعل ذلك. ويفهم من السياق التالي للنص أن تنفيذ الإعدام (والهزء) قام به الجنود الرومان (لم يكن من حقهم قانوناً سوى تنفيذ الحكم، وكتابة صيغة الجرم على الصليب، وسوق المحكوم إلى مكان الصلب). وكانت هذه الحالة مفهومة لقراء المنحول ويدل المؤلف على أعداء يسوع كلهم بكلمة هم.

٧- ٢٥ وعندئذٍ أدرك اليهود، والشيوخ، والكهنة أيّ شرّ جروا على أنفسهم فأخذوا يلطمون صدورهم ويرددون: آه يا لآثامنا! قد حلّ القضاء ونهاية أورشليم. ٢٦. أما أنا ورفاقي فكانت نفوسنا حزينة، وأرواحنا كسيرة، واختبأنا لأنهم كانوا يبحثون عنّا كأننا مجرمون ننوي أن نضرم النار في المعبد. ٢٧. ولهذا السبب صام كلّنا وجلسنا حزانى نبكي الليل والنهار حتى السبت.

٨- ٢٨ وسمع الكتبيون، والفريسيون، والكهنة المجتمعون أن الشعب ينوح ويلطم في الصدور قائلاً: إذا كانت قد ظهرت هذه الآيات العظيمة كلها لدى موته، أفلا ترون كم كان محقاً. ٢٩. فخافوا وجاؤوا إلى بيلاطس يطلبون منه قائلين: أعطنا جنوداً لكي نستطيع أن نحرس قبره ثلاثة أيام، لكي لا يأتي تلاميذه ويسرقوه، فيظن الشعب أنه قام من الأموات ويسبب لنا الأذى. ٣٠. فأعطاهم بيلاطس بيترونيا- سنتوريونا لحراسة القبر. وسار الشيوخ والكتبيون معهم إلى القبر. ٣١. فدحرجوا حجراً كبيراً أغلقوا به باب القبر. ٣٢. وختموه بسبعة أختام، وأقاموا خيمة وأخذوا يحرسون.

٩- ٣٤ وفي الفجر عندما ظهر غسق السبت جاء حشد كبير من أورشليم وضواحيها لكي يشاهدوا القبر المختوم. ٣٤. وفي تلك الليلة عينها، حينما أضاء نهار الرب (= يوم الأحد)، كان يحرس القبر حارسان في كلّ نوبة، فدوى في السماء صوت. ٣٥. ورأوا كيف انشقت السموات ونزل من هناك رجلان يشعان ضياء، فاقتربا من القبر. ٣٦. فتدحرج الحجر الكبير من تلقاء نفسه وابتعد، وانفتح القبر، ودخل الشابان إلى الداخل.

١٠- ٣٨ ولما رأى الجنديان هذا، أيقظا قائد الحرس والشيوخ، لأن هؤلاء كانوا هناك يحرسون أيضاً. ٣٨. ولما رويا ما شاهداه، ظهر ثلاثة رجال يخرجون من القبر، اثنان منهم يسندون الثالث والصليب يسير خلفهم. ٣٩. ولامس رأسا الاثنين السماء، أما الثالث الذي كانا يمسكان بيده، فقد كانت رأسه أعلى من السماء. ٤٠. وسمعوا صوتاً من السماء يقول: هل بشّرت الأموات؟ ٤١. وجاء الجواب من الصليب: نعم.

١١- ٤٣ وتشاور أولئك بعضهم مع بعض لكي ينقلوا الأخبار إلى بيلاطس. ٤٣. وبينما هم يفكرون في الأمر انشقت السموات ثانية ونزل شخص ما من هناك ودخل القبر. ٤٤. وإذ رأوا ذلك خفوا مع قائد الحرس إلى بيلاطس، تاركين القبر الذي كانوا يحرسونه، ورأوا ما شاهدوه وهم في حالة ارتباك شديد واضطراب، وقالوا: حقاً لقد كان ابن الإله. ٤٥. فقال بيلاطس مجيباً: أنا بريء من دم ابن الإله، أنتم من قررّ ذلك. ٤٦. فطلبوا منه أن يأمر قائد الحرس والحرس ألاّ يتحدثوا عما رأوا. ٤٧. لأنه أفضل لنا

أن نكون مذنبين بذنب عظيم أمام الإله، من أن نقع بين أيدي الشعب اليهودي، وأن نرجم بالحجارة. ٤٨. فأمر بيلاطس قائد الحرس والحرس بألا يقولوا شيئاً عمّا رأوا.

١٢- ٥٠ في الصباح المبكر من يوم الرب جاءت مريم المجدلية، وهي تلميذة الرب، وكانت هذه قد خشيت اليهود الحانقين ولم تؤد ما تؤديه عادة النساء تجاه أعزائهن الذين يموتون. ٥٠. فصحبت معها صديقاتها وذهبت إلى القبر الذي كان مدفوناً فيه. ٥١. وخافت النسوة أن يراهن اليهود، وقلن: إذا كنّا لم نستطع في ذلك اليوم، عند صلبه، أن نبكيه وندبه، فإننا سوف نفعل هذا الآن عند قبره. ٥٢. ولكن من سيدحرج لنا الحجر الذي يغلق باب القبر لكي ندخل ونجلس حوله ونفعل ما يجب أن نفعله؟ ٥٣. فالحجر ضخم، ونحن نخاف أن يرانا أحد ما. وإذا لم نستطع، فسوف نضع عند باب القبر ما أتينا به للذكرى، وسنبكيه ونلطم صدورنا حتى نصل إلى البيت.

١٣- ٥٥ فذهبن ورأين القبر مفتوحاً، فدنون وانحنين إلى هناك فرأين شاباً جالساً في وسط القبر، وكان الشاب جميلاً يرتدي ثياباً تشع ضياء، فقال لهنّ: ٥٥. عمّن تبحثن؟ أعن ذلك الذي كان مصلوباً؟ لقد قام ومضى. وإذا كنتنّ لا تصدقن فانظرن المكان الذي كان مستلقياً فيه، إنه ليس موجوداً. لأنه قام ومضى إلى المكان الذي أرسل منه. ٥٦. فسيطر الخوف على النسوة وولين هاربات.

١٤- ٥٨ وكان ذلك اليوم آخر أيام عيد الفصح، وتفرق كثيرون وعادوا إلى منازلهم، لأن العيد انتهى. ٥٨. أما نحن تلاميذه الاثنا عشر فقد كنا نبكي ونتألم، وكلّ منا أفقده الحدث صوابه فمضى إلى بيته. ٥٩. وأنا بطرس مع أخي اندراوس حملنا الشبكة وتوجهنا إلى البحر، وكان معنا اللاوي بن حلفا[1] الذي الرب...

تقرير بيلاطس عن ربنا يسوع المسيح، إلى أغسطس قيصر في روما

١- في تلك الأيام، عندما صلب ربنا يسوع المسيح، كان بيلاطس البنطي نائباً عاماً على فلسطين وفينيقيا[2]. وقد ظهرت في أورشليم تعليقات مكتوبة عمّا فعله اليهود مع الرب. وأرفق بيلاطس تعليقاته الشخصية بتقرير رفعه إلى قيصر في روما جاء فيه:

١- اللاوي بن حلفا، اسم كان يطلق على متى الإنجيلي انظر مرقس.

٣- في واقع الأمر أن بيلاطس كان نائباً عاماً على اليهودية فقط.

إلى الجبار الإلهي المهيب أغسطس قيصر. يجب عليّ أن أعلمك يا صاحب الجبروت الأعظم عن سبب الرعب والهلع اللذين أنا فيهما الآن. ففي الأرض التي تحت سلطتي مدينة تدعى أورشليم، جاءني حشد من كلّ اليهود فيها وسلمني شخصاً يدعى يسوع، واتهموه بكثير من التهم، بيد أنهم فشلوا في إثبات أي تهمة. وكانت حجتهم الوحيدة، هي أن يسوع قال لهم، إن يوم السبت ليس يوم راحة، وليس الالتزام به واجباً. لأنه هو نفسه شفى أناساً كثيرين في هذا اليوم: جعل العمي يبصرون، والبرص يطهرون، وأقام الموتى، وجعل العرج يسيرون، وشفى المصابين بالشلل الذين كانوا عاجزين عن أيّ حركة كانت، وعن تهدئة أعصابهم، وإذ كانوا يتكلمون، كانوا يطلقون أصواتاً وحسب. فمنحهم بكلمة منه القوة على السير والجري. ولكن العمل الأكثر إثارة للدهشة والغريب حتى عن آلهتنا، هو أنه أحيا ميتاً كان قد فات على وفاته أربعة أيام: ناداه بكلمة واحدة، مع أن دماءه كانت قد فسدت، وأوغل الدود في جسده، وكانت رائحته قد باتت كريهة كرائحة الكلاب. وإذ رآه يسوع مسجّى في القبر، أمره أن يأتي[1]. فلم يبق فيه شيء من الميت، بل خرج من القبر كأنه عريس يخرج من مخدع العرس ورائحة العطر تفوح منه.

٢- حتى الغرباء[2] الذين كانوا يعيشون في البراري ويقرضون أجسادهم كالوحوش والزواحف، جعل منهم سكان مدن، وبكلمة منه وهبهم البصيرة فصاروا حكماء، وأقوياء، مثلهم مثل الآخرين. لقد أكلوا مع أعداء الأرواح الدنّسة (أي مع الناس العاديين.- إ. س)، التي كانت تهلكهم بوجودها في داخلهم، والتي رمى بها يسوع في لجّة البحر.

٣- كما كان هناك آخر يده مشلولة، وليست يده وحدها، إنما كان نصف جسد هذا الشخص متحجراً، ولم يكن له شكل إنسان، ولم يكن بمقدوره إن يتحرك. فشفاه بكلمة واحدة منه.

٤- وكانت هناك امرأة تعاني نزفاً مزمناً، حتى أن شرايينها وعروقها كانت خالية بسبب نزف الدم المتواصل، ولم يكن لها شكل البشر، إنما كانت كالجثة الهامدة، صامتة طول الوقت، وكان أطباء المحيط قد عجزوا عن شفائها، ولم يكن لها أيّ أمل في العيش. ولكن عندما عبر يسوع على مقربة، دبّت في المرأة القوة على حين غرّة إذ وقع ظله عليها. فأمسكت بطرف ثوبه، وفي اللحظة عينها ملأت القوة المكان الذي

١- يجري الحديث هنا عن إقامة اليعازر، لكن النص القانوني يخلو من تفاصيل وصف جثمان اليعازر.

٣- انظر متى.

كان خالياً منها في جسدها، فذهب الألم، ومشت مسرعة نحو مدينتها كفرناحوم الواقعة على بعد ستة أيام سيراً على الأقدام.

٥- تلك كانت الأعمال التي صنعها يسوع في السبت، وهذا ما عزمت على أن أخبرك به منذ بعض الوقت. كما أظهر أشياء أخرى أكثر إعجازاً، لذلك أعتقد أن بإمكانه أن يصنع معجزات ليس بمقدور الآلهة الذين نعبدهم أن يأتوا بمثلها.

٦- هذا الإنسان سلّمه لي هيرودوس، وارخيلايوس، وفيليبوس، وحنانيا، وقيافا[1]، ومعهم الشعب كله هادراً مطالباً إياي بأن أحاكمه. ولذلك أمرت بصلبه، وقبل ذلك بجلده، بيد أنني لم أجد أيّ سبب لاتهامه بأعمال رديئة.

٧- ولما صلبوه لفّ العالم المسكون كله ظلام دامس، وبما أن الشمس أظلمت في وسط النهار، فقد ظهرت النجوم، لكنها لم تكن تضيء، وبدا القمر كأنّه مدمّى، وقد سُلِبَ ضياؤه. وابتلع ظلام الأرض الفضاء، إلى حدّ أن قدس أقداس المعبد، كما يدعوه اليهود، لم يعد مرئياً. وفغرت فاها تحت، هوّة لدى هزيم الرعد.

٨- وفي حالة الهلع هذه رأوا الأموات الذين قاموا من قبورهم، وقالوا إن إبراهيم، واسحق، ويعقوب، والأحبار الاثني عشر، وموسى، وأيوب، الذين ماتوا حسب كلامهم، منذ ثلاثة آلاف وثلاث مائة عام قد كانوا بين هؤلاء. وكان عدد الذين ظهروا كثيراً جداً، وقد رأيتهم بأم عيني، وشكوا لي اليهود والتعسف الذي أتوه وجرّ الهلاك على اليهود وناموسهم.

٩- لقد كان هناك خوف عظيم من هزة أرضية بدءاً من ساعة الاستعداد السادسة حتى التاسعة. وحين حلّ مساء أول سبت، دوى صوت من السماء، وشعت هذه بنور أقوى بسبع مرّات من نور النهار العادي. وفي الساعة الثالثة ليلاً كان ظهور الشمس أكثر سطوعاً من أي وقت آخر، وعم النور السماء كلّها. وكالصواعق التي تبرق في وسط الشتاء، ظهر من السموات رجال عظام في ملابس مشعّة، أعدادهم لا حصر لها، وكان صوتهم مسموعاً كهزيم الرعد الجبار وهم يعلنون: «يسوع الذي صلب قام! اخرجوا من جنّهم يا أيها الذين كانوا مستعبدين في سراديبها». وبدا كأن الشق الذي حدث في الأرض لا قرار له. وبدا الأمر كأن أركان الأرض قد ظهرت في الوقت عينه

١- هيرودوس أنتيبا، وارخيلايوس وفيليبوس، هما ولدا هيرودوس لكن ارخيلايوس توفي قبل زمن محاكمة يسوع، كما كانت اليهودية تحت إدارة الرومان مباشرة وقتئذ. حنانيا وقيافا من رؤساء الكهنة.

مع الأصوات السماوية والموتى الذين قاموا. أما ذلك الذي أحيا الأموات وقيد جهنم، أعلن قائلاً: خبروا تلاميذي: إنه يسير أمامكم إلى الجليل، حيث ترونه.

١٠- وعلى امتداد الليل كلّه كان النور يعم الكون، وهلك كثير من اليهود. لقد ابتلعتهم الأرض، إذ لم يستطيعوا في اليوم التالي أن يعثروا على أولئك الذين قاموا ضد يسوع. لقد ظهر موتى آخرون لم يكن أحد منّا قد رآهم من قبل. ولم يبق أي كنيس أو معبد يهودي في أورشليم، كلها اختفى لدى السقوط (في الهوّة).

١١- وأنا أعاني الرعب والهلع والضياع، وصفت ما رأيته بنفسي في ذلك الوقت، وأرسل إلى عظمتكم عرضاً وفق نظام كلّ شيء أقترفه اليهود ضد يسوع، وها أنذا أرسله يا سيدي إلى عظمتكم الإلهية.

آلام القديس أندراوس الرسول[1]

١- عندما كان رسل مخلصنا يسوع المسيح في أورشليم بعد صعوده، وقف المغبوط بطرس أمامهم وقال: «أيها الرجال الصانعو المعجزات والآيات بقوته، تذكروا أنه أرسلنا كورثة له، وتفرقوا في هذا العالم المسكون وبشروا بالتوبة ومغفرة الآثام لأولئك الذين يؤمنون باسمه القدّوس. والآن دخلت في كلّ منا قوة نزلت من السماء وسكبت علينا نعم الروح القدس، لكي نكون سلاح العفة: كلمة الحق، ورحمة ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح. فما لنا نتباطأ ونمكث ساكنين بدلاً من أن نمضي ونصنع الأعمال التي وجهنا إليها ومن أجلها دعانا»؟

٢- ووقف الرسل، ورموا القرعة لكي يعرف كلّ منهم إلى أين يمضي، وإلى أيّ شعب يحمل الخلاص. وكان نصيب بطرس أرض المختونين، ويعقوب ويوحنا الأراضي الشرقية، وفيليبوس السامرة وآسيا، وبرثولماوس ألبانوبوليس، ومتّى بارثيا، ومدينة مرميندا، وتوما أرمينيا العظمى والبلاد الهندية، ولاوي وفداي بيرونيكيدا، وسمعان القانوي بربارِيا، وأندراوس بيثينا، ولا كيد يمونا وآخيا.

١- لقد ترجمت إ. س سفينسيسكايا هذا النص عن:
Acta Apostolorum Apocrupha, Ed. Lipsius R.A et Bnnet M.T. II, 1, Lipsiae 1903.
وعنها ترجمناه نحن. أما النص الأصلي، نص القرن ٢ م فلم يصل إلينا، لكن عدداً من المنحولات وضع على أساسه. ويُعدّ هذا النص، هو النص الأقرب إلى النص الأصل.

٣- وبعد ذلك انطلقوا إلى شتى أرجاء المعمورة، وجاء أندراوس إلى بيثينا وشرع يعلم الكلمة الإلهية. وذهب من هناك إلى باترا مقرّ والي ولاية آخيا. وما إن دخل المدينة حتى انتشرت شائعة تقول: إن في المدينة غريباً يصنع معجزات وآيات عظيمة باسم شخص يدعى يسوع، ومن غير أن يستخدم أي عقاقير، يشفي من الأمراض، ويطرد الأرواح الشريرة والعفاريت، ويحيى الموتى، ويطهر البرص، وإذ سمع الحاكم ليسبيوس[1] هذا، قال في قلق واضطراب: «إنه ساحر ومشعوذ لا يليق بنا أن ننضمّ إليه، بل ينبغي أن نزيد من اهتمامنا بإحسان آلهتنا ومبراتهم». وأمر بإلقاء القبض على اندراوس وقتله.

٤- لكن ملاك الرب وقف أمام الحاكم ليلاً وقال له آمراً مهدداً: «ما الأذى الذي سببه الغريب لك حتى تعيق بمكائدك الإله الذي يبشر به؟ أرى الآن يد الرب عليك، وسوف تصاب بالجنون إلى أن تدرك الحقيقة على يديه». وصار الملاك غير مرئي لليسبيوس، بينما بقي هذا أبكم. ولما عاد إلى رشده بعد بعض الوقت، دعا الجنود الذين يخدمونه وقال لهم والدموع تملأ وجهه: «ارحموني وعجلوا إلى المدينة وجدوا لي الغريب الذي يبشر بالإله غير المرئي[2]. فأنا يمكنني أن أدرك الحقيقة عبره». واندفع الجنود يبحثون عن الرسول اندراوس، وإذ وجدوه جاؤوا به إلى الحاكم. وما إن رآه ليسبيوس حتى رمى بنفسه على قدميه وتوسل إليه قائلاً: «يا إنسان الإله، أيها الغريب الذي يبشر بالإله غير المرئي، «ارحم إنساناً ضالاً لا يعرف الحقيقة وأعمت بصيرته الآثام، وعرف كثرة من الآلهة الباطلين، ولم يعرف الإله الواحد الحق. أتوسل إليك باسم الإله الذي يقيم فيك، مد لي يد الخلاص، وافتح لي بوابات المعرفة، واشعل لي ضوء العدل».

٥- فبهت الرسول المغبوط، وبكى متأثراً بكلمات التوسل تلك، ورفع عينيه إلى السماء، ووضع يده اليمنى على جسد الحاكم وصلّى قائلاً: «يا إلهي، يسوع المسيح، الذي لا يعرفه العالم، وقد أُظهر الآن عبرنا، اقبلْ عبدك هذا، واشف مخلوقك لكي يكون بين ناسك مبشراً بالحقيقة». ثم امسكه من يده اليمنى وانهضه. وإذ نهض ليسبيوس شكر الرب قائلاً: «حق هذا الإله أيها الغريب، إنه خارج الأيام والأزمنة. أهبه من اللحظة نفسي وبيتي». فأجابه أندراوس: «بما أنك آمنت إيماناً خالصاً بمن أرسلني، فامتلئ أنت بالمعرفة الأسمى».

١- إن اسم هذا الحاكم واسم الحاكم التالي ايجيوس أو ايجيات، هما اسمان مختلفان ولا وجود لهما بين أسماء حكام المقاطعات المعروفين لنا جيداً.

٢- الإله غير المرئي: تعبير استخدمه الغنوصيون في موقفهم تجاه الإله الواحد المطلق.

٦- ولما حدث ذلك فرحت المدينة كلّها بخلاص الحاكم. وتوافدت الحشود من كلّ مكان حاملة مختلف ضروب المرضى. فصلى الرسول من أجلهم ودعا الرب يسوع المسيح ليشفيهم. واستغرب سكان المدينة وقالوا بصوت واحد: «عظيمة هي قدرة الإله غير المرئي! عظيم هو الإله الذي يبشر الغريب اندراوس به! سوف نحطم اليوم أوثاننا، وندمر معابدهم، وننبذ الآلهة والعفاريت. فمن الأفضل لنا أن نعترف بالإله الذي يبشر به اندراوس. عظيم هو إله اندراوس»!. واندفع جميعهم كرجل واحد على معابد الآلهة يضرمون النار فيها، ويحطمونها ويذرون رمادها ويكفرون بآلهتها، ويطؤونهم بأقدامهم وهم يقولون: «إله اندراوس وحده سوف يكون معنا». وسرّ الحاكم ليسبيوس لعبث الشعب وبارك ما فعله.

٧- ومع مرور الوقت شاعت كلمة اندراوس المغبوط وبشارة الحق التي بشر بها، في كلّ مكان. وعيّن قيصر حاكماً جديداً، وأبعد ليسبوس. وإذ تسلّم هذا أمر الإمبراطور، جاء إلى اندراوس جذلاً وقال: «إني اليوم أكثر إيماناً بالرب، بعد أن تركت التعاليم الفارغة، وعزفت عن متاع الدنيا وبهرجها، ومنعت عني اهتمامات الحياة اليومية. فاقبلني مؤمناً لكي أبشر بالحقيقة وأشهد للناس عن مخلصهم». ثمّ ترك مقرّ الحاكمية والتحق باندراوس.

٨- وعندئذٍ رأى الرسول اندراوس رؤيا. فقد جاءه المسيح المخلص ووقف أمامه وأخبره: «اندراوس! أنت وضعت الروح القدس في ليسبيوس وأسبغت عليه نعمتك. صليب موتك يتبعني. لأن الذي يخرجك من العالم يمشي حثيثاً إلى باترا». ولما عاد إلى نفسه أنبأ الذين حوله، وأدرك مغزى ما قيل له، وهنا جاء أحدهم راكضاً وأخبر الرسول قائلاً: «إن ايجيات الذي غدا حاكماً على آخيا تلقى وشاية من عبيد الشيطان، من أُناس أشرار معادين. لقد أخبره أنك حطمت آلهة المدينة، وأحرقت المعابد، وكسرت المقدسات، ولا تسجد سوى لمصلوب تؤمن به. فأرسل إيجيات الجلادين ليقبضوا عليك». فركع المغبوط اندراوس على ركبتيه وقال: «حقاً يا إلهي كشفت لي الآتي. فامنحني يا ربيّ القوة والاستقامة والصلابة لكي أواجه ايجيات».

٩- وفي اللحظة التي انتهى فيها من صلاته هذه، وقف الجلادون الذين أرسلهم ايجيات الكافر، في البوابات. وتعالى صخبهم أمام المنزل الذي توقف فيه اندراوس المغبوط. فقبضوا على أنتيفانوّس الذي استضاف عبد الرب، وجرّوه وهم يقولون: «لقد أدخلت إلى بيتك غريباً ساحراً مشعوذاً ومنافقاً، حطم الآلهة، وهدم المعابد، لقد قدمت له

الكثير، فدمر مدينتنا ومعابد آلهتنا. فسلّمنا الآن عبد المصلوب، الذي اسمه أندراوس. لأن ايجيات الحاكم العظيم المجيد يأمر أن يمثل أمام عينيه». وفي لمح البصر كانت المدينة كلّها قد تجمعت أما بيت انتيفانوس وأخذت تصرخ بأعلى صوت: «لقد أرسل قيصر الحاكم ليضع حداً للأشرار ويشجع الأبرار. إننا نريد أن نعرف لماذا يغضب ايجيات على عبد الرب؟ لأن اندراوس بالنسبة إلينا معلم ورسول للإله غير المرئي».

١٠- وبينما كانوا يصرخون بهذا كله، خشي المغبوط اندراوس من أن تتطور الأمور إلى الأسوأ ويقبض الحشد على رسل إيجيات، فخرج من المنزل ووقف في وسط الحشد صامتا، ثم أشار بيده. وصعد إلى مكان مرتفع، وفتح فمه ليتكلم، وفي اللحظة عينها هاج الحشد وصاح بصوت واحد: «عظيم إله الغريب الآتي عبر عبده، وأحسن للمسكونين بالشيطان». أما أندراوس فقال: «يا أخوتي، الذين دعيتم بالكلمة، واصطفيتم باسم الإله! ليس الخير فقط في الإيمان بمن أرسلني، بل وفي الموت في سبيله أيضاً. اهدؤوا ولا تصخبوا لكي لا يعاقبونكم كأنكم دعاة عصيان وتمرّد، ومحرضون على الحرب، ومشعلو نار فتنة، ولستم مواطنين شرفاء. افتحوا طريقي إلى ايجيات، فأتنحى أمام الذي يمتلك القوة. لأني إذ أقبل الموت، أخدمكم أكثر بعد أن عرفتم الطريق إلى القيامة». وبالكاد استطاع اندراوس أن يهدئ الحشد بهذه الكلمات، ثم ألقى نفسه بين أيدي الجلاّدين. وهؤلاء وحوش، وليسوا بشراً، أنهم كالذئاب عثرت على حمل ضعيف بديع، فقادوه إلى ايجيات الكافر.

١١- وقال ايجيات إذ رأى اندراوس المغبوط: «قل لي أيها الشخص الغريب عن هذا المكان، وعن هذه العادات، وعن دمنا، من وسوس لك بالمجيء إلى هنا، حيث يحكم قيصر، فحطمت مقدسات آلهتنا؟ لقد عزمت على أن تقدم آخيا كلها إلى مصلوب ما، واستوليت على باترا من غير سلاح».

١٢- فبسط أندراوس المغبوط يديه وقال: «الحق! الحق! إن الإله العظيم الذي أومن به قادني إليك لكي أقذف بقطيع العفاريت إلى الهوّة، وأجعل من كتائب الآلهة دخاناً، ومن أصنامكن كما ترى، لا شيء. انظر إلى ما حصل أيها الحاكم وتقدم نحو إلهي. أدرك هلاك آلهتكم واعترف بإلهي. لأنه كلي القوة، الإله- اللوغوس الذي وضع على الأيونات[1] كلهم. وإذ تلقى من الأب السلطان ليدين الأحياء والأموات، وكونه هو

١- الأيونات: ماهيات كونية ازلية. ورأى الغنوصيون في صوفيا احد الايونات

نفسه إله، اتخذ لنفسه بقدرته جسداً[1] ودخل العالم، واختارنا نحن الرسل، ومنحنا حق أن نمضي إلى الشعوب كلها لكي نبشر باسمه بالتوبة ومغفرة الآثام، ولكي يرجع الجنس البشري عن تعدد الآلهة، ويعترف بوجود إله واحد أحد، يسجد له وحده، ويخدمه وحده. ومن أجل هذا مرسل أنا إليك أنت هنا، حتى إذا قبلت به وآمنت به، نجوت. أما إذا امتنعت ولم تؤمن، فإنك سوف تدان مع الذين تدعوهم آلهتكم».

١٣- لكن إيجيات الكافر سدّ أذنيه ولم يشأ أن يستمع إلى الحكمة الحقيقية، وقال: «إنك مليء لغواً وهراء، اخترعت اسماً غريباً، وتختبر قدراتنا ومواهبنا». وأمر بأن يجلد اندراوس ويصلب على الصليب. أما الرسول المغبوط، فقد قال وهو خارج من عنده: «عظيم أنت يا يسوع المسيح الذي منحتنا سلاحك، وأنرت نفوسنا برحمتك. اقبلني أخيراً للاستقرار الأبدي في مقرك وأرحني من كلّ الأعمال التي لم أنته منها، دمر جسدي لكي تتمكن من أن تمجدك مع الملائكة وتسبحك». ولما دنا من الصليب، صاح الحشد بصوت عالٍ: «محكمة إيجيات كافرة! لقد حكمت بالصليب على الغريب الذي لم يتسبب لأحد بأذى! هذا حكم باطل! اقبض علينا أيها الحاكم، فنحن أخطأنا كثيراً، أما هذا الغريب فهو صديق وصالح»!.

١٤- وإذ وصل إلى مكان الإعدام رأى الخشب المسمر. فابتعد عن جميع الذين كانوا يحيطون بالصليب، وخاطبه بصوت عال قائلاً: أقرئك السلام أيها الصليب، لأنك تجلب السعادة. وأخيراً أتأمّلك، وقد كنت من قبل ملقياً في سكينتك، وها أنت منتصباً تنتظرني وأنا جئت إليك لأني أعرف أنك صليبي. لقد جئت إليك لأنك متعطش لامتلاكي. واعرف ذنبك الذي رفعوك من أجله. لأنك مرفوع في الفضاء لكي تمنح الثبات للمتأرجح. أنت ملتفت نحو السماء لكي يظهر الإنسان- اللوغوس. وأنت تمتد نحو اليمين ونحو الشمال لكي تطرد العداوة وتواجه الخصوم، وتجمع العالم في واحد. أنت مزروع في الأرض لكي تجمع بين ما على الأرض من فوق وفي الأرض من تحت مع ما في السموات. أيها الصليب الذي يصل الكرة الأرضية، المجد لك، تمنح الشكل للهلامي! المجد لك، أنت الذي عاقبت تعاليم تعدد الآلهة بعقاب غير مرئي، وطردت من ابتكرها[2] من بين البشر!

١- يبدو تأثير الغنوصيين واضحاً في عظة اندراوس، فهؤلاء لم يعترفوا بالطبيعة البشرية ليسوع: المسيح- اللوغوس موجود خارج الجسد الذي اختاره لنفسه مؤقتاً.

٢- ربما كان المقصود بالمبتكر، هو الشيطان، الذي ينسب اليه تأسيس عبادة كثرة الآلهة، وكل ما هو «خطأ» في العالم.

المجد لك أيها الصليب الذي حررت الرب، وأخصبت قاطع الطريق[١] رسولاً دعا إلى التوبة، ولم تستخف بقبولنا نحن أيضاً[٢]. ولكني مهما أطلت حديث فإني لن أحيط بالصليب، لكي أنال عليه الحياة، وأتفادى بفضله المصير المشترك. اقتربوا يا من ستحققون سعادتي، يا خدم إيجيات، حققوا المبتغى وابدؤوا تعذيب الحمل، الإنسان للخالق، والروح للمخلص».

١٥- وإذ قال هذا اقترب الجلادون وأوثقوا رجليه ويديه إلى الصليب، لكنهم لم يدقوها بالمسامير. لأن تلك كانت إرادة إيجيات. فقد قرر أن يأخذه عن الصليب حياً بعد أن يهبط الليل ويرميه للكلاب الضارية كي تمزقه[٣]. لكن أربعة نهارات وأربع ليال انقضت ولم ينحل مظهر الرسول، ولم يضعف صوته، ولم تهن أعضاؤه، لم يئن ولم ينتحب[٤]. فسجد الشعب كلّه للرسول ومجّد الإله الذي يمنح العون والقوة لمن يعتمد عليه.

١٦- ولما سمع إيجيات أن أندراوس لا يزال على قيد الحياة، بهت وأسرع إليه. وحينما رأى الرسول إيجيات واقفاً أمامه، قال له بصوت عال: «لماذا جئت إلى من لم يعد تحت سلطتك؟ لماذا تتأمل في مصلوب؟ بماذا يمكنك أن تثير دهشة المكبّل؟ أنقذ روحك! آمن بالمسيح الذي أرسلني! افتح عينيك لتر يسوع القدوس! لأنه هو الذي يكشف لك عن جوهر الروح، فتحوز معرفة الكلمة البدء[٥]. فانبذ الجهل! ولا تخطئ في نواياك، لا تهلك نفسك من أجل أشباح، ولا تحرم روحك النعمة، فلا تدان بسبب العصيان،

١- يقصد به اللص الذي صلب الى جانب المسيح واعترف به، فاكتسب بذلك ثمرة الحياة الأبدية.

٢- تكشف خطبة اندراوس رمزية الصليب التي بدات تنشأ منذ أواسط القرن ٢ م إذ بدؤوا يؤولون الصليب تأويلاً صوفياً، ورمزياً. ومن الواضح تأثير تأملات الغنوصيين على تأويل الصليب في النص الذي بين يدينا، فالغنوصيون استغرقوا في تأويل مغزى الأحرف، والأعداد، والأشكال الهندسية.

٣- نادراً ما كان الرومان يأذنون لذوي المجرمين المصلوبين بدفنهم، فقد كانوا يرمونهم في مقبرة جماعية و يطلقون عليهم الكلاب وتميزت قسوة إيجيات هنا في انه عزم على أن يرمي اندراوس للكلاب وهو حي.

٤- من الواضح حسب هذا المنحول، أن اندراوس لم يعان أيّ آلام، وهو الاعتقاد الذي يرجع إلى أفكار بعض الجماعات المسيحية التي نفت أن يكون المسيح قد تألم على الصليب.

٥- الكلمة البدء= المسيح- اللوغوس

ولا يبتلعك الثعبان، أو تصاد كما يصاد الأسد. إن الحياة تهب عذوبتها في الشجرة[1].

آمن بالمصلوب! إن الصليب بديع لأنه يهب الحياة. وبديع رائع من يعلق على الصليب، لأنه يجندل العفاريت، ويحرر الأرواح، ويدين المتخاصمين. ولكن لماذا أكثر في الحديث؟ أيها المسيح تعال إليّ، فحرر العبد، وأطلق المكبّل، واجعل الزمني سماوياً، من أجل أن يكون خلاص لكلّ من آمن عبري، ومن أجل أن أشهد أنا لحقيقتك الإلهية».

١٧- وبعد إن قال هذا اتجه بفكره إلى الرب وسلم روحه مغبوطة وصرخت الحشود قائلة: «عظيم إله أندراوس! صالح الإله المسيح! أيها المسيح خلصنا مثلما خلصت اندراوس الذي اعتمد عليك!».

١٨- وبعد إن مات الرسول، جاءت زوجة إيجيات مع ستراتوكلس (شقيق إيجيات)، إلى الصليب وفكت الرسول الراقد. ودفناه خارج المدينة. وصارت هي إلى واحدة من المؤمنات بالمسيح، وتركت إيجيات بسبب قسوة روحه، وبطش حكمه. وإذ اختارت حياة السكينة والفضيلة في حب المسيح، عاشت هي مع أخوتها. أما إيجيات الذي أضناه عذاب ضميره، فأفاق ليلة من غير أن يراه أحد، ورمى بنفسه من مكان شاهق فتحطم ومات. وآلت ثروته إلى ستراتوكلس، فباع كلّ شيء ووزعه على المعدمين، واستحق ملكوت السموات.

١٩- لقد اكتملت آلام القديس اندراوس الرسول في اليوم السادس من شهر بيريتّ وفق التقويم الآسيوي، أي في الثلاثين من تشرين الثاني من ملكوت ربنا يسوع المسيح، حسب التقويم الروماني[2].

آمين.

١- في الشجرة، أي في شجرة الحياة، التي يقول سفر التكوين التوراتي إنها تنمو في الجنة. وفي إنجيل فيليبوس يدغم الصليب بشجرة الحياة

٢- يعد الإصحاح ١٩ والأخير، إضافة أدخلت على المخطوط الأصل في زمن متأخر: لأول مرة يدعى فيها اندراوس هنا قديساً، وليس مغبوطاً كما جرى التقليد. كما دعيت أسماء أيام الشهر في التقويم الكلاسيكي الروماني بطريقة مغايرة فقد كان ثمة في كل شهر نقاط تأريخ أساسية: كاليندات (اليوم الأول من الشهر). والنونات (الخامس او السابع من الشهر)، والإيدات (الثالث عشر أو الخامس عشر من الشهر) وكانت الأيام تحدد باليوم الثلاثي من كاليندات الشهر التالي، أو اليوم الثلاثي من الإيدات و.. أما شهر بيريت، فهو شهر إضافي حسب التقويم القمري الشمسي الإغريقي، وكان شهر ميما كتريون هو الذي يوافق شهر تشرين الثاني

أعمال القديس متى الرسول وآلامه[1]

١- في ذلك الزمان كان متّى الرسول القديس والإنجيلي فوق الجبل يمكث في سكينته ويرفع صلواته، وكان يرتدي جبة والحلّة الرسولية. وها هو يسوع يظهر لمتى في صورة طفل من أولئك الذين يغرّدون في الجنة، وقال له: «سلام لك يا متى»!. فنظر إليه متى ولم يعرفه، وردّ السلام قائلاً: «ولك السلام والرحمة أيها الصغير الودود! ولكن لما أتيت إليّ إلى هنا تاركاً أولئك الذين يغنّون في الجنة ويتنعمون! فالمكان هنا خال مقفر ولا أعرف ماذا أقدم لك ضيافة، لأنه ليس معي خبز، وليس في الإناء زيت. وحتى الريح هنا لا تهبّ ولا ترمي عن الشجر أي شيء يؤكل. فأنا صائم منذ أربعين يوماً، ولم أتناول شيئاً سوى الثمر الذي يتساقط عن الشجر، فاقتات به وأشكر ربي يسوع. والآن ما الذي يمكنني أن أقدمه لك أيها الطفل البديع؟ فليس هنا حتى ماء لأغسل به قدميك».

٢- فقال الطفل: «ما الذي تقوله يا متى؟ اعلم أن الحديث الطيب أفضل من لحم العجل، والكلمات الوديعة أروع من أي زرع في الحقل، والقول النقي كعبير الحب، والروح المشرقة أهم من ابتلاع الطعام، أما النظرة الودّية فإنها أكثر عذوبة من العذوبة. اعلم يا متى أني أنا هو الجنّة، وأنا هو المعلم، وجبروت القوى العليا، وأنا تاج العفة، وأنا قوة الذين يرتدعون [عن ارتكاب الآثام]، وأنا إخلاص الحياة الزوجية لمن لا يتزوجون سوى مرة واحدة، وأنا وقار المترملين، وأنا هو حارس الأطفال، وأنا مستند الكنيسة، وأنا مملكة الأساقفة، ومجد الرعاة، وحمد الكهنة. كن إنساناً يا متى، واكتسب صلابة في أقوالك».

٣- وقال متّى: «مظهرك أذهلني أيها الصغير، وكلماتك مليئة بالحياة لأن وجهك حقاً أكثر سطوعاً من البرق، وكلامك رائع. وأنا رأيتك وأنت تشدو (في الجنة) مع الأطفال الذين قتلوا في بيت لحم، لكني أتعجب لماذا نزلت إلى هنا. والآن أنا أسألك أيها الصغير، أين

١ـ لقد ترجمت ا. س سفينسيسكايا هذا النص عن:

Acta Apostolorum Apocrupha, Ed, Lipsius R.a Et Bonnet M. T. 3 Lipsiae 1903

يعد هذا المنحول من حيث محوره تكملة لأعمال اندراوس ومتى في بلاد آكلي البشر الخرافية، إذ نجحا في تحويلهم إلى مسيحيين. وتعد أعمال متى من آخر الأعمال، فقد كتبت في القرن ٤ م: يبدو أن أعمال متى كانت قليلة، لذلك نسبوا إليه العمل في بلاد لا وجود لها.

هيرودوس الكافر الآن»؟ فأجابه الطفل: «بما أنك سألتني، اسمع إذن عن مكان إقامته. لأنه في جهنم، إذ أعدت له نار لا تنطفئ أبداً، جحيم لا قرار لها، مستنقع يغلي ويفور، فيه ديدان لا تكنّ، لأن هيرودوس قتل ثلاثة آلاف طفل سعياً منه ليقتل يسوع الوليد، بدء كل الأزمنة، لأني أنا والدهم. أما الآن يا متى فخذ عصاتي وأقمها أمام بوابات الكنيسة التي أسستها أنت واندراوس. وإذ تقيمها تغدو في الحال شجرة كبيرة وعالية غصونها كثيرة تمتد على ثلاثين ذراعاً، وثمار كلّ غصن متمايزة من حيث شكلها وطعمها، وسوف ينبثق من قمة الشجرة عسل، وينبجس من جذورها ينبوع يزوّد المحيط كلّه بالماء، وسوف تعوم في الماء كائنات حية. ويغتسل فيه آكلو البشر ويأكلون من ثمر الشجرة عنباً وعسلاً. وعندئذٍ سوف تتغير أجسادهم وتغدو كأجساد البشر الآخرين. وسيشعرون بالخجل من عريهم فيتحولون إلى ارتداء الملابس المصنوعة من صوف الأغنام، ويمتنعون عن أكل النجاسات. وستكون لديهم النار وافرة لإعداد الذبائح، وسوف يخبزون الخبز عليها، وسيرى كلّ منهم الآخر في هيئة بشرية، وسوف يعرفونني ويمجدون أبي السماوي. والآن، أسرع يا متى وانزل لأن الخروج [خروجك] من الجسد في النار قد بات قريباً والإكليل مجرب».

٤- وبعد أن قال الصغير ما قاله، وأعطى العصاة إلى متى صعد في السموات. ونزل متى عن الجبل وأسرع إلى المدينة. وبينما هو يحث الخطى نحو المدينة قابلته تولفانا زوجة الملك، وابن الملك وزوجته هرفا الذين كان يسكنهم روح شرير. فصاحوا بصوت عال: «من جاء بك ثانية إلى هنا يا متى؟ ومن أعطاك هذه العصا لهلاكنا؟ لأننا نرى الطفل يسوع ابن الإله الذي إلى جانبك. لا تذهب إلى هناك لكي تقيم العصاة من أجل قوت آكلي البشر وتغييرهم يا متى. لأني أعرف ما الذي سيفعلونه بك. لأنك طردتني من المدينة وحرمتني من أن أشبع رغبتي بين هؤلاء الآكلي البشر، فاعلم أني سوف أحرض الملك ضدك، وسيرمي بك في النار حياً». ولكن متى وضع يده على كل من المسكونين بالشياطين وأرغم هذه الأخيرة على أن تحلق بعيداً. وشفى الناس. ثم سار هؤلاء خلفه.

٥- ولما صارت أعماله معروفة، وسمع الأسقف أفلاطون بوصول الرسول متى القدّيس، خرج ومعه الأكليروس للقائه. فخرّوا أمامه وقبلوا قدميه. لكن متى أنهضهم وسار معهم إلى الكنيسة، ويسوع الصغير إلى جانبه يسير معه. وإذ وصل متى إلى أبواب الكنيسة، صعد إلى حجر عال راسخ، وانتظر حتى اجتمعت المدينة كلها، والأخوة المؤمنين أولاً، ثم شرع يتحدث: «أيها الرجال والنساء الذين حضروا أمامنا، وكانوا يؤمنون من قبل

بالشر، إلا أنهم أدركوا الآن ذلك الذي خلق الكون نفسه؛ وكانوا إلى هذا اليوم يعبدون ساتيروس ويقدمون مثالاً للسخرية بسبب العشرة آلاف إله باطل، فأدركوا اليوم الإله الواحد بفضل يسوع المسيح، الإله الذي نبذ الشرّ بالمطلق وأقام الحب والتعلق بالناس الذين كانوا في يوم ما غرباء عن المسيح، لكنهم الآن يبجلونه كربّ إله، اعلموا أن العصاة التي بين يدي هذه قد أعطاني إياها المسيح الذي تؤمنون به وسوف تقيمون على إيمانكم هذا. واعلموا ما يجب أن يتحقق الآن عبري، بل أدركوا عظمته التي من أجلكم أنتم. لأنني سوف أقيم العصاة في هذا المكان، وسوف تكون آية للأجيال كلّها، إذ تغدو شجرة كبيرة متفتحة مزهرة، ثمارها رائعة وبهجة للعين، وسيفوح عبيرها، وتلتف حولها دالية عنب مليئة بالعناقيد، وسيتدفق العسل من قمتها، وتكون ملجأ آمناً لكل طير، وسوف ينبجس من جذورها ينبوع ماء يستقي منه المحيط كله، وتعوم فيه وتزحف شتى المخلوقات المائية».

٦- قال هذا، ودعا باسم الرب يسوع، غرز متّى العصاة في الأرض، وما لبثت هذه أن تضاعفت أذرعاً؛ وغدا منظرها غير عاديّ. لأنه بعد أن تنامت العصاة، وعلت إلى فوق تحوّلت إلى شجرة كبيرة، كما تكهّن متّى. وقال الرسول: «ادخلوا الينبوع واغسلوا أجسادكم بمائه، ثم تذوقوا ثمار الشجرة وعنبها وعسلها، واشربوا من ماء الينبوع، وستصبحون مثل باقي الناس. وبعدئذٍ ادخلوا الكنيسة فتدركون أنكم آمنتم بإله حقيقي حي». ولما فعلوا هذا كلّه، رأوا أنهم باتوا يشبهون متّى. وإذ دخلوا الكنيسة سجدوا ومجدوا الإله. ولما تغيروا ألفوا أنفسهم عراة، فخفوا إلى بيوتهم ليستروا عريهم، لأنهم خجلوا به.

٧- وبقي متّى وأفلاطون في الكنيسة، فقضيا الليل يسبحان الرب. وبقيت معهما زوجة الملك، وابنه وزوجته، وقد توسلوا الرسول أن يمنّ عليهم ببركة المسيح. فقال متّى لأفلاطون، وتقدم هذا ومنحهم المعمودية في ينبوع الشجرة باسم الأب والابن والروح القدس. ثم عادوا إلى الكنيسة ومنحوا سرّ يسوع (الأفخارستيا) وفرحوا الليل كله مع الرسول. فكل من كان في الكنيسة أدى طول الليل ترانيم تسبح الرب وتمجده.

٨- ولما انبلج الفجر، خرج متّى المغبوط ومعه الأسقف أفلاطون ووقف عند المكان الذي أقام فيه العصاة. ورأى أن العصاة قد تحولت إلى شجرة عملاقة تحيط بها دالية عنب ويسيل العسل من أعلى قمتها إلى جذورها. وكانت الشجرة بديعة متفتحة كشجر الجنة، وثمة ينبوع يتفجر ماء عند جذورها، فيسقي الأرض كلها، أرض ميرنا. وتراكض الناس من كلّ مكان يأكلون من ثمر الشجرة وعنبها كلّ قدر ما شاء.

٩- وعندما نقلت أخبار كل ما حدث إلى القصر، وأخذ الملك تولفان علماً بما فعله متىّ مع زوجته وابنه وكنته، فرح لأنهم تطهروا، بيد أنه لمّا رأى أنهم لصيقون بالرسول لا يفارقونه، جن جنونه وعزم على أن يميت الرسول حرقاً بالنار. وفي الليلة التي قرر فيها الملك أن يقبض على متّى، ظهر يسوع للرسول وأنبأه: «أنا معك دوما يا متّى، لكي أخلصك. فكن قويّاً!».

١١- ولكن الملك الذي نوى الشر لمتّى ورأى أن المؤمنين قد باتوا كثراً، وجد نفسه في وضع صعب. وفي تلك الأثناء كان الروح النجس الذي طرده متى من زوجة الملك وابنه وكنته قد اتخذ صورة جندي ووقف أمام الملك وقال له: «أيها الملك، لماذا أنت تتحمل الأذى من هذا الغريب والمشعوذ؟ أفلا تعلم أنه كان عشّاراً، وإنه بات الآن يدعى رسول يسوع الذي صلبه اليهود؟ إذن، فاعلم أن زوجتك وابنتك وكنتك قد خضعوا لإرادته وآمنوا به، وهم ينشدون معه في الكنيسة. والآن يخرج متى ومعه أفلاطون إلى البوابات التي تدعى بالبوابات «الثقيلة». فأسرع وستجدهما، ويمكنك عندئذٍ أن تفعل ما تراه بهما».

١٢- ولما سمع الملك ما سمع من الجندي المزيف استعر غضبه أكثر، وأرسل أربعة جنود ليأتوا بمتّى، وقال لهم متوعداً: «إذا لم تأتوني بمتّى فسأحرقكم أحياء، والعقاب الذي أعدّه له سوف يكون من نصيبكم أنتم». فدب الذعر في قلوب الجنود، وانطلقوا مدججين بالسلاح إلى المكان الذي كان فيه متى والأسقف أفلاطون، ولما وصلوا إلى المكان سمعوا صوتيهما، إلاّ أنهم لم يروا أحداً فعادوا وقالوا للملك: «إننا نقسم لك أيها الملك أننا ذهبنا إلى المكان ولم نجد أحداً، لكننا سمعنا أصواتاً فقط». وزاد غيظ الملك أكثر، فأمر بإرسال عشرة جنود آخرين من أكلة البشر إلى هناك، وقال لهم: «امضوا إلى هناك بحذر، ومزقوهما أحياء، وكلوا متّى وأفلاطون الذي معه». ولكن لمّا دنا هؤلاء من متّى خفّ الرب يسوع المسيح إلى هناك في صورة طفل بديع بيده مشعل أحرق بناره عيون الجنود[1]. فأنّ هؤلاء ألماً ورموا أسلحتهم وأسرعوا إلى الملك وقد فقدوا نعمة الكلام.

١٣- عندئذٍ ظهر الشيطان الذي كان قد ظهر من قبل للملك في هيئة جندي، ظهر ثانية أمام الملك في الهيئة عينها وقال: «أنت ترى أيها الملك أن الغريب قد سحر جميعهم. فاعلم إذن كيف تستطيع أن تقبض عليه» فأجاب الملك: «قل لي أولاً أين تكمن قوته، وبعد ذلك

١- هنا، كما في عدد آخر من المنحولات، توصف العقوبات القاسية التي كان الأعداء ينزلونها بالمسيحيين. وهو ما يعكس السيكولوجيا الجمعية ويناقض روح المسيحية الأولى.

أخرج إليه بقوى أكبر». فقال الشيطان مرغماً من قبل الملاك: «بما أنك تريد أن تعرف كلّ شيء بدقة، فإنني أقول لك الحق أيها الملك! إن جهودك كلها عبث إذا لم يرغب هو نفسه في أن يسلم نفسه، وأنت لن تستطيع أن تسبب له أيّ أذى. ولكن إذا رغبت في أن تضع يديك عليه، فإنه سيضربك بالعمى، وتشل تماماً، وإذا أرسلت عليه كثرة من الجنود، فإنهم سيصابون بالعمى أيضاً ويعجزون عن الحركة. إننا نحن سبعة أرواح دنسة، سوف نأتي في الحال وندمرك وكلّ قصرك، وندمر المدينة بالصاعقة، ولا نبقي إلا على أولئك الذين يعبدون اسم المسيح المقدس عدونا اللدود. لأن كل مكان تطؤه أقدامهم، لا قوة لنا على البقاء فيه؛ وإذا ما رميته بالنار، فإن تلك النار سوف تكون له كالندى، وإذا ما رميته في الأتون وأغلقته، فإن الأتون يصير له كنيسة، وإذا ما كبلته بالقيود وألقيت به في غياهب السجن، فإن أبواب السجن سوف تفتح له من تلقائها، وسيدخل إلى هناك كلّ من يؤمن بهذا الاسم ويعلن: «إن هذا السجن كنيسة الإله الحيّ، والمأوى المقدس لكلّ من يعيش وحيداً. اعلم أيها الملك أنني قلت لك الحقيقة». عندئذٍ أجاب الملك الجندي المزيف قائلاً: «بما أنني لا أعرف متّى، تعال أنت معي وأرني إياه من بعيد. خذ أيّ ذهب تريده مني واقتله بالسيف، واقتل رفيقه أفلاطون أيضاً». فصاح الشيطان: «أنا لا أستطيع أن أقتله. أنا لا أجرؤ حتى على أن أنظر في وجهه، لأنني أعرف أنه دمر شعبنا كلّه باسم المسيح الذي يظهر عبره».

١٤- فسأله الملك عندئذٍ: «ومن أنت إذن»؟ فأجاب: «أنا الروح الدنس الذي كنت أقيم في زوجتك وابنك وكنتك، واسمي هو ازموداي. وهذا المتّى هو الذي طردني منهم. وانظر الآن، فإن زوجتك وابنك وكنتك معه في الكنيسة. وأنا أعرف أيها الملك أنك أنت أيضاً سوف تؤمن به بعد هذا». لكن الملك قال: «كائناً من كنت أنت أيها الروح الذي يتخذ إهابات مختلفة، فإني أعوذ منك بالإله الذي تقول إن متّى يبشر به، اغرب قبل أن يقع أذاك». وقال الروح إذ حلّق: «أيها الاسم المكنون الذي يجندلنا، أتوسل إليك من أجل متّى خادم الإله القدوس، أن تسامحني، وأنا لن أبقى بعد في هذه المدينة. ابق فيما لك، أما أنا فإلى النار المستعرة أبداً».

١٥- أمّا الملك الذي أذهلته إجابة الشيطان، فقد قضى نهاره كله لا يفعل شيئاً. ولما حل الليل عجز عن أن يغفو، لأنه كان جائعاً. فنهض مع انبلاج الفجر مسرعاً وذهب إلى الكنيسة وبرفقته جنديان فقط، ومن غير سلاح، آملاً أن يقبض على متّى بالحيلة

ويقتله بعد ذلك. وهناك نادى اثنين من رفاق متّى وقال لهما: «اخبرا متّى أني أريد أن أكون تلميذه». وإذ سمع متّى هذا، وكان على علم بغدر الطاغية من يسوع الذي ظهر له وحذره، خرج ممسكاً بيد أفلاطون ووقف عند بوابات الكنيسة.

١٦- فقالا (رفيقا متّى) للملك: «انظر، إن متّى في البوابات!» لكنه سأل: «من هو وأين هو؟ أنا لا أرى!». فقالا: «انظر، ها هو!». فكرر الملك: «لا أرى أحداً»، لأن الرب كان قد سلبه بصره وعندئذٍ أخذ يستغيث: «الويل لي أنا التاعس! أيّ بلوى حلت على رأسي فضرب العمى عيني وشلت أعضائي عن الحركة؟ يا ازموداي، يا بعلزبول، أيها الشيطان! كلّ ما تكهنت به لي حصل معي. لكني أتوسل إليك يا متى، يا خادم الرب، أن تسامحني، فأنت بشير إله صالح! لأن يسوع الذي تبشر به ظهر لي منذ ثلاثة أيام في صورة فتى رائع وأنبأني قائلاً: «بما أنك تقبل النصائح السيئة في قلبك الفاسد ضد خادمي متى، فاعلم أني كشفت له، إنه بفضلك سوف يتخلص من جسده الفاني». ورأيت كيف صعد إلى السموات والآن، إذا كان هو إلهك، إلهاً حقاً، وإذا كان هو نفسه يريد أن يدفن جسدك في مدينتنا شهادة على خلاص الأجيال الآتية، والخلاص من الشياطين، فأنا نفسي أريد أن أدرك الحقيقة، وأن تضع يدك عليّ وتعيد لي بصري». فوضع الرسول يديه على عيني الملك وقال «إيفاتا، يسوع»[1]، وفي اللحظة عاد إليه بصره.

١٧- وأمسك الملك بالرسول، فقاده من يده اليمنى وجاء به حيلة إلى القصر، وكان أفلاطون يمسك بيد متى اليسرى سائراً معه ممسكاً به. وعندئذٍ قال متّى: «أيها الطاغية الغدّار، لقد تأخرت في إنجاز عمل والدك الشيطان». فاشتعل حقد الملك لهذه الكلمات، وعزم على أن يذيق متّى مرارة ميتة شنيعة إحراقه حياً. فأمر أن يأتي إليه الجلادون لكي يقودوه (متّى) إلى شاطئ البحر حيث يعدم المجرمون، وقال للجلّادين: «لقد سمعت أن الإله الذي يبشر به يخلص الذين يؤمنون به من النار. والآن، خذوه ومدّدوه على الأرض، وشدوا جسده، ودقوا المسامير في يديه ورجليه، وغطوه بغطاء مشبع بالدهن، وضعوا فوق الغطاء كبريتاً، وإسفلتاً وقاراً، وقشاً. وهكذا أشعلوه؛ وإذا ما هاجمكم أحد من جنسه، فانزلوا به العقاب عينه».

١٨- لكن الرسول طالب إخوته أن يحافظوا على هدوئهم، لأنهم فرحوا بمرافقته بوداعة وهم ينشدون مسبّحين الرب، لأنهم أرادوا إن يكونوا مؤهلين لكي يتسلموا رفات الرسول.

١- كلمة مقتبسة من قصة انجيل مرقس ابراء الأطرش الألثغ: وضع يسوع اصابعه على المصاب، ومسّ لسانه وقال: «إيفتح»، اي «انفتح».

وحين وصلوا إلى المكان، قام الجلادون كأي وحوش ضارية، فدقوا يدي متّى ورجليه في الأرض بمسامير طويلة. ثم صنعوا كلّ ما أمرهم به الملك، وأشعلوا النار، بحيث انتشرت في كل مكان قريب، إلا أن النار كلها صارت إلى ندى، وفرح الأخوة وصاحوا: «يوجد إله واحد، هو إله المسيحيين الذي أعان متّى، وحافظ على رسوله في النار!». لقد هزّ المدينة كلّها العويل، واندفع الجلاّدون في المقدمة وقالوا للملك: «أيها الملك! لقد أشعلنا النار حاشدين قوة الانتقام كلها، لكن الساحر كان يردها داعياً المسيح ومستدعياً صليبه، أما المسيحيون الذين أحاطوا به، فقد كانوا يلعبون بالنار، فدخلوا فيها حفاة وهم يهزؤون بنا، فخجلنا وتركنا المكان هاربين».

١٩- عندئذٍ أمر الملك كثرة (من الخدم) أن يحملوا جمراً مستعراً من مواقد الحمامات وتصاوير الآلهة الاثني عشر الذهبية والفضية. وقال: «ضعوها حول الساحر لكي لا يسحر النار التي من موقد القصر». وكان هناك كثير من الجلادين والجنود: بعضهم حمل الجمر، وبعضهم حمل تماثيل الآلهة. وسار الملك معهم مبدياً كل انتباه كي لا يسرق المسيحيون إلهاً من الآلهة ويسحروا النار. ولما دنوا من المكان الذي كان الرسول مسمّراً فيه (رأوا)، وجهه متجهاً نحو السماء، وجسده كلّه مغطى بالغطاء، وكمّاً كبيراً من القش اليابس فوقه يصل علوّه إلى عشرة أذرع. فأمر الملك بأن ينصب الآلهة حول متّى على بعد خمسة أذرع ويثبتوا جيداً كي لا يقعوا، ثم أمر برمي الجمر وإضرام النار في كل مكان.

٢٠- أمّا متّى فقد تطلع إلى السموات وصاح: «ادوناني، ايلوي، سافاأوف، مرماري، مرمونت[1]»، ومعناها: «أيها الإله الأب، أيها الرب يسوع المسيح، أطلقني ودمر آلهتهم التي يسجدون لهم، ولتطارد النار الملك إلى قصره من غير أن تهلكه، إذ ربما يتوب ويرجع». ولمّا رأى الملك ناراً شاهقة العلوّ، ضحك بصوت عال، إذ ظنّ أن متّى قد احترق وقال: «هل جلب سحرك لك نفعاً؟ وهل يستطيع يسوعك الآن أن يساعدك؟».

٢١- لكنه ما أن نطق بهذا حتى وقعت معجزة رهيبة: تحرّكت النار وتحرك الخشب الملتهب عن متّى، وغطت النار آلهتهم، فلم يعد الذهب ظاهراً، ولا الفضة ظاهرة، وأسرع الملك

١- الأسماء الثلاثة الأولى، هي أسماء الإله التوراتي: ادوناني= ربيّ، إيلوي= إلهي! (انظر مرقس) أوسافاأوف= ربّ القوات؛ لكن هذه الأسماء لا يسمى بها يسوع. أما الكلمتان الأخيرتان فلا معنى لهما، والغرض من إبهامهما، هو التأكيد على أن متّى كان يملك تعاويذ صوفية مكنونة؛ أما تأويلهما، فإنه اختلاق من قبل مؤلف المنحول.

هارباً وهو يقول: «الويل لي، لقد حطم دعاء متّى آلهتي التي كانت تزن ألف تالانت[1] من الذهب، وألف تالانت من الفضة. كان أفضل لو كان آلهتنا من الحجر والطين، كي لا تكسر ولا تسرق».

٢٢- ولمّا دمّرت النار آلهتهم تماماً، وأحرقت عدداً من الجنود، وقعت معجزة أخرى غير عادية: لقد اتخذت النار هيئة تنين مهول أخذ يطارد الطاغية حتى القصر، يدور حوله من كل الجهات، قاطعاً عليه طريق الدخول إلى القصر. فعاد الملك مهرولاً إلى متى والنار تلفّ المكان حوله، وقال مستغيثاً: «إني أتوسل إليك كائناً من كنت، مشعوذاً، أم ساحراً، أم إلهاً، أم ملاك الإله، أنت الذي لم تلمسه هذه النار العظيمة، ابعد عني هذا التنين الرهيب الضاري! انس الشرّ الذي تسببت لك به، مثلما فعلت في تلك المرة عندما أعدت لي بصري». فأطفأ متّى النار بكلمة منه، وصار التنين غير مرئي. وبعد ذلك رفع عينيه إلى السماء، وصلى بالعبرية، ووضع روحه بين يدي الإله وقال: «سلام لك!». ومجّد الإله وسكن عند الساعة السادسة.

٢٣- عندئذٍ أمر الملك الجنود أن يأتوا بسرير فخم من القصر ويضجعوا الرسول عليه ويحملوه إلى القصر. وسجّي الرسول كأنه في نوم عميق، ولم يكن أيّ أثر للنار على ثيابه. وثمة من رآه على السرير حيناً، وسائراً خلف السرير حيناً آخر، أو أمامه حيناً ثالثاً؛ وكانت يده اليمنى على رأس أفلاطون وهو ينشد مع الحشد، أما الملك والجنود فقد أذهلهم ما وقع. وشفي كثير من المرض والمسكونين بمجرد لمسوا السرير. وغدا الذين كانوا من قبل كالوحوش، يشبهون البشر.

٢٤- ولما دخلوا بالسرير إلى القصر، رأى جميعنا كيف ارتفع متّى عن السرير وأُصعد إلى السماء، وطفل بديع يمسك بيده، واثنا عشر شخصاً بثياب متلألئة وعلى رؤوسهم أكاليل ذهبية يستقبلونه. ورأينا نحن كيف توج الطفل متى لكي يصبح كالذين في استقباله، وفي برق الصاعقة حلق جميعهم في السموات.

٢٥- أما الملك فقد وقف في بوابات القصر. وأمر بألا يدخل القصر أيّ كان، ما عدا الجنود الذين يحملون السرير. وأقفل البوابات بالمزلاج، وأمر بصناعة نعش من حديد، ووضع جثمان متّى فيه[2]، وإغلاقه إغلاقاً محكماً. وفي منتصف الليل أخرجوا النعش من

١- التالانت هو وحدة وزن قديمة وكان التالانت الإغريقي= ٢٧ كغ، بينما كان وزن التالانت الفينيقي ٢٥كغ.

٢- ربما كان المقصود هنا أن روح متى أصعدت إلى السماء (في إهاب جسدي)؟، وبقي جسده على الأرض

البوابات الشرقية، ووضعوه في قارب من غير أن يعلم أحد بذلك، ورموا به في أعماق البحر.

٢٦- لقد وقف الأخوة طوال الليل عند بوابات القصر ينشدون. وإذ ظهر الغسق، ودوى صوت يقول: «أيها الأسقف أفلاطون، خذ الإنجيل ومزامير داود واذهب مع أخوتك إلى الجدار الشرقي للقصر؛ فانشدوا هناك هللويا، واقرؤوا الإنجيل؛ وخذوا خبزاً مقدساً، واعصروا ثلاثة أكفّ عنباً في كأس واتحدوا معي، كما أوصى الرب يسوع أن نفعل، عندما قام في اليوم الثالث».

٢٧- فأسرع الأسقف إلى الكنيسة، وأخذ الإنجيل ومزامير داود. ثم جميع الرعاة وكثرة من الأخوة وأسرع معهم إلى السور الشرقي للقصر، عندما كانت الشمس قد صعدت. وإذ طلب من أحد المنشدين أن يقف على حجر ثابت، بدأ هو ينشد المزامير ويسبح الرب: «عظيم في عيني الرب موت قديسيه»، و «أضّجع، فأنام، واستيقظ، لأن الرب يحرسني[1]». واستمعوا إلى إنشاد مزامير داود: أفلن يقوم ذاك الميت من جديد؟ فالرب قال: «أنا سأحييه بنفسي». وأنشد جميعهم هللويا! أما الأسقف فقد كان يقرأ الإنجيل ويهلك قائلاً: «المجد لك أيها المجد في السموات وعلى الأرض!» ثم أعدوا وليمة مقدسة لمتّى، وتشاركوا النعم المقدسة لسر المسيح الطاهر المحيي، ومجدوا الإله.

٢٨- كانت الساعة قد قاربت السادسة، وكان أفلاطون يرى صفحة البحر على امتداد ميل تقريباً، واعلم، تصوّر! لقد كان متّى واقفاً على المياه، وعلى جانبيه اثنان في ثياب متلألئة، وأمامهم طفل بديع. وقد رأى الأخوة كلهم هذا. وسمعوا كيف كان أولئك يردون: «آمين، هللويا». وكان يمكنك أن ترى كيف صار البحر كالحجر الشفاف. والطفل يقف أمامهم، وكيف انبثق من أعماق البحر صليب، ارتفع على طرفه نعش فيه جثمان متّى، وفي ساعة رفع الصليب وضع الطفل النعش على الأرض أمام السور الشرقي للقصر، حيث أعد الأسقف تقدمات مقدسة لمتّى.

٢٩- ولما رأى الملك هذا كله من شرفات قصره العليا، أخذ منه الخوف كل مأخذ. فخرج من القصر وهرع نحو الشرق حيث كان النعش مسجّى قبل قليل، وسقط على الأرض أمام الأسقف والرعاة والكهنة؛ فأقر بذنوبه وأعلن توبته وندمه قائلاً: «إني أؤمن حقاً بالإله الحقيقي يسوع المسيح، أتوسل أن تمنحني معمودية المسيح، وأنا أعطيك قصري كوصية لمتّى، وأنت تمنحني المعمودية، وتشركني في الأفخارستيا المسيحية». فرفع

١- نصّان من المزامير التوراتية.

الأسقف صلاة وأمر الملك أن يخلع ثيابه، ثم تفحصه طويلاً[1]، أما الملك فقد بكى ندماً على أفعاله. ثم رسم الأسقف علامة الصليب عليه، ومسحه بالزيت وأدخله ماء البحر باسم الأب والابن والروح القدس. ولما خرج الملك من الماء، أمره الأسقف أن يرتدي ثياباً فخمة، وعندئذٍ رفع صلوات الشكر، وأعد الخبز المقدس وكأس النبيذ ثم قدمها للملك وهو يقول: «فليكن هذا جسد المسيح ودمه الذي أريق من أجلنا، مغفرة لخطاياك، ولعودتك إلى الحياة». وسمع صوت من الأعالي يقول: «آمين، آمين»!. وبعد أن أشرك الملك في النعم المقدسة في حالة من الرهبة والفرح، ظهر الرسول وبشره قائلاً: «أيها الملك ثولفان، لن يكون اسمك بعد اليوم ثولفان، إنما سوف تدعى من الآن باسم متّى. وأنت يا ابن الملك سوف تدعى متّى أيضاً، وأنت يا زوجة الملك تدعين صوفيا، وسوف يكون اسم هيرفا زوجة ابنك من الآن، هو سيونيسيس[2]. وسوف تكتب أسماؤكم هذه في السماء، وسوف تفرحون بذريتكم من جيل إلى جيل». وفي الساعة عينها جعل الرسول الملك راعياً، وكان له من العمر سبعة وثلاثون عاماً؛ وجعل ابنه كاهناً، وكان له من العمر سبع عشرة سنة؛ كما جعل من زوجة الملك راعية، ومن زوجة ابنه كاهنة، وكان لها من العمر سبع عشرة سنة أيضاً[3]. وعندئذٍ باركهم وقال: «فلتكن بركة الرب ورحمته معكم إلى الأبد».

٣٠- وبدا حينئذٍ كأن الملك قد أفاق من حلم، فابتهج مع جميع أفراد بيته بظهور الرسول متّى، وشكر الرب. ولمّا عاد الملك إلى القصر حطّم الأوثان كلها، وأصدر أمراً لكلّ من يعيش في مملكته كتب فيه: «سلام الملك متّى إلى كلّ الذين يعيشون في مملكتي، عندما ظهر المسيح على الأرض وخلّص الجنس البشري كلّه، ظهر أن الذين كنا ندعوهم آلهة، هم منافقون، يحطمون الأرواح، ويضمرون الشرّ للناس. وبما أن الرحمة الإلهية أظهرت نفسها وراء حدودنا، ثم منحت لنا بعد ذلك فأدركنا بطلان الأوثان، لأنها باطل وخداع؛ فقد رأينا أنه من الصحيح ألاّ يكون هناك كثرة من

١- من الواضح أنه كان ظهر في زمن وضع هذا المنحول، المعتقد الذي يقول بوجود علامات خبيثة («شيطانية») على جسد الشخص، ولذلك تفحص الأسقف جسد الملك ليتأكد من نقائه.

٢- الاسمان الأخيران هما اسمان رمزيان: صوفيا= الحكمة، وسيونيسيس= الفطنة.

٣- لقد كان محرماً على النساء أن يصرن راعيات، ولذلك فإن واقع الحال يتوافق أكثر مع نصٍ في مخطوط آخر دعيت فيه زوجة الملك كاهنة (في القرن٤م كان لا يزال للكاهنات وجود في بعض مناطق الشرق).

الآلهة، بل إله واحد أحد في السموات. وعندما يصلكم أمرنا، اعملوا بموجبه وكسروا الأصنام إلى نتف ودمروها. وإذا ما تبين أن أحداً ما يسجد لها أو يحتفظ بها، فليعاقب بالموت بحدّ السيف. السلام والخير لكم، لأني أنا أعيش فيهما».

٣١- وبعد أن بات هذا الأمر معروفاً، ابتهج الناس كلهم وهللوا، وهبوا يحطمون تماثيل الآلهة وهم يصخبون قائلين: «إله واحد في السموات يمنح الخير لكل الناس!».

وإذ حدث هذا كله، ظهر متّى رسول المسيح للأسقف أفلاطون وقال له: «أفلاطون، يا خادم الإله وأخانا، اعلم أنك بعد ثلاث سنوات سوف ترقد بالرب، وسوف تقيم في غبطة إلى دهر الدهور؟. وسوف يصبح الملك الذي منحته اسمي، أسقفاً، وبعده ابنه». وبعد أن قال: «السلام لك ولكل القديسين»، أصعد إلى السماء.

٣٢- وعندما تمت السنوات الثلاث، رقد الأسقف أفلاطون بالرب. وتقلد الملك السيامة الأسقفية، وتنازل عن العرش لآخر. ومنح السلطة لطرد الشياطين، فشفى كثيرين. وجعل من ابنه راعياً، ثم صار هذا أسقفا بعده.

٣٤- لقد أنهى القديس متّى طريقه في بلاد آكلي البشر، في مدينة ميرنا، في اليوم السادس عشر من تشرين الثاني من عهد ملك الرب يسوع، المجد له الآن وكلّ أوان وإلى دهر الداهرين!

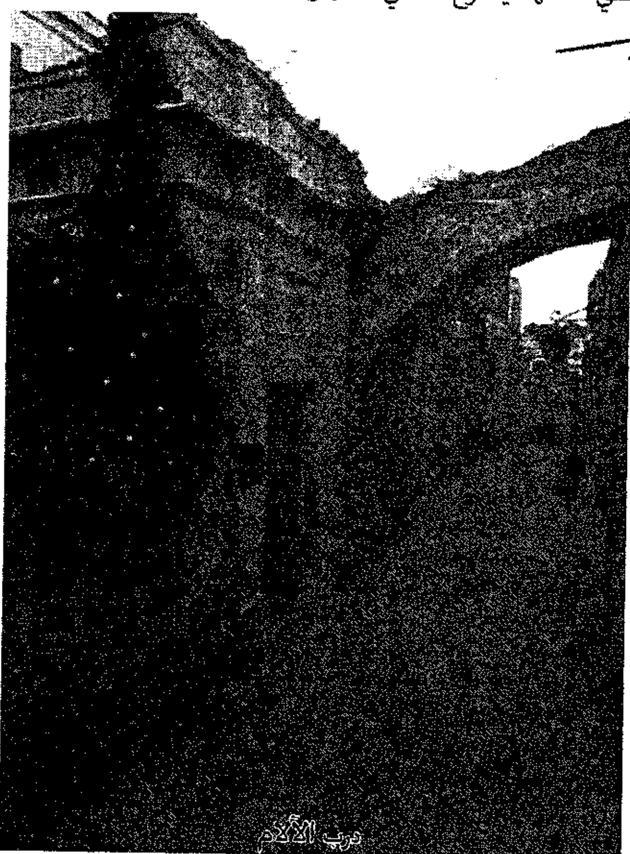
آمين.

الأماكن المسيحية في فلسطين

أورشليم

درب الآلام

لقد ظهرت تسمية درب الآلام (أو شارع مسير الصليب)، في القرن ١٦م. هكذا دعوا تلك المسافة من الطريق التي قطعها يسوع محني الظهر تحت ثقل صليبه، من قلعة أنطونيوس إلى الجلجثة.


درب الآلام

وهذه القطعة من الطريق ليست دقيقة الآن بالمقارنة مع تلك التي سار عليها يسوع فعلاً في حينه. فلم يبق الآن من قلعة أنطونيوس الواقعة في الزاوية الشمالية - الغربية من المعبد، مقر الملك هيرودوس سابقاً، سوى بقايا أرض المقرّ. وهنا مثل المسيح أمام بيلاطس، وهنا أدين وحكم عليه، ومن هنا سار على طريقه الأخيرة إلى الجلجثة، التي كانت تقع زمنئذٍ خارج أسوار المدينة.

وها كم أكثر أماكن هذا الدرب قدسية:

دير الجلْد. حسب الرواية أن بيلاطس حقق مع يسوع هنا. وفي الوقت الحاضر يعود هذا الدير إلى أخويه الفرنسيسكان، حيث يبدؤون مسيرة من هنا في كل يوم جمعة. وتوجد داخل الدير الآن ثلاث نوافذ زجاجية حديثة تحمل لوحات تمثل: المسيح يتلقى الآلام مقيداً إلى عمود (في الوسط)، وبيلاطس يغسل يديه «من دم هذا الصدّيق (على اليسار)، وخلاص بربارا (على اليمين). وهناك على قبة المذبح إكليل شوك مذهب مرصع بالنجوم.

القنطرة «Esse Homo» في درب الآلام. من القرن ١٦م أخذ الحجاج يدعون هذه القنطرة بالكلمات التي قالها بيلاطس للحشد لدى تقديمه يسوع: «Esse Homo» (= «هذا الإنسان»). وفي واقع الحال أن الحديث يجري عن جزء من قوس النصر الذي بني في العام ١٣٥م بأمر من هادريان تخليداً لذكرى الاستيلاء على القدس. وكانت هذه القنطرة في حينه قنطرة مركزية: كان الباع الجنوبي للقنطرة الذي لم يعد له وجود الآن، يقع في داخل مجلس الدراويش المسلمين، بينما لا يزال باعها اليميني ظاهراً حتى الآن في مصلّى كنيسة الأخوات الصهيونيات.

المصلى الصغير ، بناه جنود كاثوليك من الحامية البولونية، وهو يدل اليوم على المكان الذي سقط فيه يسوع أول مرة تحت صليبه. والمصلّى اليوم بين يدي بطريرك الأرمن الكاثوليك.

المصلى الصغير ذو النقش البارز ، الذي بناه النحات البولوني زيلينسكي علامة على المكان الذي قابل فيه يسوع والدة الإله.

ويتبين من نقش محفور على واحد من أبواب بناء في درب الآلام أن سمعان القيرواني قد حمل صليب المسيح من هذا المكان حتى الجلجثة. وهذا ما تؤكده الأناجيل كلّها ما عدا إنجيل يوحنا، الذي لم يشر إلى الحدث.

المكان الذي قابل فيه يسوع فيرونيكا. ويقع قبر فيرونيكا هذه في داخل كنيسة صغيرة.

وفي المكان الذي يتقاطع فيه الدرب مسير الصليب مع شارع تجاري صاخب، يقوم عمود في المكان الذي وقع المسيح فيه ثانية تحت صليبه.

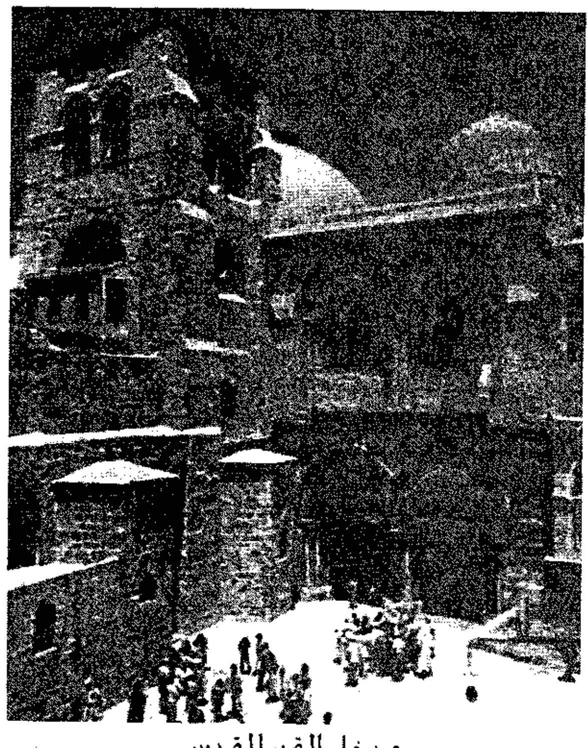
الصليب الذي حفر ليخلد ذكرى لقاء يسوع والنسوة العفيفات

وهناك صليب صغير محفور على سور دير اليونانيين، ليذكر بمشهد لقاء يسوع بالنسوة العفيفات: «لقد توجّه يسوع إليهن مخاطباً: لا تبكيني يا بنات أورشليم، بل ابكين أنفسكن وأولادكن» (لوقا).

العمود الروماني، يقع غير بعيد عن مدخل الدير الابيسيني، ويدلّ على المكان الذي سقط المسيح فيه تحت صليبه للمرة الثالثة.

القبر المقدس

القبر المقدّس، هو المكان الأكثر قدسية في أورشليم، يثير مشاعر مكنونة لدى أي زائر مهما كان انتماؤه الديني. ويتداخل هنا في هذا المكان، التاريخ مع الأسطورة، والرأفة الإنسانية مع الإيمان الديني. وكل من يزور هذا المكان يعيش حالة انفعالية شديدة، وقلقاً روحياً كبيراً إذ يرى الكنيسة المفتوحة أمامه.



مدخل القبر المقدس

وفي زمن ما كان هذا المكان يقع خارج أسوار المدينة، لأنه كان المكان الذي يجري فيه تنفيذ أحكام الإعدام. ولا ريب في أنه كان أكثر علواً، لكي يدب الذعر في نفوس السكان الذين يشاهدون عن بعد التاعسين المحكومين. وقد دعي المكان بالجلجثة، وهي تسمية مشتقة من كلمة «جُلْجُلة»، ومعناها «التل الجمجمي»؛ فشكل هذا التل كان يشبه شكل الجمجمة فعلاً، زد إلى هذا أن الخرافة تقول إن جمجمة آدم كانت مدفونة

هنا. وفي العام ١٣٥م رأى الإمبراطور هادريان أن هذا التلّ بالذات هو المكان الأكثر ملائمة لبناء ساحة وكابيتوليا حيث كان يجب أن تقام طقوس عبادة الثالوث جوبتر، وجونو، وفينوس. فعلى هذا النحو أراد هادريان أن يهين شعور المؤمنين اليهود، الذين واصلوا تبجيل باقي الأماكن المقدسة بعد تدمير معبد أورشليم. ولحسن الحظ أن هادريان لم يقتلع صخور المكان التي كانت محفورة فيها المقابر، واكتفى بردم الحفر حتى صارت على مستوى الأرض، فجمع لذلك كماً كبيراً من التراب اللازم لعملية الردم، وعلى هذا النحو نشأ تلّ كبير من الردميات، شكّل أساساً لبناء المعبد الكابيتولي، وأنقذ القبر من الفناء. ففي العام ٣٢٥م كانت يلينا والدة قسطنطين الكبير، ومعها الأسقف مكاريوس على ثقة راسخة بأنهما عثرا على قبر المسيح تحت معبد الكابيتول هذا. وسرعان ما كشفت أعمال التنقيب التي بدأت بأمر من الإمبراطورة، عن قبر المسيح، وقد كان القبر شبه سليم تقريباً، وعثر في مكان غير بعيد عن القبر، على صليب يسوع، وصليبيّ اللصين اللذين صلبا معه. فأمر قسطنطين بأن تبنى في المكان أول كنيسة، وبدأ العمل ببنائها في العام ٣٢٦م، وانتهى في العام ٣٣٥م. وبناء على أمره نقلت من المكان كلّ الكتل الصخرية، ما عدا كتلتين: واحدة من الجلجثة أقيم في مكانها صليب توجّ بكأس النعمة، والثانية من قبر المسيح أحيطت بمنشأة دائرية كبيرة. هاتان الصخرتان اقتلعتا من مكانيهما الأصل وأبقي عليهما هناك. ودعي المعبد باسم أناستاسيس، ومعناها: القيامة. ولكن الدير دمرّ في العام ٦١٤م على أيدي القوات الفارسية.، وبعد خمسة عشر عاماً أعيد بناؤه في عهد الأباتي موديستوس. ولكن الخليفة الحاكم بأمره سواه بالأرض في العام ١٠٠٩م.

وعندما دخل الصليبيون المدينة في ١٥ تموز من العام ١٠٩٩م، ورأوا الكنيسة على الصورة التي بناها بها قسطنطين مونوماخ، عبروا عن إعجابهم بجمالها، لكنهم رأوا أنها ليست عظيمة إلى الحدّ اللائق بأن يدفن فيها جسد المخلّص. فأدخلوا عليها تحسينات جوهرية، وزخرفوها زخرفة فخمة، وفي العام ١١٤٩م كرسوها. وبقيت في صورتها الجديدة تلك حتى العام ١٨٠٨م عندما دمر حريق كبير القسم الأكبر منها.

ويتوزع القبر المقدس بين ست طوائف دينية: الطائفة الكاثوليكية والطائفة اليونانية الأرثوذكسية، والطائفة الأرمنية (بين أيدي هذه الطوائف دائرة واسعة من المكان)، والطائفة القبطية، والطائفة السريانية، والطائفة الابيسينية (يقع دير هذه الأخيرة على سطح الكنيسة).

الجلجثة

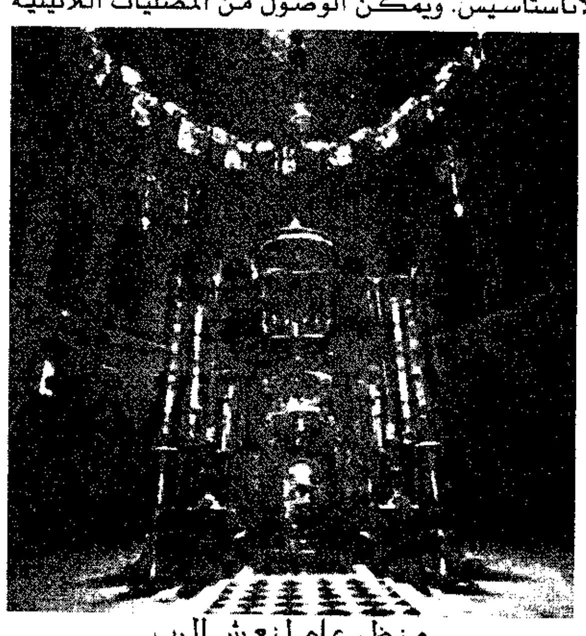
تقع على الجلجثة التي يقود إليها الآن سلّم منحدر، كنيستان صغيرتان: إحداهما رومانية كاثوليكية، والأخرى يونانية أرثوذكسية. ويقف الحجاج في الكنيسة الرومانية عادة، أمام يسوع العاري والمسيح المعلق على الصليب. أما في الكنيسة الإغريقية فيأتي المؤمنون إلى رسم ليسوع الميت على الصليب. وتقع تحت الصليب قمة صخرة تقول الحكاية إن الصليب قد نصب فوقها. وعلموا هذا المكان بعلامة فضية. ويقوم بين الكنيستين رسم يدعى Stabat Mater (= الأم الباكية)، يخلد ذكرى أحزان الأم بعد موت ولدها.

حجر المسح

هو حجر كلسي عادي وردي اللون، يرمز عند الشعوب اللاتينية إلى المكان الذي نضحوا فيه جسد يسوع «بسبعة طيوب والندّ» بعد إنزاله عن الصليب، وهنا أيضاً بكت أُمّ الإله ابنها قبل أن يحملوا جثمانه إلى القبر.

قبر الرب

تقع هذه المنشأة في وسط الاناستاسيس. ويمكن الوصول من المصليات اللاتينية إلى كنيسة صغيرة تتألف من منطقتين: الأولى هي مصلى الملاك، وتحفظ في وسطها كسرات الصخرة التي تقول الحكاية، إن الملاك كان يجلس عليها عندما وصلت النسوة إلى القبر الفارغ. أما المنطقة الثانية فهي حجرة صغيرة تدعى «جهنم اركوسوليوم»، وتعد آخر محطة في درب الآلام. وتقع هنا تحت صفيحة من المرمر الأبيض طولها حوالي المترين،


منظر عام لنعش الرب

صخرة بقيت من عهد القبر الجديد الذي كان يقع في بستان يوسف الرامي. وقد علقوا هنا فوق القبر ٤٣ قنديلاً فضياً: ١٣ قنديلاً لاتينياً، ومثلها من القناديل اليونانية والأرمنية، وأربعة قناديل أرمنية. وتغطي أيقونة للعذراء ماريا جزءاً من القبر البسيط المحفور في الصخرة.

الحبس المقدّس

هو مكان ضيق، يدعى أيضاً حبس المسيح، ولكنه في واقع الأمر زنزانة قديمة تجاور ساحة الكابيتول. وحسب الحكاية أن يسوع قضى ليلة في هذا الحبس بعد أن قبض عليه في بستان جشيماني.



المظهر الداخلي لسجن المسيح

كنيسة القدّيسة يلينا

لقد كرست هذه الكنيسة الساحرة لوالدة قسطنطين، التي بفضل إيمانها القوى عثرت على قبر المسيح وصليبه. ويروى أن يلينا كانت تراقب أعمال الحفر والتنقيب عبر الفجوة التي تطل على المذبح الرئيس. وثمة في الكنيسة ثلاثة محاريب، وقبة بناها الصليبيون في العام ١١٣٠م، وترتفع القبة على أربعة أعمدة يرقى تاريخها إلى القرن ١١م. وتقع هذه الكنيسة الآن بين يدي الطائفة الأرمنية.

قبر يوسف الرامي

هـذا هـو المكـان الوحيـد مـن القـبر المقـدس، الـذي يقـع بـين يـدي الطائفـة الابيـسينية. فهـذا القـبر الـصغير المحفـور في قلـب صـخرة، هـو عبـارة عـن مـدفن يهـودي قديم يقع على مقربة مـن قـبر يـسوع. ويوسـف الرامـي، هـو بـدوره «إنـسان صـالح صـديق ينتظــر الملكــوت الإلهــي»، وهــو عــضو الـسيندريون الـذي كـان يملـك الأرض الـتي يقع فيها قبر المسيح.



قبر يوسـف الرامـي

كنيسة القديس مرقس

منـذ القـرن ٧ قامـت في هـذا المكـان كنيـسة أعـاد الـصليبيون فيمـا بعـد ترميمهـا. وتعـد الكنيـسة الآن جـزءاً مـن ديـر الـسريان الأرثوذكس الذي شيد في القرن ١٩م.

كنيسة القديس يعقوب

هي كنيسة الأرمن الأرثوذكس. اكتسبت شكلها الراهن بعد الترميم الذي أجري على بنائها القديم الذي شيد في القرن ١١م. وكانت الكنيسة قد شيدت تخليداً لذكرى آلام يعقـوب الكـبير أخ يوحنـا الإنجيلـي واستشهاده، إذ قطعـت رأسـه في العـام ٤٤م تنفيـذاً لأمـر هـيرودوس أغريبـا الأول، ابـن أخـت (أو أخ - م) هـيرودوس الكـبير. وقـد لاحـق أغريبـا هـذا المسيحيين ونكل بهم طوال فترة حكمه (٤١-٤٤م)، سعياً لكسب ود الكهنوت اليهودي. وثمة في الكنيسة حجارة من أماكن مقدسة عند الإسرائيليين: من جبل سيناء، وجبل تـابور، وضفاف الأردن.

كنيسة القديس يوحنا المعمدان

في القرن ١١م شيّدت الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية المكرسة ليوحنا المعمدان. فوق معبد كان قد بني في القرن ٥م.

وادي قدرون

يكفي أن نلقي نظرة واحدة على وادي قدرون من أعلى الطريق التي تمتد أسفل سهل المعبد، حتى ندرك لماذا كان هذا المكان يقلق قلوب سكان أورشليم منذ أقدم العصور. فصرامة المنظر، وندرة النباتات والقبور المحفورة في قلب الصخور، أو التائهة بين شجر الزيتون، هذا كله يعطي المكان بعداً خرافياً لا واقعياً. ويقول الناس، إن الموتى سوف يبعثون هنا يوم القيامة. وسوف يمتد خيط رفيع من سهل المعبد إلى جبل الزيتون، يمشي الموتى عليه: يصل الصالحون إلى الجهة الأخرى، ويسقط الأشرار في الوادي تحت. تلكم هي الخرافة. أما التاريخ فإنه يشهد على أن هذه المقابر الآثارية تنتمي إلى العصر الهليني، بصرف النظر عن أنهم يدعونها خطأ مقابر الأنبياء. فهنا يقع قبر يهو شافاط، وقبر القديس يعقوب، وقبر زكريا الذي له شكل هرم. أما أعمدة ابشالوم، التي تدعى أيضاً «التاج الفرعوني»، لأن قممها مخروطية الشكل، وترقى إلى زمن المعبد الثاني، فهي تذكرنا بابن داود الذي ثار ضد والده. وحسب سفر الملوك الثاني أن «ابشالوم أقام لنفسه تمثالاً في وادي الملوك، لأنه قال: ليس لي ولد ليحفظ اسمي. ودعا التمثال باسمه. وهو يدعى «تمثال ابشالوم» حتى يومنا هذا».



بانوراما وادي قدرون. تظهر على اليسار أعمدة أبشالوم. وقبر يعقوب وقبر زكريا

كنيسة قبر والدة الإله

تنتمي هذه الكنيسة من حيث مظهرها إلى زمن الصليبيين (القرن ١١م). وهي الآن بين يدي الطائفة اليونانية الأرثوذكسية. ويقع داخل الكنيسة قبرا والدي ماريا: حنة ويواكيم، وقبر زوجها يوسف. وقبر والدة الإله محفور في قلب صخرة ومزدان بكثرة من الأيقونات، والقناديل الثمينة واللوحات. وقد شقت في صفيحة القبر ثلاثة ثقوب كبيرة تمكن المؤمنين من ملامسة السطح الداخلي لقبر ماريا. ولكن ينبغي ألا ننسى أنه ثمة قبر آخر لمريم في أفَسُس، في تركيا (هناك رواية تقول، إن يوحنا الرسول أخذ أم يسوع معه إلى أفَسُس وهناك توفيت).

جثسيماني - كنيسة الأمم

لقد اشتقت تسمية جثسيماني من الكلمة العبرية جات شيمين، ومعناها «بستان معصرة الزيتون». ففي هذا المكان صلى يسوع ليلاً قبيل إلقاء القبض عليه. وبني هنا في القرن الميلادي الرابع معبد، وسِّع فيما بعد وتحول إلى دير للصليبيين. وقد بنى الكنيسة الحالية المزدانة بموزاييك واسع، الإيطالي أنطونيو بارلوتسي في الفترة العامين ١٩١٩ و١٩٢٤، على أنقاض المنشاة القديمة. ورسمت على سقف الكنيسة من الداخل شعارات الأمم التي ساهمت في ترميم المكان المقدس، وثمة في أرض الكنيسة أمام المذبح إكليل شوك من الحديد المطوي، يحيط بكسرة من الصخرة التي تقول الراوية إن يسوع صلى عليها. ويصور الموزاييك الذي فوق المذبح، المسيح في آلامه، وعلى الجانبين لوحة موزاييك أخرى تصور مشهد قبلة يهوذا واعتقال يسوع.



كنيسة جثسيماني

قبر البستان

ويدعى أيضاً جلجثة موردون، وهو اسم الضابط الإنكليزي الذي اكتشفه من فوق مرتفعات بوابات دمشق. ويحتوي هذا المكان الوعر في محيط البستان على قبر قديم يرى فيه كثير من المسيحيين القبر الحقيقي الذي دفن فيه يسوع. وإذا نظرت إلى التل من مختلف الزوايا، فسوف ترى أن له فعلاً شكل الجمجمة. ضف إلى هذا أن كثيراً من خصائص المكان الأخرى مثل وجود خزان كبير، ومعصرة عنب، وقرب المكان نفسه من بوابات المدينة، يرغم كثيرين على الاعتقاد بأن هذا المكان هو البديل الفعلي للقبر المقدس.

قبر أليعازر

يقول إنجيل يوحنا: «كان أليعازر الذي من بيت عنيا مريضاً، وهو من القرية التي كانت تعيش فيها ماريا ومرثا أختها.. وكانت بيت عنيا قريبة من أورشليم. ولا تبعد عنها سوى خمس عشرة مرحلة». وتدعى بيت عنيا اليوم عازارخ، وهي تسمية عربية أخذت من العازارية القديمة التي كانت هنا في الزمن البيزنطي. وبقيت حتى يومنا هذا آثار ثلاثة مصليات كانت قد شيدت في الأزمنة القديمة تخليداً لذكرى واحدة من أشهر معجزات يسوع. ويمكن الوصول إلى قبر أليعازر الذي يقع اليوم بين أيدي المسلمين، عبر سلم منحدر مؤلف من ٢٤ درجة كانت قد قدّت منذ القرن ١٧م: هنا سجّي جثمان أليعازر الذي أقامه يسوع بكلمة منه.



قبر أليعازر من الداخل

كنيسة الصعود

يقول الإنجيل إن يسوع ظهر لأتباعه بعد أربعين يوماً على قيامته، وقادهم إلى جبل الزيتون، «وبعد أن باركهم، أخذ ينفصل عنهم ثم أصعد إلى السماء» (لوقا). وبذا تكون قد انتهت حياة المسيح على الأرض. وتخليداً لذكرى تلك المعجزة، شيدت في المكان كنيسة. ومنذ القرن ١٢م وقعت هذه بين أيدي المسلمين، الذين يرون في يسوع واحداً من الأنبياء العظام.

وقد طرأت على الكنيسة تبدلات مهمة. فبنيتها الأولى كانت على شكل رواق دائري قناطره مفتوحة. ومع ذلك كانت تحفظ في المصلّى صخرة عليها بصمة قدمين تقول الحكاية إنهما أثرا قدمي يسوع لحظة صعوده إلى السماء.

كنيسة القديس بطرس

يذكّر الاسم الذي أعطي لهذه الكنيسة بالمشهد الذي أنكر فيه بطرس معلمه ثلاث مرات. وقد كرست الكنيسة الحالية في العام ١٩٣١م، وهي الآن تابعة لأخوية الرقاد الكاثوليكية، وكانت قد شيدت على أنقاض بازيليكا بيزنطية. وقد افترض بعض العلماء، أن منزل قيافا رئيس الكهنة، كان يقوم في هذا المكان عينه، لكن هذه الفرضية لم تحظ حتى الآن بأي دليل. وكانت تمتد هنا كذلك طريق جميلة تقطعها درجات سلم المكابيين، الذي كان يصل في القرن ١م، جبل صهيون بوادي قدرون.



كنيسة القديس بطرس

الوليمة

يحفظ جبل صهيون الواقع جنوب غربي المدينة القديمة، واحدة من أهم ذخائر المسيحيين. فمنذ أقدم الأزمنة المسيحية شاع رأي يقول، إن العشاء السري الذي أقر أثناءه سر الأفخارسيتا، قد جرى هنا في هذا المكان.

وبعد سبعة أسابيع، ظهر هنا أيضاً الروح القدس لماريا والرسل في اليوم الثالث. والمكان عبارة عن قاعة تتميز بجملة من القناطرة وكانت القاعة شيدت في زمن الحملات الصليبية. وفي القرن ١٥م استولى المسلمون على جبل صهيون وحولوا الكنيسة إلى مسجد، وحرموا على المسيحيين واليهود دخولها طوال خمسة قرون تقريباً.

كنيسة الرقاد

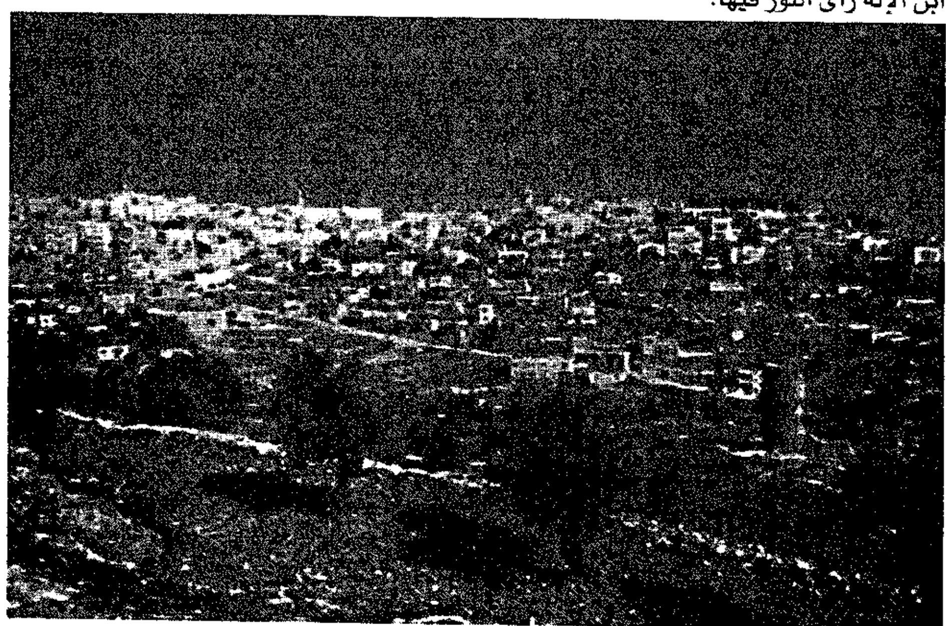
لقد بنيت هذه الكنيسة البينيدكيتية في الفترة بين ١٩٠٠ و١٩١٠م، وفق تصميم وضعه هنريخ رينار وفق الأسلوب الروماني بأجراسه المقببة، وشيدت الكنيسة في المكان الذي تقول الرواية، إن والدة الإله رقدت فيه. وفي ديماس الكنيسة تمثال مريم مستلقية في رقادها الأخير.



ديماس فيه تمثال لماريا الراقدة في كنيسة الرقاد

بيت لحم

تنتشر بيت لحم على تل يقع على بعد عدة كيلومترات عن أورشليم. ولاسم هذه المدينة معنيان: «بيت الخبز» (من العبرية بين ليخيم)، و «بيت اللحم» (من العربية بيت لحم). وتمتد حول بيت لحم مراع شاسعة يسرح فيها الرعاة بقطعانهم. ويحمل أحد هذه المراعي اسم «شيفردس فيلدس» (=«حقل الراعي»، لأن الملاك بشر هنا حسب الحكاية، بولادة يسوع. لقد كانت هذه المراعي شاهدة على حياة الرغد، وقصة الحب الشهيرة بين بوعوز وراعوث، التي رواها لنا سفر راعوث التوراتي. وابن راعوث من ذلك الزواج، هو عوبيد جد داود. وداود كما هو معروف أول ملك يهودي عظيم، وكان قد ولد في بيت لحم قبل ألف عام من مولد يسوع. وهكذا فإن بيت لحم المقدسة بالنسبة لليهود، باتت أكثر قدسية بالنسبة للمسيحيين، لأن ابن الإله رأى النور فيها.



بانوراما بيت لحم المعاصرة

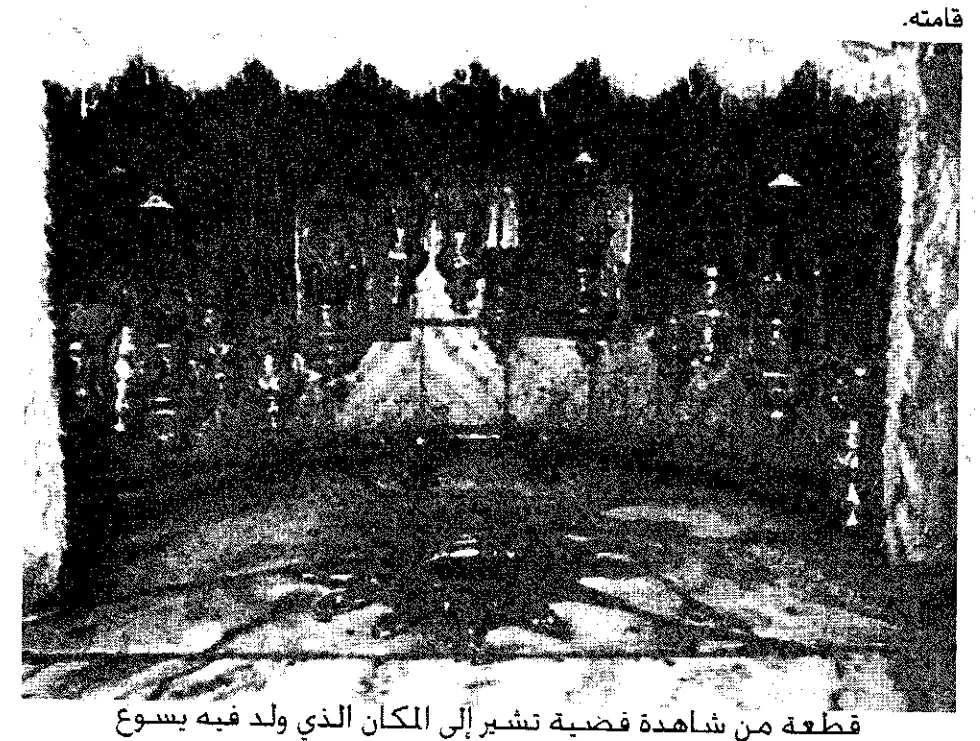
«في تلك الأيام أصدر قيصر أغسطس أمراً بإجراء إحصاء في كل الأرض» (لوقا). ومن المعروف أن فرض الضرائب كان من أهم وظائف الإدارة الرومانية، وكان الغرض الرئيس للإحصاء الذي أجري في عهد أغسطس، عندما كان والي مقاطعة سوريا، هو بوبليوس

سولبيوس كويرينوس، هو جباية الضرائب والرسوم من السكان. وبما أن القانون كان يفرض على كل مالك أن يعلن عن الأرض التي يملكها لكي يصار إلى مسحها وتقدير الضريبة المفروضة عليها، فقد اضطر يوسف أن يسافر من الناصرة إلى بيت لحم حيث مسقط رأس العائلة، وحيث كانت له أملاك (على ذمة المؤلفة. فلو كان ليوسف أي أملاك، أو حتى أقارب في بيت لحم لما اضطرت مريم لأن تضع مولودها يسوع في مغارة أو مزود حيوانات أو..-م) «ومضى يوسف كذلك من الجليل، من مدينة الناصرة، إلى اليهودية، إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم، لأنه كان من بيت داود وسلالته، لكي يسجل مع ماريا التي كانت مخطوبة له زوجة، وكانت حاملاً. وبينما كانا هناك حل ميعاد وضعها، ووضعت ابنها البكر، وقمطته ووضعته في المزود، لأنه لم يكن لهما مكان ينزلان فيه» (لوقا). على هذا النحو وصف لوقا الحدث الذي قضى ببدء العصر الجديد. ولا يزال تاريخ مولد يسوع غير محدد تحديداً دقيقاً حتى الآن: يرى الكاثوليك الرومان أنه ولد في ٢٤ كانون الأول من العام ٥ (أو العام ٤ حسب معطيات أخرى)، ويرى اليونان الأرثوذكس أنه ولد في ٦ كانون الثاني، أما الأرمن فيؤكدون أنه ولد في ١٨ كانون الثاني.

وفي العام ١٣٥م تجاهل الإمبراطور هادريان مشاعر الحجاج الذين كانوا يقدسون هذه الأماكن وكرس الغابة والمغارة لأدون مؤسساً بذلك العبادة الوثنية. وفي العام ٣٣٢م أمر قسطنطين الكبير بقطع الغابة وبناء بازيليكا أشرفت على أعمال بنائها والدته يلينا بنفسها. ولم يبق من تلك البازيليكا سوى البنية الأساسية، أي أقسام الكنيسة الخمسة التي تفصل بينها أربعة أنساق من الأعمدة يبلغ عددها أحد عشر عموداً، وكذلك جزء صغير من أرضية من الموزاييك. وبعد حوالي القرنين من تكريسها دمرت البازيليكا، ثم أعاد جستنيان بناءها، وأضاف إليها ثلاثة محاريب، وسلمين جانبيين يؤديان إلى مغارة الميلاد. وفي العام ٦١٤م نجت البازيليكا بأعجوبة من الاجتياح الفارسي، إذ توقف الغزاة أمام اللوحة الموزاييكية التي كانت تزين واجهتها وفيها يظهر المجوس.

مدخل البازيليكا الذي يدعى (باب الطاعة)

وفي العام ١١٠١ توج بلدوين الأول في هذه البازيليكا ملكاً، وبعد عشرين عاماً توج بلدوين الثاني وزوجته فيها. ثم تلا ذلك عصر طويل من الانحطاط. وفي العام ١٦٤٦م صهر الأتراك رصاص سقف البازيليكا واستخدموه لصب المدافع. وإلى الزمن نفسه يرجع تاريخ القرار الذي اتخذته الطوائف المسيحية بتضييق الباب الذي يؤدي إلى داخل البازيليكا، كي لا يدخل إليها الكفرة ممتطين صهوات خيولهم. ولا يتجاوز ارتفاع هذا الباب المتر الواحد والعشرين سنتمتراً، وهو يدعى «باب الطاعة»، لأن أحداً لا يستطيع أن يعبره إلا إذا أحنى قامته.



قطعة من شاهدة فضية تشير إلى المكان الذي ولد فيه يسوع

مغارة الميلاد

تعد المغارة الآن من أملاك الطائفة اليونانية الأرثوذكسية، وتمثل مكاناً صغيراً له جدران مغطاة جزئياً بالمرمر. وثمة في المغارة محراب صغير فيه مذبح مولد المسيح يزينه خمسة عشر قنديلاً فضياً تعود ملكيتها لمختلف الطوائف المسيحية، وقد علقت القناديل فوق نجمة فضية تشير إلى المكان الذي ولد فيه الطفل. وقدت على النجمة كلمات لاتينية معناها: «هنا ولدت العذراء ماريا يسوع المسيح». وعلى جانبي المغارة محرابان صغيران متواجهان. أحدهما محراب المزود الذي وضع فيه يسوع الطفل فور ولادته. وكانت

القديسة يلينا قد عثرت هناك على مزود طيني كان المؤمنون يسجدون أمامه، فاستبدلت به مزوداً فضياً. ومقابل هذا المذبح يقوم مذبح المجوس الذين سجدوا في المكان عينه ليسوع الطفل.



مغارة الميلاد مع مذبح ميلاد المسيح ومذبح المزود

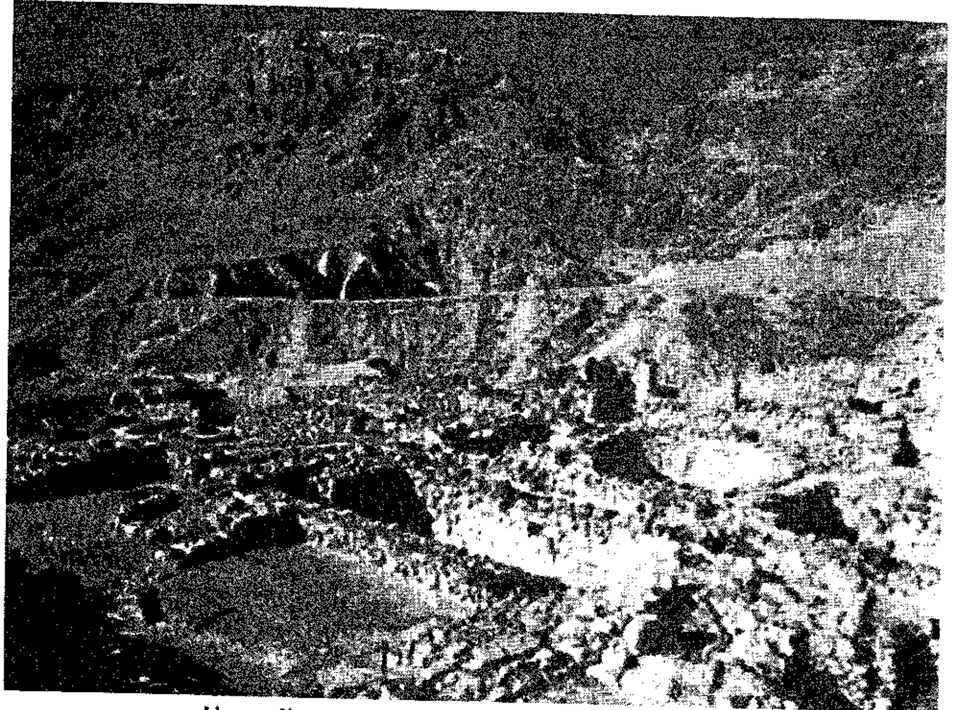
وتتصل مغارة الميلاد بجملة من المغارات الأخرى التي يمكن الوصول إليها عبر كنيسة القديسة كاترينا التي بناها الفرنسيسكان في العام ١٨٨١، وفيها يقيمون كل عام قداس الميلاد الذي ينقل عبر الأقمار الصناعية إلى شتى أرجاء العالم المسيحي.

ويروى أن القديس هيرولام قد أقام ٣٥ عاماً: من العام ٣٨٥ إلى العام ٤٢٠، في واحدة من هذه المغارات؛ وكان هيرولام هذا من كبار العارفين باللغات الإغريقية، واللاتينية، واليهودية، والآرامية. وخلال إقامته تلك التي امتدت حتى مماته، أنهى ترجمته للتوراة التي عرفت بالفولغاتا.

وأقيم لهيرولام هنا تمثال يقوم في رواق بديع داخل الدير، مزدان بالزهور والنخيل، ويرجع تاريخه إلى زمن الصليبيين.

خربة قمران

على الشاطئ الشمالي الغربي للبحر الميت تقع الآن أطلال مستوطنة رهبانية كان يقطنها ممثلو طائفة اليسيين اليهودية خلال الفترة من القرن ٢ق.م حتى العام ٦٨م، عندما استولى فوج فسباسيان على المنطقة وطرد أتباع الطائفة منها. فتخفى كثير منهم في مسعدة وعاشوا مشاعة في تلك الأماكن، ملتزمين قواعد وطقوساً تشبه شبهاً عجيباً نمط عيش الجماعات المسيحية الأولى. لقد قضى مبدأ اليسيين بنمط عيش متقشف تقشفاً صارماً بعيداً البعد كله عن ترف أورشليم. لقد رحل أتباع «معلم الحق» وهي التسمية التي تسمى اليسيون بها، إلى البراري لكي يعيشوا عيشة فقر وشح متقاسمين ثمار عملهم مع أخوتهم في الطائفة. وكانوا يتطهرون بمعمودية الماء وطقوس الاغتسال الأخرى، ويدرسون الكتب المقدسة ويعملون الفكر فيها منتظرين النهاية الوشيكة لهذا العالم.



أطلال مستوطنة قمران على مقربة من البحر الميت

وكانت الوليمة في الطائفة مشتركة تشبه الفعل المقدس شبهاً كبيراً، فقد كانت قاعة الوليمة تطهّر بالماء، وكان هذا أمراً فريداً من نوعه، إذا ما أخذنا بالحسبان الجفاف الاستثنائي الذي تتميز به المنطقة التي اختارها اليسيون لعيشهم. ولكن سكان قمران القدماء أحسنوا تنظيم أمورهم في هذا الميدان: لقد بنوا منظومة خزانات وأنابيب تحمل المياه إلى حجر البناء كله، وكانت الخزانات تغذى بدورها بوساطة أنابيب تنقل الماء من المرتفعات الغربية، ويمكن للمرء أن يميز بين أنقاض المستوطنة مختلف ضروب المنشآت والحجر التي أعدت لتلبية هذه أو تلك من حاجات الطائفة: مطابخ، وحوانيت ومبنى إداري كبير أو مكتبة، كانت تعد فيها اللفائف الشهيرة التي عثر عليها في المغاور المجاورة، وهناك أيضاً قاعة الوليمة المشتركة التي نوهنا إليها أعلاه، وبعض ورش الحرفيين التي كانت تصنع فيها الأواني الضرورية لحاجات الطائفة. وتثير الاهتمام أيضاً قصة المخطوطات التي اكتشفها أحد الرعاة مصادفة في العام ١٩٤٧م، في مغارة تقع غير بعيد عن المستوطنة. وانطلقت إثر تلك اللقية أعمال البحث في المغارات المجاورة وأسفرت عن العثور على حوالي ست مائة مخطوطة بينت الدراسات فيما بعد أنها تنتمي إلى العصر الذي كانت مكتبة اليسيين هذه موجودة فيه. لقد كانت لفائف المخطوطات محفوظة في جرار فخارية مغلقة بإحكام، كما كانت كل لفيفة ملفوفة بقطعة من الكتان، الأمر الذي يدل على أن الذين خبّؤوها سعوا إلى المحافظة عليها لزمن طويل. ولكن اللفائف التي عثر عليها في المغارات المجاورة لم تحظ بمثل هذه العناية الدقيقة نفسها، الأمر الذي يوحي بأن اليسيين أعدوها على عجل بسبب اضطرارهم إلى الفرار من المكان. ويبدو أن ذلك قد حدث إبان الانتفاضة الفلسطينية في العام ٦٦م. وتعد المخطوطات التي وضعت باللغة العبرية واللغة اليونانية الآرامية أقدم بألف عام من أقدم نسخ العهد القديم المعروفة قبل العام ١٩٤٧. فهذه المخطوطات تحتوي على نصوص الكتاب التوراتي اليهودي كلها (ما عدا سفر استير)، وعلى نصوص قانونية، ونصوص العهد القديم المنحولة، وبعض المؤلفات التي وضعها القمرانيون أنفسهم ووصفوا فيها معايير الطائفة ومبادئها ومقولاتها.

القيصرية

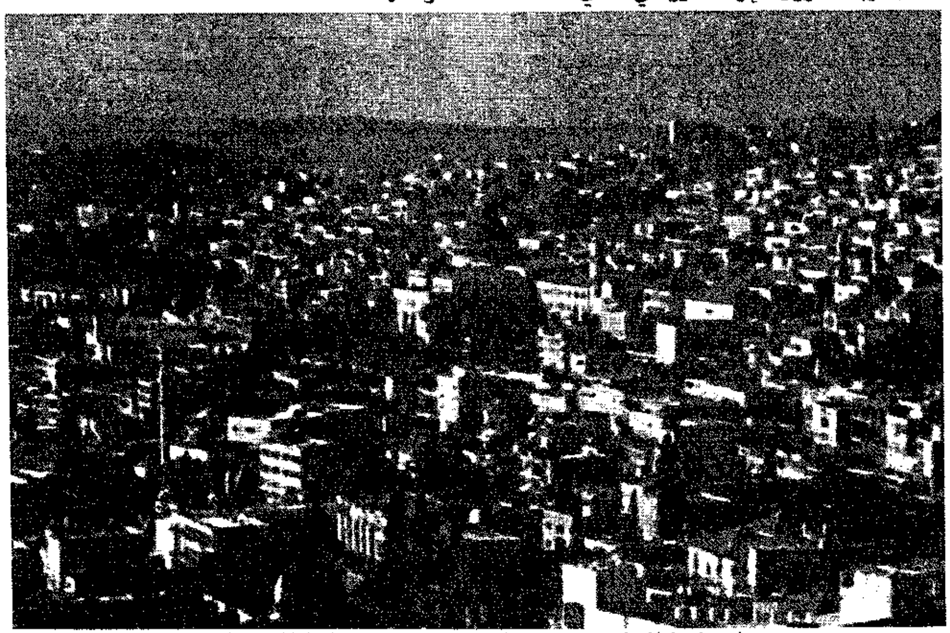
يذكرنا اسم هذه المدينة بالفخامة التي بنيت فيها عشية بدء التأريخ الميلادي، إذ بناها هيرودوس الكبير على شرف قيصر وزينها، وزخرف أبنيتها بالمرمر، والتماثيل البديعة، إلا أنه لم يبق من هذا كله حتى الآن سوى أطلال. لقد كانت القيصرية مقر الحكام الرومان. وتعاقبت عليها شعوب كثيرة، وحكام كثيرون، فقد عدت المدينة ذات أهمية إستراتيجية كونها تقع على مقربة من شاطئ البحر: بدءاً من الفينيقيين الذين كانوا أول من أسس قاعدتهم هنا في القرن ٤ق.م، وصولاً إلى الصليبيين الذين نزلوا في تلك الأماكن في العام ١١٠١، وحولوها بعد سلسلة من الأحداث المتعاقبة إلى مدينة عسكرية محصنة. ولا تزال أسوار الملك الفرنسي لودفيغ التاسع، وأطلال القلعة حتى يومنا هذا تشهد على الماضي الذي ارتبط بالرهبان المقاتلين الذين أعادوا للمسيحية من هذه الأماكن كأس غرآل المقدسة، التي تقول الحكاية إن المسيح استخدمها ليلة العشاء السري لإقامة سر الافخارسيتا. وعلى هذا النحو فإن المدينة غنية بتقاليد مجيدة، وذكريات عن ماض بطولي، لكنها في الآن عينه مطرح للأحزان والخوف: بعد انتفاضتي العامين ٦٦م و١٣١م في فلسطين، ألقي بآلاف الناس على مسرح القيصرية الرحب، وأطلقت عليهم الوحوش الضارية.



المنطقة الآثارية في القيصرية

الناصرة

يعني هذا الاسم من جملة ما يعنيه باللغتين العربية والعبرية: «المؤيدة، الحارسة و...»، وإذا كان اسمها قد أشار في بادئ الأمر إلى الدور الاستراتيجي لهذه المستوطنة التي تقع على مرتفع جبلي يمتد منه مدى مفتوح على وادي عزرلون، فإنه اكتسب بعد ذلك مغزى آخر مختلف. فقد اقترن اسم الناصرة بعد ذلك بذاك الدور الذي خصها التاريخ به، إذ غدت حافظة التقاليد المسيحية تحت رقابة عين الآباء الفرنسيسكان التي لا تغمض؛ فقد أدار هؤلاء على مدى أربعة قرون الإرث الروحي الذي كانت الناصرة مهده.



بانوراما الناصرة، وتظهر فيها بازيليكا البشارة

وبصرف النظر عن كون هذه الأرض كانت مسكونة منذ أقدم الأزمنة، إلاّ أن القرية التي انصرمت فيها طفولة المسيح بقيت زمناً طويلاً فاقدة كل أفق يبشّرها بأن تتحول إلى مدينة. ولكن، مع وصول الصليبيين في العام ١٠٩٩م، صارت الناصرة مقراً للأسقفية، ومركزاً إدارياً لإقليم الجليل كله. ثم طرد الصليبيون من المدينة وعادوا إليها مرات؛ وفي العام ١٢٦٣ دمّرها الأتراك، وقد أهملت منذئذٍ وحتى القرن ١٧. ومع عودة الفرنسيسكان إليها في القرن المذكور، أخذت الحياة تدب في المكان من جديد، وشرع المسيحيون يتوافدون للعيش فيه.

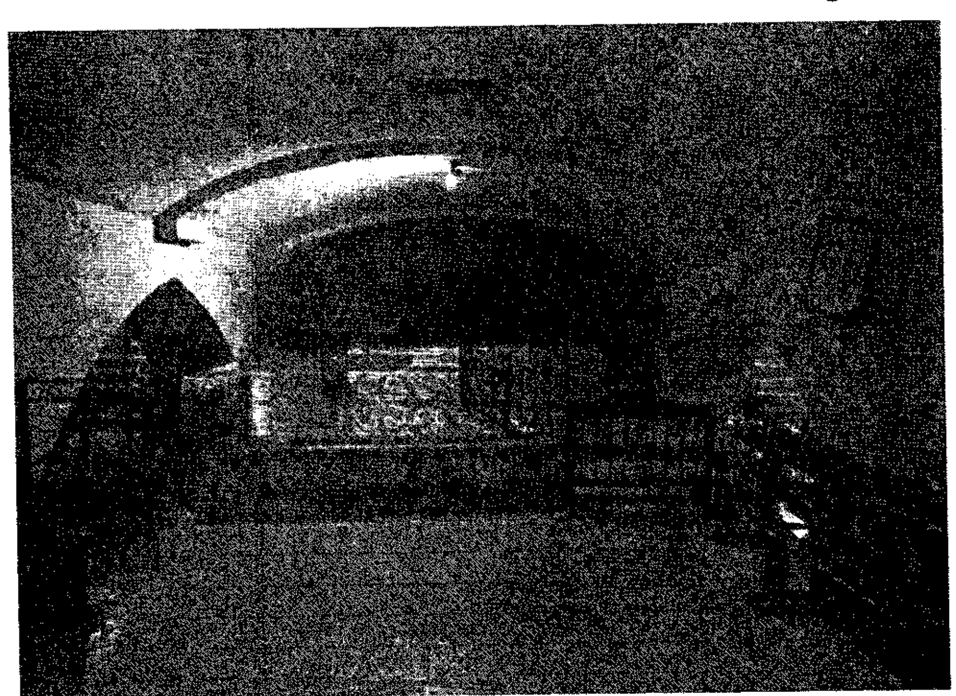
والناصرة اليوم من حيث تركيبتها الاثنية - الدينية، مدينة متنوعة جداً: إضافة إلى العرب المسلمين واليهود، الذين يعيشون معزولاً أحدهما عن الآخر عملياً (يعيش العرب في المدينة القديمة، واليهود في الأحياء جديدة). هناك أيضاً المسيحيون العرب، واليونان الكاثوليك الملكيون، واليونان الأرثوذكس، والرومان الكاثوليك، والمارونيون، وسوى ذلك من الطوائف التي لكل منها مطارحه المقدسة.

وأكبر كنائس المدينة هي بازيليكا البشارة التي شيدت على المغارة الخرافية التي سمعت فيها ماريا جبرائيل يبشرها بقرب صيرورتها أماً. والحديث يجري هنا عن المبنى الخامس الذي بني في هذا المكان المقدس تخليداً لذكرى الحدث الأثير لدى المسيحيين. ويرجع تاريخ أول مبنى في البازيليكا إلى العام ٣٥٦م، وحسب الرواية أن يلينا والدة قسطنطين أشرفت بنفسها على بنائه. وبعد ذلك بنى البيزنطيون، والصليبيون، والفرنسيسكان الكنائس الأخرى. وفي العام ١٩٥٥ هدم معبد هؤلاء الأخيرين وبنيت البازيليكا الحالية في مكانه، وقد انتهى العمل في بنائها في العام ١٩٦٩. وفي وسط المحراب الرئيس ينفتح باب يقود إلى مصلى، حيث تقوم هناك مغارة والدة الإله مع عمود تابع لها كتب عليه «آي ماريا»، ويعيّن العمود المكان الذي تقول الحكاية، إن الملاك ظهر فيه.



بازيليكا البشارة

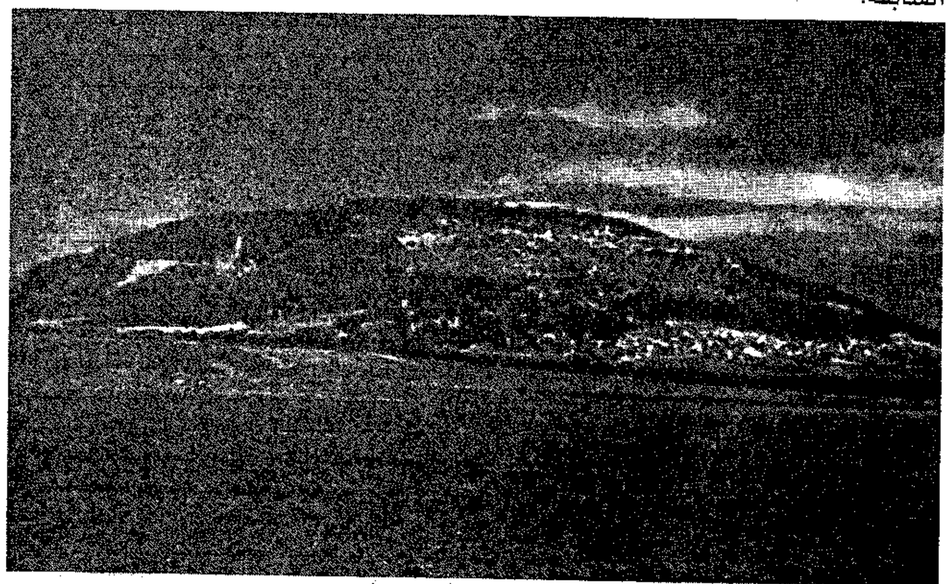
كما تملك آخوية الفرنسيسكان كنيسة القديس يوسف أيضاً، وكانت هذه قد شيدت في المكان الذي يقال إن ورشة يوسف النجار كانت تقوم عليه. ولكن المكان متنازع عليه بين دير النسوة الناصريات ودير القديس غبرييل. وما تجدر الإشارة إليه، هو أن هذا النزاع، ليس النزاع الوحيد. فثمة نزاعات ذات طابع آخر، إذ تشكك في صحة تحديد مكان ظهور الملاك لماريا، كنيسة القديس غبرييل اليونانية الأرثوذكسية التي تقع غير بعيد عن نافورة العذراء، التي تستمد ماءها من الينبوع الذي ينبجس تحت الكنيسة مباشرة (حسب هذه الرواية، أن هذا المكان بالذات، هو المكان الذي ظهر الملاك فيه). ومن المباني الدينية الأخرى التي تستحق الاهتمام: كنيسة الساليزيان التي تعد واحدة من تحف فن العمارة في القرن ٢٠، والمسجد الأبيض الذي بنى على أنقاض كنيس ورد الحديث عنه في إنجيل لوقا، عندما هاجم الحشد يسوع وحاول أن يرمي به من فوق ريف الصخور؛ والكنيسة القبطية، والكنيسة المارونية، والمصلى الذي يحمل اسم: وليمة يسوع.



كنيسة القديس يوسف التي بنيت في نفس المكان المفترض أنه كان يمارس النجارة فيه

جبل تابور (الطور)

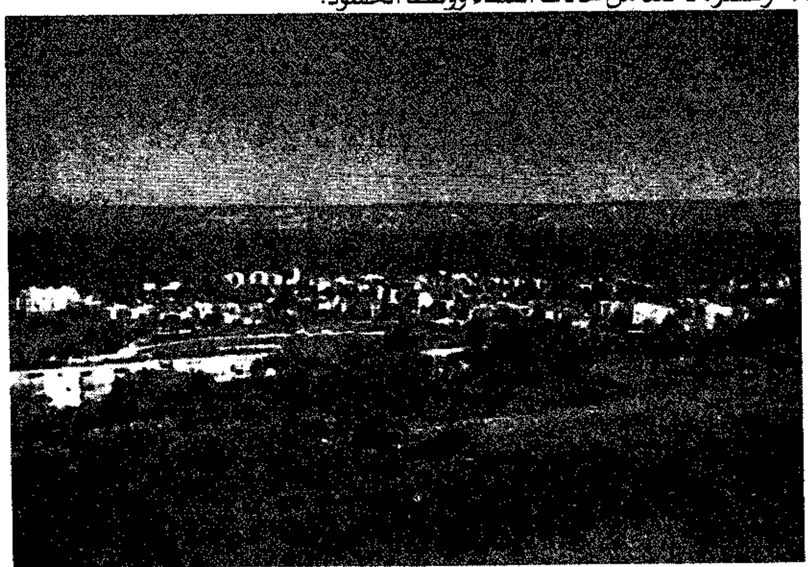
يرتفع في محيط مدينة الناصرة، حيث يبدو أن كل حجر يذكر بالماضي التاريخي والديني، يرتفع جبل الطور، الذي يظهر انتماؤه إلى الذخائر المقدسة في تسميته العربية: جبل الطور، وهو الاسم الذي يرجّع أصداء الديانة الفينيقية القديمة. ويتردد اسم هذا الجبل غير مرة في النص التوراتي، فقد كان الجبل يقع على الحدود بين الأرض التي كانت تسكنها قبيلة زوبولون، والأرض التي تسكنها قبيلة يساكر، والأرض التي تسكنها قبيلة نفتاليم؛ وعلى هذا الجبل أمرت النبية ديبورة باراك أن يجمع عشرة آلاف مقاتل ويهاجم قوات يابين الملك الكنعاني الذي يضطهد أبناء إسرائيل منذ عشرين عاماً (قضاة)، وعن هذا الجبل تحدث أيضاً النبي عوسيا عندما وبخ الإسرائيليين لأنهم تحولوا إلى عبادة الأصنام. وأخيراً حسب الروايات المسيحية، أن الرب تجلى على هذا الجبل، وتخليداً لذكرى الحدث المقدس شيدت في المكان في العام ١٩٢٣ بازيليكا التجلي، وهي آخر سلسلة المباني المقدسة التي كان قد طالها دمار الحروب الدينية التي وقعت في القرون السابقة.



جبل تابور (الطور)

طبريا (بحيرة جينيسارت)

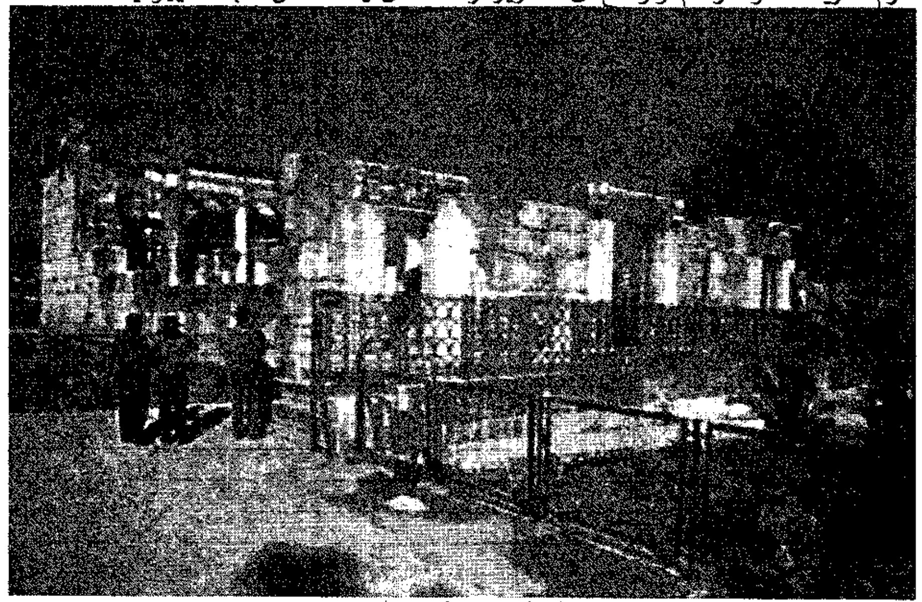
تعد بحيرة طبريا التي انتشرت على شواطئها مدينة تحمل الاسم عينه، بحيرة داخلية ظهرت عند نهاية الزمن الجيولوجي الثالث إثر تبدلات عنيفة في بنية المكان أدت إلى ابتلاع وادي نهر الأردن. وكانت جمالية المكان، ومناخه اللطيف، ووجود ينابيع معدنية علاجية فيه، قد جعلت من هذه المرآة الطبيعية مكاناً للاستشفاء والراحة منذ أقدم الأزمنة. وبحيرة طبريا غنية جداً بالأسماك، ويصل عمق مياهها في بعض الأماكن إلى ٤٩ متراً، كما تعد خزاناً مائياً شديد الأهمية بالنسبة للمنطقة. وكقاعدة يهب على البحيرة في فصل الدفء نسيم هين لطيف، قد يتحول مساء إلى عاصفة، وهذا ما يذكرنا مباشرة بما جاء في الإنجيل عن أن يسوع هدّأ بطريقة عجيبية مياه البحيرة المضطربة: «وها هو البحر يضطرب اضطراباً عظيماً، فغطت الأمواج المركب، وكان هو نائماً. عندئذٍ تقدم تلاميذه وأيقظوه قائلين: يا رب! أنقذنا، فنحن نهلك. فقال لهم: لماذا أنتم هكذا خائفون يا قليلي الإيمان؟ ثم نهض فأمر الرياح والبحر وعم سكون عظيم. فبهت الناس وقالوا: من هذا حتى يطيعه البحر وتطيعه الرياح؟» (يوحنا). ومن المعروف أن شواطئ بحيرة جينيسارت كانت في أحيان كثيرة مكاناً لمواعظ يسوع. ومن السهل أن تجد في الأناجيل كثرة كثيرة من المشاهد التي دارت في هذا المكان (بدءاً من لقاء يعقوب ويوحنا، وسمعان): الصيد العجيبي، وتكثير الخبز، والسير فوق الماء، وكثرة لا تعد من حالات الشفاء ووعظ الحشود.



منظر يطل على طبريا والمكان الذي يخرج فيه نهر الأردن من طبريا

قرياف (كفرناحوم)

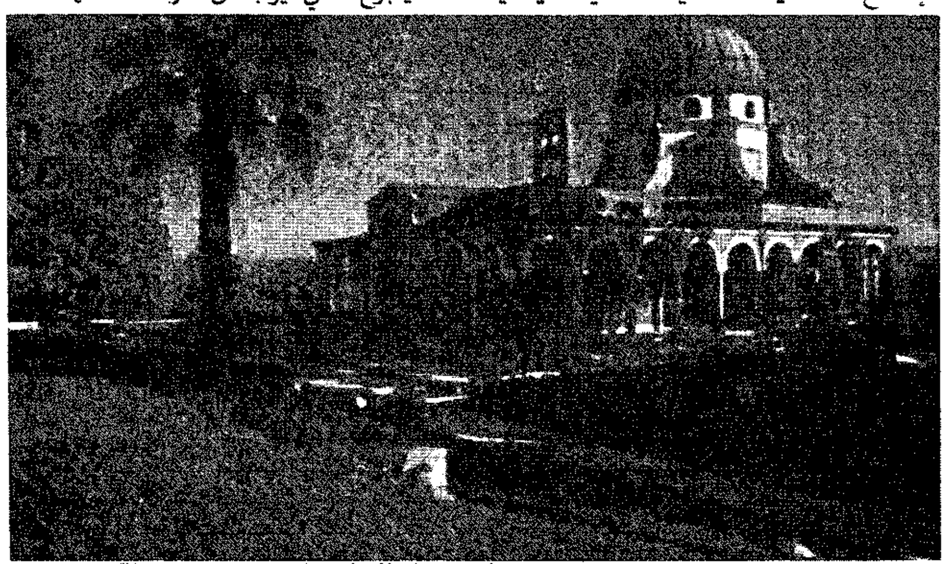
هي المدينة التي أقام فيها يسوع بعد أن ترك الناصرة. وتقع كفرناحوم إلى الشمال من بحيرة جينيسارت، على مقربة مباشرة من طرق القوافل الكبيرة التي تقود إلى سوريا. وتتحدث الأناجيل مرات كثيرة عن هذا المكان، الذي ألقى يسوع فيه مواعظه وصنع عجائبه، ولكن توبة سكان المدينة التي انتظرها يسوع طويلاً لم تحصل: «وأنت يا كفرناحوم، إلى السماء تصعدين، وإلى الجحيم تنحدرين، لأن القوى التي ظهرت فيك لو ظهرت في سدوم لبقيت حتى اليوم على قيد الحياة» (متى). ولم يبق من المدينة القديمة في أيامنا هذه سوى شاهد واحد على تلك الأيام، وهو الكنيس القديم، ومع ذلك ينبغي ألا نخلط بينه وبين المعبد الذي أعطى فيه يسوع إرشاداته الأولى لتلاميذه، ولا بينه وبين الكنيس الذي بناه قائد المئة الروماني الذي شفي خادمه بمعجزة. فكنيس قرياف هذا يرقى إلى القرن ٤م، إلى زمن الإمبراطور يوليان، وينتمي إلى مجموعة كنس الجليل الأعلى التي يرجح أن يكون الحاكم الروماني المحلي قد مول بناءها. وتشهد على صحة فرضية تمويل السلطات الرومانية لعملية البناء تلك، واقعة لا تزال قائمة حتى اليوم، وتتمثل في موضوعات الزخرفة التي زخرفت بها الكنس، وهو أمر غير معتاد عند اليهود، لأن شريعتهم تحرم تحريماً صارماً رسم أو وضع أي تصاوير أو أشكال في أماكن العبادة اليهودية.



بقايا كنيس كفرناحوم

الطابغة

تمثل هذه التسمية نطقاً خاطئاً للكلمة الإغريقية «هيبتابيغون»، التي تعني «الينابيع السبعة». فثمة في المكان بعض الينابيع الكبريتية التي اشتهرت مياهها في تلك الأزمنة كوسيلة لعلاج الأمراض الجلدية، ويرد ذكر واحد من تلك الينابيع الذي تعد مياهه عالية الإشعاع فعلاً، في الحكايات القديمة: في مياه هذا الينبوع شفي أيوب من أمراضه كلها.



معبد بني على جبل الطوبى

لكن الطابغة مدينة بشهرتها أكبر المديونية للحكاية التي ترتبط بتاريخ المسيحية: وفق واحدة من روايات الحكاية التي شاعت في القرون الميلادية الأولى، أن معجزة تكثير الخبز والسمك قد حدثت هنا بالذات، وتخليداً لذكرى الحدث شيدت هنا في القرن ٤م بازيليكا. وقد وصلت إلينا منها الآن بقايا أرضيتها الموزاييكية البديعة الموجودة الآن في



مقطع من لوحة موزاييك في أرض كنيسة زاد الخبزات والسمكات في الطابغة

كنيسة الطابغة الجديدة ويمثل هذا الموزاييك تصاوير متقنة لحيوانات ونباتات. وتتميز هذه اللوحة الطبيعية بأناقة غير عادية. وفي تبها هنا أسست أخوية الفرنسيسكان ديراً تلاصقه كنيسة القديس بطرس التي تشرف على البحيرة، حيث يحكى أن يسوع ظهر لتلاميذه للمرة الثالثة بعد قيامته.

عين كرم

قرية صغيرة ضُمّت إلى مدينة القدس في العام ١٩٦١. وحسب الكتاب المقدس أن القرية مسقط رأس القديس يوحنا المعمدان. لكن المكان كان قد عرف قبل ذلك، حدثاً تاريخياً مهماً آخر: زيارة ماريا لقريبتها أليزابيت. وتخليداً لذكرى ذلك اللقاء بين الوالدتين، شيدت هنا في العام ١٩٣٩ كنيسة الزيارة (شيدها أنطونيو بارلوتسي).

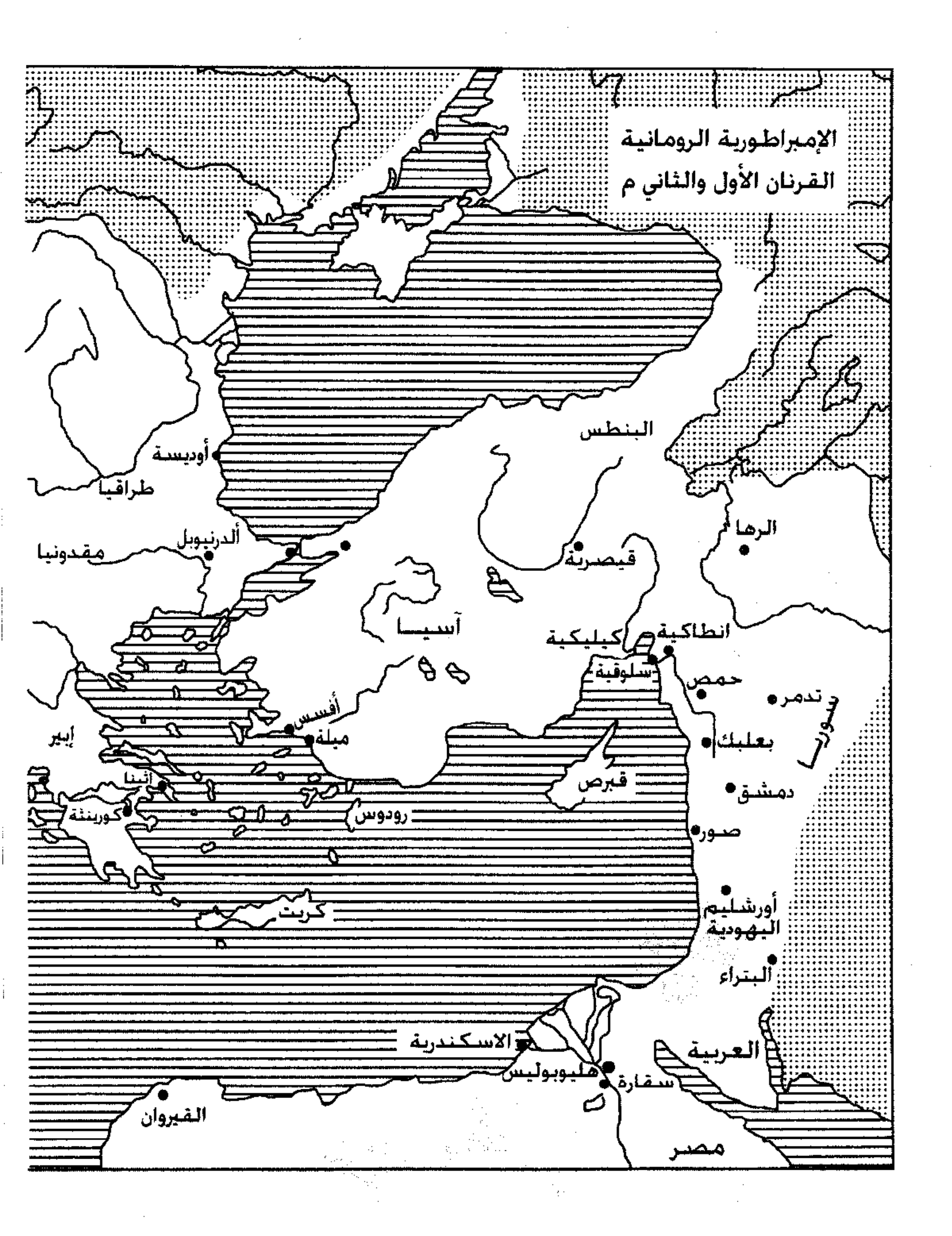


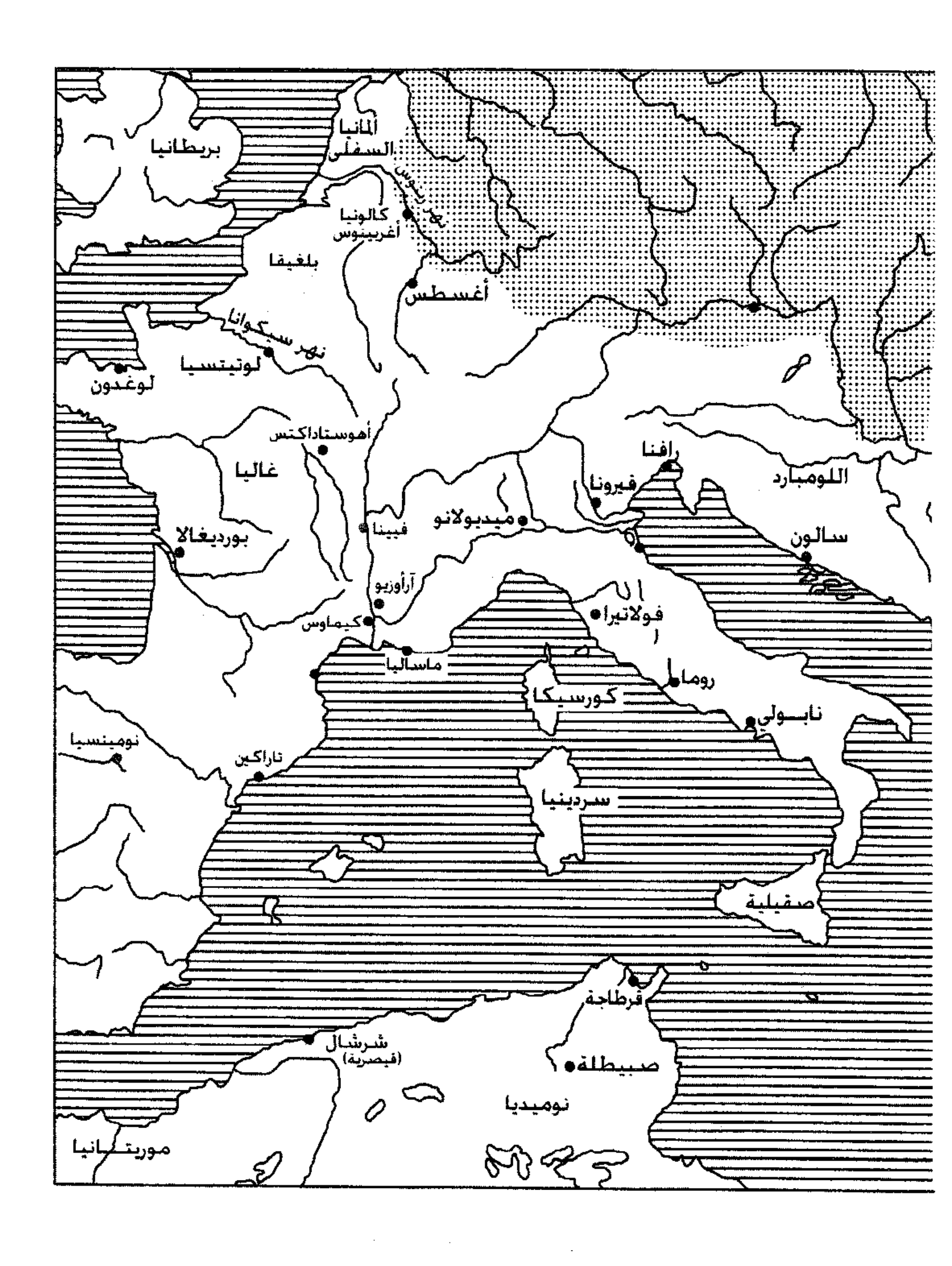
منظر للمغارة التي ولد فيها يوحنا المعمدان

وشيد الفرنسيسكان ديراً لهم على المكان الذي كان يقوم عليه منزل زكريا وأليزابيت: يرقى تاريخ بنائه إلى القرن ٥م، وفيما بعد حوله العرب إلى إسطبل لخيولهم، بيد أنه أعيد ترميمه من جديد. وتقع في مصلى الدير مغارة بينيديكتوس التي يزعم أن المعمدان ولد فيها. وثمة صفيحة مرمرية هناك تذكر بالحدث بكلمات لاتينية تترجم بمعنى «هنا ولد بشير الرب».

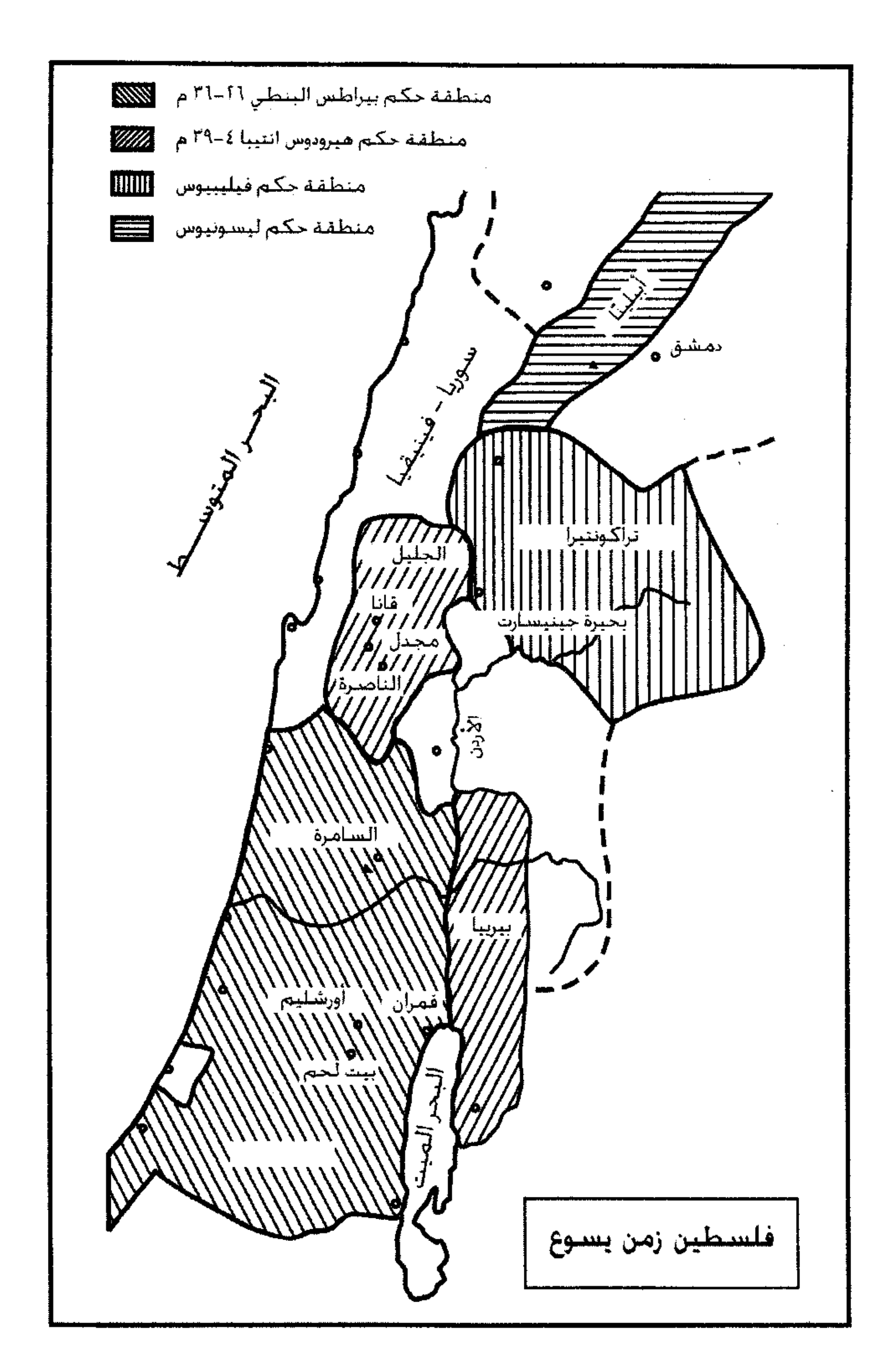


في هذا المكان عمد المسيح على يدي يوحنا المعمدان


الإمبراطورية الرومانية
القرنان الأول والثاني م
البنطس
أوديسة
طراقيا
ألدرنبوبل
مقدونيا
قيصرية
الرها
آسيا
انطاكية
كيليكية
سلوقية
حمص
تدمر
سوريا
أفسس
ميلة
إبير
بعلبك
أثينا
قبرص
دمشق
كورينثة
رودوس
صور
كريت
أورشليم
اليهودية
البتراء
الاسكندرية
العربية
هليوبوليس
سقارة
القيروان
مصر



ألمانيا السفلى
بريطانيا
كالونيا أغريبينوس
بلغيقا
أغسطس
نهر سيكوانا
لوتيتسيا
لوغدون
أهوستاداكتس
غاليا
بورديغالا
فيينا
ميديولانو
فيرونا
رافنا
اللومبارد
سالون
آرأوزيو
كيماوس
ماساليا
فولاتيرا
روما
كورسيكا
نابولي
نومينسيا
تاراكين
سردينيا
صقلية
قرطاجة
شرشال
(قيصرية)
صبيطلة
نوميديا
موريتانيا


منطقة حكم بيراطس البنطي ٢٦-٣٦ م
منطقة حكم هيرودوس انتيبا ٤-٣٩ م
منطقة حكم فيليبوس
منطقة حكم ليسونيوس
أبيلينا
دمشق
سوريا - فينيقيا
البحر المتوسط
تراكونتيرا
الجليل
قانا
مجدل
الناصرة
بحيرة جينيسارت
الأردن
السامرة
بيريا
أورشليم
قمران
بيت لحم
البحر الميت
فلسطين زمن يسوع

الفهرس

ملحق النصوص

مقاطع من أناجيل مجهولة

الأماكن المسيحية في فلسطين

من منشورات دار علاء الدين

- الوجه الآخر للمسيح

فراس السواح

- موسوعة تاريخ الأديان ١-٥

فراس السواح

- السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية

جان كلود مارغرون

- تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود

فراس السواح

- دين الإنسان

فراس السواح

- آرام دمشق وإسرائيل

فراس السواح

- الأسطورة والمعنى

فراس السواح

- الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم

فراس السواح

- الرحمن والشيطان

فراس السواح

- لغز عشتار

فراس السواح

- مغامرة العقل الأولى

فراس السواح

- سحر الأساطير

د.فـ البيديل

- أسرار الآلهة والديانات

أ. س. ميغوليفسكي

- أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة

س. بريوشينكين

- أساطير في أصل النار

جيمس فريزر

- نقد النص التوراتي ١

د. إسماعيل ناصر الصمادي

- التأريخ التوراتي والتاريخ ٢

د. إسماعيل ناصر الصمادي

- التأريخ التاريخي ما بين السبي البابلي وإسرائيل الصهيونية ٣

د. إسماعيل ناصر الصمادي

- سلسلة الأساطير السورية ديانات الشرق الأوسط

رينيه لابات

- الحضارات القديمة ١-٢

فـ دياكوف / س. كوفاليف

- المصادر التاريخية العربية في الأندلس

لـ بويكا

- معجم الأساطير

ماكس شابيرو ، رودا هندريكس

- كليوباترا وعصرها

مجموعة من المؤلفين

- الفكر الإفريقي

محمد الخطيب

- الديانة الزرادشتية مزديسنا

نوري إسماعيل

- الديانة الفرعونية

واليس بدج

- السريان المسيحيون المسلمون

سمير عبده

- السريانية العربية الجذور والامتداد

سمير عبده

- المسيحيون السوريون خلال ألفي عام

سمير عبده

- المسيحيون السوريون قديماً وحديثاً

سمير عبده